يسرى
مارديني

الفراشة

من لاجئة إلى أولمبيّة

حكايتي مع الإنقاذ والأمل والانتصار

ترجمة: إبراهيم قعدوني

مكتبة

الفراشة

من لاجئة إلى أولمبيّة، حكايتي مع الإنقاذ والأمل والانتصار

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

الفراشة: من لاجئة إلى أولمبيّة، حكايتي مع الإنقاذ والأمل والانتصار

Butterfly: From Refugee to Olympian, My Story of Rescue, Hope and Triumph

تأليف: يسرى مارديني و جوسي لوبلوند

YUSRA MARDINI with Josie Le Blond

ترجمه عن الإنكليزية: إبراهيم قعدوني

صورة الغلاف: Thomas Duffé ©

تصميم الغلاف: فادي العساف

ISBN: 978 - 9933 - 641 - 18 - 4

الطبعة الأولى: 2020

telegram
@soramnqraa
7 3 2023

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/
هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
twitter.com /AdwanPH fb.com /Adwan.Publishing.House

© Yusra Mardini 2018
«First published 2018 by Bluebird an imprint of Pan Macmillan,
a division of Macmillan Publishers International Limited»

يسرى مارديني و جوسي لوبلوند

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

الفراشة

من لاجئة إلى أولمبيّة، حكايتي مع الإنقاذ والأمل والانتصار

ترجمه عن الإنكليزية:
إبراهيم قعدوني

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق.

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

المحتويات

القارب..7

الجزء الأول: الشرارة 11

الجزء الثاني: الربيع 35

الجزء الثالث: القذيفة 69

الجزء الرابع: البحر........................ 105

الجزء الخامس: الفخّ........................ 181

الجزء السادس: الحلم 267

الجزء السابع: العاصفة 327

الجزء الثامن: الحلقات الأولمبية 365

الصوت 393

كلمة شكر........................ 401

القارب

telegram @soramnqraa

أغطُس في المياه المتلألئة، «يُسرى! بربّك ما الذي تفعلينه؟». أتجاهل أختي لأُواري رأسي تحت الأمواج، يطغى هديرُ البحر على نبضاتِ قلبي، سترة النجاة مشدودةٌ إلى صدري، أخترقُ سطح الماء فيما تنطلقُ دعواتٌ قانطةٌ من القارب في الأعلى.

أجذب الحبْل، وألمح الشاطئ، وتلوح أوروبّا في الأفق، وها هي الشمس تنزلق صَوبَ الجزيرة، وتعصفُ الرياح، ويبكي المسافرون ويصرخون، بينما يأخذ القارب بالدوران في عُباب الموج. يحاول الأفغانيّ عبثاً شدَّ حبلِ تشغيل المُحرّك، لكنّه يهْدر من دون أنْ يدور؛ لقد انتهى أمْره، نحن الآن وحْدنا تحت رحمة البحر الهائج.

يتراءى وجْه الصبيّ بين الركّاب المُحتشدين على متْن القارب، يشفّ ثغره عن ابتسامةٍ واسعةٍ، يظنّها لعبةً، فهو لا يعرف شيئاً عن أولئك اليائسين الذين قضوا هنا: الأمّهات وأطفالهنّ، والشيوخ، والعجائز، والشباب الأشدّاء، والآلاف الذين لمْ يسبق لهم الوصول إلى الشاطئ، والذين كابدوا لساعاتٍ من دون جدوى حتّى ابتلعهم البحر. أُبقي عينَيَّ مغمَضتَين ومشدودتَين لأتغلّب على الهَلع المتزايد، وأسْبح، بإمكاني أنْ أسْبح، بإمكاني إنقاذ الصبيّ.

تتراءى أمامي وجوه: أمّي، وأبي، وأختي الصغيرة، وموكبٌ من الانتصارات والهزائم، والمواقف الحَرِجة التي بالكاد أتذكّرها، وأشياء أودّ أنْ أنساها؛ أبي يُلقيني في الماء، رجلٌ يعلّق ميداليّةً حَوْل عُنقي، دبّابةٌ تصوِّب فوّهتها نحو الهدف، زجاجٌ يُهشّمُ على الرصيف، قذيفةٌ تخترق السقف.

عيناي ترفّان، إلى جواري تحدِّق شقيقتي بتجهُّمٍ في القمّة الشاهقة من المياه المائرة، يحزُّ الحبلُ باطن كفّيَّ، فيما يسحب البحر ملابسي ويشفطها، تئنُّ أطرافي تحت وطأةِ الوزن. تماسَكي، ابقَيْ على قيْد الحياة.

ترتفع موجةٌ أُخرى فيما تطوِّق المياه الداكنة القارب من الخلف، أتأهّبُ بينما نعلو، ونهبط، وننجَرف، وندور. ليس البحر بمسبَح، فلا حوافَّ هنا، ولا أرضيّة، وما مِن حدودٍ لهذه المياه سوى التِّيه والمجهول.

يتقدّم الموج بلا هوادةٍ مثل جيشٍ زاحفٍ، وتغطُّ الشمس على نحوٍ أسرع الآن لملاقاة قِمم الجزيرة، ويبدو الشاطئ بعيداً أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ويلتمِع الماء بلونه الأرجوانيّ الداكن، فيما تبرق ذُرى الموج بصُفرةٍ قشديّةٍ في الضوء المتلاشي.

كيف بلغت الأمور هذا الحدّ؟ متى صارت حياتنا بهذا الهوان؟ المخاطرة بكلّ شيء، ودفْعُ ثروةٍ لركوب زورقٍ مُكتظٍّ، والمخاطرة في البحر! أهذا هو السبيل الوحيد؟ الطريقة الوحيدة للهروب من القذائف في الوطن؟ يفورُ الزبَد ويَمور، وقِمم المياه المتقلّبة تلطمُ رأسي بطرف القارب، والمياه المالحة تلسع عينَيّ، وتملأ فمي وأنفي، وتسوطُ الريحُ رأسي بشَعري المتطاير، ويزحف البرْد على جسدي، ويسْري في القدَمَين والرّبلَتين وصولاً إلى عظامِ فخذَيّ، بإمكاني أنْ أشعر بالشلل يتملّك ساقَيّ.

- يُسرى! عودي إلى القارب.

أُحكِمُ قبضتي على الحبْل، لنْ أدَع أختي تفعل هذا بمفردها، لنْ يموت أحدٌ على مرأى منَّا. نحن آل الماrديني، نحن نُجيدُ السباحة.

الجزء الأول

الشرارة

1

بدأتُ السباحةَ قبْل أنْ أبدأ المشي؛ كان والدي عِزَّت، وهو مدرّب سباحة؛ يضعني في الماء فحَسْب، وكنتُ أصغر من أنْ أستطيع استعمال عوّامات الذراعين، لذا كان والدي يُزيل المَشبَك البلاستيكيّ عن الماء الفائض فوق فتحة التصريف عند حافّة المسبح، ويُلقيني في المياه قليلة العُمق.

- «هنا، حرِّكي ساقيكِ هكذا». يقول أبي، فيما يؤدّي بيديه حركة التجديف. أخبط بساقَيّ إلى أنْ أُفلِح في تعلّم الرفْس، وفي كثيرٍ من الأحيان ينال منّي التعب بينما يُهدهِدُني دفءُ الماء المتلاطم كي أغفو، لكنّ أبي لا ينتبه إلى ذلك، فهو منهمكٌ بالصراخ، وإعطاء التعليمات لأختي الكُبرى سارة. لمْ تختَر إحدانا السباحة، ولا نذكر كيف بدأ الأمر، فما نعرفه كلّه أنّنا نسبح، وهكذا كنّا دائماً.

أنا طفلةٌ لطيفةٌ، ببشرةٍ فاتحةٍ، وعينَين بنيّتين واسعتَين، وشَعرٍ داكنٍ طويلٍ، وقوامٍ صغيرٍ وأنيق. شديدة الخجل، وقلّما أتكلّم، ولا أشعر بالسعادة إلّا حينما أكون برفقة أمّي ميرفت، حتّى إنّني أتبعها حين تذهب إلى الحمَّام، وأنتظرها في الخارج إلى أنْ تنتهي، وإذا حاول أشخاصٌ بالغون التحدّث إليّ، فإنّني أرمقهم بصمت.

في مُعظم عُطَل نهاية الأسبوع نقصد بيت جدّي في المدينة، جدّتي يُسرى، التي سُمّيتُ باسْمها، أشْبَه بأمٍّ ثانيةٍ لي، أختبئ خلفَ ثنايا عباءتها الطويلة بينما يحاول جدّي أبو بسّام أنْ يرشيني بالحلويات؛ ليجعلني أبتسم، لكنّني لا أسقط في الفخّ، لذا فإنّه يناكِفني، ويَصِفني بالقطّة الجبانة.

تكبرني سارة بثلاث سنوات، وهي نقيضي تماماً؛ لا يمكن لأحدٍ إسكاتها، تتحدّث دوماً مع الكبار، حتّى أولئك الغرباء في المحالّ التجاريّة، وتجدها تثرثر معهم بلغةٍ مصطنَعةٍ، كذلك تحبّ سارة مقاطعة الجلسات بالوقوف على أريكة الجدّة، والثرثرة بكلامٍ غير مفهومٍ، وهي تلوّح بذراعيها كما لو أنّها تُلقي خطاباً، وحين تسألها أمّي ما الذي تُثرثر به، تقول سارة: إنّها تتحدّث الإنجليزيّة.

نحن عائلةٌ كبيرةٌ، لدى أمّي وأبي ما مجموعه أحد عشر أخاً وأختاً، فضْلاً عن أبناء العمومة، نقطنُ في منطقة السيّدة زينب، وهي بلدةٌ تقع جنوب العاصمة دمشق؛ أمّا شقيق أبي الأكبر غسّان، فيقطن في المبنى المقابل لنا، ويأتي أطفاله، أبناء عمومتنا، ليلعبوا معنا كلّ يوم.

السباحة شغف الأُسْرة، ويتوقّع أبي منّا مشاطرة هذا الشغف. تدرَّب إخوة أبي جميعاً على السباحة منذ الصّغر، وقد مثّل أبي سوريا في السباحة حين كان مراهقاً، لكنّه اضطرّ إلى التوقّف بعد استدعائه للخدمة العسكريّة الإلزاميّة، وعندما وُلدت سارة عاد إلى المسبح مُدرِّباً. دائماً ما كان لدى أبي إيمانٌ عميقٌ بمهارته الذاتيّة، وفي أحد الأيّام، قبْل ولادتي، ألقى سارة الرضيعة في حَوْض السباحة لإثبات مدى جودة تدريبه، لقد أراد أن يُظهر للآخرين أنّ باستطاعته تعليم السباحة حتّى لابنته الرضيعة. نظرت أمّي برُعبٍ وصمتٍ، وهو يُخرج سارة من الماء مرّةً أُخرى.

في فصل الشتاء الذي بلغتُ فيه الرابعة من عُمري، حصل أبي على

وظيفةٍ في مُجمّع تشرين الرياضيّ في دمشق، مقرّ اللّجنة الأولمبيّة السوريّة. سجّلَنا أبي أنا وسارة؛ للتدرّب على السباحة، وقد رتّب مع مدرّبٍ آخر ليقوم بتدريبي، فيما يركّز هو على تدريب سارة ذات السبعة أعوام. أتدرّب ثلاث مرّاتٍ في الأسبوع في المسبح الأولمبيّ المُخيف. المصادر الرئيسة للضوء هي نوافذُ طويلةٌ واطئةٌ تمتدّ على ثلاثة جوانب من المبنى، وفوق الزجاج ثمّة ستائرُ معدنيّةٌ ثابتةٌ تحجب أشعّة الشمس الساطعة، وعلى إحدى تلك الستائر، بجانب لوحة النتائج، عُلّقت صورةٌ كبيرةٌ للرئيس السوريّ بشار الأسد.

المسبح باردٌ دوماً، لكنّني سرعان ما اكتشفت أنّ كَوْني صغيرةً، وخجولةً، وجميلةً، أمرٌ له حسناته أيضاً. سرعان ما أصبح مدرّبي الجديد مولَعاً بي؛ صار خاتماً في إصبعي.

– «بردانة!». أقول بشفتَين ترتجفان، وأنا أحدّق في المدرّب بعينَين واسعتَين بريئتَين. «ماذا يا حلوتي؟». يسأل المدرّب: «بردانة؟ ما رأيكِ أنْ تأخذي منشفتك وتذهبي للتشمُّس قليلاً، ها، ما رأيكِ يا صغيرتي، هل أنت جائعةٌ؟ ما رأيكِ لو أحضرنا بعض الكعك؟».

في أشهُر الدلال الأربعة التي تلَتْ، نادراً ما نزلتُ إلى المسبح، لكنّني لا أستطيع الهروب من أبي؛ في أحد الأيّام، مررتُ به بعد التدريب، المسبح فارغٌ، وأبي يستعدّ لجلسته القادمة، جاءت أمّي لاصطحابنا كالمعتاد، وهي تنتظر بهدوءٍ على كرسيٍّ بجانب المسبح، تقع أنظار أبي عليَّ قبْل أنْ أتمكّن من الوصول إليها.

«يُسرى!». يناديني: «تعالي إلى هنا».

أشدُّ منشفتي على كتِفيَّ، وأهْرع نحوه، وما إنْ أُصبِح في متناول يديه حتّى يسحب المنشفة عنّي ليرفعني، ويقذف بي إلى الماء، أُصارع للوصول

إلى سطح الماء لاهثةً لتنشُّق الهواء، ذراعاي وساقاي تخبُط في حالةٍ من الذُّعْر، هذا ما جنَيتُه من أربعة أشهرٍ من الاستلقاء تحت أشعّة الشمس، وتناول الكعك، لا سبيل إلى إخفاء ذلك عن أبي؛ لقد نسيت كيف أسْبح. يتردَّد صدى لعناتِه في أرجاء الصالة، ويرنُّ في أذُنَيّ، أكابِد للوصول إلى الحافّة، وأُمسِكُ بها، ولا أجرؤ على النظر إلى أعلى.

- «ما الذي فعلتِه؟». يصرخ أبي: «ما الذي كنتِ تفعلينه بحقّ الجحيم؟».

أجُرُّ نفسي خارج المسبح، وأقف على قدمَيّ، وأُجبِر نفسي على النظر إليه، يا لها من غلطة! كان يسير نحْوي، وجهه يشتعل غضباً، فوصل إليّ في خطواتٍ قليلةٍ، أُحدِّق في البلاط متأهّبةً لعقابي، ينحني نحْوي: «ما خطبُكِ؟». يصرخ أبي: «ما الذي فعله هذا المدرّب؟».

يهزّ أبي كَتفَيّ بقوّةٍ، ويُعيدني على جناح السرعة إلى المسبح، أرتطم بالماء على ظهري، أطفو على السطح، أنفي ممتلئٌ بالكلور، وعيناي مذهولتان، أُغمغِمُ وأرفرِف مثل سمكةٍ عالقةٍ في صنّارةٍ، أخبُط وأغرفُ شاقّةً طريقي إلى الحافّة، وأتشبّث بها، والعيون مثبّتةٌ على الماء الراقص.

- «هيّا أُخرجي!». يصرخ أبي: «أُخرجي من الماء على الفَوْر!».

أسحَب نفسي خارج المسبح، وأتراجع إلى الخلْف بسرعةٍ، تاركةً مسافةً قصيرةً بيننا، أراقب بحَذرٍ، بينما ينظر أبي كأنّه على استعدادٍ للقيام بهذا طيلة اليوم؛ للمرّة الثالثة، أو الرابعة، أو العشرين حتّى أستطيع السباحة مرّةً أخرى. يقترب نحْوي من جديد، فأُلقي نظرةً متوسّلةً نحو أمّي، تجلس بلا حراكٍ، وتحدّق بنا من طرف المسبح، لا يمكن تفسير تعابير وجهها، لا تقول شيئاً، فالمسبح مملكتُه.

- عزَّت! هل جُننت؟

أخاطرُ باختلاس نظرةٍ خاطفةٍ، إنّه عمّي حسام، شقيق أبي الأصغر، مخلِّصي.

- «بحقّ الله، ما الذي تفعله؟». يصرخ حسام، وهو يدور حَوْل المسبح قادماً باتّجاهنا. أنظرُ إلى أبي، ما يزال وجهه محمراً متوهّجاً، لكنّه يبدو الآن مشوّشاً في منتصف غضبَتِه، هذه فرصتي، أهْرع إلى أمّي، وأندسُّ بين أرجُل كرسيّها، أسحبُ تنّورتها الطويلة إلى الأسفل لتُخبّئني. تبدو جَلَبة المسبح بعيدةً بما يبعث على الارتياح الآن. تُحرّك أمّي مقعدها قليلاً، سأكون في مأمَنٍ هنا إلى أنْ تهدأ ثورةُ أبي.

بعد هذه الواقعة، لمْ يتركني أغيب عن نظره قطّ، ولمْ يخاطر بأنْ يترك أحدهم يُفسدني، فأنا ابنته، وسوف يكون عليَّ أنْ أسبح سواء أعجبني ذلك أم لا. لقد حشرني في عوّاماتٍ قابلةٍ للنفخ، ووضعني في المسبح مع الفئة العُمريّة لأختي سارة؛ حيث أعومُ في إحدى زوايا المسبح في أثناء حصّة تدريب هذه الفئة. لمْ يكن السبّاحون الأكبر سنّاً يُظهِرون أيّة شفقةٍ نحْوي، كانوا يدفعونني، ويغمِسونني في الماء، وسُرعان ما تعلّمتُ إمّا أنْ أدفعهم بعيداً عن طريقي، وإمّا أنْ أغطس عميقاً بينما يشقّون طريقهم من فوقي. كان أبي يُفرِغ عوّامات الذراعَين شيئاً فشيئاً، حتّى أتمكّن من السباحة مرّةً أُخرى.

في ذلك الصيف، انتقل عمّي غسّان وعائلته إلى داريّا، إحدى ضواحي دمشق التي تقع على بُعد ثمانية كيلومتراتٍ إلى الجنوب الغربيّ من مركز المدينة، قررّ أبي وأمّي أنْ يحْذوا حَذْوهُما. انتقلنا إلى منزلٍ كبيرٍ على طريقٍ طويلةٍ مستقيمةٍ، تُشكّل الحدّ الفاصل بين داريّا وبين منطقةٍ أُخرى هي المعضميّة، تقع إلى الغرب من داريّا.

حصلنا أنا وسارة على أكبر غرفةٍ في الجزء الأماميّ من المنزل،

غرفة مغمورة بالضوء دائماً؛ إذْ إنَّ جدارها الخارجيّ مصنوعٌ بالكامل من الزجاج. كانت غرفة أمّي وأبي أصغر، يتوسّطها سريرٌ عتيقٌ أبيضُ كبيرُ الحجم، وهو هديّةٌ من جدّي وجدّتي. كنّا أنا وسارة قد شوّهناهُ بالرسم عليه بمكياج أمّي، وكان من ضمن الألعاب المفضّلة لدينا صنعُ كومةٍ كبيرةٍ من ملابس أمّي على الأرض، والجلوس فوقها مثل ملكات القلعة. قضيت الكثير من الوقت على الشرفة أنظر نحْو الأسفل إلى الشارع المزدحم، أو إلى أعلى أسطُح المنازل، وإلى المآذن المدبّبة في العديد من المساجد في المنطقة.

لمْ يكن والداي مُسلِمَين متزمّتَين، إلّا أنّني نشأتُ على معرفة الأصول، علَّمانا أنْ نحذو حذْوهما، والأهمّ من ذلك، علّمانا أنّ المسلم الصالح يُبدي الاحترام، علَّمانا احترام من يكبروننا سنّاً، والنساء، وأولئك الذين ينتمون إلى ثقافاتٍ ودياناتٍ أُخرى، واحترام الأمّ، واحترام الأب، لا سيّما إذا كان مدرّب سباحتك أيضاً! يحبّ أبي أنْ يفصل بين الدَوْرَيْن، في المسبح، ينبغي أنْ نناديه بلقب كابتن؛ أمّا في المنزل، فيمكن أنْ نناديه: بابا، لكنْ من الناحية العمليّة، يظلّ هو الكابتِن. لا يتوقّف التدريب أبداً، كان الخوف يتملّكني ما إنْ يأتي يوم الجمعة؛ اليوم الأوّل في عطلة نهاية الأسبوع لدينا، وفي كلّ أسبوعٍ، ينتظر أبي حتّى نسترخي على الأريكة ليندفع إلى غرفة الجلوس مُصفِّقاً بيديه: «هيّا يا بنات!». يقول: «أحْضِرْن مطّاطات شدّ الأكتاف لندرّب أكتافكنّ».

نتهض متثاقلتين للعثور على المطّاطات المَرنة الطويلة، يثبّتها أبي إلى نافذة غرفة الجلوس لنبدأ العمل. أفضل جزءٍ في خطّة أبي التدريبيّة هو عندما نشاهد الألعاب الرياضيّة في التلفاز، نجلس لمتابعة بطولة العالم للألعاب المائيّة، وألعاب القوى، وبطولات التنس الأربع الكبرى جميعها،

فضْلاً عن دوْري أبطال أوروبّا. أصبحتُ من عشّاق نادي برشلونة، لا يضيّع أبي ثانيةً من وقت البثّ التلفزيونيّ، وهو يُشير إلى الاختلافات الدقيقة في تقنيّات السبّاحين في أثناء مشاهدته، كما أنّه معجبٌ بالأسلوب الفرديّ للاعبي كرة القدم، ويمتدح لاعبي التنس عندما يطحنون خصومهم، ويزدريهم عندما ينهارون تحت الضغط. نجلس ونومئ برؤوسنا في صمت.

في الصيف الذي بلغتُ فيه السادسة من عُمري، شاهدنا المنافسات الختاميّة لدورة أثينا للألعاب الأولمبيّة عام 2004، وكانت نهائي سباق 100 متر سباحة فراشة للرجال. «انظروا إلى الحارة الرابعة». يقول أبي: «مايكل فيلبس! الأمريكيّ».

يسود صمتٌ حذِرٌ في غرفة المعيشة، يعْلو صوتُ بوقِ سيّارةٍ، وينطلق ثمانية سبّاحين كالسهام في المسبح، وتُظهر الكاميرا من تحت الماء فخذَيْ فيلبس يموجان، وساقيه الطويلتَين وكاحلَيه يخبطان الماء من خلفِه، يندفع السبّاحون إلى السطح فيما يشبه انفجاراً من المياه البيضاء، يبعد فيلبس نحْو مترٍ تقريباً خلْفَ منافسه إيان كروكر؛ يبدو أنّ آماله تلاشَت.

يرتدُّ كتِفا فيلبس الهائلان إلى الخلْف، وتهوي كتلتُه إلى الأسفل، ويتطاير الماء بينما يدور فيلبس متقلّباً رأساً على عقبٍ مثل طاحونةٍ هوائيّةٍ، يندفع إلى سطح الماء مرّةً أُخرى، لكنّه لا يزال متخلّفاً عن منافسه؛ لنْ يفوز. أربعون متراً، ثلاثون متراً، خمسة وعشرون متراً متبقّية، يبدأ فيلبس بمضاعفة سرعته، ها هو يتفوّق على كروكر!

تتّسعُ عيناي، يتقدّم فيلبس، ويتقهقر، ويُعيد الكَرَّةَ. هيّا، هيّا! ألتقط أنفاسي، اقتربَت النهاية: ثلاثة، اثنان، واحد، فيلبس وكروكر يضربان لوحة اللّمس، إنّه فيلبس! لقد انتزع الميداليّة الذهبيّة من كروكر، لقد فاز بفارق أربعين ميلي-ثانية.

أُحملِقُ في الشاشة بذهول، يقف أبي ملوّحاً بقبضته في الهواء، يستدير نحونا:

- «أرأيتم؟».

على الشاشة، ينزع فيلبس نظّارة سباحته مُحدِّقاً في لوحة النتائج، يرفع ذراعيه عالياً للاحتفال بالنصر، أنظُر إلى الشاشة بعُبوس، أتملّى وجْهه، وأتساءل ما إذا كان هذا الإحساس يجعل الأمر يستحقّ هذا العناء كلّه، وهذا الألم كلّه، والتضحية من أجل لحظةٍ واحدةٍ من المجْد.

لمْ أخْترْ أنْ أكون سبَّاحةً، ولكنْ منذ تلك اللّحظة فصاعداً سأصبح مُدمنة سباحة. تشتعل نفسي طموحاً، أشُدُّ قبضتي، لمْ أعد آبَهُ بما يتطلّبه الأمر، سوف أحْذو حَذْوَ فيلبس إلى القمّة، إلى دورة الألعاب الأولمبيّة، إلى الميداليّة الذهبيّة، أو الاستماتة في المحاولة.

2

يريدنا أبي أنْ نكون السبَّاحات الأفضل؛ الأفضل في العالم على الإطلاق، وهو مستعدٌّ لبذْل كلّ شيءٍ في سبيل ذلك. توقّعاته فلكيّة، وهو يتوقّع مِنّا مواكبة هذه التوقّعات. أبدأ الدراسة الابتدائيّة بعد أسابيع قليلةٍ من فوز فيلبس الخارق في أثينا، تقع المدرسة في منطقة المزّة، غرْب دمشق، في ساحةٍ تضمّ مدرسةً ثانويّةً مجاورة. ما عليَّ فعله كلّه للوصول إلى المدرسة هو السيْر بين الأبنية، يبدو من أوّل درجةٍ أنّ السلّم سيكون طويلاً. ذات مساءٍ، بعد بدْء الفصل مباشرةً، أجلَسَني أبي، وقال: «يُسرى، بدْءاً من الغد ستكونين سبّاحةً محترفةً؛ سوف تتدرّبين كلّ يومٍ لمدّة ساعتين من الآن فصاعداً، وسوف تنضمّين إلى فريق شباب دمشق مع أختك، هل تفهمين؟».

أومئ له موافِقةً؛ في الواقع، كان ذلك أمراً، وليس طلباً. تتشنَّجُ معدتي من الإثارة والرهبة، أرى درجات سُلَّم السباحة تمتدّ أمامي مثل مباني المدرسة، لقد وصلت إلى فريق شباب دمشق. الخطوة التالية هي المنتخب الوطنيّ السوريّ؛ حيث سأبدأ تمثيل بلادي في المسابقات الدوليّة، من هناك، ستكون الألعاب الأولمبيّة قاب قوسَين.

ها قد صرتُ على قدم المساواة مع سارة في روتينها الصارم، جعلَنا

أبي نعيش حياة الجنود؛ تبدأ المدرسة في وقتٍ مبكّرٍ، وتنتهي وقت الغداء، ولكنْ بالنسبة إلينا فإنّ العمل لا يكون قد انتهى بعْد، فأبي ينتظرنا كلّ يومٍ على باب المدرسة ليأخذنا إلى المسبح، وفي بعض الأيّام لا أكون في مزاجٍ مناسبٍ للذهاب للسباحة بعد المدرسة، لكنّ أبي يقمع احتجاجي بنظرةٍ واحدةٍ، وحين نكون في السيّارة يحظُر الموسيقا وأيّ كلامٍ لا علاقة له بالسباحة، فيحاضر فينا حَوْل التقنيّات والتدريبات حتّى نحفظ محاضراته جميعها عن ظهْر قلب، وفي كلّ يومٍ تُلاقينا أمّي في المسبح، وتشاهد حِصَصَنا التدريبيّة من منصّةِ المتفرِّجين.

في أحد الأيّام، كان أبي ومدرّبٌ آخر يمدّدان أكتاف سارة قبْل التدريب، تجثو سارة على رُكبتيها، بينما يسحبانِ مِرفقيها المطويّين وراء رأسها، كلانا نكْره هذا التمرين؛ لأنّه يسبب الألم أحياناً، إلاّ أنّه يساعد في جعْل الكتفين مَرنين، ويعملان بكفاءة.

يُذكّرنا أبي مراراً وتكراراً بوجوب أنْ نقف بلا حراكٍ، ولكنْ هذه المرّة، بينما يقوم أبي والمدرّب الآخر بشدِّ المِرفقين، تجفَلُ سارة، وترتعد صارخةً من الألم، إنّها تتألّم! لذلك يصحَبها أبي وأمّي إلى الطبيب، وتخضع للفحص بالأشعّة السينيّة، ويتبيّن أنّها مصابةٌ بكسْرٍ في الترقوة. تغادر سارة التدريب لعدّة أسابيع، لكنّ أبي لا يرمش له جفْنٌ، فمجرّد حادثٍ واحدٍ صغيرٍ لنْ يمنع بناته من السباحة. عادت سارة إلى الماء في اللّحظة التي تعافت فيها، وأبي لا يرأف بها، يحثُّها على أنْ تعمل بجدٍّ أكثر من ذي قبْل؛ لتعويض الوقت الضائع.

في ذلك الصيف، حضرتُ أوّل معسكرٍ تدريبيٍّ للسباحة، لمْ يكن علينا أنا وسارة أنْ نسافر بعيداً، فقد كان على سبّاحي سوريا الشباب المتميّزين جميعهم أنْ يأتوا إلى دمشق في أيّام العُطل المدرسيّة للتدريب، وكنّا نبقى

مع الآخرين في فندق الرياضيّين بجانب مسبح تشرين. في سنّ العاشرة، كانت سارة بالفعل ترافِق المراهقين في المنتخب الوطنيّ السوريّ؛ أمّا أنا، فكنت خجولةً، لذلك فقد كنت ألتصق بها، وشيئاً فشيئاً، أقنعني الأطفال الأكبر سنّاً بالخروج من قوقعتي، أحدهم، وهو ولدٌ أكبر سنّاً يُدعى إيهاب، يناكِفني وينعتُني بـ«الفأرة الصغيرة».

كان معسكر السباحة هو المكان الذي التقيت فيه رامي لأوّل مرّة، هو من حلب، ولكنّه يأتي إلى دمشق في كثيرٍ من الأحيان للتدريب، عمره ستّة عشر عاماً؛ أيْ: إنّه أكبر منّي بتسع سنوات، لكنّنا أصبحنا صديقَين مدى الحياة. كنتُ أصغر المشاركين في المعسكر، لذلك كان لطيفاً معي دائماً، وكان رامي وسيماً، بوجهٍ منبسطٍ ومتناسقٍ، وشعْرٍ وعينَين بلونٍ داكنٍ، وكانت الفتيات الأُخريات جميعهنّ يشْعرن بالغَيْرة من صداقتنا.

لا يوجد الكثير من السبّاحات الأكبر سنّاً في المعسكر؛ إذْ تؤثِر الكثيرات التخلّي عن السباحة في سنّ البلوغ، كما تُقلِع بعضهن؛ لأنّهن لا يجدن في السباحة مهنةً للمستقبل، أو يقرّرن التوقّف عنها مع دخولهنّ إلى الجامعة، فيما لا تزال الأكثريّة من الفتيات اللّواتي يترُكن السباحة يفعلْن ذلك؛ لأنّه مع هذه السنّ يكون الوقت قد حان لتختار الفتاة المُسلمة ما إذا كانت سترتدي الحجاب والملابس المحتشمة، وتغطّي شَعرها. الحجاب، هي الكلمة نفسها التي نستعملها لغطاء الوجه، وللملابس الإسلاميّة المُحتشمة عامّةً، ولا أحد في سوريا مُجبرٌ على ارتداء الحجاب، والكثير من النساء المُسلمات لا يخترْن ذلك، لا سيّما في المدن، ومن المقبول تماماً للمُسلمة الملتزمة أنْ ترتدي الحجاب، أو لا ترتديه، طالما أنّ ملابسها لا تكشف الكثير من جسدها، وتلك هي النقطة التي تصطدم فيها السباحة مع التقاليد؛ إذْ تصبح المسألة معقّدةً حينما ترتدي الفتاة الحجاب

في أثناء التدريب ببدلة السباحة، فالأمر واضحٌ؛ طالما أنّنا نسبح فلنْ نرتدي الحجاب.

هناك الكثير من الناس لا يفهمون حقّاً ما الذي نفعله في السباحة، فهُم لا يرون العمل الشاقّ والتفاني الذي تتطلّبه السباحة، بلْ إنّ ما يرونه في الأمر كلّه هو ملابس السباحة. يقول الجيران وأولياء أمور الأطفال في مدرستنا لأمّي: إنّهم لا يقبلون بذلك، ويقول بعضهم: إنّ ارتداء ملابس السباحة بعد سنٍّ معيّنةٍ أمرٌ غير مناسبٍ لفتاةٍ صغيرةٍ، لكنّ أمّي تتجاهلهم. في الصيف الذي بلغتُ فيه التاسعة، قرّرت أمّي تعلّم السباحة بنفسها، ونظراً إلى أنّها محجبة، فهي لا تستطيع أن تتعلّم في مسبح تشرين، لذلك كانت تذهب إلى مسبحٍ آخر، وتشارك في دورةٍ صيفيّةٍ للنساء فقط، يشجّعها أبي ليجد نفسه يدرّبها في نهاية المطاف.

لا يبدو أنّ أبي يُلقي بالاً للقيلِ والقال، وقد ذكَر أنّه لنْ يدع شيئاً يعوقنا عن السباحة، وها هو برنامجه التدريبيّ يؤتي ثماره. يريدنا أبي أنْ نثبت أنفسنا في كلٍّ من سباحة السرعة، وسباحة المسافة الطويلة، ونحن نتقدّم بسرعةٍ في سباحة الفراشة، والسباحة الحُرّة. لدى سارة عضلاتٌ رائعةٌ لفتاةٍ في الثانية عشرة من عمرها، ويتبيّن أنّ لها مستقبلاً واعداً، وينتقيها مُدرِّبو المنتخب الوطنيّ السوريّ، ويشعر أبي بسعادةٍ غامرةٍ، لكنّ هذا يعني أنّها لمْ تعد متدرِّبته، بلْ ابنته فقط؛ أمّا أنا، فما أزال الاثنتَين: سبّاحته، وابنته.

في أحد الأيّام، وبعد وقتٍ قصيرٍ من التحاق سارة بالمنتخب، اصطَحب أبي مجموعتي التدريبيّة لزيارة المنتخب في أثناء ممارسة التمارين في صالة الألعاب الرياضيّة، كُنّا ما نزال صغاراً للتدريب مع ذلك الوزن، لذلك كان أبي يشرح لنا التدريبات بينما نشاهدهم يؤدّونها. تحلّقنا حَوْل سلسلةٍ من أجهزة تمرين عضلات الكتفَين، ومن دون سابق إنذارٍ،

أمسكتْ فتاةٌ من مجموعتي التدريبيّة شريط الجهاز الأقرب إليّ، ثمّ سحبته إلى الأسفل، وحين اكتشفت أنّه أثقل ممّا ظنّتْ أفلَتته، انتفض الشريط، وخبَطَني أسفل عيني تماماً، صَرَخت.

- «ما الذي حدث يا يُسرى؟». قال أبي.

تتدحرجُ قطرة دمٍ على خدّي، فتفيض عيناي بالدموع، يمسك أبي بذقني ويرفعها ليتفحّص وجْنتي.

- «لا بأس، لا شيء خطير». يقول: «لا تبالغي».

يشيرُ أبي إلى المجموعة للعودة إلى المسبح لمواصلة التدريب. أقف بجانب منصّة البداية متباكيةً من الصدمة، يبدأ التدريب من جديد، ليس أمامي خيارٌ آخَر، أنزل إلى الماء، الكلور يلذع الجُرح. أتشبّث بحافّة المسبح، فيُنقذني والِدُ أحد الأطفال المتدرّبين في مجموعتي، ويخبر أبي بأنّ عليه اصطحابي إلى الطبيب، يزمُّ أبي شفتيه، يبدو عليه الانزعاج، يلوّح لي بينما أتسلّق خارجةً من الماء، وبعد انتهاء التدريب، يقتادني إلى غرفة الطوارئ حيث يخيط الأطبّاء طرف خدّي الأعلى.

بعد ذلك، أشعر بالخوف من الإصابة، ليس بسبب الألم، ولكنْ لأنّ التدريب لنْ يتوقّف. لا شيء يمكنني فعله لحماية نفسي من أشياء كالتهابات الأُذُن على سبيل المثال، يا لها من معاناة! يشبه الأمر أنْ ينفخ أحدهم بالوناً في رأسي، بإمكاني الحصول على استراحةٍ من المدرسة، لكنْ ليس من السباحة، لا يثق أبي بالأطبّاء، وخصوصاً حينما يطلبون إبعادي عن المسبح. ذات مرّةٍ، كان الألم أشدّ من أيّ ألمٍ عرفته في حياتي، كنت أنتحِب، فيما راحت أمّي تتوسّل الطبيبة التي كانت تهزّ رأسها قائلةً: «إنَّ طبلة الأُذن مثقوبةٌ، لا يمكنها السباحة بأيّ شكلٍ من الأشكال، لمدّة أسبوعٍ على الأقلّ».

أنظرُ إلى أمّي، ترفع حاجبَيها متنهّدة. «هل ستخبرين أبي؟». أسالها، وتجيب قائلةً: «لا يمكنني ذلك، لا أريد أنْ أخبره».

كنت أبكي طوال طريق العودة إلى المسبح، يتملّكني الذُّعر بشأن ما سيقوله أبي حينما يسمع بالخبر، فهو في الانتظار.

– «ما النتيجة؟». يسألنا.

تخبره أمّي، فيستشيط غضباً.

– ما الذي تقولينه؟ أسبوع بحاله؟ سأستشير طبيباً آخر.

عُدنا إلى السيّارة؛ حيث اصطحَبَنا أبي أنا وأمّي إلى طبيب آخر، وقد كشف تشخيص هذا الطبيب عدم وجود أيّة مشكلةٍ، لا طبلة أُذُنٍ مثقوبة، ولا استراحة من السباحة. شعر أبي بالسعادة، لكنّني كنت أسبح متألّمةً، بعد ذلك بمدّةٍ قصيرةٍ، وبينما كنّا أنا وسارة ننتظر الحافلة المدرسيّة صباح أحد الأيّام، سقطتُ فجأةً على وجهي. بقيتُ في البرْد لمدّة ثلاثين ثانية، رآني أبي من شُرفة المنزل، فهرع مُسرعاً إلى الخارج، واصطحبني إلى الطبيب، الأمر مُحيِّرٌ هذه المرّة، يبدو أنّ هناك شيئاً يتعلّق بأُذُنَيّ، أو ربّما عينَيّ. يرسلونني إلى مختصّ بصريّاتٍ يقول: إنّني أعاني من قِصَرٍ في النظر، ومنذ ذلك اليوم فصاعداً سأرتدي إمّا نظارة، وإمّا عدسات لاصقة، لكنّها لا تقيني من التعرّض لنوبات الإغماء المتقطّعة، وفي الوقت نفسه أصابتني بُقع حمراء تسبّب الحكّة في رقبتي. يقول الأطباء: إنّها الصدفيّة، لا مشكلة لدى أبي طالما أنّها لا تؤثّر على السباحة.

قد لا يكون أبي مدرّب سارة، لكنّه يراقبها بحِرْصٍ، تقترب دورة الألعاب العربيّة، وهو يريد لها أنْ تذهب إلى القاهرة مع الفريق السوريّ. لأوّل مرّةٍ، ستشمل الألعاب فعاليّةً للخماسي الحديث(*). يتناهى إلى

(*) الخماسي الحديث أو البنتاثلون، ألعاب رياضية مؤلفة من خمس رياضات: =

مَسْمع أبي أنَّ المنتخب لمْ يعثر بعْد على منافِسةٍ لسباق التتابع المُختلط، يسأل المدرّبون سارة عمّا إذا كانت ترغب في أن تجرّب حظّها في فعاليّات الجرْي، والسباحة، والرماية.

تُمضي سارة الصيف في مجمَّع تشرين، وهي تتدرّب على سباحة المسافات الطويلة، وتتعلّم كيفيّة التصويب على الهدف من مسدّس. ذهبتُ لمشاهدتها عدّة مرّاتٍ، وقد سمحت لي بتجريب المسدّس ذات مرّة، كان السلاح ثقيلاً، وبارداً، وغير عمليّ. لستُ متأكّدةً من أنّه يروق لي! تثبتُ سارة نفسها للمدرّبين، ويأتي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر لتسافر إلى القاهرة مع المنتخب الوطنيّ، تركض بسرعةٍ، وتصوّب بإحكامٍ، وتُزلزِل المسبح، تفوز هي وفريق التتابع بميداليّةٍ فضّيّةٍ، ويساعدان سوريا في الحصول على المركز الخامس في لائحة الميداليّات، وحين عاد الفريق، كاد أبي يطير فرحاً.

- «ربّما تقابلين الرئيس!». يقول لسارة.

في الأسبوع الّلاحق، دعانا مدرِّبو الفريق إلى اجتماعٍ؛ لقد تأكّد الأمر، يودُّ الرئيس بشار الأسد مقابلة الفائزين بالميداليّات جميعهم، وسارة هي أصغرهم جميعاً. تظْفر سارة بيوم عُطلةٍ من المدرسة، لا بلْ إنّها تفوِّت امتحاناً، لكنّها مع ذلك تنال علامةً تامّةً على أيّة حال. عادت من القصر متوهّجة.

- «أخبرينا ما الذي جرى؟». تسألها أمّي.

= الرماية والمبارزة والسباحة والفروسية واختراق الضاحية «الجري». يمارسها لاعب واحد ويؤديها في يوم واحد وهي من أقدم الألعاب الأولمبية. ينال المشترك نقاطاً معينة في كل لعبة وبعد جمع النقاط يحصل صاحب أكبر مجموع من النقاط على المركز الأول. (المترجم).

تجيب سارة مبتسمةً: «انتظرنا في طابورٍ طويلٍ لنُسلِّم عليه، لمْ يكن بوسعي تصديق أنّه حقيقيّ».

- «هل قال لك أيّ شيء؟». تسألها أمّي.

- «أخبرني أنّه فخورٌ بي؛ لأنّني الأصغر سناً». أجابت سارة مضيفةً أنّ الرئيس حثَّها على المثابرة، وأنْ تواصل الفوز، وأنّها سوف تقابله مرّةً أُخرى ذات يوم. «لقد كان مجرّد رجُلٍ لطيفٍ وعاديّ». أضافت سارة.

شعر أبي وأمّي بالفخر؛ فقد كان الاجتماع شرفاً كبيراً لعائلتنا. بعد ذلك عُلِّقت صورةٌ كبيرةٌ لسارة، وهي واقفة فيها مع الرئيس في مدرستنا، أبي أيضاً لديه نسخة مكبّرة في إطارٍ يعلِّقها بفخرٍ على جدار غرفة المعيشة في المنزل.

بعد بضعة أسابيع، أجلستنا أمّي أنا وسارة، وأخبرتنا بأنّها حامل، هزَّني الخبر؛ إذْ لنْ أكون الفتاة الأصغر والألطف بعد اليوم، أبتسم من دون أن أتفوّه بكلمة، وفي شهر آذار/ مارس، وهو الشهر الذي بلغتُ فيه العاشرة من عمري، أنجبَت أمّي طفلةً صغيرةً، ملاكاً صغيراً بعينين زرقاوَين واسعتَين، أسْمَتها شهْد، وكانت عسلاً ذوَّبنا جميعاً، وفورَ ولادتِها شعرتُ بسعادةٍ غامرةٍ لوجود أختٍ صُغرى.

إذا كانت مواقيت سباحتنا هي هَوَس أبي، فإنَّ أكثر ما يشغل بال أمّي هو تحصيلنا الدراسيّ، أنا وسارة نُبْلي بلاءً حسناً في اللّغة الإنجليزيّة، لذلك تقوم أمّي بتوظيف مدرِّسين خاصّين لتشجيعنا، وبدوره عرَّفنا أبي إلى موسيقا البوب الأمريكيّة، وأصبحنا من كبار عشّاق مايكل جاكسون، ندرس كلماته كما لو أنّها نصوصٌ للاختبار، ودائماً ما كانت سمّاعاتنا على الأُذنين، سواء في الطريق إلى المدرسة أم إلى المسبح، أو في السيّارة على الطريق من منزل الجدّة في دمشق إلى داريّا. في بعض الأحيان كنت أسأل

سارة عن معنى الكلمة الإنجليزيّة، وكيفيّة كتابتها، تحتفظ سارة بجهاز حاسبٍ محمولٍ؛ حيث تكتب أسرارها باللّغة الإنجليزيّة كي لا يمكن لأمّي وأبي قراءتها.

في ذلك الصيف، وبين جلسات التدريب، جلسنا أنا وسارة مع أبي لمشاهدة أولمبياد بكّين 2008، أمّي تذْرع المكان جيئةً وذهاباً، وهي تحمل شهْد بين ذراعيها، هذه المرّة، وبسبب فيلبس، طغت السباحة على الألعاب الأُخرى. أُحدّق مصعوقةً، وهو يخطف الميداليّة تِلْو الأُخرى متّجهاً نحو إحراز مستوى قياسيٍّ من اغتنام الميداليّات. لقد جُنَّ جنون العالم، وهو يشاهد فيلبس، وأطلقت عليه الصحافة العربيّة لقب الأسطورة الأولمبيّة الجديدة، وأعظم اللّاعبين الأولمبيّين.

ننتظر جميعنا نهائيّ سباحة 100 متر فراشة للرجال، يتصاعد التوتّر عندما يصرّحُ السبّاح الصربيّ ميلوراد آفيتش قائلاً: إنّه سيحرم فيلبس من ذهبيّته السابعة، يصطفُّ السبّاحون على منصّاتِ الانطلاق، كروكر موجودٌ أيضاً، تنتقل الكاميرا على طول الصف، أراقب الرقبة والذراعين، واو! فيلبس رجُلٌ هائلُ الحجم، بدا الهواء كأنّه مُكهربٌ في غرفة الجلوس، يُصرّ أبي على الصمت المُطلق.

بيب... يندفع السبّاحون إلى الماء، ويظهر آفيتش وكروكر في المقدّمة مع خروج السبّاحين إلى السطح، ها هُما يشقّان الماء، ويخبطان مُندفِعين إلى الأمام، وفي نهاية الطول الأوّل يبدو فيلبس في المرتبة السابعة، فأحبس أنفاسي، وأنتظر حتّى يستجمع قوّته كاملةً، أمامه ثلاثون.. عشرون متراً ليقطعها، يتجاوز فيلبس كروكر، لكنّ آفيتش ما يزال في المقدّمة، واحد، اثنان، واحد، اثنان، هيّا، هيّا!

من المؤكّد أنّ فيلبس يؤخّر الأمر كثيراً. هيّا، انطلق الآن! لِتعدّ بسرعة،

خمسة عشر متراً فقط ويُنهي فيلبس الأمر، ها هو يفعلها! إنّه الآن بمستوى آفيتش نفسه تماماً، يضربان لوحة اللّمس معاً، ويُطلقان صرخةً طويلةً، لا أحد منّا يصدّق ذلك، لقد فعلها، نالَ الذهبيّة بفارق جزءٍ مئويٍّ من الثانية، يصرخ فيلبس، ويخبط الماء بذراعيه الضخمَتَين.

ينهض أبي واقفاً.

- «أترون ذلك؟». يقول: «هذا كلّ ما في الأمر يا بنات، هكذا يصبح المرء بطلاً أولمبيّاً».

نتبادل سارة وأنا الابتسامات.

- «ولكنْ كيف نصل إلى هناك؟». أقول: «كيف نصل إلى الأولمبياد؟».

- «بالعمل الشاق». يجيب أبي، ويعود إلى الشاشة: «بإذن الله، ستصلان إلى هناك ذات يوم، لكنْ إذا لمْ تكن الألعاب الأولمبيّة هي حلمكما، فأنتما لستما رياضيَّتَين حقيقيّتين».

ظلّت سارة لبعض الوقت أصغر نجوم المنتخب السوريّ سنّاً، كانت تسبح بقوّةٍ في كلٍّ من سباقات الفراشة القصيرة، والسباحة الحُرّة الطويلة، إلّا أنّها بدأت تترنّح في الخريف اللّاحق لأولمبياد بكّين، فقد راح مستواها يتذبذب صعوداً وهبوطاً، وبدأ مدرِّبو الفريق يفقدون الاهتمام بها، بدا كأنّها تغيّر المدرّب كلّ أسبوع.

في مجموعة تدريب أبي، كنّا أنا وفتاةٌ أُخرى اسْمها كارول، الأسرعَ بين الجميع. سنصبِح النجمتين المفضَّلتين لدى أبي. سبّاحو المنتخب الوطنيّ جميعهم، بمن فيهم سارة، هُم منافسون بالنسبة إلى أبي، وقد نظَّم منافسة 100 م فراشة وجهاً لوجه بين سارة وكارول.

جمعَنا أبي كلّنا لمشاهدة السباق: المدرّبين، والسبّاحين، وزملاء سارة. في المسبح يصبح أبي شخصاً آخر، يصبح المدرّب، وما إنْ تصعد سارة

وكارول منصّة البداية حتّى لا تعود سارة ابنته، فهي الآن مُنافِسة سبَّاحته. أُحدِّق في المشهد مُبقيةً دماغي خدِراً، لا أعرف من سأشجِّع.

أُطلِقت صافرة البداية، ها هُما تغطسان، تطفو كارول أوّلاً، تليها سارة، وعند منعطف الخمسين متراً كانت سارة خلْف كارول بمسافةٍ تعادل طولها الكامل، تبذل سارة جهداً، لكنّ كارول تسرع في آخر خمسة وعشرين متراً، وتسبقها بخمس ثوانٍ على الأقلّ، يزفر أبي منتشياً بالانتصار، ويبتسم لمدرّبي الفِرَق؛ لقد فازت نجمته.

نستقلّ السيّارة إلى البيت في صمتٍ مُطبقٍ، تحدّق سارة مليّاً من النافذة، وسمّاعاتها على أُذنيها، وبمجرّد أنْ تطأ أقدامنا المنزل، يعود أبي إلى دورِه بصفته أباً، يدور حَوْل سارة.

- «ماذا يحدث؟». يصرخ أبي: «لقد سمحتِ لنفسك بالتراجع، لقد خسرتِ سرعتكِ كلّها».

ترمقه سارة بنظرةٍ حادّةٍ، فيما تلتمع عيناها غضباً. «هذا كلّ ما في الأمر، انتهينا». يقول أبي: «منذ اليوم لا ذهاب إلى منازل الأصدقاء بعد التدريب، ولا المزيد من لعب كرة السلّة، سيكون عليَّ أنْ أصلح وضعكِ، ومن الآن فصاعداً سأكون أنا مدرّبك، ستعودين إليّ».

تجهش سارة بالبكاء، ثمَّ ترمي سمّاعاتها وتنهضُ مغادِرةً الغرفة، أقف في وجهها، تبكي، ثمّ تهدأ من جديد.

بعد ذلك، تنضمّ إليَّ سارة وكارول في التدريب مع أبي، وفي أحد الأيّام بعد بضعة أشهر، تخرج سارة من المسبح ممسكةً بكتفها الأيمن:

- «لا يمكنني الاستمرار». تقول لأبي: «لا أستطيع تحريك كتفي».

تصحبُها أمّي إلى الطبيب الذي يوصيها بأربعةِ أسابيع من الراحة، وبعض المراهم للعضلات. أبي ليس سعيداً، عادت سارة بعد شهرٍ إلى

المسبح، ولكنْ كان من شأن الاستراحة أنْ تتسبّب بتراجع مستواها مرّةً أُخرى، لقد مرّ شهران آخران قبْل أنْ تكافح للعودة من جديدٍ إلى المستوى الذي كانت عليه.

بعد ذلك، في فصل الربيع، يُصاب كتفها الآخر بشدٍّ عضليٍّ، يبدو أنّ الأطبّاء قلقون، يطلبون لها استراحةً لمدّة شهرٍ آخر، تحاول أمّي المساعدة، فمنذ أنْ تعلّمت السباحة بدأت بتدريس التمارين الرياضيّة المائيّة في منتجعٍ للينابيع الساخنة يقع على بُعْد ساعةٍ بالسيّارة جنوب دمشق بالقُرب من مدينة درعا، وقد تخصّصت في العلاج بالتدليك، فهي تجرّب مهاراتها الجديدة على كَتِفَيْ سارة.

لا تستغرق سارة وقتاً طويلاً قبْل أنْ تعود إلى التدريب، تحارب أكثر من أيّ وقتٍ مضى لاستعادة سرعتها السابقة، هي لا تبوح لي، لكنْ يمكنني معرفة أنّها لمْ تعُد تستمتع بالسباحة، إنّها مُشتّتةٌ، فهي غالباً ما تتوارى بعد التدريب، وفي أوائل الصيف، بدأت تضع مساحيق التّجميل؛ أظنّ أنّها تلتقي فتياناً. أبي غاضبٌ، لكنّ سارة لا تلقي بالاً، وتتحوّل حياتنا المنزليّة إلى سلسلةٍ من المعارك والمواجهات.

- «أُنظري إلى أختكِ الصغيرة». يصرخ أبي: «لماذا لا تكونين مثلها؟».

لكنّ ذلك لا يُجْدي نفْعاً، فكلّما صرخ أبي في وجهها ازدادت تعنُّتاً، صرخت في وجهه وتلفّظت بألفاظٍ نابيةٍ، مع ذلك يبدو أنّ الأمر ينفع معي، فمع رؤية الغضب الذي تثيره سارة، لا أظنّ بأنّني سأخرج عن طاعة أبي، لنْ أعطي أبي سبباً ليغضب منّي، فأنا أحافظ على التزامي، وأبذل قصارى جهدي للحصول على تلك الميداليّات، كما أعمل بجدٍّ في المدرسة لتحصيل أفضل الدرجات، كنت تنافسيّةً لدرجة أنّه إذا حصل طفلٌ آخر في الصفّ على درجاتٍ أفضل منّي، فإنّ الصدفيّة على رقبتي تصبح حمراءَ

متوهّجة، وتبدأ بالحكّة. تخبطني سارة، وتدعوني بالتلميذة غريبة الأطوار، كثيرة المذاكرة.

في ذلك الصيف، سافرتُ أنا وسارة إلى الّلاذقية، وهي مدينةٌ تقع على الساحل الشماليّ الغربيّ لسوريا للمشاركة في مسابقةٍ، الّلاذقية وجهةٌ لقضاء الإجازات في سوريا، يذهب الناس إلى هناك للتنزّه على شاطئ البحر الطويل، أو الجلوس في المطاعم، أو ركوب القلّابات في مدينة الملاهي؛ أمّا أنا وسارة، فغايتنا هي البحر. ستجري المسابقة في المياه المفتوحة، وهي تقوم على السباحة بطول خمسة كيلومتراتٍ من جزيرة إلى الشاطئ.

من الشاطئ يبدو البحر هادئاً ومشرقاً تحت أشعّة الشمس، انطلقنا - نحن المشاركين الخمسين- جميعاً. المنافسة شرسةٌ، والجميع يكافحون لسَلكِ أقرب الطرق نحو الشاطئ، وبمجرّد خروجنا من المياه المفتوحة أشعر بشيءٍ من عدم الارتياح، السباحة في البحر تختلف عن السباحة في المسبح، الماء شديد الغموض والعمق، ولا توجد حوافٌّ هنا، أو فرصةٌ للاستراحة. ينتابني القلق خشية أنْ أتوه، ينبغي لي أنْ أسبح ورأسي إلى الأعلى؛ لأتمكّن من رؤية العوّامات والقوارب، وهي تحدّد الطريق. أخيراً شعرتُ بالارتياح عندما وصلنا إلى الشاطئ بعد أكثر من ساعة.

لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ بعد السباحة في البحر حتّى بدأت سارة تعاني مع كتفَيها الاثنين هذه المرّة، فهي غير قادرةٍ على القيام بخبطةٍ واحدةٍ في سباحة الفراشة، يُحيلها الأطبّاء إلى مختصّ العلاج الطبيعيّ؛ للحصول على جلسات تدليكٍ مكثّفةٍ، تتوقّف عن السباحة لمدّة شهرٍ آخر، وبحلول أوائل العام التالي، تعود إلى السباحة من جديد، ولكنْ ليس بالمستوى السابق نفسه. لا تتحدّث سارة معي كثيراً، على الرغم من أنّنا نتشارك الغرفة نفسها، وينتابني القلق بشأنها، لكنّنا كنّا ننزوي، كلٌّ إلى عالمه، على

وقْع المعارك الدائرة في البيت، فإذا كانت إحدانا تعاني سيكون عليها أنْ تفعل ذلك وحْدها، كانت حياة كلّ واحدةٍ منّا منفصلةً عن حياة الأُخرى؛ نسْبح بشكلٍ منفصلٍ، ونتعلّم بشكلٍ منفصلٍ، وأصدقاؤنا مختلفون.

لم تُجْدِ محاولات أبي لتغيير سلوك سارة، فهي تشاغب في المدرسة، وتحصل على درجاتٍ متدنّيةٍ، ويصفها المعلّمون بأنّها مثيرةٌ للمشكلات، وكانت تهرب وتخرج بعد التدريب لتلعب كرة السلّة، أو تتسكّع في منازل الأصدقاء، والعديد من أصدقائها المقرّبين هُم من الشباب الذكور، فيتفاقم الجدال في البيت، فأقلّ استفزازٍ من أبي كان يثير جنون سارة، وكان أبي يوجّه إليها بعض الملحوظات حَوْل وزنها الزائد حين نجلس لتناول الطعام، أو يبدأ بالتعليق على درجاتها المتدنّية في المدرسة، أو حَوْل سباحتها السيّئة في جلسات التدريب، وغالباً ما تدفع سارة كرسيّها إلى الخلف، ثم تنهض خارجةً من الغرفة.

- «ماذا؟ إذنْ، لا تريدين أن تأكلي». يصرخ أبي.

- «لا رغبة لديّ في الأكل». تجيب سارة ملتفتةً إلى الوراء.

أرتعبُ حين تصفقُ سارة باب غرفتنا، أخفض عينيّ مُدوِّرةً شوكتي في صحن الطعام الذي أمامي. كُوني مطيعةً فقط، وستكون الأمور على ما يرام، أعرف أنّ أبي سيكون سعيداً إذا كنتِ السبَّاحة الأفضل، وها أنا أتحسَّن، فسباحة الفراشة التي أقوم بها سريعةٌ وقويّةٌ، وفي خريف العام الذي بلغتُ فيه الثانية عشرة من عُمري، التحقتُ بالمنتخب السوريّ، يقول المدرّبون: إنّني جاهزةٌ لأولى منافساتي الخارجيّة في الأردن ومِصْر، إنّها خطوةٌ كبيرةٌ، أنا الآن سبّاحةٌ منافِسةٌ، أسْبح باسْم سوريا، وهذه درجةٌ أُخرى في سُلَّمِ الصعود إلى حلمي الأوليمبيّ، ومع تعثُّر سارة وتمرُّدها، أصبحتُ أنا جائزة أبي السبَّاحة.

الجزء الثاني

الربيع

3

يرفع الرجال قبضاتهم في الهواء، ويهتفون أمام الكاميرا، وتحترق الأعلام، وتتفرَّق الحشود مع تصاعُد الدخان من المباني، نحن في شهر آذار/ مارس 2011، ليبيا مشتعلة، أنظُر إلى سارة، تتجاهلني وتغيّر القناة، يدخل أبي إلى غرفة المعيشة.

- «أعيدي المحطّة السابقة». يقول لسارة.

تفعل سارة ما طلبه أبي الذي يهمُّ بالجلوس على الأريكة، نتابع بصمتٍ مطبقٍ المشاهدَ المثيرة، وهي تتكشّف. هذه الفترة من اليوم مخصّصةٌ لأبي، فهو يستأثر بالشاشة لمدّة ساعتين تماماً كلّ مساء؛ يشاهد الأخبار، ثمّ يعيد إلينا جهاز التحكُّم. في الأسابيع الماضية، جلسنا نتابع الثورات في تونُس ومِصْر، والآن نتابع ما يجري في ليبيا. لا أعرف السبب، لكنّ ليبيا تبدو مختلفةً؛ فهي أقرب ما تكون إلى حال بلادنا.

- «أعتقد أنّه أمرٌ رائعٌ». تقول سارة بهدوء: «مخيفٌ، لكنّه مُسلٍّ».

يرمقها أبي بنظرةٍ حادّة.

- «أمجنونةٌ أنتِ؟». يقول لها مُضيفاً: «لنْ يحدث شيءٌ كهذا هنا، مفهوم؟ لا شيء من هذا القبيل يمكن أنْ يحدث في سوريا».

- «سوريا مستقرّة ومتعقّلة». يُضيف أبي: «الناس هادئون ومسالمون،

لن يفتعلوا أيّة مشكلات، فلكلّ شخصٍ وظيفة، والحياة جيّدة، ونحن نعمل ونواصل حياتنا بسعادة».

يحدِّق أبي في المتظاهرين على الشاشة.

- «نحن لسنا كهؤلاء». يقول.

يظهر الزعيم اللّيبيّ مُعمّر القذّافي على الشاشة الآن، يرتدي عباءةً بلونٍ بُنّيٍّ فاتحٍ، وعمامةً باللون نفسه، وهو يلقي خطاباً عبْر القناة التلفزيونيّة اللّيبيّة الحكوميّة، يحثُّ فيه أنصاره على هزيمة الانتفاضة في بلادهم.

يقول القذّافي، وهو يهزُّ ذراعيه بقوّةٍ: «سنوجّه نداءً إلى الملايين، من الصحراء إلى الصحراء لتطهير ليبيا، شبر شبر، بيت بيت، دار دار، فرد فرد، زنقة زنقة، حتى تتطهّر البلد من... الأنجاس».

تقهقِهُ سارة، يرمقها أبي بنظراته مرّةً أُخرى.

- «ماذا؟». تقول سارة: «أنا لا أضحك على الموقف، كلّ ما في الأمر أنّ... حسناً، اللّهجة الليبيّة مُضحكة».

يهزّ أبي رأسه، ويعود إلى الشاشة.

يقول القذّافي: «دقّت ساعة العمل، دقّت ساعة الزحف! دقّت ساعة الانتصار! لا رجوع إلى الوراء، إلى الأمام! ثورة! ثورة!».

بعد ذلك يضرب القذّافي المنصّة بيده، ويرفع قبضته في الهواء مغادراً الشاشة، يغلق أبي التلفاز، ويمشي من دون أنْ يقول أيّة كلمةٍ أُخرى، وبعد بضعة أيّام، وقفنا أنا وسارة في الشارع خارج منزلنا في انتظار الحافلة المدرسيّة، فقالت سارة: إنّها شاهدت القذّافي قتيلاً في المنام، قلت لها: إنّني لا أرغب بمعرفة المزيد. وصلت الحافلة، وصعدنا متْنها، الأطفال الآخرون جميعهم يحدّقون في هواتفهم، وهُم يضحكون.

- «ما الذي يحصل؟». تتساءل سارة بينما نجلس في مقاعدنا، يلتفِت صبيٌّ من المقعد الأماميّ.

- «زنقة، زنقة». يقول مُكشِّراً.

- «ماذا؟». أسأله أنا.

يمرّر الولد هاتفه إلينا، وعلى الشاشة يُعرَض مقطع فيديو من موقع يوتيوب، قام شخصٌ ما بعمل «ريميكس» لخطاب القذّافي المُتلفز، وأضاف إليه أغنيةً راقصةً، وتظهر في المقطع فتاةٌ شبه عاريةٍ تتلوّى في الزاوية السفليّة للفيديو، يبدو الديكتاتور سخيفاً، يضحك مَن في الحافلة جميعهم مرّةً أُخرى عندما تصل الأغنية إلى الجوقة: زنقة، زنقة، وهذه الكلمة تعني الزقاق في الّلهجة الليبيّة. يمكن سماع هذه الأغنية في كلّ مكانٍ في المدرسة، لكنّ النكتة سرعان ما تصبح قديمةً، وبعد أسبوعٍ يسود الصمت في الحافلة المدرسيّة، يجلس الأطفال الآخرون في أزواجٍ، ويتحدّثون بهمساتٍ مكتومةٍ، تتسلّق صديقتي لين، وتجلس إلى جواري، أبتسِم لها، فتتّسع عيناها بينما تميلُ نحوي.

- «ألم تسمعي عن درعا؟». تهمس في أذني.

- «لا، لم أسمع شيئاً». أُجيبها أنا.

ينتابني قلقٌ شديدٌ؛ فأمّي تعمل على بُعد نصف ساعةٍ بالسيّارة من درعا، والمدينة نفسها ليست بعيدةً عنا في دمشق، مئة كيلومتر فقط، أو نحو ذلك.

- «بعض الأطفال، بعض الأولاد». تقول لين: «كتبوا شيئاً على الحائط، وقد اعتُقِلوا».

- «ما الذي تعنيه؟». أقول: «ما الذى كتبوه؟».

تتلفَّت لين حَوْلي، ثمّ تَحْني رأسها نحو أُذني، وتهمس قائلةً: «الشعب يريد إسقاط النظام».

أُحدِّق فيها ذاهلةً، الشعب يريد إسقاط النظام، الناس يريدون الإطاحة بالنظام، ولكنْ لماذا يقول أبي: إنّ الانتفاضة لا يمكن أنْ تحدث هنا؟ أجلِس في صمتٍ تاركةً كلمات لين تغوص في مخيّلتي، مُحاوِلةً فهْم ما تعنيه، أميل نحْوها لأهمس في أُذنها، هذا ما ردّدوه في تونُس أيضاً، أليس كذلك؟ وفي مِصْر؟ تومئ لين موافِقةً.

- «والآن في ليبيا». تُضيف لين.

أنظُر من النافذة إلى حركة المرور، الركّاب في طريقهم إلى العمل، والمحالّ التجاريّة التي تفتح أبوابها. إذنْ، يريد الناس أنْ تتغيّر الأمور هنا أيضاً. تونُس، ومِصْر، وليبيا، والآن هنا؟ تشتعل الهواجس في نفسي، هذا لا يُبشِّر بالخير، في المدرسة لا يقول المُدرّسون شيئاً عن درعا، كذلك أمّي، وأبي، ونشرة الأخبار على محطّة التلفاز الحكوميّة، جميعهم لا يقولون شيئاً، الأخبار جميعها التي أحصل عليها تأتي من الحافلة المدرسيّة، بعد بضعة أيّامٍ أخبرتني لين أنّه كانت هناك أعمال عُنفٍ خلال الاحتجاجات في درعا، وأنّ الاحتجاجات امتدّت عبْر سوريا إلى مُدنٍ أُخرى، هي: حلب، وحمص، وبانياس.

- «حتّى إنّهم يخرجون في مظاهراتٍ هنا في دمشق». تقول لين.

تتَّسعُ عيناي دهشةً، ويتواصل الصمت المُطبِق في المنزل، وما زال أبي يشاهد الأخبار كلّ مساءٍ، غالباً ما ينتقل بين القنوات الإخباريّة العربيّة الرائجة، وهي: الجزيرة، والعربيّة، يشاهد من دون تعليقٍ، وإذا حدث أنْ تكلّم عن انتشار الاحتجاجات، فلنْ يكون ذلك معنا أبداً. أفْهم ذلك؛ هو يفعل ذلك لمصلحتنا، من أجل حمايتنا، وعلى أيّة حال، ما الذي يُفترض أنْ يقوله لابنتَين مراهقتَين؟ هل يسألهما عمّا إذا كانتا سعيدَتَين بهذا الوضع؟ تبدو أمّي أكثر انفتاحاً نوعاً ما، فعملها في النقاط الساخنة، في القرب من

درعا، يوفّر مصدراً آخر للمعلومات، وفي أحد الأيّام في أواخر شهر آذار/ مارس، عادت إلى المنزل، وهي تبدو شاحبةً ومهزوزةً، فسألتُها: ما الأمر، لكنّها بدَت متردّدةً كي لا تخيفني.

- «اليوم في المنتجع الصحّيّ كنت أسمع أصوات انفجاراتٍ وإطلاق نارٍ قادمةً من المدينة، حاولنا إغلاق النوافذ، لكنّ الأصوات ظلّت مسموعة». تقول أمي أخيراً.

رُحتُ أنظر إلى أظافري، بدأت معدتي بالانقباض متمنّيةً لو أنّني لمْ أسأل.

- «كان لدينا عددٌ أقلّ من الزبائن خلال الشهر الماضي». تقول أمّي: «لا أحد يرغب في ارتياد المنتجع الصحّيّ بعد الآن، فالأمور تأخذ منحى خطيراً للغاية».

أتمنّى أنْ تتوقّف أمّي عن الكلام، أشعر بالارتياح حين يدخل أبي إلى غرفة المعيشة، وتتوقّف أمّي في منتصف جُملتِها، يجلس أبي، ويبدأ بالتنقّل بين محطّات التلفاز، تحبو أختي الصغيرة شهد وراء ظهره، لتلتقطها أمّي، وتأخذها إلى المطبخ. نجلس في صمتٍ كئيبٍ، وما زال مُقدِّمو الأخبار في التلفاز الحكوميّ لا يتطرّقون إلى الوضع في درعا.

وفي اليوم التالي، تقول زميلتي إيمان: إنّها وعائلتها سيغادرون دمشق، والداها من درعا، ويريدان العودة لرؤية ما يجري، يحدث هذا كلّه بسرعةٍ كبيرةٍ، نودِّعها ويغادرون في الأسبوع التالي، ولمْ أسمع عنها شيئاً منذ ذلك الوقت، وما أزال غير متأكّدةٍ ممّا آلتْ إليه أمورها، كان اختفاؤها هو الأوّل بين اختفاءاتٍ كثيرةٍ مشابهة. وذات يوم، بعد وقتٍ قصيرٍ من مغادرة إيمان، تعود أمّي مبكّراً أكثر من المعتاد من المنتجع الصحّيّ، سارة وأنا نستعدّ للتدريب، تجلس أمّي، وهي تهزُّ رِجلَيها.

- «ما الأمر؟». يسألها أبي.

- «الضجّة اليوم». تقول أمّي: «كانوا يطلقون النار طيلة اليوم، منذ أسبوع وهُم يفعلون ذلك، انفجارات ضخمة تهزّ النوافذ، بعد ذلك، في منتصف فترة ما بعد الظهر، جاء الجيش وأخْلانا».

يرفع أبي حاجِبَيه ويسألها: «أيعني ذلك أنّك لنْ تذهبي إلى هناك بعد اليوم؟».

- «لا». تُجيبه أمّي: «لا أعتقد ذلك، أظنّ أنّ المنتجع الصحّيّ سوف يُغلق لفترةٍ من الوقت».

تنظر أمّي نحونا أنا وسارة، ثمّ تختلس نظرةً نحو أبي.

- أتعرِف؟ يروي زملائي قصصاً مروِّعة...

تنهض سارة عن الأريكة، وتسحبني من ذراعي نحو غرفتنا. بعد ذلك، حين انقطعت أمّي عن العمل قُرب درعا، أصبح ما أسمعه أقلّ بكثير. حصلت أمّي على وظيفةٍ جديدةٍ بصفة مدرّبةٍ في ملعبٍ رياضيٍّ افتُتح حديثاً في كفرسوسة، شمال داريّا. ما تزال الحافلة المدرسيّة مصدر عناوين الأخبار الغامضة بالنسبة إليّ، تخبرني لين أنَّ درعا محاصرة، كذلك أخبرتني عندما اتّسعت الاحتجاجات لتصل إلى حمص، ومنها إلى وسط دمشق واللّاذقيّة، وفي نهاية شهر أيار/ مايو، عندما ازداد نطاق الاحتجاجات في داريّا، أخبرتني لين أنّهم يتحدّثون عن طفلٍ يُدعى حمزة. من أعرفهم جميعهم نأوا بأنفسهم عن الجانبين، وها نحن نجلس في ضيقٍ في انتظار أنْ تنفرِج الأمور.

لمْ تعُد داريّا آمنةً، كلّ يوم جمعة بعد صلاة الظهر، يخرج المصلّون من المساجد إلى الشوارع، في بعض الأحيان نسمع زخّاتٍ من إطلاق النار. توقّفنا عن الخروج لتناول الطعام في ليالي الجمعة، وعوضاً عن

ذلك، نجلس لمشاهدة التلفاز الحكوميّ. يُلقي مُقدِّمو الأخبار باللّوم على الإرهابيّين. لا شيء يمكن فعله سوى المشاهدة والانتظار، ندعو الله أنْ تتوقّف الاضطّرابات قريباً.

وفي الانتظار، أواصل السباحة، فالسباحة هي أفضل ما يُلهيني؛ عندما أكون في المسبح، لا يعود هناك ما يُهمّ، أحقّق أفضل أداءٍ لي حتّى الآن محطّمةً الأرقام القياسيّة، وظافِرةً بالميداليّات للمنتخب الوطنيّ. يقول المدرّبون: إنّ بإمكاني السفر إلى دول عربيّة أُخرى، مثل: الأردن، ومِصْر، ولبنان؛ للسباحة باسْمِ سوريا في المسابقات الدوليّة. في تموز/ يوليو، استيقظت أنا وسارة في الثالثة صباحاً لمشاهدة بطولة العالم للألعاب المائيّة في شنغهاي، نشاهد السبّاحةَ السويديّة تيريز ألشمار تفوز بالذهبيّة في سباق 50 متر سباحة حُرّة. بالنسبة إليّ، يُشبه الأمر متابعة فريق كرة القدم المفضّل، أصرخ وأرقص في أنحاء الغرفة جميعها؛ إنّها بطلتي الجديدة.

- «اُنظري إليها». تقول سارة: «يمكن أن تصبحي مِثلها».

تدخل أمّي غرفة المعيشة، وهي تفرُك عينَيها، تطلب إلينا أنْ نخفض الضجيج كي لا نوقِظ شهْد. أشيرُ إلى الشاشة، تبتسم ألشمار، وتعانق السبّاحين الآخرين في المسار.

- أمّي! اُنظري، باستطاعتي فِعل ذلك أيضاً!

تتثاءب أمّي مبتسِمةً.

- «أعلم ذلك يا حبيبتي». تقول أمّي.

أُجيبُها متسائلةً: «لكنْ كيف نصل إلى بطولة العالم ونحن في سوريا؟».

تتنهّدُ أمّي قائلةً: «أخْفضي الصوت إذا سمحتِ».

مشاهدة ألشمار تجعلني أفقد صبْري، وأمّي لا تفْهم هذا، أحتاج إلى السباحة، أحتاج إلى تأسيس مسارٍ مهنيٍّ، ولكنْ مع ما يجري في سوريا

كلّه من عنفٍ واحتجاجاتٍ، يغدو تحقيق ذلك أقلّ احتمالاً يوماً بعد يوم، ويبدو المستقبل مشوباً بعدم اليقين، وتزداد طريق صعودي إلى الألعاب الأولمبيّة ضبابيّةً.

في ذلك الصيف، يصل السبّاحون من أنحاء سوريا جميعها إلى دمشق كالمعتاد لمعسكر التدريب، أنتقل معهم إلى فندق الرياضيّين بالقرب من مسبح تشرين. الكثير من الأطفال الذين أعرفهم هُم من مدينة حلب، مثل: رامي، فأتحدّث إليه حَوْل ما يجري هناك.

يبدو رامي قلقاً لكنّه يخبرني أنّ الوضع لديهم يشبه الوضع في دمشق؛ هناك بعض الاحتجاجات، إلاّ أنّ العنف ليس بمستوى ما يحدث في درعا، وبعد أيّامٍ قليلةٍ من عودتي إلى المنزل من معسكر التدريب، أجد أبي يشاهد قناة الجزيرة في غرفة المعيشة، لا يلتفت إليّ حين أدخل، أجلس بجانبه وأشاهِد، يظهر على الشاشة رجالٌ يلوّحون بأذرعهم، ويُطلقون النار من أسلحةٍ أوتوماتيكيّةٍ في الهواء.

- «ما الذي حدث هذه المرّة؟». أسأله.

- «سقطت طرابلس الغرب». يقول أبي مضيفاً: «لقد أطاحوا بالقذّافي».

أُحدِّق في الشاشة، بينما يراقب أبي بصمتٍ تام.

بعد مدّةٍ وجيزةٍ تصل الاضطّرابات إلى عتبة بابنا؛ اندلعت احتجاجاتٌ كبيرةٌ في المعضميّة إلى الغرب من المكان الذي نعيش فيه، وقد بدأ الطريق الذي نسلكه للذهاب إلى المدرسة، والمسبح، والمدينة، يشهد توتُّراً. أصبحنا نجلس في البيت فتراتٍ طويلةً، ونشاهد التلفاز، وفي صبيحة أحد الأيّام في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، وبينما نحن على متْن الحافلة المدرسيّة، تخبرنا لين بنبأ وفاة القذّافي الشنيعة. أنظُر إلى

الخارج من النافذة متمنّيةً أنْ يتوقّف كلّ شيءٍ، أنْ يتوقّف لتعود الأمور إلى طبيعتها.

أحاول تجاهل ما يحدث، والتركيز على السباحة، والمدرسة، والحياة اليوميّة، لكنّ الحياة الطبيعيّة بدأت تغدو مستحيلةً. في ديسمبر/ كانون الأوّل، قُتل أربعون شخصاً في تفجيراتٍ انتحاريّةٍ في كفرسوسة، وهي المنطقة التي تعمل فيها أمّي، وكان الضحايا أشخاصاً عاديّين تصادف مرورهم في الشارع سعْياً وراء رزقهم. يا لها من صدمة! إنّها المرّة الأولى التي نشعر فيها بشعورٍ عامٍّ بالخطر؛ إذْ يمكن أن نُقتَل في المكان الخطأ، وفي التوقيت الخطأ. آباؤنا -مثل كثيرين آخرين- يجبروننا على البقاء في منازلنا بعد السابعة مساءً، نعود إلى المنزل، فنغلق الستائر، ونفتح التلفاز.

في وقتٍ مبكّرٍ من العام الجديد سيكون هناك معسكر تدريبٍ آخر للسباحة، الأعداد تتضاءل، اختفى الكثير من السبّاحين الأكبر سنّاً، ولا يمكنني العثور على صديقي رامي، أسأل عنه في الأرجاء، أخبرني السبّاحون الآخرون أنّه ذهب إلى تركيا ليقيم مع أخيه، يقولون: إنّه يعتزم العودة قريباً، لكنْ بعد مدّةٍ قصيرةٍ أقرأ في فيسبوك أنّ رامي بدأ التدريب مع نادي غلطة سراي للسباحة في إسطنبول، يبدو أنّه سيبقى بعيداً لمدّةٍ أطول ممّا كنّا نظنّ.

تزداد الانتفاضة خطورةً يوماً بعد يومٍ؛ في كانون الثاني/ يناير، ظهرت أكوامٌ من الأكياس الرمليّة في أنحاء دمشق جميعها، يقف الجنود المسلّحون وراءها، ويراقبون كلّ سيّارةٍ تعبُر، ويوقفونها، ويتحقّقون من بطاقات الهويّة، ويسألون الناس من أين أتوا، وإلى أين هُم ذاهبون، وفي كثيرٍ من الأحيان يفتّشون السيّارات. قد يستغرق الأمر ما يصل إلى نصف ساعةٍ لعبور الحاجز، فهناك الكثير من نقاط التفتيش على طول الطريق

الرئيس من داريّا إلى دمشق، بدأنا نسلك طريقاً خلفيّةً عبْر بساتين الزيتون إلى الجنوب، ثمّ من الغرب إلى الريف، ولكنْ بصَرف النظر عن الطريق التي نسلكها، غالباً ما نواجه حواجز «طيّارة». ذات ليلةٍ، في أوائل الربيع، تأخذنا أمّي من التدريب، نَجلس أنا وسارة في مؤخّرة السيّارة، على جانبَيْ شَهد، تحاول أمّي الذهاب عبْر الطريق الرئيس، لكنّنا نفاجَأ بحركة المرور متّجهةً إلى الاتّجاه الآخر.

- «لقد أغلقوا الطريق». تقول أمّي متأفِّفَةً!

بعد ذلك، تستدير وتسلك شارعاً جانبيّاً يعيدنا إلى داريّا مرّةً أُخرى، الشارع مظلمٌ ومهجورٌ على غير العادة، وقد أغلقت المتاجر جميعها في وقتٍ مبكّرٍ، لا يمكن رؤية أناسٍ، ولا سيّاراتٍ أُخرى في الأفق، تقود أمّي ببطءٍ إلى الأمام؛ حيث نرى على الجانب الأيمن من الشارع كومةً من أكياس الرمل، وثمّة جنديٌّ يمشي ببطءٍ وهدوءٍ من وراء نقطة التفتيش، ويحمل بندقيّةً هجوميّةً، توقِف أمّي السيّارة، وتخفض زجاج النافذة.

- «بطاقة الهويّة». يقول الجنديّ.

ترتبك أمّي، وتُخرِج بطاقة هويّةٍ بلاستيكيّة بيضاء من محفظتها، فيأخذها الجنديّ، ويجول بنظره على المقاعد الخلفيّة.

- «بناتكِ؟». يسأل الجنديّ أمّي.

تومئ أمّي مُبقيةً عينيها على الطريق نحو الأمام.

- «إلى أين أنتم ذاهبون؟». يقول الجنديّ.

- «إلى البيت». تُجيبُ أمّي: «نحن نسكن على الطريق بين داريّا والمعضميّة».

- «وأين كنتم؟». يقول.

- «لقد عدتُ حالاً من العمل، وكانت بِنتَاي تسبحان». تجيبه أمّي.

يُحدّق الجنديّ في المقعد الخلفيّ مرّةً أُخرى، ويتجوّل حَول مؤخّرة السيّارة، ويفتح الصندوق الخلفيّ، كما يفتح الباب بجواري، ويومض الضوء الكشّاف أسفل أقدامنا، بعد ذلك يخطو إلى نافذة السائق، ويطلب إلى أمّي الخروج من السيّارة، تنقبض معدتي، وأشعر بالرعب، فتنزل أمّي من السيّارة، ونمدُّ أنا وسارة رقبتيْنا من خلال النافذة لنرى ما يجري، يفتّشها الجنديّ، ويسمح لنا بالمغادرة، فتصعد أمّي مرّةً أُخرى إلى السيّارة، وتزفر بعُمق، نمضي إلى البيت في صمتٍ مطبقٍ على طول الطريق.

في صباح اليوم التالي، نحن في الحافلة المدرسيّة، نمُرُّ بكومةٍ أُخرى من الأكياس الرمليّة على الطريق الرئيس المؤدّي إلى المزّة، يومئ الجنود لسائق الحافلة ليتوقّف، ويركنها إلى جانب الطريق السريع، فتنطلق شهقةٌ من الأطفال في مقدّمة الحافلة؛ حيث يظهر أربعة جنودٍ في الجزء العلويّ من الممرّ، الرجُل في المقدّمة يلوّح ببندقيّةٍ هجوميّةٍ في الهواء، أخذوا يتجوّلون في الحافلة، ويفتّشون حقائبنا المدرسيّة، ورفوف الأمتعة، ويتحقّقون من كلّ مقعدٍ، وعندما وصلوا إلينا أنا وسارة، رحنا ننظر إلى الأمام مع الحرص على عدم النظر في أعينهم، تابَعوا السير، أسْمع واحدةً من الفتيات الأصغر سنّاً تهمس خلفي، أخيراً نزلوا من الحافلة ودارَ محرّكها من جديد.

- «ما الذي يظنّون أنّنا سنخفيه في حافلةٍ تُقِلُّ خمسين طفلاً؟». تقول سارة بصوتٍ خافتٍ، بينما تتحرّك الحافلة مبتعدة.

بعد ذلك، تركت أمّي ملابسَ احتياطيّةً في بيت الجدّة في حال حدوث طارئٍ يحول دون عودتنا إلى المنزل، وفي بعض الأحيان نسمع في طريق عودتنا من التدريب أصوات إطلاق نارٍ من داريّا، فنعود أدراجنا إلى المدينة، وفي أحيانٍ أُخرى، يعيدنا الجنود إلى نقاط التفتيش، وعادةً ما تكون أيّام

الجُمَعة هي الأسوأ دوماً. في كلّ مرّةٍ يُقتل فيها شخصٌ في داريّا تخرج جنازةٌ، وتتحوّل إلى احتجاجٍ أكبر، فنبقى في الداخل، أو نذهب إلى بيت الجدّة لقضاء عُطلة نهاية الأسبوع، وفي بعض الّليالي يوقظني إطلاق النار في الشارع، وينتاب أبي القلق من الانفجارات والرصاص الطائش، لذا فقد حرّك خزانةً خشبيّةً كبيرةً؛ ليضعها أمام النافذة في غرفتنا، ومع حلول أوائل الصيف، بدأت داريّا تخلو من سكّانها، وأصبحت أعداد الناس أقلّ في الشوارع، وفي الحافلة المدرسيّة أيضاً؛ فثمّة ما يبعث على الخوف.

أنا في حَيرةٍ بشأن ما يجري، لا يخبرنا التلفاز شيئاً، وأمّي وأبي يحصلان على المعلومات من الأصدقاء، والأقارب، والجيران، لكنّهما لا يقولان لنا شيئاً، وصفحتي على فيسبوك ممتلئةٌ بالطُّرَف، والقيل والقال، والأشياء العاديّة للمراهقين، وفي إحدى ليالي السبت، وقبل نهاية شهر أيّار/ مايو، وبينما كنّا أنا وسارة وشهد نائمات في غرفتنا، سمعنا صوت رجلٍ يصدح بعبارة «الله أكبر» في الشارع، ثم سمعنا صوت طلقٍ ناريٍّ، كان قريباً جدّاً. أرمش بعينيّ وأفتحهما.

جوقةٌ كاملةٌ من الأصوات تصدح بقول: «الله أكبر، الله أكبر».

أنظر إلى سرير سارة، كانت نائمةً في مواجهة الحائط، وظهرها لي.

أناديها: «سارة».

لكنّها لا تتحرّك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- «اِبقي في مكانكِ». تقول، وهي لا تزال تواجه الحائط.

يسود صمتٌ في الخارج، أنتظر متجمّدةً من الرعب، ومن بعيدٍ تُسمَع أصوات الصفير الطويل متبوعةً بانفجاراتٍ مدوّية، فينساب الضوء إلى الغرفة بينما يفتح أبي باب غرفة النوم.

- «هيّا!». يصرخ أبي: «استيقِظوا، ابتعِدوا عن النافذة».

أُبعِدُ اللّحاف، وأقفز من السرير، تفعل سارة الأمر نفسه، ونركض معاً في الممرّ.

يقول أبي: «غرفتنا ليس فيها زجاج، ادخلوا إليها».

نصعد: سارة، وأبي، وأنا، إلى السرير الكبير لننضمّ إلى أمّي وشهد، فأجْذب اللّحاف إلى أعلى حتّى وجهي؛ محاوِلةً التخلّص من الضجيج المروّع في الخارج، لمْ ينَمْ أحدٌ منّا بالقدْر الكافي.

وفي اليوم التالي تستمرّ الحياة كما لو أنّ شيئاً لمْ يحدث، وكما هو الحال دائماً، أنا أُركّز على السباحة، وأتدرّب بجِدٍّ، وقد وصلت إلى المستوى الذي يمكنني فيه المنافسة دوليّاً، وسوف تكون فرصتي المقبلة للقيام بذلك في شهر تموز/ يوليو، فأنا على القائمة الأوّليّة لألعاب أطفال آسيا في ياكوتسك في شرق روسيا. أشعر بحماسةٍ عاليةٍ، فأنا مستعدّةٌ لمواجهة العالم، المنتخب الوطني كلّه ذاهبٌ إلى هناك، وما زالت سارة تعاني بسبب إصابتها، ولمْ تتمكّن من الانضمام إلى المنتخب.

في أحد أيّام الجمعة، في أوائل تموز/ يوليو، وقبْل أيّامٍ قليلةٍ من مغادرتي إلى روسيا، كُنّا في طريق العودة إلى البيت بعد زيارة الجدّة في المدينة، يسلك أبي الطريق الخلفيّ لتجنُّب نقاط التفتيش، لكنّنا نشاهد الجنود ينتظرون حتّى على الطرق الريفيّة.

- «لقد شدّدوا الإجراءات الأمنيّة». يُتمتم أبي من مقعد السائق بينما ننتظر المرور.

نمضي عبْرَ بساتين الزيتون إلى الجنوب، الشوارع مهجورةٌ، وبينما نقترب من الانعطاف نحو الطريق الذي يؤدّي إلى البيت، يظهر رجُلٌ من أحد المباني، وهو يلوّح بذراعيه ويصرخ، يتجاهله أبي، ويميل إلى اليسار على الطريق المستقيم الطويل الذي نقطن فيه، تشهق أمّي في المقعد

المجاور، يوقف أبي السيّارة، ويطفئ المحرّك، أمدّ رقبتي لأرى، هناك ثلاث دبّاباتٍ بنّية اللّون تربضُ في صفٍّ في الطريق أمامنا، يتريّث أبي، لا شيء يحدث لمدّة دقيقةٍ كاملةٍ، بعد ذلك تتحرّك الدبّابة الموجودة في جهة اليسار ببطءٍ نحو شارعٍ جانبيٍّ، وخلْفَها سحابةٌ من الدخان الأسْود، كذلك الدبّابة الموجودة في الجانب الأيمن تفعل الأمر نفسه من الجانب الآخر.

- «سيسمحون لنا بالمرور». يقول أبي.

ننتظر أنْ تتحرّك الدبّابة التي في الوسط، وعوضاً عن ذلك، يدور بُرج الدبّابة ليصبح في مواجهتنا.

- «يا لطيف!». تقول أمّي، وهي تمسك بذراع أبي.

وفي الّلحظة نفسها يظهر جنديٌّ من أحد الشوارع الجانبيّة، فيُطلق النار في الهواء من بندقيّته، ويتردّد الصوت بين الأبنية، يصرخ الجنديّ بنا، ويلوّح بذراعه الأُخرى.

- «ارجعوا، اخرجوا من هنا!».

يتردّد أبي، فيُصوِّب الجنديّ بندقيّته نحو السيّارة، فيندفع أبي بالسيّارة إلى الوراء، تتدحرج السيّارة إلى الخلْف بينما يرتطم الرصاص بالرصيف أمامها، أمّي تصرخ، ويدير أبي عَجَلة القيادة إلى اليمين، نسمع صرير العَجلات فيما ننزلق لنصبح في الاتّجاه الآخر، يديرُ أبي المِقوَد، ويُعشِّق عصا تبديل الحركة، ننطلق إلى الأمام، ونعود بسرعةٍ إلى الزاوية في الشارع الجانبيّ، يضغط أبي على المكابح بقوّةٍ، ويتوقّف إلى اليمين، تتنفّس أمّي بصعوبة.

- «بابا!». أقول أنا.

تبدأ شهد بالبكاء.

- «ما الذي يحصل؟». تسأل سارة.

هناك طَرْقٌ على نافذة السيّارة، أزعقُ فَزِعةً، ثمّة رجُلٌ يحدّق في السيّارة، يخفض أبي زجاج النافذة.

- «الحمد لله». يقول الرجُل: «أنتم في أمان».

ينظر الرجل إلى المقعد الخلفيّ، وننظر نحْوه مرتجفات.

- «يا إلهي!». يقول الرجُل: «معك أسرتك الجميلة أيضاً، هل رأيتم الدبّابات؟».

- «بالطبع». يجيبه أبي: «ما الذي يحصل؟ علينا أن نصل إلى المنزل». يتردّد صدى إطلاق النار عبْر كُتل الأبنية على بُعد بضعة شوارع. «عليكم أنْ تأتوا إلى الداخل». يقول الرجُل: «تعالوا إلى بيتي». يفتح أبي باب السيّارة من جهته، ويستدير نحونا.

- هيّا تعالوا، دعونا نذهب.

أخرج من السيّارة مرعوبةً، يمكن أنْ يكون هذا الغريب ما لا نتوقّعه، وفيما نعبْر الطريق نسمع دويّ انفجارٍ، تُطلق الدبّابة النار على الشارع الذي نحن فيه، ليس لدينا خيارٌ آخَر، نندفع من خلال باب الرجُل الغريب نحو شقّةٍ كبيرةٍ في الأعلى، يُشير الرجُل إلى أريكةٍ كبيرةٍ، ويطلب إلينا الجلوس، تتسلّق شهْد الأريكة إلى جواري، أطوّقها بذراعي، ثم تميل على كتفي، يهْرع الغريب صعوداً ونزولاً متحاشياً النوافذ.

- «ما الذي كنتم تفعلونه في الشارع هناك؟». يسأل الرجُل.

- «كنّا عائدين إلى المنزل». يجيبه أبي: «نحن نسكن عند نهاية الطريق، كنّا في المدينة لزيارة الأقارب».

يقول الغريب: «كان عليكم البقاء هناك، ألمْ يخبركم أحدٌ بما كان يحدث؟».

- «لا». يجيبه أبي: «لمْ نشاهد أيّة أخبار، ما الذي يحصل؟».

- «معركة». يقول الرجُل: «هاجم الثوّار حاجزاً في كفرسوسة بالقرب من وزارة الخارجيّة، وردَّ الجيش، وأوقف المتظاهرين في المسجد هنا، وهُم الآن -الجيش- يهاجموننا هنا».

- «ما الذي تعنيه؟». يسأله أبي.

تطلق الدبّابة النار مرّةً أُخرى على الشارع، ويتردّد صدى الرشقات من مسافةٍ بعيدة.

- «إنّهم يطلقون النار علينا، أعني على الثوّار، من الجبل». يقول الرجُل.

يتابعه أبي بحذر.

- كيف تعرف هذا كلّه؟

- «أنا رئيس بلديّة داريّا». يبتسم الرجُل قائلاً.

يتناهى إلى مسامعنا المزيد من فرقعة إطلاق النار في الخارج عبْر كُتل الأبنية البعيدة، يخطو رئيس البلديّة إلى زاوية النافذة، ويزيح طرف الستارة: «يريد جيش الثوّار استعمال داريّا قاعِدة انطلاقٍ لغزْو دمشق». يقول لنا الرجُل، ويُضيف أنّ الحكومة تسعى إلى طرْد الرجال المسلّحين جميعهم من المنطقة، وقد يستمرّ القتال طيلة الّليل، نجلس وننتظر، وبعد ساعةٍ، أو نحو ذلك، أصبحت الشوارع أكثر هدوءً، وصار إطلاق النار بعيداً، تنظر أمّي إلى أبي.

- «يجب أنْ نغادر الآن، ونعود إلى بيت أمّي». تقول.

يُقطِّب أبي حاجبَيه، تنام شهد بطمأنينةٍ على كتفي، وأشعر بالسعادة لكونها أصغر من أنْ تفهم ما يحدث، تحدِّق سارة في الأرض، ثمّ ترفع رأسها، وتقول: «دعونا نعود إلى بيت جدّتي، رجاءً».

ينظر أبي نحوي، ثمّ ينظر إلى شهد.

- «كلّا». يقول أبي ردّاً على طلب سارة: «هدأت الأمور الآن، لقد ولّت تلك الدبّابات، سوف نعود إلى البيت».

يقوم رئيس البلديّة بتعديل الستائر مرّةً أُخرى، الشوارع صامتةٌ، توقظ أمّي شهد بلطفٍ وتلتقطها، تطوّق الفتاة الصغيرة بذراعيها عُنق أمّي، وتضع رأسها على كتفها، ننهض أنا وسارة واقفَتَين، يلتفت أبي إلى رئيس البلديّة، ويضع يده على صدره شاكراً.

- «سلّمك الله». يجيب الرجُل: «في أمان الله».

نتسلّل من الباب، ونعبُر الطريق إلى السيّارة، لا شيء يتحرّك في الشارع، صارت أصوات إطلاق النار وقذائف المدفعيّة بعيدةً نحو الشمال باتّجاه كفرسوسة، نركب السيّارة، ونغلق الأبواب بهدوءٍ ما أمكَننا، ويدير أبي المحرّك، ويتّجه ببطءٍ نحو طريقنا، يأخذ اليسار، أرفع رقبتي من المقعد الخلفيّ لأرى من الزجاج الأماميّ، لا دبّابات، ولا سيّارات، ولا جنود، لكنّ الطريق بلا معالم، والشارع ممتلئٌ بالكابلات الكهربائيّة، والأعمدة الخشبيّة المكسورة، وبقايا من حُطام الأشجار، استلقت أعمدة الكهرباء مثل الأغصان المتناثرة عبْر الطريق، والأسلاك تتأرجح متشابكةً يصْدر عنها الشرَر، وتحطّمت واجهات المتاجر والنوافذ جميعها، مُخلّفةً ما يشبه سريراً من حُطام الزجاج على طول الرصيف، يناور أبي بالسيّارة ببطءٍ بين الأنقاض؛ ليستطيع التقدّم أكثر، ثمّ يتوقّف، يظهر جنديٌّ يرفع بندقيّته إلى الأعلى.

- هل أنت مجنون؟

يصرخ الجنديّ، ويتردّد صوته عبْرَ الشارع المُدمَّر. كان يهرول إلى السيّارة، تمسك أمّي بذراع أبي.

- «ما الذي تفعله هنا؟!». يقول الجنديّ لأبي، وهو يُلقي نظرةً على المقعد الخلفيّ: «أنت مع عائلتك؟ عليك أنْ تخرج من هنا».

- اِرجع إلى الخلْف.

- «عزَّت، أريد أنْ أذهب إلى بيت أمّي الآن، أرجوك اذهب!». تقول أمي. لكنّ أبي لا يتحرّك.

- «لنْ أغادر بيتي». يجيبُها قائلاً.

- «إذنْ، أخرجنا من هنا على الأقل». تقول أمّي بصوتٍ يختنق بدموع الخوف.

تبدأ أمّي بالبكاء، بينما يضع أبي ذراع التوجيه مرّةً أُخرى إلى الخلْف، ويدوس بقدمه على دعسة الوقود، يدير مِقوَد السيّارة لتدور حَوْل نفسها. سلكْنا الطريق الجانبيّ إلى الأسفل خلْف منزل رئيس البلديّة، واتّجهنا نحو البساتين، وازداد بكاء أمّي.

أمّا سارة، فيبدو عليها الشحوب، وهي تمسك بقبضة اليد فوق رأسها، وبيننا أنا وسارة تجلس شهد، وهي تنظر بهدوءٍ إلى الأمام، أُمسك بها حَوْل الكتفين لتثبيتها، ونحن نلتفُّ في الشوارع المهجورة. يوقف أبي السيّارة في كفرسوسة، كلّ شيءٍ هادئٌ، وتوحي الأصوات التي تتناهى من بعيدٍ أنّ القتال قد انتقل إلى مكانٍ آخر، يتركنا أبي، ويذهب وحْده مشياً على الأقدام نحو داريّا.

يتأرجح كتِفا أمّي، وهي تدخل مقعد السائق متلمِّسةً مفاتيح السيّارة، فنجلس في المقعد الخلفيّ مصدوماتٍ بالقدْر الذي يجعلنا عاجزاتٍ عن الكلام، تقود أمّي ببطءٍ عائدةً بنا إلى المدينة المظلمة حيث منزل الجدّة، تُلاقينا المرأة العجوز عند الباب، تضمّ كلّ واحدةٍ منّا بدورها إلى ذراعيها. استلقينا مرهقاتٍ على الأرائك في غرفة المعيشة، غفوتُ على صوت أمّي، وهي تبكي.

4

كان العنف لا يزال مُستعراً بالقرب من منزلنا في داريّا وقتَ مغادرتي للمشاركة في ألعاب أطفال آسيا في روسيا بعد بضعة أيّام، لا أستطيع العودة إلى المنزل قبْل سفري، لذلك أكتفي فقط بأخذ حقيبةٍ صغيرةٍ من الملابس معي، لستُ قلِقةً كثيراً، أنا على ثقةٍ من أنّ كلّ شيءٍ سيعود إلى طبيعته بحلول عودتي.

أسافر مع المنتخب السوريّ إلى ياكوتسك، وأشعر بالسعادة للحصول على شيءٍ من التسلية في المسبح، كذلك يسعدني وجود رفاقي في المنتخب الذين أصبحوا أشبه بعائلةٍ ثانيةٍ لي، أُبعِدُ عن نفسي كابوس الدبّابات الثلاث الرابضة على طريقنا، وأُركِّزُ في المهمّة الوشيكة.

سنواجه الرياضيّين الشباب من روسيا، وآسيا الوسطى، والشرق الأقصى، وبعض دول الشرق الأوسط، أنا أُبلي بلاءً حسَناً، وأساعد فريق التتابع في مجموعتنا العُمريّة على الفوز بميداليّتين برونزيّتين في سباق التتابع 4 × 100 متر و 4 × 200 متر حُرّة، وذلك بفوزه على فريقٍ كازاخستانيٍّ، وفريق روسيّ. ميداليّتان برونزيّتان! ليتَ أبي يسمع هذه الأخبار، سيكون في غاية السرور، أتّصل به من فندق الرياضيّين، فلا يمكنني الوصول إلى هاتفه؛ لذا أحاول الاتّصال برقم أمّي، وأزفُّ لها خبر الميداليّات.

- «أحسنتِ يا حبيبتي». تقول أمّي.

يبدو صوتها بارداً ومُشتَّتاً.

- «كيف الوضع؟». أسألها: «هل عدتم إلى داريّا أم ليس بعد؟».

- «كلّا». تُجيبُ أمّي: «لقد غيّرنا الخطّة».

أصبح بيت جدّتي مزدحماً، لذا سألَت أمّي عمّتي إنْ كان بإمكانها البقاء في منزلها الخالي. يقع بيت عمّتي في مخيّم اليرموك، وهو حيٌّ في دمشق تقطنه أجيالٌ من اللّاجئين الفلسطينيّين النازحين، كان أبي وأمّي يأملان أنْ تكون الأمور أكثر هدوءً هناك، ولكنْ بعد أيّامٍ قليلةٍ اندلعت الاحتجاجات، وانزلَقت إلى العنف، وفي إحدى اللّيالي كان القتال مُحتدماً للغاية إلى درجة أنّهم لمْ يتمكّنوا من الوصول إلى منزل عمّتي؛ فكان عليهم العودة إلى منزل الجدّة.

- «ماذا؟!». أقول متفاجئةً عندما تنتهي أمّي من الكلام، أشعر بالقلق والانزعاج، كنت هنا في روسيا أحتفل بميداليّاتي معتقدةً أنّ كلّ شيءٍ عاد إلى طبيعته في الوطن.

- لماذا لمْ يخبرني أحد؟

- «لا بأس يا يُسرى، لمْ نكن نريد أن نقلقكِ». تقول أمّي: «سنعود إلى المنزل عندما تهدأ الأمور».

إلاّ أنّ الأمور لمْ تكن قد هدأت حينما عُدت إلى البيت؛ فالمدفعيّة الثقيلة، والدبّابات تملأ الشوارع في داريّا، والمناطق الجنوبيّة من دمشق جميعها أصبحت معزولةً. أمْضت أمّي، وسارة، وشهد، بقيّة الشهر مُعسكِراتٍ في غرفة معيشة بيت جدّتي، إنّه شهر رمضان، شهر رمضان المبارك الذي نصوم فيه خلال ساعات النهار. يواظب أبي على الذهاب إلى منزلنا في داريّا؛ لمراقبته وحمايته من اللّصوص، وفي معظم الأمسيات

بعد حلول الظلام يأتي لتناول الإفطار معنا، ثمّ يتجشّم عناء المرور من حواجز التفتيش إلى خارج المدينة، وبمجرّد وصوله إلى المنزل يتّصل بنا لطمأنتنا أنّه آمِن.

في المنزل، يخفي أبي صورة سارة مع الرئيس الأسد، فهو قلقٌ من أنْ يراها جيش الثوّار، فيدمّروا منزلنا، أو يفعلوا ما هو أسوأ، وفي طريق العودة إلى دمشق كلّ صباح، يُظهر أبي ميداليّاتنا عند نقاط التفتيش، ويخبر الجنود أنّ بناته يسْبَحنَ باسْم سوريا، وفي إحدى الّليالي في أوائل آب/ أغسطس، لمْ يتّصل بنا أبي ليطمئننا أنّه وصل بأمان، نجلس بشحوبٍ وقلقٍ في غرفة المعيشة في بيت جدّتي، وتحاول سارة الاتّصال به مراراً وتكراراً، لكنّه لا يجيب، وتتّصل بعمّنا حسام، وتخبره أنّ أبي مفقودٌ، فيوافق على الذهاب إلى منزلنا والتحقّق من الأمر، كان الوقت متأخّراً ليلاً عندما اتّصل عمّي حسام بسارة، تنتهي سارة من المكالمة، وتنظر نحونا بعينين ذاهِلتَين، وتقول:

- «أبي حيّ، لكنّه تعرّض للضرب، فاصطحبه عمّي حسام إلى منزله، الوضع خطيرٌ جدّاً في البيت».

أخاطبها ذاهلةً: «أيعني هذا أنّنا لنْ نعود إلى البيت بعد الآن؟».

أمّي وسارة تحدِّقان في الأرض، هذا سؤالٌ لا تستطيع أيّ منهما الإجابة عنه.

في اليوم التالي يأخذنا عمّي حسام من بيت الجدّة، ويصحبنا لرؤية أبي الذي بدا في وضعٍ سيّئٍ، مُلقى على الأريكة يمسك بظهره، ولا يعرف من الذي هاجمه، أمسك به مجموعةٌ من الرجال في طريق عودته إلى المنزل، واقتادوه إلى مبنى في مكانٍ ما في داريّا، علّقوه رأساً على عقبٍ من قدميه وضربوه، مضتْ ساعاتٌ قبْل أنْ يدركوا أنّه الرجُل الخطأ، فتركوه وشأنه،

بعد ذلك ألقوا به في الشارع، وتركوه يزحف إلى البيت، وجده حسام مُلقى على الأرض مباشرةً داخل منزلنا؛ أخذ الرعب يتملّكني.

- «يجب علينا إيجاد مكانٍ آخر للعيش فيه، لا يمكننا البقاء في داريّا، لمْ يعد المكان آمناً، سوف نذهب إلى دمشق». يقول أبي.

تبدو الغرفة كأنّها تدور.

- «ولكنْ ماذا عن أشيائنا؟». أسألُ أنا.

يهزّ أبي رأسه قائلاً: «لقد جلبنا الأوراق المهمّة، لا يمكننا العودة بعد الآن».

لنْ أرى منزلنا مرّةً أُخرى بعد ذلك اليوم؛ فقد كانت تلك آخر مرّةٍ ندخل فيها منطقةً تسيطر عليها المعارضة، وسنسمع في وقتٍ لاحقٍ شائعاتٍ تقول: إنّ المبنى الذي يضمّ بيتنا قد دُمِّر بالكامل في القتال، لكنّنا لا نعرف ذلك على وجه اليقين. فقدنا كلّ شيءٍ: صورنا، وألعاب طفولتنا القديمة، والملابس التي حاكتها أمّي لنا في الصِّغر، والحليّ المقلّدة التي اشتريناها في رحلاتِ العُطلات العائليّة جميعها. دُفِنَت حياةٌ من الذكريات تحت الأنقاض، الأشياء الوحيدة التي بقيت هي الملابس التي أخذتها معي إلى المنافسة في روسيا.

ننتقل إلى الصالحيّة، وهي منطقةٌ قريبةٌ من البلدة القديمة وسْط دمشق، أخذَنا أبي وأمّي للإقامة في فندقٍ بنظام الإقامة الطويلة، وهو بيتٌ عربيٌّ دمشقيٌّ مقسّمٌ إلى عدّة شقق، فرّت العائلات الأُخرى جميعها، المقيمة في الفندق، من القتال في داريّا، أو في ضواحي دمشق الأُخرى. لدينا غرفتان كبيرتان في الطابق الأرضيّ، بأسقفٍ عاليةٍ، وأبوابٍ ونوافذ قديمة. من الرواق، يؤدّي الدرج الطويل ذو الدرابزين المعدنيّ إلى الشقق في الأعلى. أفضل ما في البيت الجديد هو الموقع؛ فنحن نقيم فعلاً في البلدة القديمة، وبالقرب من بيت جدّتي، والشوارع هادئةٌ، ومريحةٌ، وطبيعيّة.

على الرغم من الظروف، أنا سعيدةٌ لوجودي هنا في دمشق، كما أنّني فخورةٌ بمدينتي، فهي إحدى أقدم العواصم في العالم، وقد اشتهرت دمشق لقرونٍ في أنحاء العالم العربيّ جميعها بصفتها مركزاً للثقافة والتجارة، وكانت المدينة جوهرة العديد من الإمبراطوريّات، بدءاً بالفرس، واليونانيّين القدماء، والرومان، مروراً بالدولة الأمويّة الإسلاميّة، فالمغول، ووصولاً إلى العثمانيّين والفرنسيّين، ولكنْ بالنسبة إليّ، كما هو الحال بالنسبة إلى آخرين كُثُر، ستكون دمشق دائماً مدينة الياسمين، تلك العرائش الخضراء المزركشة بأزهارٍ بيضاء على هيئة نجومٍ تتسلّق جُدران البلدة القديمة، وتتشابك فوق الأزقّة الضيّقة، لتشكّل مظلّاتٍ سماويّةً عابقةً بالعطر.

جمال المدينة القديمة الهادئ عالمٌ بعيدٌ عمّا يحدث في داريّا. تفيدُ الأخبار بأنّ القتال ازداد ضراوةً هناك منذ مغادرتنا، ويُقال: إنّ مئات الأشخاص قُتلوا، بما في ذلك العديد من جيراننا السابقين، ولمْ نسمع عن الكثير منهم بعد ذلك قطّ، وستُروى لنا قصصٌ رهيبةٌ، لكنّنا لنْ نستطيع فِعل أيّ شيء. أشعرُ بالارتياح؛ لأنّنا خرجنا في الوقت المناسب، كان من الممكن أنْ نكون نحن شخوص تلك القصص الرهيبة، لكنّ الأمور تحدث بسرعةٍ لا يُتاح معها الوقت للتفكير.

على غرار داريّا، لمْ تعد المزّة آمنةً؛ لذا عليّ أنْ أُغيّر المدرسة أيضاً، في أيلول/ سبتمبر أبدأ دراسة الصفّ التاسع في مدرسة دار السلام بالقرب من شقّتنا الجديدة، لا أحد في المدرسة يتحدّث عن الحرب، الفرق الوحيد هو أنّ الناس الآن يبدون أكثر اهتماماً بالديانة التي ننتمي إليها، قبْل ذلك الوقت لمْ تكن مسألة أنّني سُنّيّةٌ تُشكّل أيّة أهميّةٍ، ولمْ يكن من المهمّ كَوْن الأولاد الآخرين علويّين، أو مسيحيّين، لكنْ منذ اندلاع العنف، يبدو أنّ هذه النقطة أصبحت مهمّةً للغاية. يتعلّم الأطفال هذه الأشياء من الأجيال

الأكبر سنّاً: الوالدين، والأجداد، والجميع يبحث عمّن يُلقي عليه الّلوم فيما يحدث.

في أحد الأيّام، في أواخر أيلول/ سبتمبر، تلقّيت مكالمةً من ميرا، صديقتي السبّاحة من الأردن، وهي تسبح مع فريقٍ من النخبة يسمّى النادي الأرثوذكسي، زار النادي دمشق ذات مرّةٍ في مسابقةٍ وديّةٍ فزنا فيها أنا وسارة بمعظم الميداليّات، وأُعجِب المدرّبون بنا نحنُ نجمتَيْ بابا السبّاحَتيْن، فتُخبرني ميرا أنّ النادي يبحث عن مدرّبٍ جديدٍ، ويريد من أبي أنْ يتقدّم لهذه الوظيفة، أُمرّر رسالتها إلى أبي، وبعد بضعة أسابيع يخبرني أنّه حصل على الوظيفة، وسوف ينتقل إلى الأردن في السنة التالية، أنا سعيدةٌ من أجله؛ هذه فرصةٌ رائعة!

- «ستكون تجربةً مذهلةً! يمكننا الاستفادة من المال؛ إذْ يبدو أنّنا سنواصل إيجار أماكن في دمشق حتّى تنتهي هذه الأحداث». يقول أبي.

لا حديث عن ذهابنا معه إلى الأردن، أنا لا أريد الذهاب على أيّة حال، فلديّ حياتي الآن، أنا أحبّ مدينتي، وأحب بلادي، لا تبدو الأمور سيّئةً في سوريا، على الأقلّ بالنسبة إليّ حتّى الآن، لكنْ مع بدء استيعابي للأخبار بدأت أشعر بعدم الارتياح. أنا متحمّسةٌ لأبي، لكنّني قلقةٌ من مغادرته، فهو معلّمي في السباحة، ومدرّبي الذي يعرف ما هو الأفضل بالنسبة إليّ.

في إحدى الّليالي، بعد وقتٍ قصيرٍ من إعلان أبي، وصلتُ متأخّرةً إلى المسبح للتدريب، أرى سارة والسبّاحين الآخرين يقفون في الخارج تسيلُ دموع كثيرين منهم.

- «ما الأمر؟». أسألهم.

تلتفت سارة نحوي، وجهها باهتٌ، وبلا تعابير، وتقول: «لقد مات إيهاب».

- «إيهاب؟! دعكِ من هذه الحماقة، لقد كان هنا في الصيف». أقول لها.

أعود بذاكرتي إلى آخر مرّةٍ رأيت فيها إيهاب قبْل بضعة أشهر، كان ذلك قبل ذهابي إلى روسيا، وكان لا يزال يناكفني لصِغر سنّي، ولا يزال يلقّبُني «بالفأرة الصغيرة». تخبرني سارة أنّ محمّداً شقيق إيهاب قد قُتل أيضاً، وثمّة شائعاتٌ، لكنّ أحداً لا يعرف بالضبط ما حدث. أنزوي مبتعدةً عن المجموعة، والدموع تسيل على خدّي، يا للصدمة! كنت أنتظر أنْ تهدأ الأمور، وإذْ بي أرى أصدقائي يموتون. لا أحد في مزاجٍ للتدريب، يندفع بعض رفاقنا الأكبر سنّاً للذهاب إلى جنازة الأخوَيْن، ونمضي سارة وأنا إلى البيت، وبعد عودتي إلى البيت أجد صعوبةً في فهْم السبب الذي يدفع أيّ شخصٍ إلى القتال، كي يَقتُل ويُقتَل.

يراني أبي أبكي على الأريكة.

- «سمعت عن إيهاب». يقول واضعاً يده على كتفي: «هو في مكانٍ أفضل الآن».

أنظرُ إلى أعلى، وجهي ملطّخٌ بالدموع، ألتقط أنفاسي.

- «لمْ يكن يستحقّ الموت». أقول وسْط التنهّدات.

- «لا». يقول أبي: «لمْ يكن يستحقّه، لكنّنا لا نستطيع التحكّم فيما يحدث في العالم كلّه، الناس يموتون، وعليكِ أنْ تكوني مستعدّةً لذلك».

كان أبي مُحقّاً؛ فقد كان الناس في طريقهم إلى الموت، الكثير منهم، وفي كلّ ليلةٍ نرى في شاشات الأخبار شريطاً في أسفل الشاشة يعلن عدد القتلى اليوميّ في أنحاء البلاد جميعها، عادةً ما يكون الرقم قُرابةَ 150، ولكنْ في الأيّام السيّئة يمكن أنْ تصل إلى ألف، ألف روحٍ تقضي في يومٍ واحد. سيمرُّ عليّ وقتٌ يرغب فيه كلّ من حولي بالتحدّث في شأنٍ واحدٍ

فقط، هو السياسة. أشاهد العائلات تنقسم على نفسها؛ لأنّ أحد أبنائها يقف في صفّ النظام فيما يقف الآخر ضدّه، وتختفي قوافل الشباب إمّا في المعسكر الأوّل، وإمّا في الثاني، من دون أن يعودوا ثانيةً. نعم، أنا ما أزال فتيّةً، لكنّني كبرت بما يكفي لإدراك أنّ بلدنا يهْوي إلى الرعب.

أشعر بخيبة أملٍ كبيرةٍ، لمْ أرغب في ذلك قَطّ، ولم أُرِدْ -قطُّ- أنْ ينهار بلدي، سأفعل أيّ شيءٍ لإعادة عقارب الساعة، ما زلت آمَل، وأدعو أنْ يهدأ الموقف مجدّداً، لكنّ القتل يزداد سوءا، ونسمع قصصاً عن أشخاصٍ من المدرسة يموتون في غاراتٍ جويّةٍ عشوائيّةٍ، أطفال في مثل عُمري، قُتلوا بشظايا طائشةٍ في أَسِرَّتهم في أثناء نومهم. في البداية، ينهشني الخوف في الداخل، ولا أعرف ما إذا كنت أنا التالية، بعد ذلك، ومن دون أنْ ألْحظ حقّاً، أصبحت وقائع الموت عاديّة.

بعد وفاة إيهاب بدأت سارة في تخطّي حصص التدريب، وذات يومٍ، في منتصف الخريف، توقّفت عن المجيء إلى المسبح تماماً، لا كلام، ولا وداع، توقّفت فقط. أبي منشغلٌ بالتخطيط لوظيفته في الأردن، ولا يقول شيئاً.

- «لكنْ لِمَ لا تأتين؟». أسألها في إحدى الّليالي قبْل التدريب.

تنظر من مكانها على الأريكة، وتقول: إنّها ببساطةٍ لم تعد ترغب في المزيد.

- «لكنْ ماذا تقصدّين؟». أسألها.

تتنهّد سارة، وتُدوِّر عينيها.

- «أُنظري، إنّها كتفي، هل فهمتِ؟». تقول سارة: «الإصابة تجعلني أسبح بسرعةٍ أبطأ، الأطفال الأصغر سنّاً جميعهم يسبحون بسرعتي؛ لقد انتهيت».

أُحدّق فيها، أحاول أنْ أتخيّل الحياة من دون سباحة، سيكون هناك الكثير من الوقت، ليس يوماً بعد يومٍ فقط، ولكنْ سنة تِلوَ السنة، ولِما تبقّى من حياتي، أتخيّل السنوات الممتدّة إلى المستقبل من دون منافساتٍ، أو معسكرات تدريب، وعوضاً عن ذلك، الزواج، والمنزل، والأطفال، فتنتابني الرعشة.

تقرأ سارة أفكاري.

- «لا تقلقي بشأني». تقول وهي تبتسم: «لن أشعر بالضجر».

بعد ذلك ستستعمل سارة حريّتها الجديدة لاستكشاف المدينة القديمة في جوارنا، نادراً ما أراها، فهي تقضي أمسياتها متجوّلةً في سوق الحميديّة، وهو سوقٌ قديمٌ مغطّى بسقفٍ قِبَبيٍّ مرتفع. يُعدّ السوق ملاذاً للباحثين عن اللّهْو، وهو مزدحمٌ دائماً بالمتسوّقين الذين يتأمّلون الملابس، والمجوهرات، والتحف، والحليّ المقلّدة، وحين لا تكون في السوق، تتسكّع سارة في مقهى بالقرب من مدرستي، وتتحدّث، وتغنّي، وترقص مع صديقاتها.

أصدقاؤها المقرّبون هُم مجموعةٌ تضمّ سبعة شُبّانٍ، تربط سارة شعرها بتسريحةٍ تشبه الكعكة، وتقتصر مجموعة ألبستها على بناطيل الجينز الواسعة، وكنزات القطن الفضفاضة، وأعتقد في بعض الأحيان أنّه من الصعب تمييز كونها فتاةً تجلس مع أصدقائها الذكور. أبي ليس سعيداً بهذا على الإطلاق. نتشارك أنا وسارة الغرفة لا أكثر، أنا أسبح، وهي تتسكّع. نبذل قصارى جهدنا لتجاهل الحرب، وعندما نتحدّث، نتحدّث باللّغة الإنجليزيّة حتّى لا يفهم أبي وأمّي.

- «أشعر بالغيرة». أقول لسارة في إحدى اللّيالي، ونحن نستعدّ للنوم.

- «ما الذي تعنينه؟». تسأل سارة.

- «أقصد أنكِ لا تُلقين بالاً لما يقوله أيّ أحد، أنت مجنونةٌ، ولا تفكّرين في العواقب أبداً، لا يمكنني فِعل هذا، فأنا أفكّر دائماً بما قد يحدث».

- «أجلْ، أنتِ مسمار أمان». تقول سارة، وهي تخبط ساقي بيدها.

- «أقصد أنّه ربّما يجب عليكِ أنْ تُنصِتي أكثر لما يقوله أبي، وعندها لن يخافَ عليكِ كثيراً».

- «لا معنى لهذا كلّه». تقول سارة: «ما يقولونه كلّه هو أنّكِ فتاةٌ؛ لذا عليكِ أن تفعلي أشياء دون سواها، إنّهم لا يعرفون شيئاً». أتجاهلها وأصعد السرير.

ينتهي عقد إيجار الشقّة في أواخر تشرين الثاني/ نوفمبر، يحاول أبي تجديده لكنّ المالك يرفض؛ هناك مؤجِّرون آخرون ينتظرون، ويرغبون في دفع ما يفوق ذلك بكثير؛ إذْ ينتقل الكثير من الناس إلى دمشق هرباً من القتال في الضواحي، ويمكن جَنْي مبالغَ ماليّةٍ جيّدةٍ من أزمة السكن. يعود أبي إلى الوسطاء العقاريّين، يبحث في المدينة عن شقّةٍ بسعرٍ معقولٍ في منطقةٍ هادئةٍ وآمِنةٍ، الخيارات محدودةٌ، فدمشق ممتلئة. وسطاء العقارات مثل أسماك القرش، ويطالبون بعمولاتٍ هائلةٍ، ولكنَّ مُلّاك العقارات أسْوأ؛ يعلمون أنّ بإمكانهم تأجير أيّة مساحةٍ مهما كانت حالها، وبأسعارٍ مرتفعةٍ، وأنَّ الناس سيدفعون.

أخيراً، يستقرّ أبي على دَوْرٍ سفليٍّ فارغٍ في منطقة البرامكة، في جنوب وسط المدينة، يوقّع عقداً لمدّة ستّة أشهرٍ، ويبدأ تحويل المكان من غرفة تخزينٍ مهملةٍ إلى شقّةٍ، ويستبدل شبكتَيْ: السباكة، والكهرباء، ويطلي الجدران الرطبة، ويفرش الغرف بأثاثٍ جديدٍ، يبذل أبي قصارى جهده، لكنْ في المرّة الأولى التي أخطو فيها داخل الدّوْر السفليّ يهبط قلبي، المصدر الوحيد للضوء الطبيعيّ يأتي عبْر مجموعةٍ من الأبواب التي تؤدّي

إلى فناءٍ داخليٍّ، ونظراً إلى أنّنا في فصل الشتاء، فإنّ هذه الأبواب تظلّ مغلقةً بإحكام.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أجد سارة في الجزء الخلفيّ من الشقّة تنظر بعبوسٍ نحْو مرحاضٍ مظلمٍ ومخيفٍ تملؤه العناكب، أرفع حاجبيَّ، وأتبعها عبْر المطبخ إلى كوّةٍ صغيرةٍ فيها سريران منفردان، إنّها غرفة نومنا الجديدة. لا يوجد بابٌ يفصلها عن المطبخ، وهذا يعني أنّ رائحة الطبخ ستعلقُ بملابسنا دائماً، وفي اليوم التالي، عندما أصل إلى المسبح، يشمُّ مدرّب السباحة رائحة ثيابي، ويسألني لِمَ لها رائحة الباذنجان المقليّ، يحمرُّ وجهي خجلاً، وأنسحب إلى غرفة تبديل الملابس.

في إحدى اللّيالي، بعد أيّامٍ قليلةٍ من انتقالنا، نسمع طرْقاً عاجلاً على الباب، فيفتح أبي الباب لتدخل مجموعةٌ من الحرّاس يرتدون الزيّ العسكريّ، يطلب أبي منّي ومن سارة أنْ نأخذ شهد إلى غرفتنا، ننهض عن الأريكة، ونخرج إلى المطبخ، تدخل أمّي بعد قليلٍ، وتبدو عليها الصدمة، تقول: إنّ الحرّاس أتوا من مفرزة أمن الدولة المجاورة، وهُم يريدون رؤية بطاقاتنا الشخصيّة، ومعرفة من نكون، ومن أين انتقلنا، وماذا نفعل، بعد ذلك سيتردّد الحرّاس لزيارتنا مرّةً كلّ يومين، وأحياناً في وقتٍ متأخّرٍ من اللّيل، يجلسون لساعاتٍ في الغرفة الأُخرى، ويتحدّثون إلى أبي.

الأمر الجيّد الوحيد في العيش في هذا الدّوْر السفليّ هو أنّني أستطيع الذهاب إلى المسبح سيْراً على الأقدام، أنا أستعدّ للمنافسة الدوليّة القادمة؛ إذْ إنّني في القائمة الأوّليّة لبطولة العالم للمسارات القصيرة في إسطنبول، هذه أكبر منافسةٍ سأخوضها حتّى الآن، وأنا في قمّة الإثارة، إنّه لشرفٌ كبيرٌ أنْ أسبح باسْم سوريا في بطولة العالم، تلك هي الدرجة التالية على السلّم نحْو الأولمبياد، أقضي الأسابيع القليلة القادمة أتدرّب بجدٍّ، فأنا في غاية

التركيز والسرعة، ويملؤني الشعور بالثقة، أطير إلى تركيا في أوائل كانون الأول/ ديسمبر مع المنتخب الوطنيّ، كان أدائي جيّداً، وقد سجّلتُ رقماً قياسيّاً جديداً في سباق 400 متر حُرّة.

سيتلاشى زهوُ انتصاري عندما ينتقل أبي إلى الأردن بعد بضعة أسابيع، أشعر بالضيق بينما نودّعه في المطار، إلاّ أنّني في الوقت نفسه لا أجد مفرّاً من الإحساس بشيءٍ من الراحة، فقد سئمتُ من الجدال المستمرّ، والتوتّر بين أبي وسارة. أعلم أنّني لا أريد الذهاب معه إلى الأردن، فضْلاً عن أنّنا ما زلنا نعتقد جميعاً أنّ الوضع سوف يهدأ في أيّ يومٍ، وسيتوقّف العنف، ويمكننا جميعاً أن نواصل حياتنا.

أعيشُ لأسبح، تتركّز أنظاري الآن على دورة الألعاب الآسيويّة للشباب في الصين خلال الصيف، وأفترض بعد نجاحي في إسطنبول أنّ المدرّبين سوف يرسلونني لأنافس باسْم سوريا، وخلال الأسابيع القليلة المُقبلة سيكون تركيزي أعلى من أيّ وقتٍ مضى، وأستعدُّ للمنافسة بالتدريب الشاقّ، فأنا على قناعةٍ بأنّ هذه هي فرصتي، وذات يومٍ، في شهر كانون الثاني/ يناير، وبعد التدريب، جاءتني نيرمين، زميلتي في الفريق، وعلى فمها ابتسامةٌ عريضةٌ، وقالت لي: «احزِري ماذا؟ سيرسلونني إلى الصين، إلى دورة الألعاب الآسيويّة».

تسمّرتُ في مكاني، وسألتها بذهول: «ماذا؟». وأنا أنظر إليها متجهّمةً بينما تتفحّص هي وجهي.

- أوه، هل ظننتِ...؟

أُمسكُ حقيبتي، وأدير لها ظهري، ثمّ أذهب باحثةً عن المدرّب.

- «هل صحيحٌ أنّك سترسل نيرمين إلى الألعاب الآسيويّة؟». أقول، وأنا أغالِبُ الدموع.

يعبسُ المدرّب، ويقول لي: «نعم، سوف تذهب نيرمين».

أُحدِّق في وجهه، والغضب يملأ حنجرتي: «لكنّني أفضل منها، يمكنك اختبارنا، سأسابقها الآن، سأسابقها الآن».

- «ليس دوركِ هذه المرّة يا يسرى». يقول المدرّب: «لقد ذهبتِ إلى تركيا».

- «ماذا؟». أصرخُ قائلةً: «منذ متى والمسألة تتعلّق بالتناوب؟ السبّاح الأفضل هو من يجب أنْ يذهب، هيّا اختبرنا».

يطوي المدرّب ذراعيه.

- «هي من ستذهب». يقول لي: «انتهى النقاش، لقد أخذتِ دورَكِ من قبل».

أستديرُ وأندفع مُغادِرةً المسبح، بعد عشر دقائق، أهبط إلى الدّوْر السفليّ، ووجهي مبلّلٌ بدموع الغضب، ترغب أمّي في معرفة ما الذي جرى، لكنّني أطلب إليها أنْ تتركني وحْدي. لست قادرةً على الكلام الآن، أنا مستاءةٌ جدّاً، أرمي نفسي على السرير وأنتحِب، لا يمكن أنْ تذهب نيرمين إلى الصين، لا يمْكنها ذلك، أنا أحبّها، وهي سبَّاحةٌ جيّدةٌ، لكنّني أفضل منها، وقد علّمني أبي أنّ المرء في السباحة يكون وحْده، فالمسألة لا تتعلّق بمعركة أحدٍ سوى السبّاح نفسه، الأمر في غاية الصعوبة، وأنا لا أريد إيذاء أحد، لكنْ هذه رياضة، لا علاقة هنا لأنْ يكون المرء لطيفاً، بلْ يتعلّق الأمر بالفوز، لديّ هدفٌ، وعليَّ الوصول إليه.

سيكون هذا مستحيلاً ما لمْ يأخذني أحدهم على محْمل الجدّ، فأنا بالنسبة إليهم مجرّد فتاةٍ صغيرةٍ، ومن دون أبي، ليس هناك من يدافع عنّي، كان سيقلب اتّحاد السباحة بأكمله حِرصاً على أنْ أخضع للاختبار؛ أمّا الآن، فقد رحل إلى الأردن، ويبدو الأمر بلا طائل من دون وجوده. أغفو مُرهقةً

ومشوّشةً، وفي اليوم التالي أذهب إلى المسبح، وأتدرّب كالمعتاد، لكنّ هناك ما ينقصني، أشعر بالخواء، وكلّ انتقادٍ من مدربِّي يجعلني أرغب في الخروج والمغادرة على الفوْر، أنسابُ مع تدفّق الماء، وأسبح مثل زومبي.

في إحدى اللّيالي، في أواخر شباط/ فبراير، قابلتني سارة بعد التدريب في المسبح، من المقرّر أنْ تصطحبنا أمّي بالسيّارة وتأخذنا إلى بيت جدّتي، نسير معاً على طول الطريق الممتدّ إلى جانب الاستاد الرياضيّ، عندما نسمع صوت صفيرٍ قويٍّ يخترق الهواء فوقنا، تدفعني سارة من كتفي، وتُلقي بي نحو الجدار الإسمنتيّ، أضع يدَيَّ على رأسي، وأتأهّب بينما ترتطم قذيفةُ هاون بالطريق أمامنا، ترتجُّ الأرض، وينهمر الزجاج مثل المطر على الرصيف، أنظر إلى أعلى ساحبةً أنفاسي بصعوبةٍ، لقد نسف الانفجار نوافذ فندق الرياضيّين جميعها، تُمسك سارة بذراعي فيما أترنّح للنهوض على قدمَيّ، نهتزُّ كلانا، وبالكاد أستطيع التنفّس.

- «أنظُري!». تصرخ سارة مشيرةً إلى نهاية الطريق.

نرى سيّارة أمّي ترجع مسرعةً إلى الوراء بحركة استدارةٍ ثلاثيّةٍ، نسمع المزيد من الصفير فوق رؤوسنا، ولكنْ بصوتٍ خافتٍ أكثر هذه المرّة.

- «اركُضي». تصرخ سارة.

نجري بجانب الفندق، وأقدامنا تطحن الزجاج المكسور، نصل إلى السيّارة، نفتح الأبواب، ونقفز.

- «ماما، انتظري». أقول لاهثةً: «أصدقائي لا يزالون في المسبح».

- «لنْ أنتظر أحداً». تقول أمّي.

تضغط أمّي على مكبح الوقود، يمزّق صوتُ صفيرٍ آخر السماءَ فوقنا، فينخطف رأسي إلى الوراء بينما تنطلق أمّي بسرعة، ومن النافذة الخلفيّة للسيّارة أشاهد القذيفة، وهي تمزّق العالم من حَوْلي.

الجزء الثالث

القذيفة

5

telegram @soramnqraa

- «لقد سئمتُ من السباحة». أقول.

ينقرص قلبي في سكون مطبخ القبْو الذي نعيش فيه، ولو غادرتُ الآن سأكون متأخّرةً عن التدريب، لأوّل مرّةٍ في حياتي لا أهتمّ، تنظر أمّي، وهي ترفع عينَيها عن المقلاة التي تُحرّكها. «ماذا؟». تسأل أمّي: «كيف يمكن أنْ تقولي هذا؟ ماذا تقصدين بقولكِ: إنّك سئمتِ من السباحة؟».

- «ماما، لقد شاهدتِهم يقصفون الفندق». أقول لها.

- «كان يمكن أنْ أموت».

تخطو أمّي نحْوي، وجبينها متغضّنٌ من القلق، تضع يدها على كتفي، وتقول لي: «هل ستُفرّطين بكلّ شيءٍ بعد هذا الجهد كلّه؟ بعد ما قمتِ به كلّه؟».

أهزّ رأسي، كانت تلك القذائف في الفندق قريبةً جدّاً، تسبّبَ الانفجارُ في مقتلِ رجُلٍ كان داخل المبنى اسْمه يوسُف سليمان، وهو مهاجمٌ في نادي الوثبة الحمصيّ لكرة القدم، يبلغ من العمر ستّةً وعشرين عاماً، كان في غرفته في الدّوْر الأوّل عندما سقطت قذائف الهاون على الطريق في الخارج؛ انفجرت النوافذ، وأُصيب يوسُف في رقبته بشظيّةٍ من الزجاج، وتوفّي فيما بعد في المستشفى تاركاً وراءه زوجةً وطفلاً عُمره ستّة أشهر،

وفي وقتٍ لاحقٍ أظهرت الصور في الصحافة أعضاء الفريق يجلسون في حالة ذهولٍ محطّمين في بهْو الفندق. مكثتُ في تلك الغرف عدّة مرّاتٍ، وكان من الممكن أنْ يحدث ذلك لي، أو لسارة، أو لأيّ أحدٍ من أصدقائي الذين يسبحون في هذا اليوم.

- ماما، أنا أعني ما أقوله، لنْ أعود مرّةً أُخرى إلى ذلك المسبح.

يمتقعُ وجه أمّي، تعود إلى المقلاة التي بدأ ما فيها يُفرقِع.

- «يجب أن تتحدّثي إلى والدك أوّلاً». تقول أمّي.

أخطو إلى الحُجرة، آخذ نفسَاً عميقاً، ثمّ أتّصل بأبي، وأُخبره أنّني سأتوقّف عن السباحة، وأنّ مدرّبي لنْ يسمح لي بالمنافسة في الألعاب الآسيويّة، وأنّه سيرسل نيرمين عوضاً عنّي، هذا لَيسَ عدْلاً، فالمدرّب لا يهتمّ مَن هي السبّاحة الأفضل، حتّى إنّه لنْ يقوم بإجراء اختبارٍ، وعلى أيّة حالٍ، أقول لأبي: لا جدوى من السباحة، ليس هناك مستقبل للإناث في سوريا.

- «على رِسْلك». يقول أبي: «أعيدي التفكير في الأمر، سيكون من الصعب جدّاً العودة للسباحة لاحقاً إذا توقّفتِ الآن».

لكنّني متأكّدةٌ، ولا سبيل إلى عودتي إلى المسبح، سأجرّب مساراً آخر، بعد ذلك أُخبر أبي عن القذيفة في فندق تشرين، كان من الممكن أنْ أكون أنا عوضاً عن لاعب كرة القدم هذا. هل يجب أنْ أخاطر بحياتي لكي أسبح؟ يسود الصمت على الطرف الآخر من الهاتف، يقول أبي: «ربّما سأحضركم إلى الأردن».

- «كلّا». أجيبُ قائلةً: «لا أريد أنْ أغادر، لديّ مدرسة وأصدقاء، وطني هنا، وأنا أحبّه!». يتنهّدُ أبي قائلاً: «حسناً، إذا كان هذا هو ما تشعرين به، فلا يمكنني إجبارك على السباحة، أنتِ صاحبة القرار».

أُنهي المكالمة، وأرتمي على السرير، وأضع سمّاعاتي، وأكتم صوت العالم لمدّة ساعتين كاملتين كان يُفترض أنْ أكون خلالهما في التدريب، وفي اليوم التالي لا أذهب إلى المسبح، ولا حتّى في اليوم الذي يليه، لا أُخبِر أيّاً من المدرّبين، أو السبّاحين الآخرين باستقالتي، أختفي فحَسْب، كما لو أنّ الأمر لا يعنيني كثيراً. تطولُ الأيّام، وتغدو غير مألوفةٍ، وأقضي الوقت في الجلوس قُرب البيت بعد المدرسة أشعر بأنّني تائهة.

أمّي قلِقةٌ بشأني، تحاول دفعي لإعادة النظر، وتقول: إنّ هناك أشياء أُخرى يمكنني القيام بها من خلال السباحة، كأنْ أُصبِح مُدرِّبة. لا أريد ذلك، أريد أنْ أنافِس باحترافٍ، وأنْ يكون هدفي هو الألعاب الأولمبيّة للحصول على الميداليّة الذهبيّة، ولكنْ من دون وجود أبي إلى جواري ستغدو المهمّة مستحيلةً، توافِقُني سارة، فهي ترى أنّه ما لمْ يكن لديّ شخصٌ يساندني فلنْ يكون أمامي سوى سنوات من العمل دونما نتيجة.

تستسلم أمّي في نهاية المطاف، لمْ يعد لديها الوقت، أو القدرة، علاوةً على كونها تقوم بدور الأمّ والأب لثلاث بنات، فهي لا تزال تعمل بدوامٍ كاملٍ مدرِّبةً ومعالِجةً طبيعيّةً في النادي في كفرسوسة. المنطقة متوتّرةٌ، وغالباً ما يكون هناك قتالٌ في الشارع، لكنْ ليس لدى أمّي أيّ خيار، فنحن في حاجةٍ إلى المال، يرسل لنا أبي بعض راتبه من الأردن، لكنّ هذا لا يكفي لمواكبة التضخّم الحاصل، فالحرب تُضعِف اللّيرة السوريّة، وتجعل كلّ شيءٍ يبدو أكثر غلاءً؛ إذْ إنّ القوّة الشرائيّة لما تتقاضاه أمّي تتراجع أسبوعاً تِلو الآخر.

تجد سارة وظيفةً للمساعدة في كسْب بعض الدخْل، تعود إلى مسبح تشرين لتدريب الأطفال الصغار، وخلال عدّة ليالٍ في الأسبوع تجرُّني قدماي إلى المسبح مع سارة بهدف السباحة، لكنْ للمتعة فقط، وللحفاظ

على لياقتي البدنيّة. أتجنّب التعاطي مع أيٍّ من المدرّبين، كنت لا أزال ألتقي ببعض السبّاحين خارج حدود المسبح، لا أحد يسأل عن غيابي غير المسوّغ عن التدريب، هُم يعرفون ما حدث، وقد رأوا الكثير من الفتيات يختفين من المسبح من دون سابق إنذار.

ذات يومٍ في نهاية شهر آذار/ مارس، وبعد عودتنا من المدرسة، جلسنا أنا وسارة في القبو الذي نسكنه، سارة على وشك الذهاب إلى عملها في مسبح تشرين، تلتفتُ نحوي، وهي تحزم أغراضها وتتساءل عمّا إذا كنت سآتي معها إلى المسبح، وقبْل أن أتمكّن من الإجابة نسمعُ صوت صفيرٍ يشقّ السماء فوقنا، نجفلُ كلانا، ونتأهّب لما سيتبَع، صوتُ انفجارٍ قويٍّ يهزّ الشارع في الخارج، تهتزّ الجدران، وبعد ثوانٍ تسقط قذيفةٌ أُخرى، أنظر مرعوبةً إلى سارة، هي تُمسك بيدها رافعةً إيّاها نحو الأعلى، نسمع صوت رشقاتٍ ناريّةٍ في الأرجاء.

- «لا بأس». تقول سارة: «لننتظر».

تحبو شهد إلى جواري على الأريكة، بإمكاني أنْ أشعر بها ترتجف وتتوتّر عقِب كلّ صوت انفجار، عمرها خمس سنواتٍ فقط، وهي تعرف صوت إطلاق قذائف الهاون، ويمكنها التمييز بينه وبين صوت غارةٍ جويّةٍ، أو معركة دبّابات، نستمع إلى أصوات الانفجارات، بعضها قريبٌ، وبعضها أبْعد، مرّةً أُخرى ينطلق صوت الصفير فوقنا، فنتأهّب من جديد، وتصيب القذيفة الطريق خارج بابنا الأماميّ، تهتزّ الجدران مرّةً أُخرى، وينهارُ جزءٌ صغيرٌ من الجِبْس من السقف، القصف قريبٌ جدّاً، وأنا أتساءل عمّا إذا كانوا يستهدفون المستشفى الواقع على الطريق قرب بيتنا، تسقط قذيفةٌ أُخرى، هي قريبةٌ جدّاً هذه المرّة، حتّى إنّها أصابت المبنى المجاور لنا، يتحطّم الزجاج، وتتناثر الشظايا من البناء مرتطمةً بباب القبو الموصَد.

«طفح الكيل». تقول سارة: «سوف أتّصل بأمّي». تسحب سارة هاتفها.

- ماما، يجب أنْ تأتي إلى البيت، الجدران تنهارُ في الخارج، الحجارة تضرب الأبواب، ربّما نُدفَن هنا، سوف نعلَق.

تصمت سارة قليلاً، ثمّ تقول: «لا، لا يمكننا الخروج، إنّهم يطلقون النار على الشارع، لا أدري ما العمل».

تبدأ شهد بالعويل، أحضنها بذراعَيّ.

- «طيّب، طيّب». تقول سارة على الهاتف: «كوني حَذرةً، نراكِ بعد قليل، وأنا أحبّكِ أيضاً».

تُقفِل سارة الخط، وتنظر إليّ.

- «أمّي قادمة». تقول سارة.

أتنفّس الصعداء، فأمّي تعرف ما يجب القيام به. يتواصل الهجوم، ننتظر في صمتٍ مجتمعاتٍ على الأريكة نرتعد مع كلّ انفجارٍ، لا خيار أمامنا؛ إذْ إنَّ خروجنا لا يقلّ خطورةً عن بقائنا في مكاننا، أُفكّر في أمّي التي عليها أن تقطع المدينة تحت القصف، ماذا لو حدث شيء لها في الطريق؟ أُبعِدُ هذا الهاجس عنّي، وأثبّتُ شهد بإحكام، أنظر إلى سارة، وهي تحدّق في الأرض، ورأسها بين يديها.

بعد نصف ساعةٍ تتوقّف قذائف الهاون، وتحلُّ محلّها رشقاتٌ من إطلاق النار، تبدو قريبةً في الشارع إلى جوارنا، أُغمِدُ أظافري في كفّي، وأشدُّ أصابع قدَمَيّ داعيةً في صمتٍ أنْ تكون أمّي في أمان، يا الله ساعدها لتصل إلينا. أخيراً، يُفتح الباب، وتتعثَّر أمّي، وهي تنزل الدرجَ إلى القبو، تقفز شهد، وتهرع نحوها مطوّقةً خصرها بذراعيها، تنظر أمّي إلينا أنا وسارة، عيناها لامعتان وبعيدتان، تفتح أمّي فمها، لكنّ الكلمات لا تخرُج منه، تُغلِقه ثانيةً.

- «ماما؟». أخاطِبُها بينما تسيرُ ببطءٍ نحو الأريكة وتجلس، تتسلّق

شهد إلى حضنها، تفتح فمها، وتغلقه مرّةً أُخرى، تنظر إلينا بعيونٍ حزينةٍ وفاغرةٍ، وهي تهزّ رأسها، لا يبدو أنّها تعاني من ألمٍ ما، لكنّها لا تستطيع الكلام. يتقطّع قلبي خوفاً عليها، نجلس في صمتٍ، وننتظرها حتّى تتعافى، ونستمع إلى أصداء نيران مدافع الهاون البعيدة. انقضى ما يزيد عن الساعة قبْل أن استعادت صوتها.

أخيراً، قالت أمّي، وهي تتلَعثم: «اضطّررت إلى أنْ أركض عبْرَ جسر البرامكة، كان هناك إطلاق نار و...».

- «أين ركنتِ سيارتك؟». تسألها سارة.

- «في كفرسوسة». تقول أمّي: «عند المعبَر».

تبتلع أمّي ريقها، وتأخذ نفساً عميقاً، وتفيض عيناها بالدموع، وتقول لنا: إنّ الجيش لمْ يسمح لها بقيادة السيّارة أبعد من ذلك: «أخبروني أنّني لا أستطيع العبور، لكنّني قلت لهم: إنّ عليّ الوصول إلى بناتي فهنّ وحْدهنّ. حاول الجنود منعي، لكنّي نزِلتُ من السيارة ومشَيت، اضطّررت إلى إبراز الوثائق التي تُثبِت أنّني أقطن هنا، كان الطريق خالياً، وكان هناك جنودٌ يراقبونني من وراء أكياس الرمل، كنت خائفة».

تسحب أمّي نفساً عميقاً آخر، وتتدحرج دمعةٌ على خدّها، تبتلع ريقها، وتمسح عينَيها بظاهر يدها، وتقول: إنّها لمْ تستطع أنْ تعرف من الذي يطلق النار على من، أو من أين، أمَرَها شخصٌ ما بالتوقّف، وسألها إلى أين تذهب، وما استطاعت فِعله كلّه هو الإشارة إلى المنزل.

- «كنتُ خائفةً للغاية، ولمْ أكن أعرف ما كنت أقوله». تقول أمّي، وهي تضمّ شهد بحرارةٍ مرّةً أُخرى: «بعد ذلك طلَبَ رجلٌ طيّبٌ، وهو جنديٌّ، إلى الآخرين أن يتوقّفوا عن إطلاق النار، وطلب إليّ أنْ أركض عبْر الجسر، فجريتُ بأسرع ما يُمكنني، ما أردته كلّه هو أن أصِل إليكنّ، كان

هناك الكثير من الناس في الخارج عند الباب، ظنَنتُ... ظننت أنّ مكروهاً قد أصابكنّ».

أُحدِّق في أمّي بينما تهدأ أنفاسها، ويصبِح الأمر ثقيلاً عليّ شيئاً فشيئاً، كان يمكن أنْ تُقتل، أو تصاب بالأذى بسهولةٍ في طريقها إلينا، أحمَد الله أنّها آمنة، وأنّنا جميعاً بخير. الشارع في الخارج هادئٌ الآن، نسمع بين الحين والآخر صوت إطلاق النار البعيد، بعد ذلك تناولنا بعض الطعام، وذهبنا إلى النوم، وقد هدَّنا التعب، أُغمض عيني مُدرِكةً أنّه لنْ يمرّ وقتٌ طويلٌ قبْل أنْ نرحل مرّةً أُخرى، تُريحني الفكرة في بعض جوانبها؛ يجب أنْ تكون أيّامنا في هذه القبْو معدودة.

في صبيحة اليوم التالي تُلقي الأخبار التلفزيونيّة على الإرهابيّين المسؤوليّة عن الهجوم، ضُرِبت أهدافٌ قريبةٌ مِنّا، هي: جامعة دمشق، ومدرسة قريبة، ومكاتب وكالة الأنباء الحكوميّة، وقُتِل ثلاثة مدنيّين بينهم طالبة. نعلم أنّه سيتعيّن علينا الانتقال مرّةً أُخرى، لكنّ العثور على مكانٍ جديدٍ لن يكون بالأمر السهل، تقول أمّي: إنّها ستسأل لمعرفة ما إذا كان أصدقاؤها يعلمون عن وجود شقّةٍ خاليةٍ؛ إذْ تُشَدَّدُ الإجراءات الأمنيّة حَول شقّتنا بعد الهجوم، ويأتينا حرّاس أمن الدولة مرّةً أُخرى في ذلك المساء، وفي المساء التالي، والذي يليه، يريدون أن يعرفوا في الأوقات جميعها ما إذا كنّا داخلين، أو خارجين، وتنتشر المزيد من الحواجز في الشوارع. في ذلك الخميس قتل هجومٌ آخر بقذائف الهاون على الجامعة خمسة عشر طالباً، وارتفعت حدّة التوتّر لدرجة أنّ أمّي أخذتنا إلى بيت جدّتي لقضاء عطلة نهاية الأسبوع.

تقترح إحدى صديقات أمّي عليها شقّةً في حيّ المهاجرين على مسافةٍ قريبةٍ من بيت جدّتي، أبتسم حين تخبرنا أمّي بذلك، فمنطقة المهاجرين واحدةٌ من المناطق المفضّلة لديّ في دمشق، وسُمِّي الحيّ بهذا الاسم

نسبةً إلى المسلمين اليونانيّين الذين انتقلوا إلى المنطقة قبْل مئتي عام، ويمتدّ الحيّ على أحد منحدرات جبل قاسيون، وهو الجبل الذي يُطلّ على المدينة إلى الغرب من القصر الرئاسي، المنطقة غنيّةٌ وجميلةٌ، وقبْل كلّ شيءٍ، هادئة. تتسلّق البيوت التلّة مثل شبكةٍ مُرقّمةٍ، في الجزء العلويّ يقع الشارع الخامس حيث شقّتنا الجديدة، الغرف جميلةٌ وواسعةٌ، مع سقوفٍ عاليةٍ، وهناك شرفةٌ كبيرةٌ تطلّ على المدينة بأكملها.

تتغيّر حياتنا على الفور بمجرّد الانتقال إلى البيت الجديد، ويتلاشى الخطر والضغط، يشبه الأمر أنْ يفتح المرء النافذة، فبعد أربعة أشهرٍ في قبوٍ من دون ضوءٍ طبيعيٍّ، منَّ الله علينا بشُرفة. أقضي ليلتنا الأولى هناك واقفةً في الشُّرفة، مأخوذةً أشاهد النجوم الأولى تتلألأ مع غروب الشمس الداكن، يتردّد صوت الأذان في الشوارع القديمة، أتنهدّ كأنّني في الجنّة.

الشقّة ليست رخيصةً، وأصبح الوضع الماليّ أصعب من أيّ وقتٍ مضى، أمّي وسارة تعمَلان، ويرسل أبي الأموال من الأردن، لكنّ قيمة اللّيرة السوريّة انخفضت كثيراً عمّا كانت عليه. نحن في أمان، لكنّنا لا نعرف إلى متى. لا أحد يعلم ما الذي سيحدث بعد ذلك، لذا تقوم أمّي بادّخار بعض المال لحالات الطوارئ، ومع ندرة المساكن ترتفع الإيجارات بسرعة، ربّما في العام المقبل لن نكون قادرين على الاحتفاظ بهذه الشقّة، أو الانتقال إلى أُخرى، أو حتّى شراء الطعام، يجب أنْ نتوخّى الحذر؛ لمْ نعد نذهب للتسوّق من أجل المتعة.

أقضي معظم الأمسيات في الشُّرفة، أكتب في مُذكّراتي، وأشاهد النجوم تطوف في المدينة، في ليالي الخميس، أوّل ليالي عطلة نهاية الأسبوع، هناك دائماً ما يحدث في الشارع إلى جوارنا. نسهرُ أنا وسارة ونتفرّج، في كلّ أسبوع، مع منتصف الليل، نرى فتاةً جميلةً تدخل الشقّة المقابلة، تبدو في عُمر سارة، ولها عينان واسِعتان بلونٍ داكنٍ، وشعرٌ أسْود

طويلٌ، وبشرةٌ غامقة، دائماً ما ترتدي الكعب العالي، والملابس الجريئة، وتضع مساحيق التّجميل، ننظر إليها بذهولٍ مِلؤنا الحسد.

- «واو!». تهمس سارة: «لا بدّ من أنّ والديها لطيفان جدّاً، هل تعتقدين أنّهما يسمحان لها بالخروج في هذا المظهر؟».

تضع الفتاة مفتاحها في الباب.

- «لا بدّ من أنّهما يسمحان لها، فهي لا تتخفّى». أهمِسُ مُجيبةً سارة.

عندها تَسمعنا الفتاة، وتنظر إلى الشُّرفة، تعبُس، ثمّ تلتفت إلى الباب، وتخطو إلى الداخل.

- «أنا أعرفها». تهمس سارة: «لقد رأيتها في الجوار».

في وقتٍ متأخّرٍ من ليلة الخميس التالية استيقظت على أصوات الضحك، أفَقتُ من نومي، تصِل إليّ قهقهةٌ أُخرى، يبدو أنّها قادمةٌ من الشرفة، أفتح الباب لأرى سارة والفتاة التي شاهدناها في الشقّة المقابلة تجلسان إلى الطاولة تُلوِّنان أظافرهما بلونٍ ورديٍّ فاقعٍ، ترفع الفتاة بصرها، وتبتسم لي، أُقطِّبُ حاجبَيّ بنُعاسٍ، وأنظر إلى سارة.

- «ما الذي تفعلانه؟». أقول.

تجيبُ سارة ضاحكةً: «نطلي أظافرنا». تشير إلى الفتاة قائلةً: «هذه لين».

أنظرُ إليهِما صامِتةً لبُرهةٍ، ثمّ أنسحب عائدةً إلى السرير. منذ ذلك اليوم، لين وسارة لا تفترقان، وفي مساء الخميس الّلاحق تقول سارة: إنّها ستذهب إلى زيارة لين على الطرف الآخر من الشارع، أتوقّع حصول جدالٍ، لكنّ أمّي تخبرها بأنّ عليها أن تعود بحلول منتصف الّليل، لقد فاجأني الأمر، فأبي لمْ يكن ليسمح بذلك قطّ، وفي وقتٍ لاحقٍ، عندما عادت سارة، بدا كأنّها قد تغيّرت تماماً، فقد تبدّل مظهرها المعتاد، بشعرها

الملفوف كالكعكة، وبنطال الجينز الواسع، وكنزة القطن الفضفاضة، وعوضاً عن ذلك، كانت ترتدي فستاناً مستعاراً، وأحذيةً بشرائط، وكان لون طلاء أظافرها بحُمرةِ أحمر الشفاه الفاقع نفسه الذي وضعته، وعيناها مبطنتان بالكحل الأسود الكثيف، وقد حلَّت شعرها الأسْود الطويل.

- «واو!». أقول حينما أراها: «تبدينَ...».

تقاطعني سارة مبتسمةً، وتقول: إنَّ عليَّ أنْ أذهب معهما في الأسبوع المقبل، وتضيف قائلةً: إنّ بإمكان لين تعليمي أشياء كثيرة.

في يوم الخميس التالي ذهبنا أنا وسارة إلى لين في وقتٍ مبكّرٍ، لدى لين محتويات مصنع مستحضرات تجميل بأكمله في غرفتها، وهي تستميتُ لتُرينا كيفيّة استعمالها، فنقضي ساعاتٍ في الاستماع إلى الموسيقا، ووضع الّلمسات على ملابسنا ومساحيق تجميلنا، وقُرابةَ الساعة الثامنة تأخذنا صديقة لين في سيّارتها، نجوب أربعتنا أنحاء المدينة جميعها طوال الّليل بكامل أناقتنا، ونوافذ السيّارة مشرَعة تصدح منها الموسيقا، هذا أمتع وقتٍ قضيته في حياتي.

بعد ذلك ستغدو ليلة الخميس طقساً، نستكمل تحضيراتنا في بيت لين كي نوفِّر على أمّي الإصابة بنوبةٍ قلبيّةٍ إذا ما رأتنا، كنّا نرتدي ملابس مختلفةً كلّ ليلةٍ، ونتجوّل في السيّارة، أو نتسكّع في المقاهي في منطقةٍ فخمةٍ تسمّى «المالكي»، نشرب القهوة، أو نطوف ذهاباً وإياباً. في كلّ أسبوعٍ تزدحم الشوارع هناك بالفتية والفتيات الذين يثرثرون ويغازلون مستغرقين في مغامراتهم المراهِقة، أرى أبناء عمّي هناك، وكذلك أصدقائي من المدرسة، وحتّى بعض السبّاحين من المسبح الذي نرتاده، وبين الفينة والأُخرى، عندما يكون لدى أحدهم عيد ميلاد فإنّهم يحجزون مطعماً كاملاً، ونرقص طوال الّليل. كنّا أنا وسارة في أسعد أوقاتنا، لمْ يذهب أحدٌ من المحيطين

بنا إلى داريّا من قبْل، ولا حتّى إلى البرامكة عند نهاية الطريق، لمْ يتحطّم عالمهم أبداً بقذائف الهاون، أو الدبّابات، نحن نتظاهر بأنّ شيئاً لمْ يحدث على الإطلاق، لا أحد يسأل عن قصّتنا، أو إذا ما كنّا قد خسرنا بيتنا، يدور الحديث فقط عن المكان الذي يجب أنْ نذهب إليه اللّيلة.

خلفَ فقاعتنا هذه تستعر الحرب، وفي أحد أيّام الآحاد، أوائل شهر أيار/ مايو، أبيتُ في بيت جدّتي، الوقت متأخّرٌ، أجلس على السرير أستمع إلى الانفجارات المدوّية المعتادة التي تهدُر من بعيد، ومن دون سابق إنذارٍ أهوي إلى الجانب الآخر بقوّةٍ غير مرئيّةٍ، يهتزُّ البيت بأكمله، وبعد بضع ثوانٍ يتكرّر الصدى، ويتبعه صوت انفجارٍ هو الأقوى الذي سمعته في حياتي.

- «يا إلهي! ما كان هذا؟». أقول بصوتٍ عالٍ، وأتشبّثُ بملاءة السرير متسائلةً عمّا إذا كنت أشعر بالمرض، أم إنّني على وشك أنْ أصاب بإحدى نوبات إغمائي، يُفتح الباب، وتدخل أمّي إلى الغرفة.

- «هل شعرتِ بذلك أيضاً؟». تسألني.

بالتأكيد، أُجيبُها: «اعتقدت أنّني شعرتُ به وحْدي فقط».

- «لا، لستِ وحدكِ». تقول أمّي: «أُنظُري إلى السماء».

أنهضُ وأسير نحو النافذة، أفتح الستائر، وأتملّى في سماء اللّيل، أرى شفقاً قرمزيّاً في الأفق فوق جبل قاسيون، مسحة من ضوءٍ قرمزيٍّ له بريق الغروب، تتطاير سَحاباتٌ من الغبار الأحمر والشرر لتلتقي بالنجوم، كأنّ الجبل يتّقِد ناراً.

ندخل أنا وأمّي إلى غرفة المعيشة، جدّتي وخالي عدنان متحلّقان حول التلفاز، تقول وكالة الأنباء الحكوميّة: إنّ الانفجار كان غارةً جويّةً أجنبيّةً على مرفقٍ للأسلحة في جمرايا على الجانب الآخر من الجبل. أُحدِّقُ في

الشاشة حيث تظهر مشاهد للانفجار التقطها بعض المصوّرين الهُواة، ألسنة لهبٍ برتقاليّةٌ تلتمع فوق تلّةٍ مظلمةٍ، بعد ذلك تُشاهَدُ كرةٌ عملاقةٌ من النار على هيئة الفِطر تومِض في عتمة اللّيل، تتلاشى الكرة الناريّة مُحدِثةً أمطاراً من الشرر والرماد في أعقابها، إنّه أكبر انفجارٍ رأيته على الإطلاق، أكبر حتّى من تلك التي تُشاهَد في الأفلام الأمريكيّة.

تصيح جدّتي: «يا ربّ، لطفك!».

كان الهجوم على مصنع الأسلحة كبيراً جدّاً، وهذا ما تبيّن من الدمار المرعب الذي خلّفه، حتّى إنّ المرء يعدّ قذائف الهاون مشكلةً بسيطةً أمام هذا الانفجار.

في أحد الأيّام، وبينما كنت أمشي أسفل التلّ من شقّتنا إلى حيّ المالكي، فإذا بي أسمع قذيفةً تسقط على الطريق من خَلفي، تهتزّ الأرض، فألتَجئ إلى مدخل صيدليّةٍ قريبةٍ، أنظر إلى الخلْف، فأرى النوافذ تتحطّم، والزجاج يهطل كالمطر على الرصيف، لو أنّني تأخّرت دقيقَتَين لكنتُ قُتِلت، بالكاد استشَعرتُ الخطر قبل أنْ تسقط القذيفة، أنتظر خمس دقائق، ثمّ أواصل المشي، وأقابل أصدقائي كأنّ شيئاً لم يحدث. أُخبِرُ أمي عن الحادثة بعد عودتي إلى البيت، ينتابُها الفَزَع: «ماذا؟». تصرخ أمّي: «هل أنتِ مجنونة؟ هذا كلّه، ولمْ تعودي؟». أرفع كتفيّ، ثمّ أُسدِلُهما في صمت.

- لم يحدث شيءٌ ماما، أردت فقط رؤية أصدقائي.

تتنهّدُ أمّي، ليس هناك ما يمكنها فعله لحمايتنا من هذا النوع من الهجمات العشوائيّة. هي منشغلةٌ جدّاً في العمل، والطهي، ورعاية المنزل، والاعتناء بشهد. أحياناً تمنعنا من الخروج، لكنْ من دون أبي تواجه صعوبةً في إبقائنا تحت المراقبة، وتبذل قصارى جهدها، وتريد أن تعرف أين نحن، ومع من، لكنّ الأمور تنهارُ بشكلٍ سيّئٍ في كلّ مكانٍ، بحيث يصعب عليها

الحفاظ على نوعٍ من النظام في حياتنا. في هذه الأثناء أصبحنا أنا وسارة قريبَتين من بعضنا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، كما أنّنا نكون أكثر سعادةً حينما لا نتحدّث عن المستقبل، أو نتساءل ما الذي قد يحدث إذا فقدنا الشقّة التي نقيم فيها. حين أشعر بالخوف، أتعامل مع الأمور بطريقتي الخاصّة؛ أُفضّل الانسحاب، والهروب، والنسيان. لدينا أنا وسارة امتحاناتٌ مهمّةٌ في الصيف، ستنتهي سارة من المرحلة الثانويّة، ولديّ أنا اختبارات الصف التاسع، كلانا نواجه صعوبةً في أخذ الامتحانات على محْمل الجدّ، في بعض الأيّام لا نُتعِبُ أنفسنا حتّى بالذهاب إلى المدرسة، تحاول أمّي دَفعَنا إلى الدراسة، لكنْ من الصعب التركيز على مستقبلنا وسْط ما يجري كلّه.

- «أليس هذا وقت الدراسة؟». تخاطبني أمّي، وأنا أتّجه نحو الباب.

- «أنا أدرس». أقول مبتسِمةً، وأنا أربط خيوط حذائي.

- «حسناً، خذي أختكِ معكِ على الأقلّ». تقول أمّي.

تنظر شهد بترقُّب.

- «حسناً، هيّا تعالي». أقول لشهد.

أصحبها معي إلى مركز المدينة لشراء المثلّجات، أحد المحالّ المفضّلة لدينا لشراء المثلّجات هو محلّ بكداش في البلدة القديمة، عُمْر المتجر أكثر من مئة عام، وهو مشهورٌ في أنحاء العالم العربيّ جميعها بسبب «البوظة» التي يبيعها، و«البوظة» ليست مثل غيرها من المثلّجات، فهي مصنوعةٌ من المستيكة، وهو الراتنج الذي يجعل المثلّجات مطّاطيّة القوام مثل العلكة، تذوب ببطءٍ، وتصبح خيطيّة القوام مثل جبنة الموزاريلا المذابة. يكمن جزءٌ من المرح في الذهاب إلى محلّ «بوظة» بكداش في مشاهدتهم وهُم يصنعون «البوظة»، تتفرّج شهد مسحورةً بينما يصبّ الطهاة الحليب وعجينة المستيكة في مُجمِّداتٍ عميقةٍ مفتوحةٍ من الأعلى،

يفردون العجينة حول المعدن البارد، ثمّ يهرسونها بمطارق خشبيّةٍ طويلةٍ حتّى تلتحم في عجينةٍ متجمّدةٍ، تُقدَّم «البوظة» في أوعيةٍ معدنيّةٍ صغيرةٍ مع رشِّها بالفستق المفروم. تبتسم شهد في وجهي، وهي تتناول «البوظة»، الجميع يُدلّلونها، نشعر بالحزن عليها، وهي تترعرع في أثناء الحرب، ومن دون أبيها، وتنتقل من منزلٍ إلى منزل.

نحن جميعاً نُركّز على تدبير أمورنا، لا مجال لأشياء أُخرى كثيرة، ولمْ تكن نتائج امتحاناتي في ذلك الصيف على النحو المُفترض بي تحقيقه، لكنْ لا يبدو أنّني أكترث للأمر، فنحن نختبئ في فقاعتنا. في الخريف أبدأ الدراسة في الثانويّة التجاريّة، أمامي ثلاث سنواتٍ لأتخرّج من المرحلة الثانويّة، أفكّر على نحوٍ مُبهَمٍ في الذهاب إلى الجامعة، لكنْ يبدو أنّ هذا ما يزال بعيد المنال، فقد يحدث أيّ شيء. تخرّجت سارة في الحال، والتحقت بجامعة دمشق لدراسة القانون، لكنّها لا تذهب إلى المحاضرات، هي تشعر أنّ هذا ليس هو الوقت المناسب للدراسة، لذا فهي تعمل بدوامٍ كاملٍ مُدرِّبةً ومُنقِذةً لكي تساعد الأسْرة. الحياة قاسية؛ لذلك نحصل على المتعة كلّما استطعنا. بحلول فصل الشتاء اعتدنا ارتداء ثيابنا، ومغافلة أمّي في الخروج من البيت، وفي بعض الأحيان تأتي لين إلينا للتحضير عوضاً عن أن نذهب إليها، وفي أحد أيّام الخميس، تعود أمّي إلى المنزل مبكّراً، وتضبطنا أنا ولين وسارة ذاهباتٍ لحضور حفل عيد ميلادٍ كبير، أنا أرتدي الكعب العالي جدّاً، تُحدّق أمّي ذاهلةً.

- «إلى أين أنتنّ ذاهبات بهذه الملابس؟». تسألنا أمّي، وتضيف: «حتّى إنّني أستغرب كيف ستمشين إلى أسفل الحيّ؟».

- «طيّب ماما، حسناً». أقول لها، وأنا أترنّح صَوب الباب.

- «وما الذي فعلتِه بوجهِك؟». تتساءل أمّي: «ماذا لو رآكِ أحدٌ في

هذا المنظر؟ ما الذي سيظنّونه بنا الآن؟». أُجيبُها بعبوسٍ، وأطلب إليها أن تسترخي، فأنا لا أرتدي بنطالاً مثيراً، أو تنّورةً قصيرة!

- «تريدين منّي ألاَّ أُفكّر؟!». تقول أمّي، وتضيف: «أنتِ تعرفين ذلك جيّداً، جسدك هو كلّ ما تملكين».

- «لا تقلقي يا ميرفت». تقول لين بلطف: «سنعتني بها».

تبتسم أمّي في وجه لين.

- «أعرف، حبيبتي، أعرِف ذلك». تقول أمّي.

يعود التجهُّم إلى وجهها، وهي تنظر نحوي من جديد.

- «حسناً، الأمر متروك لكِ بالطبع، أنتِ من عليه أن يدخل الجنّة، وليس أنا». تقول أمي.

أُدَوِّرُ عينيَّ امتعاضاً فيما نسير مترنّحاتٍ نحو الباب، لكنّنا، سارة وأنا، حريصتان على عدم المبالغة في الأمر، لا أحد منّا يريد أن تواجه أمّي مشكلات مع صديقاتها بسبب ما نرتديه؛ إذْ لا يمكن القول: إنّ الجميع لديهم المعاملة المريحة التي لدى أمّي، وبما أنّني الآن لم أعد أسبح، وها أنا أدنو من السادسة عشرة من عمري، فإنّ أمّي تثير مسألة الحجاب بين الفينة والأُخرى، وتتساءل بلطفٍ عمّا إذا كنت قد فكّرت في ارتداء الحجاب، أتجاهلُ الأمر، سارة لا تغطي شعرها، أو ترتدي الحجاب، لا أشعر بأيّ ضغطٍ يدفعني إلى ذلك، بالنسبة إلينا، لا يعدّ الحجاب ضروريّاً لنكون مسلمات صالحات، إلّا أنّني أبحث الفكرة بطريقةٍ غامضةٍ، وأقول في نفسي: إنّني ربّما أرتدي الحجاب عندما أتزوّج، لقد أوضحت لنا أمّي بأنّها لنْ تجبرنا على فعل أيّ شيءٍ، تعود المسألة لاختيارنا المُطلق.

في إحدى ليالي الربيع جلستُ أنا وسارة في الشرفة نراقب السماء، وهي تكتسي ثوب اللّيل، في الأسفل نرى أضواء المدينة تومِض بغوايةٍ،

أتنهّد وأفكّر في أولئك الناس جميعهم هناك في المدينة، يعملون، ويعيشون، ويحبّون، محاولين عيش حياةٍ طبيعيّةٍ في مكانٍ تسقط فيه القنابل من السماء. تأتي أمّي وتنضمّ إلينا، وجهها ناحلٌ وشاحب.

- «لديَّ بعض الأخبار». تقول.

نتهيّأ كلانا، ونسألها عن الأخبار، تبادرها سارة: «ليس الشقّة؟». تضع أمّي يدها على ذراع سارة، وتقول: «أخشى أنّ هذا هو الموضوع بالتحديد، فصاحبة الشقّة تريد أن تعطيها لأختها».

يتشجنّجُ بطني، أتنهّد، الشقّة هي فقاعتنا، وسلامتنا، وهربنا من الموت والدمار، تلهث الخواطر في ذهني، أين سنذهب إذا لمْ نتمكّن من البقاء هنا؟

- «كلّا، لا بدّ من وجود ما يمكننا فِعله، ألا يمكننا أن نعرض عليها المزيد من المال؟». أقول لها.

تهزُّ أمّي رأسها بحزن.

- لقد جرّبتُ كلّ شيءٍ بالفعل، لم يُجْدِ الأمر نفعاً. تريد مالكة الشقّة منّا إخلاءها بحلول شهر نيسان/ أبريل، سيتعَّين علينا إيجاد مكانٍ آخر، أنا آسفة جدّاً.

يملأ الذعر صدري بينما ينهار عالمي للمرّة الرابعة منذ ثلاث سنوات، ويضيق الخناق علينا.

6

نُحدِّق أنا وسارة من النافذة، حيث تهطل الأمطار الربيعيّة في الخارج، تقع شقّتنا الجديدة على بعد 20 دقيقة فقط سيْراً على الأقدام من المكان الذي كنّا فيه من قبْل، ولكنّ هذه النقلة استنزفت المتعة في الحياة كاملةً، وأصبحنا أبعد عن أصدقائنا، وأقرب إلى القتال، فجأةً نشعر بالبرد، تتنهّد سارة، وتقول للمرّة الثالثة في ذلك اليوم: إنّها تريد مغادرة سوريا، صديقاتها جميعهنّ يخرجْن متوجّهات إلى لبنان، أو تركيا، أو حتّى أوروبا، أشعر بالقلق كلّما سمعت سارة تتحدّث بهذه الطريقة، يبدو الأمر كأنّه هزيمةٌ للاعتراف بأنّ القتال لنْ يتوقّف قريباً، وأنَّ مستقبلاً بلا حربٍ سيكون ممكناً فقط إذا غادرنا البلاد. تدخل أمّي الغرفة، وكالعادة، تُمسك شهد بتنّورتها.

- «لا أحبّ هذه الشقّة، أفتقِدُ شُرفتنا». أقول.

- «أعرف يا حبيبتي، أنا أيضاً أحببت تلك الشقّة، ولكنْ لا يوجد ما يمكن فِعله بشأن ذلك». تُجيبُني أمي.

تدفع أمّي بشهد إلى الأمام بلطفٍ، فتنظر الفتاة الصغيرة إلينا بعينيها الزرقاوين الكبيرتين.

- «اصطَحِبنَ أختكنّ معكنّ حين تخرُجْن من البيت». تقول لنا أمي.

نتجوّل أنا وسارة تحت المطر، وإلى جانبنا شهد، نمرُّ في حيّ المالكي

على بعض أصدقاء السباحة السابقين، يخبروننا عن سبَّاحٍ آخر قُتل في هجومٍ بقذيفةٍ في مكانٍ ما في الشمال، نجلس بفتورٍ، الحرب، الوفيات، قذائف الهاون، أصبحت جميعها أموراً طبيعيّة. أعود بذاكرتي إلى صدمة مغادرة داريّا، يبدو كأنّ ما جرى حصلَ لفتاةٍ غيري، يُسرى أُخرى، فأنا الآن إذا سمعت قصفاً أمسِك أنفاسي لمدّة خمس ثوانٍ، ثمّ أواصل ما أفعله كلّه، ألحظ ذلك حالما تتوقّف البنادق عن إطلاق النار، وعندما تتوقّف الطائرات عن التحليق فوقنا.

بحلول الصيف كان الحديث الذي يمكن لأيّ شخصٍ التحدّث عنه في مقاهي حيّ المالكي هو أحدث حالات الاختفاء بين أصدقائنا، أجلس مع أصدقائي في المدرسة، هديل وآلاء، نضع قوائم بالأشخاص الذين غادروا، بعضهم لنْ نراهم بعد الآن، وهناك آخرون يظهرون بعد بضعة أسابيع في ألمانيا، أو بلجيكا، أو السويد، أو فرنسا. التفاصيلُ -دائماً- غامضةٌ؛ ليس من الواضح تماماً كيف وصلوا إلى هناك.

في أوائل الخريف، تمكَّنت هلا، إحدى أقرب أصدقاء سارة، من الوصول إلى ألمانيا بتأشيرة طالب، تكتب إلى سارة لتخبرها بأنّها في هانوفر، تقول هلا: إنّ ألمانيا مكانٌ جيّدٌ للدراسة، سارة مفتونةٌ بالفكرة. هانوفر، ألمانيا، مكانٌ جيّدٌ للدراسة، مكانٌ جيّدٌ للمستقبل.

– «سأُغادر». تقول سارة في إحدى الّليالي على العشاء.

أُديرُ عينَيّ مستغرِبةً، منذ شهور وهي لا تتحدّث عن شيءٍ آخر سوى هذه الفكرة. ترمقني سارة بنظرةٍ من عينيها.

– «ما بكِ؟». تقول.

– «نعم، بالفعل سأذهب إلى ألمانيا». أقول.

– «وماذا عن أبيكِ؟». تسألها أمّي.

- «أصدقائي جميعهم يغادرون؛ ماما، يجب أنْ أذهب». تقول سارة.

أنظر في صَحني، وأتساءل: ماذا سيحدث إذا غادرت سارة بالفعل وتوجّهت إلى أوروبّا، هل سأذهب معها؟ هل سأرغب في ذلك؟ لست متأكّدةً على وجه الدقّة، تبدو مغادرة سوريا خطوةً كبيرةً جدّاً.

- «والدكِ هو من يمكنه إرسالك إلى هناك، أنتِ تعلمين أنّ الأمر بيده». تقول أمّي لسارة.

تتنهّد سارة. لقد تحدّثتْ سارة بالفعل إلى أبي عن السفر، لكنّه أخبرها أنْ تنتظر لترى ما يحدث. لا يمكنها الذهاب من دون موافقته، فهو من سيتكفّل بدفع تكاليف الرحلة، توضع الفكرة على رفوف الانتظار، وتعود سارة إلى حلمها بهانوفر، وتخطّط للهروب.

في إحدى ليالي الخميس، في أوائل شهر تشرين الأول/ أكتوبر، التقيت بأصدقاء من المنتخب الوطنيّ في حيّ المالكي، إنّهم متحمّسون، وقد عادوا حالاً من بطولة كأس العالم في دبي؛ حيث فازوا بميداليّةٍ برونزيّةٍ في سباق 200 متر سباحة حُرّة، وبينما نحن نتحدّث يريني أحد زملائي في الفريق القديم صورةً لحفل توزيع الميداليّات، أنظر إلى الوجوه المبتسمة والفخورة، والميداليّات البرّاقة حَول أعناقهم، فتفيض عيناي بالدموع؛ فلأوّل مرّةٍ أرى ما فرَّطتُ به، وأشعر بالخسارة مثل لكمةٍ في البطن، وفي الحال يعود الشغف، والتصميم، والطموح، تعود جميعها دفعةً واحدة.

أنهض واقفةً، ليس هناك وقتٌ لأضيّعه، يجب أنْ أعود إلى المسبح، تسري رعشةٌ من الإثارة في عمودي الفقريّ، وأسارع إلى المنزل لأخبر أمّي وسارة بقراري، سأبدأ من جديد، تتنهّدُ أمّي، وتقول: إنّ منطقة المسبح أصبحت منطقةً خَطِرة.

- «لكنّها لمْ تعد بالسوء الذي كانت عليه، أنا على استعدادٍ للمخاطرة، لا أستطيع الجلوس هنا طوال حياتي، أريد أنْ أفعل شيئاً». أقول.

- «لكنْ ما الجدوى؟». تسأل سارة: «أنتِ الآن أكبر سِنّاً على أيّة حال، الأمر لا يستحقّ، ليس أمامكِ مستقبلٌ في السباحة».

أعبس في وجه أختي، ثمّ أرمق أمّي بنظرةٍ راجيةٍ، تتجاهل وتقول: إنَّ عليَّ أن أتحدّث إلى أبي، فأتّصل به في اليوم التالي، وأقول له: إنّني سأعود إلى التدريب، يحْدوني الأمل بأنَّ أبي، ومن بين الناس جميعهم، سيقف إلى جانبي، إلّا أنّه كان أقلّ دعماً ممّا أمِلْت.

- «إذا كنتِ تريدين السباحة فأنا أتفهّم ذلك، لكنْ لا تتوقّعي أيّة مساعدةٍ منّي، لقد تركتِ السباحة بملْء إرادتكِ، وبإمكانك العودة إليها بإرادتكِ أيضاً». يقول أبي.

أُنهي المكالمة. لستُ محبطةً، بلْ إنّني أكثر تصميماً من أيّ وقتٍ مضى، سوف أرجع، سأسبح، وأتحسَّن، وأعود إلى القمّة، سواء بدعم عائلتي أم من دون هذا الدعم، وهذه المرّة لن يُجبرني أحد، سيكون الخيار لي بالمُطلق، سأختار السباحة.

يتعجّب بعض المدرّبين عندما أحضر التدريب في الأسبوع التالي، لكنْ لا أحد يقول شيئاً، لقد عُدت، وهذا ما في الأمر كلّه. تسبّب انقطاعي لمدّة عامٍ بخسارتي الكثير من سرعتي، الفتيات الصغيرات اللّطيفات في المجموعة جميعهنّ أسْرع منّي، لكنّني أتقبّل الأمر بمنزلة تحدٍّ، أتوقّف عن الخروج مع الأصدقاء، وأتدرّب لمدّة ساعتين بعد المدرسة كلّ يومٍ، وبعد ذلك أذهب إلى صالة الألعاب الرياضيّة لمدّة ساعةٍ أُخرى، وفي الطريق إلى المنزل بعد كلّ جلسة تدريبٍ، أذكّر نفسي بما تعنيه السباحة، ويمكنني الآن التضحية بالمرح كلّه في سنّ المراهقة، سيكون هناك متّسعٌ

من الوقت لذلك عندما أبلغ الثلاثين، حين أفرغ من عملي في السباحة. في بعض اللّيالي أعود إلى البيت، ووجهي مُزرَقٌّ من قسوة التدريبات، فأتناول طعامي، وأذهب مباشرةً للنوم، تبدو أمّي قلقةً، وتطلب إليّ عدم المبالغة في ذلك، ولكنْ لا سبيلَ لأستسلم الآن، يجب أن أستعيد المستوى الذي كنت فيه قبْل انقطاعي، سارة لا تساعدني أيضاً.

في شهر آذار/ مارس سأبلغ السابعة عشرة، حجزت سارة مطعماً بأكمله لحفل عيد ميلادي، ربّما تحاول إقناعي بالتوقّف عن السباحة، والاستمتاع بالحياة مرّةً أُخرى، أو ربّما تشعر بالندم لعدم دعمها لي، وفي كلتا الحالتين سنستمتع بوقتٍ رائعٍ، تأتي لين إلى منزلنا مع صندوق عجائبها لنرتدي ثياباً مثل نجوم السينما لهذه المناسبة، تماماً مثل الأيّام الخوالي، فتُقطِّب أمّي حاجبيها، وأنا أتجوّل في الطريق بأعلى كعبٍ ارتديته على الإطلاق، وأُلوّح لها مبتهِجةً، وأنطلق أسفل حيّنا المرتفِع، وعلى طول الطريق إلى المطعم كان الرجال يحدّقون بنا، بدا أحدهم كأنّه على وشك السقوط حين مررنا من أمامه.

نضحك، ونرقص، ونحتفل. لمْ تكن الحرب بعيدةً جدّاً عنّا، ولمْ أكن أعرف ذلك حينها، لكنْ كان على تلك اللّيلة أنْ تكون واحدةً من آخر ليالينا العامرة في دمشق.

تستمرّ الحياة: تدريب، ومدرسة، وتدريب. أحاول أنْ أُركّز، وأنْ أتجاوز السنتين الأخيرتين من مدرستي، لكنّ الحرب موجودةٌ دائماً لتعطيل وتشتيت انتباهي، وفي بعض اللّيالي يشمل انقطاع الكهرباء مساحاتٍ شاسعةً من المدينة لتغُطَّ في ظلامٍ دامسٍ، وفي بعض الأماكن تُقنّن الطاقة إلى ما بين أربعٍ وستّ ساعاتٍ فقط في اليوم، ويتغلّب بعض الدمشقيّين على انقطاع التيّار الكهربائيّ باستعمال بطّاريّات السيّارات

الكبيرة، أو بتشغيل مولّدات الديزل حين يستطيعون، نتأقلم مع الوضع حتّى تصبح الانقطاعات جزءاً من الحياة اليوميّة.

الموت عشوائيٌّ وحاضرٌ دائماً، يسقط من السماء في الشارع، في حركة المرور، وفي منتصف النهار، من دون سابق إنذارٍ، بعد ذلك نفصل أنفسنا عمّا يجري ونواصل حياتنا. في الربيع، عادت الهجمات لتشتعل في منطقة البرامكة حَوْل ملعب تشرين مرّةً أُخرى، المنطقة ممتلئةٌ بالأهداف: الجامعة، ووكالة الأنباء الرسميّة، والمستشفيات، والمدارس، والملعب نفسه. أمّي قلقةٌ ومتأثّرةٌ جدّاً؛ تتّصل بي، وأنا في الطريق إلى المسبح، عدّة مرّاتٍ في الأسبوع، والحديث نفسه دائماً.

- عودي إلى البيت.

- «لماذا؟». أقول: «أنا ذاهبة لأسبح».

- «اخرسي فقط! وعودي إلى البيت». تقول أمّي: «الآن، على الفوْر».

أسارع إلى المنزل لأجد أمّي تنتظرني بأخبارٍ عن المزيد من الهجمات بقذائف الهاون، أو الصواريخ، أعلم أنّها تريد أن تحميني، لكنّنا نعلم في قرارة أنفسنا أنّي لمْ أعد آمنةً في أيّ مكانٍ في المدينة، ويمكن أنْ أُقتل في المسبح بسهولةٍ مثلما قد يحدث ذلك في الخارج، أو في المنزل في سريري، نعرف الكثير من الناس الذين ماتوا في منازلهم، من جرّاء حريقٍ، أو قنبلةٍ، أو مجرّد شظايا طائشة.

في كثيرٍ من الأحيان أسمع قذائف الهاون تتساقط حَوْل مسبح تشرين حين أكون قد بدأت تدريباتي فعلاً؛ ففي إحدى الّليالي، أنا في المسبح أبذل قصارى جهدي، والماء البارد يلسع وجهي، وأحارب الرغبة في التوقّف والراحة؛ طولٌ آخر، دورةٌ أُخرى في الماء، أمتارٌ قليلةٌ أُخَر فقط. أمدُّ يدي، وأمسك بطرف المسبح، وأستريح بضْعَ ثوانٍ، يرتفع كتفاي حتّى أُذنيّ هلعاً

بينما يعُمّ صوت ارتطامٍ في أرجاء المسبح، سادتْ لحظة صمتٍ، ثمّ هرع السبّاحون يصيحون ويصرخون، والماء يتطاير من حولهم، وهُم يحاولون الوصول إلى طرَفَيّ المسبح.

- «اخرجوا! ليخرج الجميع». يصرخ المدرّب، ويلوّح بعَجَلةٍ بذراعيه مشيراً إلى المخرَج.

ليس هناك وقتٌ لتسجيل ما يحدث؛ ذهني فارغٌ، وأنا أسحب نفسي من الماء، ويندفع حشدٌ من السبّاحين إلى جانبي مرتجفين من الصدمة والفزع، وهُم يهرعون نحو الأبواب، أصِل إلى المخرج، ثمّ أستدير إلى الوراء، أنظر إلى السقف، فأرى فيه فتحةً ممزّقةً تُظهِر بقعةً صغيرةً من السماء المفتوحة، أنظر إلى الأسفل نحو الماء، هناك في قاع المسبح يتلألأ جسمٌ أخضرُ رقيقٌ بطول مترٍ، مع لمبةٍ مخروطيّةٍ ترقرق في الماء بحركةٍ تنتهي في نقطةٍ واحدةٍ؛ إنّها قذيفة آر بي جي غير منفجرة، وهي نوعٌ من القذائف الصاروخيّة، أحدّق في القنبلة غير قادرةٍ على أن أُشيح بنظري عنها، لا أدري كيف اخترقت القذيفة السقف، وهبطت في الماء من دون أن تنفجر، لو أنّها سقطت بعد أمتارٍ قليلةٍ في أيٍّ من الاتّجاهين لكانت أصابت البلاط، ما كان سيؤدّي إلى مقتل الجميع داخل دائرةٍ نصف قطرها عشرة أمتار، ويستغرق الأمر بضْع ثوانٍ لتغوص، أنا محظوظةٌ؛ لأنّي على قيْد الحياة مرّةً أخرى.

ألتفِت وأُسرِع في الممرّ للّحاق بركْب السبّاحين الآخرين، نهبط إلى الأسفل نحو صالة الألعاب الرياضيّة تحت الأرض، مع تزايد الانفجارات في الشوارع الخارجيّة، ننتظر، ويخطو المدرّب بادياً عليه القلق، وتبدو أصوات الهجوم مكتومةً من الأسفل هنا، أقول لنفسي: إنّنا في أمان، ترتجف يدي، وأنا أرسل رسالةً إلى أمّي وأخبرها بما حدث، تضطّرب أمّي، وتنتظر حتّى يتوقّف الهجوم، ثمّ تأتي لأخْذي من الملعب.

- «إذا سمحتِ يُسرى، هذا أمرٌ خطيرٌ جدّاً». تقول أمّي، ونحن عائدون إلى المنزل عبْر الشوارع التي هدأت الآن: «توقّفي عن السباحة، ستكونين أكثر أماناً بعيداً عن المسبح».

أهزّ رأسي، ما مِن سبيلٍ لأتخلّى عن السباحة، وهناك طريقةٌ واحدةٌ فقط يمكنني مواصلة التدريب من خلالها، سأضطرّ إلى الذهاب إلى مكانٍ لا تسقط فيه القذائف.

- «لن أتوقّف، السباحة هي حياتي، سيكون عليَّ الذهاب إلى أوروبّا». أقول.

تتنهّد أمّي، وتحدّق من النافذة لبضع دقائق، ثمّ تمسك عجَلة القيادة بقوّةٍ، وتُعدِّل جلسَتَها كما لو أنّها اتّخذت قراراً.

- «سأتحدّث إلى أبيكِ مرّةً أُخرى». تقول أمّي.

يرحل الأصدقاء والجيران واحداً تلْو الآخر، مجموعات من الأقرباء، ومجموعات بأكملها من الأصدقاء والعائلات، جميعهم يختفون. الأغلبيّة تغادر إلى لبنان، أو تركيا، ثمّ يواصلون المكوث بعد انتهاء مدّة تأشيراتهم السياحيّة، كما ينتهي المطاف ببعضهم في أوروبّا. معظم الأولاد في مثل عُمري إمّا يخطّطون للمغادرة، وإمّا أنّهم قد رحلوا بالفعل، بمجرّد أن يصل الشباب إلى الثامنة عشرة، يصبحون مؤهّلين للخدمة العسكريّة الإلزاميّة في الجيش، ويُعفى من الخدمة الإلزاميّة الطلّاب والذكور الذين ليس لديهم إخوة ذكور. في الظروف الاعتياديّة، كانت مسألة التجنيد مجرّد حقيقةٍ من حقائق الحياة السوريّة، أمّا الآن، فإنّ الالتحاق بالجيش يعني بلا شكّ إمّا أنْ يَقتُلَ المرء، وإمّا أنْ يُقتَل.

لدى سارة الآن خطّةٌ ثابتةٌ في رأسها؛ تحلم بالسفر إلى هانوفر للعثور على صديقتها هلا، تريد أنْ تدرس هناك، وتبدأ حياةً جديدةً، وتعمل من

أجل مستقبلٍ جديد. أبي لا يزال متردّداً، يقول أحياناً: إنّ الرحلة ليست آمنةً، وفي أحيانٍ أخرى يقول: إنّه سوف يرتّب لنا كي نلحق به إلى الأردن، وبين الحين والآخر، يقول: إنَّ بإمكاننا الذهاب إلى أوروبّا، لكنّ المال لا يتوفّر، فتُؤجَّل الخطّة.

ذات ليلةٍ في أوائل الصيف، وبينما كنّا أنا وسارة في طريقنا إلى لين، أخبرتني سارة أنّ مجموعةً أُخرى من أصدقائها سيغادرون في الأسبوع المقبل. في كلّ مرّةٍ تغادر فيها مجموعة يطلبون إليها أنْ تأتي معهم، ويقولون: إنّهم سيعتنون بها في الطريق، المسألة مغريةٌ لسارة، لكنّ الأمر واضحٌ؛ من دون دعْم أبي لن تذهب إلى أيّ مكان.

- «أصدقائي جميعهم يعبثون بعقلي، ويطلبون إليّ أنْ آتي معهم، أعني، حسناً، أنتِ لا تريدين الذهاب على أيّ حال، لذلك...». أقول.

أنظر إليها ذاهلةً. «ما الذي تتحدّثين عنه؟». أقول: «بالتأكيد أودّ الذهاب، لأنّني إذا ذهبنا إلى أوروبا سأتمكّن من الاستمرار في السباحة، السبّاحون جميعهم يغادرون إلى السويد، وروسيا، وألمانيا». تعبُس سارة.

- «أنتِ ستذهبين أيضاً؟».

أنا نفسي مُندهشةٌ من إجابتي، نعم، أرغب في الذهاب والابتعاد عن الموت الذي يهطل من السماء، وليكون لي مستقبل مرّةً أُخرى، ولأجد مكاناً أسبح فيه بسلام، أو مجرّد مكانٍ يستطيع فيه شخصٌ مثلي مواصلة السباحة، لا أرى معنى للجلوس، والتنظيف، والطهي، وتربية الأطفال، أنا سبّاحة، سأذهب إلى هناك وأُريهم، ولنْ أستطيع فعل ذلك إلّا إذا غادرتُ سوريا.

- «حسناً». تقول سارة: «إذنْ، يمكنكِ مساعدتي في إقناع أبي، سيكون أكثر سعادةً إذا ذهبنا معاً».

يعمل ذِهني بسرعةٍ، إقناع أبي هو الجزء الأصعب، فنظراً إلى أنّه ليس هنا في دمشق، لا يعرف أبي عدد الفتية الذين يغادرون، وينبغي لنا جعلَه يفهم مدى السوء الذي بلغته الأمور هنا، وأفضل طريقةٍ هي العثور على شخصٍ يثق به، وهو بصدد الرحيل، وإقناعه بالسماح لنا بمرافقته. أشعر بالصدمة من نفسي، وكيف أصبحت مصمِّمةً بصورةٍ مفاجئةٍ على مغادرة دمشق، مغادرة سوريا، مغادرة وطني، كيف بلغت الأمور هذا الحدّ؟ أربع سنوات كاملة من الحرب تُرفرِف أمام عينيّ، الدبّابات، والقنابل، ومدافع الهاون، وإطلاق النار، أودّ البقاء إذا توقّفت جميعها غداً، فقط إذا توقّفت جميعها.

هناك شيءٌ وحيدٌ أفْهمه، وهو أنّني إذا غادرْت فسوف أُثبِت نفسي في السباحة أوّلاً، يجب أنْ أريهم جميعاً أنَّ الأمر ليس مضيَعةً للوقت. بدأ أصدقائي في المسبح يتناقصون بينما أخذ السبّاحون يختفون، نادراً ما نودِّعُ بعضنا، ونعلم من خلال فيسبوك فقط أنّهم أصبحوا في تركيا، أو فرنسا، أو ألمانيا، وفي أحد أيّام منتصف حزيران/ يونيو، قبل بداية شهر رمضان، تلقَّيت رسالةً من صديقتي في السباحة، روز، تُخبِرني روز أنّها في تركيا، ذهَبَت مع ابن عمّها تاركةً والدتها في دمشق، يُذهِلُني سماع الخبر، والدة روز تحبّها كثيراً، فهي ابنتها الوحيدة، وكلّ ما لديها، وعُمْر روز لمْ يتجاوز الخمسة عشر عاماً، لا شكّ في أنّ والدتها كانت يائسةً تماماً حتّى قَبِلَت أنْ تُرسِل روز إلى إسطنبول. ربّما إذا أخبرتُ أبي عن روز فسوف يفهم ما يجري هنا. أتّصل بأبي، وأخبره أنّ أمّ روز قد أرسلَتها إلى تركيا، فيسود الصمت على الطرف الآخر من الهاتف:

- «روز؟». يقول أبي بعد صمته: «حقاً؟ تركَتها والدتها تذهب وحْدها؟».

- «نعم». أقول لأبي: «مع ابن عمّها».

- «لماذا لم تخبِرنا؟». يقول: «كان بإمكانك الذهاب معها».

- «ماذا؟». أقول: «هل كنت ستسمح لي أن أذهب مع روز؟».

- «نعم». يُجيبُ أبي، ويطلب إليّ أن أُبلِغه إذا سمعتُ أنّ أحداً آخر سيذهب، أن يكون شخصاً أعرفه، وأثق به.

- «سأرسلكم معه». يقول أبي.

يخفق قلبي بسرعة.

- «وسارة أيضاً؟». أسأله محاوِلَةً إخفاء الإثارة الجنونيّة من صوتي.

- «نعَم، إذا كانت تريد أن تذهب». يقول أبي.

أُنهي المكالمة، ثمّ آخذ نفساً عميقاً، ويمتلئ صدري إحساساً بالإمكانيّة والمغامرة بلا حدود، ليس لديّ فكرة عمّا تنطوي عليه الرحلة، ما سمعته كلّه هو روايات غامضة عن القوارب والحدود، لا أفكّر في ذلك، بلْ أتخيّل السباحة في ألمانيا، من دون قنابل، ومع المستقبل.

يبدأ أبي البحث عن خياراتنا، فيتّصل بوالدة روز لمعرفة المزيد عن الرحلة، ويناقش هو وأمّي المسألة، هناك تحوّلٌ؛ كلاهما يقرّران أنّ المغادرة هي أفضل شيءٍ لكِلَينا، ويتحدّثان إلينا عن الوضع القانونيّ في أوروبّا، ما زلت دون الثمانية عشر عاماً، لذلك إذا مضَيتُ وحْدي يمكنني التقدّم بطلبٍ إلى السُّلطات لاستقدام أمّي وشهد للانضمام إليّ بصورةٍ قانونيّةٍ، وبأمانٍ على متْن طائرة. يتّفق أبي وأمّي على أنّني وسارة يجب أنْ نذهب معاً، ويجب أن يتمّ ذلك في أقرب وقت. يجب أنْ أصل إلى ألمانيا قبْل بلوغي الثامنة عشرة من العمر في آذار/ مارس القادم. إذا كنّا سنقدّم طلباً لِلَمّ شمْل الأسرة، فما علينا فعله كلّه الآن هو إيجاد شخصٍ يثق به أبي.

نحن الآن في شهر رمضان المبارك، تعمل سارة بجدٍّ لتوفير بعض المال من أجل العيد الذي يستمرّ ثلاثة أيّام، والذي يوافق نهاية شهر رمضان؛ حيث من المعتاد أن يقدّم الأطفال الأكبر سنّاً عيديّةً لأشقّائهم الصغار. يوم سارة ممتلئٌ، وهي تعمل في وظيفتين: الأولى في التدريب، والثانية في الإنقاذ، كذلك تعمل كلّ مساءٍ خلال شهر رمضان في متْجرٍ للملابس، وبعد الغروب، تزدحم الشوارع دائماً ممتلئةً بالناس الذين يجتمعون لتناول إفطارهم. في إحدى الّليالي في منتصف شهر تموز/ يوليو، وقبْل مجيء العيد، تعود سارة من العمل إلى المنزل متأخّرةً أكثر من المعتاد، تهرَع إلى غرفتنا، وتؤدّي حركةً راقصة.

- «لقد فعلتُها!». تقول.

- «فعلتِ ماذا؟». أسألُها.

- «وجدتُ طريقاً لسفرِنا». تقول سارة: «نبيه».

نبيه هو ابن عمّنا غير المباشر، والده ابن عمّ أبي، عُمره قريبٌ من عُمري، كنّا نلتقيه عندما كنّا أطفالاً في التجمّعات العائليّة في دمشق. مدرسته ليست بعيدةً، ونحن في كثيرٍ من الأحيان نصادف بعضنا في حيّ المالكي، لديه لحيةٌ قصيرةٌ، وعيناه داكِنتان، ويرفع شَعرْه من المقدّمة باستعمال مُستحضر تصفيف الشعر، إنّه نموذجٌ للفتى المجنون المراهق.

- «نبيه؟». أقول: «ابن عمّنا نبيه؟».

- «نعم». تُجيبُني سارة. قابلته في الشارع الّليلة، قال: إنّه ذاهبٌ إلى ألمانيا، وأعتقد أنّه ذاهبٌ مع أحد أعمامه، وعليه أنْ يغادر قريباً؛ لأنّه على وشك بلوغ الثامنة عشرة، وهو لا يريد المشاركة في القتال. نحن عائلة، يمكننا جميعاً أن نذهب معاً، لقد كتبت بالفعل إلى أبي لأخبره بذلك.

تسري شُحنةٌ من الإثارة في جوفي، أنهض وأطوِّق سارة بذراعَيّ،

أحسنتِ، فكرة رائعة. لقد فعلَتها، الذهاب مع العائلة خيارٌ مثاليٌّ، لا مجال لأنْ يرفض أبي ذلك أبداً. تناقشنا في الأمر لبضعة أيّامٍ تلَت، تحدَّث أبي إلى والد نبيه، ثمّ اتّصل بي لتأكيد الأمر، سوف يسمح لنا بالذهاب، أكاد لا أصدّق، تجلس أمّي لتتحدّث إلينا في المساء نفسه، وجهها حزينٌ ومهموم.

- «سألني أبوكما عمّا إذا كنت أريد الذهاب معكما إلى أوروبّا». تقول أمي.

تهزُّ سارة رأسها اعتراضاً.

- «مستحيل!». تقول سارة: «وماذا عن شهد؟ عمرها لا يتجاوز سبعة أعوام، ماذا عن البحر؟».

تجيبُها أمّي بأنّها لا تُحبّذ فكرة أنْ تكون بعيدةً عنّا، وتقول: إنّ شهد ستشتاق إلينا كثيراً، وهي أيضاً ستفتقدنا كما تقول.

أنا في حَيْرةٍ من أمْري، لا أريد أنْ أكون بعيدةً عن أمّي، لكنّني أكره فكرة أنْ تكون شهد على متْن قاربٍ مُهلهَلٍ، المسألة خطيرةٌ جدّاً، فشهد ليست سبَّاحة.

- «ليست مشكلة». أقول: «سوف نقدِّم طلب شملٍ لكُما بمجرّد وصولنا إلى ألمانيا».

تجلس أمّي في صمتٍ لمدّة دقيقةٍ، وهي تُغالب دموعها.

- «لا تبكي!». أقول لأمّي: «لن يطول الوقت حتّى نكون جميعناً معاً من جديد».

تأخذ أمّي نفساً عميقاً، وتمسك بيدي على الطاولة.

- «حسناً». تقول أمّي: «المهمّ أن تَخرُجا أنتُما، نحن سننتظر ونأتي لاحقاً».

تمضي الأمور بسرعة، يتّصل أبي بماجد، عمّ نبيه الذي سيذهب معنا

أيضاً، يتعيّن على أحدهم إخراج ابن عمّنا نبيه من سوريا، وماجد شابٌّ في سنٍّ مناسبةٍ، وهو على استعدادٍ لذلك، قابلتُه مرّةً، أو مرّتين في لقاءاتٍ عائليّةٍ، وهو شابٌّ جدّيٌّ وعصبيٌّ بعض الشيء، في أواخر العشرينيّات من عمره، لهُ شعرٌ داكنٌ قصيرٌ، وملامح حسّاسة.

ماجد لديه الخطّة، لقد وجد موقعاً على الإنترنت ممتلئاً بالنصائح المتعلّقة بالرحلة، نشرها آخرون على الطريق، التكلفة ليست رخيصةً، لكنّ الطريق الأسلم والأكثر موثوقيّةً للخروج من سوريا الآن هو الطيران، في ذلك الوقت لمْ يكن السوريّون يحتاجون إلى تأشيراتٍ للسفر إلى تركيا، إذا كان لدينا ما يكفي من المال، يمكننا ببساطةٍ حجْز رحلاتنا إلى إسطنبول، ولا يوجد قانونٌ يمنع الحجز في اتّجاهٍ واحدٍ، ولن نرتكب أيّ فِعلٍ غير قانونيٍّ بمغادرة سوريا، سيبدأ الجزء الخطير من الرحلة في تركيا عندما نتواصل مع المهرِّبين للحصول على قاربٍ يوصلنا إلى إحدى الجزر اليونانيّة، وبمجرّد وصولنا إلى اليونان، سنكون في أوروبّا، بعد ذلك سنقطع مسافة 2500 كيلومتر إلى ألمانيا بالحافلة، أو السيّارة، أو القطار، أنا مستعدّةٌ للذهاب مشْياً إذا اقتضى الأمر ذلك.

أذهب مع ماجد ونبيه إلى مكاتب السفريّات، ويُرسِل أبي المال، ونحجز للرحلات تذاكر الطيران إلى إسطنبول عبْر بيروت ليوم الأربعاء التالي الذي يصادف في 12 آب/ أغسطس، لقد أصبح الأمر واقعاً، وها هو يتحقّق، يتّصل بنا أبي لبحث الخطّة، ويقول: إنّه سيحوّل النقود عبْر شركة «ويسترن يونيون» لكي نستلمها على مراحل في طريقنا.

يقول عبْر الهاتف: «عليكما إخفاء النقود حالَ استلامها، عليكما توخّي أقصى درجات الحذر في ذلك، لا تدعا أيّ شخصٍ يعرف أنّها في حوزتكما، لا تُظهِراها لأيّ شخص».

لا وقت للتفكير فيما يحصل، نقضي كلّ مساءٍ من ذلك الأسبوع مع الأصدقاء لوداعهم، الوداعات نهائيّة، كلّنا نفترض أنّنا لنْ نرى بعضنا مرّةً أخرى، أو على الأقلّ لسنواتٍ عديدة. تبدو نهاية الحرب غير واردةٍ في الوقت الحالي، وقد يحدث لي أيّ شيءٍ في الطريق، أو لأولئك الذين بقوا في دمشق، نجلس ونحاول ألّا نبكي، لكنّ الدموع على وشك أنْ تنهمر، وعادةً ما كنت أنهض، وأنسحب فجأةً من لقاءات الوداع، كان الوداع الأسوأ مع صديقاتي المقرّبات: هديل، وآلاء، والأُخريات، أعطَيْنَني صورةً مؤطَّرةً لمجموعتنا، وقد كتَبْنَ عليها تذكاراتٍ عن أجمل الأوقات التي قضيناها معاً، أتركُها في المنزل، رُبّما يمكنني العودة، وأخذها في يومٍ من الأيّام. تأتي جدّتي إلى شقّتنا لوداعنا مع سيلٍ مستمرٍّ من أبناء العمومة، والأخوال، والعمّات، والأعمام.

تشتري لنا أمّي الملابس، والحقائب، والأحذية الدافئة؛ لتساعدنا على الطريق، كما تشتري كلّ واحدةٍ منّا حقيبةً كبيرةً، وأُخرى أصغر للأشياء الثمينة. نقوم بتنزيل تطبيق تتبُّع لهواتفنا التي يمكنها تحديد موقعنا ومشاركته عن طريقة خدمة تحديد الموقع «GPS» حتّى عندما يكون الهاتف مغلقاً، وبهذه الطريقة يمكن لأمّي وأبي معرفة المكان الذي نحن فيه في الأوقات جميعها. أنشأنا مجموعةً على واتساب لأقرب أقربائنا حتّى يتمكّنوا من البقاء على اتّصالٍ معنا بسهولةٍ، نقلب أنا وسارة شقّتنا رأساً على عقب لتقرير ما يجب أخْذه، لدينا حيزٌّ صغيرٌ جدّاً، تضع سارة تحفها ومجوهراتها كلّها في صندوقٍ كبيرٍ، وتعطيها لإحدى صديقاتها لتحفظها لها، ما نأخذه كلّه هو بعض الملابس، وهواتفنا، وجوازات سفرنا.

في صباح يوم سفرنا تتلقّى أمّي مكالمةً هاتفيّةً من ماجد، يقول: إنّ رحلتنا قد تأخّرت ثلاث ساعات، يرتجف قلبي، أنا أتهيَّبُ الوداع، ومن

شأن هذا التأخير أنْ يطيله، بدأ صبري ينفدْ في انتظار أن نمضي، الجميع متوتّرون، لا أحد منّا يريد أن يفوّت الطائرة، ذهب ماجد ونبيه إلى المطار في وقتٍ مبكّرٍ للتحقّق، أخبر أمّي أنّني أريد أن أذهب معهما، وأنّ بإمكانها إحضار سارة لاحقاً.

يصل ماجد ونبيه في سيّارة أجرةٍ لاصطحابي معهما، كانت سيّارة الأُجرة أكبر ممّا كنت أتوقّع، فهي شاحنةٌ صغيرةٌ أكثر من كونها سيّارةً، وكانت ممتلئةً بالناس، في الخلْف، مع ماجد ونبيه، يجلس رجُلٌ لمْ أره من قبْل، وهناك شخصٌ غريبٌ آخر في المقعد المجاور للسائق، أضع حقيبة ظهري في الصندوق الخلفيّ، وأصعدُ إلى الحافلة، يبدو الرجُل الجالس في المقعد الخلفيّ في أوائل الأربعينيّات من عمره، وله وجهٌ شقيٌّ يذكّرني بأبي.

- «أنا مهند». يقول: «أنا صديقٌ قديمٌ لوالدك، لقد نشأنا في الحيّ نفسه. سآتي معكم إلى تركيا».

أبتسم، حتّى إنّه يشبه أبي بعض الشيء. نلتزم الصمت بينما تندفع سيّارة الأُجرة في البلدة القديمة، أُحدِّق من النافذة في شوارع دمشق العتيقة، وفي المساجد القديمة، والمتاجر، والمقاهي، وحركة المرور، وأتملّى في الأشياء التي رأيتها مليون مرّة، وأحاول التقاطها والاحتفاظ بها، نَمُرّ بالأماكن التي أعرفها، والأماكن التي عملت بها، والأماكن التي ضحكتُ فيها، والأماكن التي فزت فيها وخسِرت، ومررنا بالمسبح، تلك الساعات كلّها من التعرّق، والإذلال، والانتصار، تتضاءل المنازل ما إنْ نصبح على طريق المطار، أنظر إلى الوراء، يلوح جبل قاسيون في الأفق متلألئاً فوق كُتل المدينة، وحين نصل إلى المطار أكون أنا أوّل من ينزل من سيّارة الأُجرة، أشاهد الآخرين يمسحون الدموع عن وجناتهم، وهم

ينزِلون خلْفي، أُصدَم لرؤية هذا المشهد، فأنا لمْ أرَ قطّ رجالاً يبكون من قبْل.

داخل صالة المطار أسأل نبيه عن الغريب الثاني في مجموعتنا، يخبرني نبيه أنّ الرجُل هو أحمد، زوج خالته، وهو يريد الذهاب أيضاً.

- «لمْ أكن أدري أنّ كثيرين سيأتون معنا». أقول.

يهزّ نبيه رأسه قائلاً: إنَّ الجميع يغادرون.

ننتظر ثلاث ساعاتٍ قبْل وصول الآخرين، أشعر بالملل، كأنّني في عالم النسيان، لكنّني سعيدةٌ بفراري من الوداع في المنزل، لا شيء يبدو حقيقيّاً. أخيراً، تصل سارة، وأمّي، وشهد إلى المطار، تخطو أمّي نحوي فاتحةً ذراعيها مُحاوِلةً كتْم دموعها.

- «وداعاً حبيبتي». تقول لي، وهي تعانقني لدقيقةٍ كاملة.

أنتقل إلى شهد، تنظر في وجهي بعينين ملؤهما الفضول.

- «متى تعودان؟». تسألني شهد.

أجذبها نحوي معانِقةً إيّاها، ومُقبّلةً رأسها.

- «لا يا حبيبتي». أقول لها بلطفٍ: «لنْ نعود هذه المرّة».

أتركها تمضي، تفهم في النهاية ما يحدث، فالأمر يختلف هذه المرّة عن سفرنا للمشاركة في منافسات السباحة، المسألة مختلفةٌ الآن، تنهار شهد: «كلّا». تقول وتتشبّث بخصر سارة، تسيل الدموع على خدّيها.

- أرجوكما لا تذهَبا، لا تذهَبا. يهتزّ جسدها الصغير، وهي تنشج بالبكاء.

- «لا تذهَبا». تُتَمتِم شهد، وينكسر قلبي حزناً عليها، تدفعها سارة بلطفٍ، ثمّ تنحني وتعانقها.

- «اسمعيني». تقول سارة.

تمسحُ شهد الدموع عن خدّيها، وتنظر في وجه سارة التي تقول لشهد: إنّنا سنكون معاً في أسرع وقت.

- سنأتي بكِ للانضمام إلينا: أنتِ، وأنا، وأمّي، ويسرى، في بلدٍ مختلفٍ، فقط انتظري بضعة أيّامٍ، أو ربّما بضعة أسابيع.

تعانق سارة الفتاة الصغيرة، ثمّ ومن دون كلمةٍ أُخرى تسير نحو نقطة الأمن. أمّي تنظر إليّ، وجهها شاحبٌ، وعيناها فاغرتان ومبلّلتان بالدموع، أضمُّها بقوّةٍ مرّةً أُخرى، وأخطو مبتعِدةً. يرنُّ في أذني وعدُ سارة لشهد، أدعو الله ألّا نكون قد بدأنا رحلتنا بكِذبةٍ تعلق في ذاكرة أختي الصغيرة لتواجهنا بها عندما نجتمع بها ثانيةً.

<u>الجزء الرابع</u>

البحر

7

تبدأ الإهانة بمجرّد مغادرة المجال الجويّ السوريّ؛ ننتظر في بيروت لنقلنا إلى إسطنبول، لا نجد مكاناً لتناول الطعام، أو الجلوس، فنجلس على الأرض بينما يرمقنا اللبنانيّون بنظراتٍ قذرةٍ، ينظرون إلينا كأنّنا لا نملك مالاً، ولا ملابسَ، ولا بيتاً، يُشعِروننا كأنّنا حثالة العالم العربيّ، تصل الشتائم ذروتها في رحلةٍ استغرقت ساعتين من بيروت إلى إسطنبول، وعندما نبدأ الهبوط يتحدّث مضيف طيرانٍ لبنانيٌّ من مكبّرات الطائرة، ويقول:

- يرجى الانتباه إلى أنّ أيّ مسافرٍ يحاول أخْذ سترات النجاة من الطائرة سيُقبض عليه ويُقاضى، وسيقوم موظّفو الأمن بفحص أمتعتكم عند مغادرتكم الطائرة.

تستغرق الكلمات لحظاتٍ لاستيعابها، أنظر إلى سارة، عيناها فاغرتان من الصدمة، كلانا مذهولتان لهذا الكلام، نشعر بإهانةٍ تغلب حتّى على غضبنا.

في إسطنبول لدينا أصدقاء على الأقلّ، أتواصل مع صديقي في السباحة، رامي، الذي يعيش هنا مع شقيقه منذ بدء النزاع في سوريا، يوافق رامي على مقابلتي في أثناء وجودي هنا، لكنّه لا يستطيع مساعدتنا في الجزء

التالي من رحلتنا؛ لذلك، يعرف أحمد شابّاً من خلال عمله دليلاً سياحيّاً، وهو سوريٌّ يعيش في المدينة، يخبر أحمد صديقه أنّنا قادمون معاً، ويرتبان مكاناً لنا للمكوث فيه، بينما ننتقل إلى الخطوة التالية، فيستقبلنا الشابّ في المطار، ويأخذنا إلى الشقّة بسيّارته، ثمّ يتركنا نخْلد إلى النوم. في صباح اليوم التالي يعود الصديق، نجتمع في الشقّة لعقد اجتماع.

يخبرنا الصديق أنّ لدينا خيارَيْن: يمكننا العبور إلى أوروبّا إمّا عن طريق البحر، وإمّا سيْراً على الأقدام، المشي هو الطريقة الأقلّ تكلفةً، سندفع لمهرّبٍ لنقلنا شمالًا إلى الحدود التركيّة البلغاريّة، ومن هناك، سنواصل السيْر على الأقدام لمدّة يومين حتّى نصل إلى بلغاريا، لكنّ الحدود ليست آمنةً؛ يبني البلغاريّون سياجاً عملاقاً لمواكبة الحاجز على طول الحدود اليونانيّة جنوباً، كان علينا أن نلتفّ على هذا السياج من خلال الجبال، تقوم الشرطة البلغاريّة بتسيير دوريّاتٍ في الطرق ليلاً ونهاراً، يقول الناس: إنّهم يضربون أيّ شخصٍ يمسكون به، سواء كان من يمسكون بهم من النساء أم من الأطفال، أو من ذوي الاحتياجات الخاصّة، ويُشاع أنّهم يكسرون الأيدي، وحتّى الأرجُل، ثمّ يتركون الناس في الغابة يعودون زحفاً إلى المناطق المأهولة، وإذا حالفَك الحظّ، كما تروي القصص، سوف يكتفون بسرقة هاتفك، أو نقودك، أو جواز سفرك. أُحدِّق مرعوبةً في الصديق، وهو يتحدّث، لا يبدو هذا جيّداً.

خيارنا الثاني هو الذهاب عن طريق البحر على متْن قاربٍ للمهرّبين، سينقلنا من الساحل التركيّ إلى إحدى الجزر اليونانيّة، سنتّصل أوّلاً بمهرّبٍ في إسطنبول ليرافقنا طوال الطريق إلى اليونان، وضعونا في حافلةٍ، وذهبنا من إسطنبول إلى الساحل لنصل إلى مكانٍ ما بالقرب من إزمير، وهناك سننتظر دورنا لركوب القارب. الذهاب عن طريق البحر أكثر تكلفةً؛ ألف وخمسمئة دولار للشخص الواحد.

مجموعتنا منقسمة، أحمد غير راضٍ عن إنفاق هذا المبلغ كلّه من أجل عبور المياه، وفضلاً عن ذلك، أُسْوةً بالعديد من السوريّين، يخشى الغرق في البحر؛ أمَّا الآخرون: ماجد، ونبيه، ومهنّد، فلا يشعرون بسعادةٍ غامرةٍ إزاء هذه الفكرة أيضاً، أنا وسارة فقط من يمكنه السباحة حقّاً، ويمكن للآخرين أنْ ينزلوا إلى الماء لبضع دقائق، لكنّهم لنْ يحتملوا طويلاً من دون سترات النجاة، وحتّى مع ذلك، سمعنا قصصاً عن ستراتٍ مزيّفةٍ محشوّةٍ بحشواتٍ دفعت الناس إلى الأسفل عندما تبلّلت، لقد سمعنا القصص من كلّ حدْبٍ وصوبٍ، الجميع مرعوبون من البحر.

- «لن تغرقوا بوجودنا معكم هناك». تقول سارة.

أنظر إليها نظرةً متفاجئةً، فتخبرني أنّها جادّةٌ فيما تقول.

- «نحن سبّاحات، أنا مُنقِذة سباحة، لنْ نترككم تموتون». تقول سارة للمجموعة.

يجلس نبيه في إحدى الزوايا يحدّق في هاتفه، ويلقي نظرةً على ماجد.

- «نحن بنات، لا يمكننا أن نتسلّل عبْر الجبال، ونطارَد من قِبَل الشرطة، وننتظر كسْر أرجُلنا، يمكننا السباحة، دعْنا نذهب عن طريق البحر». تقول سارة: «يمكننا السباحة، دعونا نذهب عن طريق البحر».

أستعرِض أسوأ السيناريوهات في مخيّلتي، البحر ليس حَوْض سباحةٍ، حتّى السبّاحون يموتون هناك، ماذا لو تعرّضتُ لإصابةٍ، أو فقدتُ الوعي بطريقةٍ، أو بأُخرى؟ قد يحدث قتالٌ، أو هجومٌ، أو حادثٌ، أو أيّ شيءٍ آخر، ولكنْ لا يبدو أنّ هناك الكثير من الخيارات، يبدو خيار المشي مروِّعاً، ونحن نستطيع أنْ نسبح، فقرّرت أن أضع ثقتي في الله، وفي سارة.

يومئ نبيه وماجد لسارة موافقَين، لا يبدو مهنّد متحمّساً للفكرة؛ أمّا أحمد، فيتنهّد أخيراً ويستسلم.

- «تمام». يقول أحمد من دون أنْ يبدو مقتنعاً على الإطلاق: «سوف نستقلُّ القارب، وسوف ينقذنا السبّاحون بالطبع».

ينهض صديق أحمد عن الأريكة، ويقول: إنّه سيتّصل بالمهرّبين نيابةً عنّا، ويطلب إليهم الاتّصال بنا لترتيب الجزء التالي من الرحلة، سنسلّم النقود إلى وسيطٍ في مكتبٍ هنا في إسطنبول، وعندما نصل إلى اليونان، سيتّصل بنا الوسيط، ويتحقّق من أنّنا بخير، وإذا وصلنا إلى أوروبّا بأمان، فسوف يُسلِّم الرجُل النقود إلى المهرّبين.

يتولّى ماجد المسؤوليّة الماليّة، ويخبر أبي عن خطّتنا، ويرتّب معه لتحويل المبلغ المستحقّ عنّا أنا وسارة، ويذهب ماجد إلى فرع ويسترن يونيون لاستلام المبلغ، وعندما عاد إلى الشقّة مدَّ يده إلى حزامه الذي يحفظ فيه النقود وسحب رزمةً من الدولارات الأميركيّة، فرَدَها على الطاولة، وبدأ بتقسيمها إلى مجموعاتٍ، تتَّسعُ عيناي دهشةً؛ لمْ أرَ مالاً بهذا القدْر في حياتي، يقوم ماجد بتجميع الأموال مرّةً أُخرى في حزامه، ويقول: إنّها ستبقى في عُهدته حتّى يحين وقْت تسليمها إلى الوسيط، ثمّ يُعطي لكلٍّ منّا ورقةً من فئة خمسمئة يورو، وأُخرى من فئة مئتي ليرةٍ تركيّةٍ،

يقول ماجد بتعبيراتٍ صارمةٍ على وجهه: «احرِصن على النقود، أبقينها في مأمن».

أُحدِّقُ في الأوراق النقديّة، هذا أكبر مبلغٍ أمسكه بيدي على الإطلاق. تقهقه سارة ضاحكةً، وهي تلوّح بأوراق اليورو الورديّة في وجْه ماجد.

- «انتظر». تقول سارة: «ألا يعني هذا أنّ الوقت قد حان للاحتفال؟».

نضحك أنا ونبيه، يعبس ماجد من دون أنْ يقول شيئاً.

مضينا أنا وسارة في اليوم التالي لاستكشاف مدينة إسطنبول القديمة، أعجبتني المدينة، والأسواق المزدحمة بالتحف، والحشود، والأفق

المرصّع بالقباب، والمآذن، ثمّة ما يُذكِّرني ببلادي. تجوّلنا في أكسراي، وهو حيٌّ أطلق عليه السكّان المحلّيّون اسْم «سوريا الصغيرة»؛ لأنّ الكثير من السوريّين استقرّوا فيه منذ بدْء الحرب.

نسمع أشخاصاً يتحدّثون العربيّة بلهجاتٍ سوريّةٍ في الشارع، وفوق واجهات المحالّ نُشاهد الكتابات الإعلانيّة المألوفة بلغتنا للمطاعم، وبيوت الكباب السوريّة من دمشق، وحلب، وحمص، ونمُرُّ بالمخابز التي تبيع أكواماً من المعجّنات الدبّقة الموشّاة بالفستق الأخضر، ومحالّ البقالة الممتلئة بأكوامٍ من الزعتر المتبّل، وبمرطبانات المتّة والقهوة بالهال. الجدران وأعمدة الإنارة مُزيّنةٌ بالملصقات الإعلانيّة باللّغة العربيّة عن شقق للإيجار.

من السهل أنْ يعي المرء لِمَ انتهى المطاف بالعديد من السوريّين في تركيا؛ فتركيا بالنسبة إليهم هي أسهل طُرق الهروب. في هذه المرحلة، لا تزال الحدود البريّة الطويلة بين تركيا وسوريا مفتوحةً، ولا يحتاج السوريّون إلى تأشيرةٍ لعبورها، وبحلول الوقت الذي عبَرنا فيه، كان هناك بالفعل مليونا سوريٍّ يعيشون في تركيا، ويعيش بعضهم في مخيّماتٍ مؤقّتةٍ على طول الحدود، لكنّ الغالبيّة بدأت بحياةٍ جديدةٍ في المدن، قد يكونون في مأمنٍ من العنف في بلادهم، لكنّ الحياة صعبة. تمنح تركيا السوريّين حمايةً مؤقّتةً فقط، ولا يُسمح لهم بالعمل، وقد يُستَغَلُّ أولئك الذين يعملون على نحوٍ غير قانونيٍّ في أنْ يتقاضوا رواتب متدنّية.

فرَّ الكثير من السوريّين إلى تركيا في وقتٍ مبكّرٍ من النزاع، واعتقدوا أنّهم سيمكثون لأسابيع معدودةٍ فقط؛ أمّا اليوم، وبعد أربع سنواتٍ، يفكّر الكثير منهم الآن في مستقبلهم. قد تنفد أموالهم، فقد ذهبت مدّخراتهم جميعها، ولا أحد يريد الاعتماد على الصدقة إلى الأبد، لا سيّما الشباب السوريّ، فهُم يحلمون بالدراسة، وكسْب العيش، وتأسيس العائلات،

ويتطلّعون إلى مستقبلٍ أكثر إشراقاً في أوروبّا، وإذا تيسّر لهم ذلك، فإنّهم يخاطرون بعبور البحر.

في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء التقيتُ أنا وسارة برامي في مقهى للنرجيلة؛ حيث يدخّن الزبائن التبْغ المنكَّه في قوارير معبّأةٍ بالماء. مضتْ أربع سنواتٍ منذ آخر مرّةٍ رأيتُ فيها نرجيلة، يبدو أكبر سنّاً ومُتعَباً قليلاً، كان يجلس قُبالتي إلى جانب الطاولة، وفحْم النرجيلة يتوهّج باللّونين: الأحمر، والأسود على ورق الألمنيوم.

- «أنت تسبح إذنْ؟». أقول.

- «أنا أتدرّب مع غلَطة سراي». يجيبني رامي، وهو ينفخ على الفحْم مُصدِراً زخّةً من الشرر الأحمر في الهواء: «لكنّهم لنْ يسمحوا لي بالسباحة في المنافسات، هذه هي القواعد هنا، يجب أنْ يكون الشخص تركيّاً ليُسمَح له».

يلتقط رامي خرطوم النرجيلة، ويقشِّر مصاصةً بلاستيكيّةً جديدةً، ويثبّتها في رأس الخرطوم، يسحب عدّة سحباتٍ عميقة، وينفخ في الهواء سحابةً رقيقةً من الدخان الأبيض.

- «إذنْ، ما الذي تفعله هنا يا رامي؟». أسأله: «أعني كم من الوقت ستبقى على هذه الحال هنا؟».

يعبس رامي، ويتفرّس في وجهي.

- أنا أعني ما أقول يا رامي، لا يوجد مستقبلٌ لك هنا، تعال معنا إلى أوروبّا.

- «كلّا». يقول رامي، ثمّ يسحب من خرطوم النرجيلة، ليعلو صوت قرقرة المياه أكثر هذه المرّة، وهو يُطلِق الدخان في سحابةٍ أكبر وأكثر كثافةً من سابقاتها.

- «الوضع مقبولٌ هنا، يمكنني التحدّث باللّغة التركيّة الآن، ولديّ أصدقاء، وأخي يدعمني، بإمكاني أنْ أسبح». يقول رامي.

أبتسم في وجهه.

- أفهم أنّك تجد مكاناً للتدريب، ولكنْ ماذا عن حلمك؟ كم من الوقت سوف تتدرّب فقط من دون أن تشارك في المنافسات؟ ما الذي ستحقّقه من هذا الطريق؟.

ينظر رامي إلى الأسفل مثبّتاً أنظاره على الطاولة، ومُصغياً بانتباه.

- «وعلى أيّ حال، أنت أفضل من أنْ تكون في وضعٍ كهذا، يمكنك تحقيق ما هو أفضل إذا أتاحوا لك ذلك، وسوف يسمحون لك بدخول أوروبّا».

أقول محاوِلةً إقناع رامي.

يبدّل رامي وضعية جلوسه، ويمرّر لي خرطوم النرجيلة، أسحب سحبةً، فيتوهّج الفحْم، ويقرقِر الماء، ثمَّ أنفخ الدخان في وجْه سارة، ترفع سارة عينَيها لتنظر إليَّ، وهي تستعرض الصور على هاتفها.

- «تعال معنا إلى أوروبّا». أقول لرامي مرّةً أُخرى: «سنذهب جميعنا معاً، يمكننا السباحة، وسنتدرّب بعزمٍ، ونحقّق نجاحاً جيّداً مرّةً أُخرى، ويمكننا المواصلة حتّى النهاية».

يقول رامي: إنّه سيفكّر في الأمر بينما يشرب باقي عصيره: «اذهبا أنتما، ثمّ أخبراني كيف سيكون الوضع هناك بعد وصولكما، ربّما سأغيّر رأيي».

بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، تحدّث ماجد إلى المهرّب على الهاتف، ستغادر حافلةٌ من إسطنبول إلى الساحل في غضون يومين، ولدينا أربع وعشرون ساعةً لتقرير ما إذا كنّا سنستقلّها، وبينما نتحدّث في الأمر، يعلن أحمد فجأةً أنّه سيغادر إلى الحدود البلغاريّة، هو خائفٌ كثيراً من الذهاب

في البحر على متنِ زورقٍ مطّاطيٍّ، ويقول: إنّه يفضّل أن يجرّب حظّه في المشْي عبْر الجبال، حين استيقظنا في صباح اليوم التالي وجدناه قد رحل، لنْ نراه ثانيةً. بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ، عندما وصلنا إلى ألمانيا، سمعنا أنّ أحمد أعيد إلى الحدود البلغاريّة وانتهى به الأمر في سوريا، لمْ نناقش الأمر في ذلك الحين، لقد عقدنا العزْم على المضيّ في خطّتنا.

اتّصل ماجد بالمهرّب، وأخبره أنّ خمسةً منّا يريدون مقاعد على متْن الحافلة إلى إزمير، ويريدون كذلك مقاعد على متْن قاربٍ إلى اليونان، يقول الرجُل على الهاتف: إنّنا يجب أن نلتقي به في المساء التالي في ميدانٍ وسْط المدينة، كما يقول: إنّ علينا جلْبَ سترات النجاة الخاصّة بنا، تلك قاعدة، ما لمْ تكن معنا سترات نجاةٍ، فلنْ نصعد الحافلة، ولا القارب، ولنْ نبلغ أوروبّا.

ننهض باكراً في اليوم التالي، يقول ماجد: إنّ هناك مكاناً في سوق مالطا في أكسراي يبيع سترات النجاة، انتظرنا أنا وسارة في الخارج في الشارع المرصوف بالحصى في أثناء دخول الرجال وشراء السترات، يخرج نبيه أوّلاً مبتسماً ويحمل حقيبةً بلاستيكيّةً كبيرة الحجْم، يفتحها ليُريني ما بداخلها، شيئان ضخمان لونهما أخضر غامق، دَهشني أنّها ليست برتقاليّةً، مثل تلك الموجودة في الصور.

يوضح نبيه: «هي مصنوعةٌ للجنود».

- «هل هذا يعني أنّها أقلّ عرضةً لأنْ تكون مزيّفةً؟». أقول.

يهزّ نبيه كتفيه غير مبالٍ، بعد ذلك يخرج مهنّد من المتجر، يتوهّج وجهه حين تقع أنظاره على شخصٍ خلفَنا، ويفتح ذراعيه لعناقه، أنظُرُ إلى الوراء لأرى رجُلاً ذا شعرٍ أشقرَ داكنٍ يرتدي نظّارةً رقيقةً، يحتضن الرجُل مهنّداً بحرارةٍ، ويتجوّلان بعيداً، وهُما يتبادلان الحديث بعمق.

- «من ذلك الرجُل؟». أسأل ماجد.

يقول ماجد، وهو ينوء بحمْل كيسَين بلاستيكيّين إضافيّين: «إنّه صديقٌ لمهنّد من دمشق، أعتقد أنّه كان هنا في إسطنبول لفترةٍ من الوقت، لكنّه الآن يريد الخروج، سيأتي معنا إلى اليونان».

أرفع كتِفَيّ تعبيراً عن عدم اكتراثي من دون أنْ أسأل المزيد من الأسئلة، نحن لا نعرف الكثير عن الرجُل، ولا حتّى اسمه الحقيقيّ، نتهكّمُ مطلِقين عليه لقب الأشقر من دون أن يعلم، نتجوّل نحن الأربعة بين الحشود، ونتباحث فيما سنحتاج إليه في رحلة عبورنا، مهنّد و«الأشقر» يتبعاننا عن بُعد.

- «ما رأيكم بهذه للهواتف؟». يقول نبيه مشيراً إلى حزمةٍ من الأكياس القابلة لإعادة الإغلاق المعروضة فوق مجموعةٍ متنوّعةٍ من الأدوات المنزليّة: «للحفاظ عليها في مأمنٍ من الماء؟».

يلتقط ماجد الأكياس، ويتفحّص العُبوة، تبدو الأكياس كبيرةً ومتينةً، وبإمكاننا حِفْظ ما هو أكثر من مجرّد هواتفنا فيها، حتّى جوازات سفرنا والمال أيضاً، يشتري واحدةً لكلٍّ منّا، فتُمسِك سارة بذراعي، وتجرّني في اتّجاه متْجرٍ صغيرٍ لبيع الهواتف ومُلحقاتها؛ تريد شراء شريحة هاتف محليّة حتّى نتمكّن من إرسال الصور والرسائل إلى أمّي، وبينما تستعرض سارة العروض، وتساوم مع صاحب المتْجر، أتساءل ما الذي تفعله أمّي، وما إذا كانت تفكّر فينا أيضاً. أعِدُ نفسي بأنْ أكتب إليها حالما نعود إلى الشقّة.

عند عودتنا إلى غرفتنا نعيد أنا وسارة حَزْمَ أشيائنا، ويعطي ماجد كلّ واحدةٍ منّا كيساً من الأكياس البلاستيكيّة القابلة للإغلاق، ويخبرنا أنْ نضع الأشياء الثمينة في داخلها، ويوصينا أنْ نحافظ على حقيبتنا آمنةً في الأوقات

جميعها في حال انفصالنا، تغلق سارة باب غرفتنا، ونضع الأكياس في أكثر الأماكن أماناً التي يمكننا التفكير فيها؛ داخل حمّالات الصدْر.

حين وصلنا إلى الساحة في ذلك المساء، كانت الشمس قد اقتربت من قمم المباني، ويمكننا أنْ نقول: إنّنا نقف في المكان المناسب من الناس جميعاً، يقفون ويجلسون في مجموعاتٍ على الرصيف يدردشون، ومعظمهم يتحدّثون العربيّة؛ أسمع الكثير من اللّهجات السوريّة. وصلنا في الوقت المحدّد، لكنْ لا شيء يحدث، لذلك نجلس على الرصيف للانتظار مع الآخرين، الجميع يبدون في ارتياح، ويُدهشني عدم وجود الشرطة.

يغدو الحشْد أكثر كثافةً بينما تغطُّ الشمس وتتوهّج السحب المتلاشية فوقها باللّون البرتقاليّ أوّلاً، ثمّ بالأحمر. تجتمع الأُسَر، والآباء، والأبناء، والأجداد، على الرصيف عند الغروب، ويتسكّع الشبّان في مجموعاتٍ ثنائيّةٍ وثلاثيّةٍ، وهُم يدخّنون السجائر الواحدة تلْو الأُخرى، وأتأكّد من وجود هاتفي، لقد تجاوزت الساعة التاسعة، مرّت ساعتان على الموعد، ولمْ يظهر أيّ أثرٍ للمهرّبين، أستعرض الحشْد بأنظاري مرّةً أُخرى، الضوء يختفي بسرعةٍ، وتستقرّ أنظاري على مجموعةٍ من ثلاث نساء، لقد غطّينَ شعرَهنّ بالحجاب، وارتدين عباءاتٍ وستراتٍ يصل طولها إلى الأرض، تحمل إحداهنّ طفلاً ملفوفاً بشالٍ، يجلسْن على الرصيف على بُعد أمتارٍ قليلةٍ يتهامَسْن وينظُرْن نحْونا.

ألكزُ سارة.

- «نعم، أنا أعلم، يا للسيّدات المسكينات، هُنَّ مِثل...، هل أنتنّ ذاهبات معنا يا بنات؟». تقول مبتسمةً.

عند هذه اللحظة تماماً شقَّ رجُلٌ عريض المنكبَين طريقه عبْر الحشْد،

كان يرتدي بنطال جينز، وقميصاً أسْود، وله لحيةٌ كثيفةٌ سوداء، ويستقرّ زوجان من النظّارات الشمسيّة على جبينه، توقّف أمامنا، وقدماه متباعدتان، وهو يصفّق بيديه.

- «حسناً، هيّا، فلنبدأ». قال الرجُل.

تخبو الثرثرة من حولنا لتُصبِح همْساً.

- «هيّا». يقول مرّةً أُخرى.

يسود الصمت بينما يلتفت الجميع إليه: سيأتي الباص خلال دقيقةٍ، أوّلاً أريد أنْ أرى سترات النجاة للجميع.

يتحدّث الرجُل باللّغة العربيّة، لكنّ لهجته تبدو غريبةً، ربّما كان كرديّاً، قد يكون من شمال العراق، ابتسمت سارة في وجهي، ووجّهت إبهامها نحْو الرجُل الزعيم بينما نهَضنا على أقدامنا: «إنّه رجُلٌ قويٌّ كبيرٌ، أليس كذلك؟». تهمس لي سارة: «واو! انظري إلى هذه العضلات، يا له من رجُلٍ ضخم!».

أُقَهقِهُ ضاحكةً، فتتجمّد الابتسامة على وجْه سارة، أنظر إلى الأعلى، فأرى الرجُل الكبير ينظُر إلَيّ، أخفض بصري، وأُحدِّق في الأرض.

- «ما المضحك في الأمر؟». يقول.

- «لا شيء». تقول سارة.

- «هل تضحك على القواعد، أم على شيءٍ آخر؟». يسأل الرجل الكبير.

يتحوّل الرجُل الكبير عنّي ليحدّق في سارة، وفي تسريحة شعرها الكعكيّة المبعثرة، وفي كنزتها الفضفاضة، وحذائها الرياضيّ. يظهر من الحشْد فتَيان شابّان: واحدٌ طويل القامة، بشعرٍ طويلٍ أسْود مربوطٍ على هيئة ذيل حصانٍ، والآخر أقصر، بشعرٍ بنّيٍّ متموّجٍ ينسدل على كتفيه، لديه

بشرة أفتح من الأوّل، وهو نحيفٌ جدّاً. لا يبدو أنّهما ناما في سريرٍ، أو تناولا وجبةً مناسبةً في حياتِهما.

- «إنّها هنا». يقول أصغرهُما، وهو يشير فوق كتفه بإبهامه، ومن خلفه يسير متثاقلاً عبْر الساحة أسطولٌ مؤلّفٌ من ستّ حافلاتٍ بمظهرٍ مُهلهَلٍ، تقف واحدةً تلْو الأُخرى بجانب الحشْد.

- «وهذا الرجُل الصغير يشبه ماوكلي من كتاب الأدغال». تهمس سارة في أذني.

أشخر في محاولةٍ لكتمِ ضحكةٍ أُخرى.

- «مرحباً». يقول ماوكلي ناظراً إلينا للمرّة الأولى، هو يتكلّم بلهجة الرجُل الكبير نفسها.

- «مرحباً». تقلّده سارة.

- «هُسّ». أهمس لسارة بصوتٍ منخفضٍ: «توقّفي عن هذا».

- «ماذا؟!». تقول سارة بصوتٍ مرتفع.

- «هُس!». أقول.

- «توقّفي عن التصرّف كأنّكِ لا تبالين، انظري إلى الآخرين، الجميع خائفٌ منهم».

- «أنا لست خائفة». تقول سارة من دون بذل أيّ جهدٍ لخفض صوتها.

المهرّبون أكثر انشغالاً من أنْ يأبهوا لنا، يخطو الرجُل ذو ذيل الحصان إلى باب الحافلة، ويزداد اضطّراب الحشْد، بعض الناس يندفعون بالفعل إلى الأمام استعداداً للاستيلاء على أفضل المقاعد، يسوقنا الرجُل الكبير، والآخر ذو تسريحة ذيل الحصان إلى الحافلة، الجوّ مظلِمٌ وحارٌّ داخل الحافلة، وهناك رائحة عفنٍ تشبه رائحة السجّاد القديم، النوافذ -جميعها-

مغلقةٌ، والستائر مشدودةٌ عليها بإحكامٍ، نحشُرُ حقائبنا في رفوف الأمتعة فوق مقاعدنا، يدور المحرّك، ويهرع الجميع للجلوس، ويظهر الرجُل الكبير في الجزء العلويّ من الممرّ.

- «حسنًا، أغلقوا هواتفكم جميعاً». يقول الرجُل وسْط ضجيج المحرّك: «من الآن فصاعداً لنْ يكون هناك أيّة مكالماتٍ، أو رسائل، أو إنترنت، أورسائل تحديد موقع، سآتي وأتحقّق من أنَّ الهواتف جميعها مغلقة، عليكم إبقاء الستائر مغلقةً أيضاً».

نُطفئ -سارة وأنا- هاتِفَينا، أفكّر في تطبيق تعقُّب الموقع على هاتفي، يُرسل التطبيق إشارةً حتّى عندما يكون الهاتف مغلقاً، فأشعر بالارتياح؛ لأنّ أمّي وأبي سيكونان قادرين على التحقّق من مكاننا، ويمكنهما حتّى مشاهدتنا ونحن نتحرّك على الخريطة، يدبُّ الصمت مرّةً أُخرى عندما تنطلق الحافلة في الظلام، أبناء عمّنا: ماجد ونبيه يجلسان أمامنا، فيما يجلس الآخرون في مجموعتنا، ومهنّد و«الأشقر» عَبْرَ الممرّ، ومعظم الركّاب يغطّون في النوم بسرعةٍ، أجلس في صمتٍ وأتساءل عمّا مرّوا به، وما الفظائع التي أجبرتهم على سَلك هذا الطريق اليائس عبْر البحر.

قبْل مضيّ وقتٍ طويلٍ تبدأ امرأةٌ شابّةٌ خلْفنا التحدّث إلى جارتها بصوت همسٍ مرتفعٍ، سمعتها تقول: إنّها لبنانيّةٌ سوريّةٌ، وتقول: إنّها كانت تعيش في بيروت قبْل أنْ تبدأ رحلتها إلى أوروبا، جارتُها امرأةٌ مسنّةٌ ترتدي الحجاب، تقول: إنّها من العراق، وتسافر مع طفليها للقاء زوجها في ألمانيا.

أرفع رقبتي لأنظر عبْر الممرّ خلْفي، هناك صبيٌّ صغيرٌ وفتاةٌ أكبر سنّاً نائمان في المقاعد المقابلة، تراني المرأة الشابّة أنظر إليهما، لها شعرٌ قصيرٌ مُقصَّفٌ، وترتدي ملابس غريبَة الطراز، تبتسم وتقدِّم نفسها قائلةً: إنّ

اسمها كوكو، أتمنّى لو لمْ أكن بذلك الخجل؛ إذْ تحدث وقفةٌ بينما أحاول التفكير في شيءٍ أقوله.

- «هل تعتقدين أنّنا سنتوقّف في مكانٍ ما على الطريق؟». أقول في النهاية.

- «لا». تهمس لي كوكو من الفجوة بين المقاعد: «سمعت شخصاً آخر يسأل أحد المهرّبين، قالوا: إنّنا لن نتوقّف، سواء للمرحاض أم الماء، أو الأكل، أو أيّاً كان، سنواصل حتّى نصل إلى هناك».

- «تمام». أقول لها: «شكراً جزيلاً».

يبدو أنّ المحادثة قد انتهت؛ لذا فقد تراجَعتُ إلى مقعدي، وغطستُ فيه ساحبةً قبّعة كنزتي لتغطّي وجهي، نمتُ عدّة ساعاتٍ إلى أنْ توقّفت الحافلة فجأةً، وصمَت المحرّك، أيقظني تغيُّر الوتيرة، بدأ الركّاب الآخرون يُصِدرون جَلَبةً، ويتمطّون، ويثرثرون مع بعضهم، وأسمع طفلاً يبكي في مكانٍ ما في مقدّمة الحافلة.

سارة مستغرقةٌ في النوم، ورأسها متّكئٌ على كتفي، نبيه مستيقظٌ في المقعد الأمامي، يرفع طرف الستارة، وينظر إلى الخارج، أنا أفعل ذلك أيضاً، ربّما نكون قد وصلنا، يصعب معرفة ذلك، لأوّل مرّةٍ أُدرِكُ القدرة الضئيلة لنا على التحكّم بما يجري، الأضواء البرتقاليّة تومض خارج النافذة، نسمع ضوضاء صاخبةً عندما تعبُر شاحنةٌ عملاقةٌ محمّلةٌ بحاوية شحنٍ ببطءٍ من جانب الحافلة، حين يتّضح الطريق يدور محرّك الحافلة، وتسير إلى الأمام إلى جانب شاحنةٍ أُخرى مماثلةٍ في المقدّمة، ثمّ تعود الحافلة إلى الفجوة التي خلّفتها الشاحنة الأولى، أنظر إلى يساري، عبْر الممرّ، قام مهنّد أيضاً بسحب ستارته، أشاهد الشاحنة الأصليّة تسير بمستوى الجانب الأيسر من الحافلة، نحن محاطون، مُخبّأون.

- «يا جماعة، أنتم، أغلقوا الستائر!». صرخ الرجُل الكبير من الجزء العلويّ من الممَرّ.

أتركُ الستارة تنزلق على النافذة، وأتراجع في مقعدي محاوِلةً معرفة ما رأيته حالاً، أستمع إلى سلسلةٍ من قعقعة أصوات الضجيج المعدنيّ، ثمّ أسمع صوت المزيد من الآليّات ترجع إلى الوراء، وتقف محيطةً بالحافلة، يسري اهتزازٌ مترجرجٌ أسفلنا، تليه قعقعة محرّكٍ أكبر بكثير، بعد مدّةٍ وجيزةٍ نسمع ضجيج دحرجةٍ خافت.

هل يمكن أنْ نكون على متْن عبَّارة؟ لمْ يذكر أحدٌ شيئاً عن ركوب قارب. أنظر إلى سارة، لا تزال نائمةً، فأمدّ رأسي من فوق مقعدي إلى المقعد الذي أمامي، وأضغط على كتف نبيه، يلتفت نبيه من فوق سنّادة الرأس.

- «ما الذي يحصل؟». أسألُ نبيه.

يهزّ نبيه كتفيه في إشارةٍ إلى أنّه لا يعلم، وهناك في الممرّ يقف الرجُل الكبير، وهو يحدِّق فينا مباشرةً. يعود نبيه إلى وضعيّته، ويغوص في مقعده، وبعد عشرين دقيقةً يهدأ محرّك العبَّارة إلى قعقعةٍ منخفضةٍ، يلي ذلك المزيد من أصوات الصفير والضوضاء الراجعة، يديرُ سائقنا المحرّك، ويقود ببطءٍ خارج العَبّارة.

أنا متوتّرةٌ لدرجةٍ لا أستطيع معها النوم، وبعد نحو ساعة، تتوقّف الحافلة مرّةً أُخرى، فأسترِق نظرةً إلى الخارج، أرى أشجار صنوبرٍ، لا بدّ من أن يكون هذا هو المكان.

يظهر الرجُل الكبير مرّةً أُخرى في الجزء العلويّ من الممرّ، ويخبرنا أنّنا سنمشي من هنا، سنقوم بجمع القوارب المطاطيّة الخاصّة بنا من صندوق الأمتعة أسفل الحافلة، والسير وراء المهرّبين.

- «لا حديث، ولا تدخين، ولا أضواء، ولا ضوضاء عالية، ابقوا على مقربةٍ، ولا تتجوّلوا بعيداً». يقول الرجُل الكبير.

تفرك سارة عينيها، وتمُدُّ ذراعيها فوق رأسها، ثمّ تقف في الممرّ، تُناولني حقيبتي من رفّ الأمتعة.

- «يقول: إنّنا سنمضي على متن القارب على الفوْر؟ يجب أن نغيّر أحذيتنا إذنْ، لننتعل أحذيتنا البحريّة، أنت لا تريدين انتعال حذاءٍ ثقيلٍ في القارب، أليس كذلك؟». تقول سارة.

نُبدّلُ أحذيتنا الثقيلة، وننتعل أحذية البحر الخفيفة، ثمّ ننزل من الحافلة مع الآخرين، أطأُ بقدميّ طريقاً جبليّاً مُتعرّجاً، ينزل المزيد من الناس من الحافلات الأُخرى المتوقّفة أمامنا وخلفنا، يبدو أنّنا جميعاً ذاهبون إلى المكان نفسه. طلب إليّ ماجد أنْ أنتظر بينما ينضمّ هو والآخرون إلى الحشْد حَول صندوق الأمتعة في الحافلة، أنظر إلى الأعلى، السماء متوهّجة بمئات النجوم، أكثر بكثيرٍ ممّا سبق أنْ رأيته في دمشق، أرى منحدراً حادّاً في الطريق إلى يساري، وعلى الجانب الآخر تنحدر الأرض بشدّةٍ داخل غابةٍ كثيفةٍ، وبين أشجار الصنوبر تلوح في الأفق لطخةٌ برتقاليةٌ باهتةٌ؛ بدأ الفجْر يبزُغ.

تقف المرأة التي رأيتها في الساحة مع الطفل الصغير في مكانٍ قريبٍ، تتفحّص الناس، وهُم يمشون أمامها مثنى وثلاث، يحمل كلّ زوجين بينهما صندوق كرتونٍ كبيراً مستطيل الشكل، يبتهج وجه المرأة، ويظهر من الحشْد رجُلٌ له وجهٌ على شكل قلب، يضع الصندوق على الأرض، ثمّ يرفع الطفل بعنايةٍ من ذراعي المرأة، يبدو الطفل أصغر عند رؤيته عن قُرب، ولا يزيد عمره عن بضعة أشهر، يُحرّك ذراعيه الصغيرتين، ويلوّح بهما، ولا يزال وجهه المستدير الشاحب مشدوداً من أثر النوم، بعد ذلك

يفتح الطفل عينيه، له عينان كبيرتان لونهما أزرق فاتح، وهما تلتمعان مثل توأمٍ من الأقمار. أنظر إلى الأعلى، الرجُل الكبير يتفرّج أيضاً.

- «عليك السير بهدوءٍ، وأنت تنزل الطريق». يقول الرجُل الكبير بهدوءٍ للرجُل الذي يحمل الطفل.

ينظر الرجُل نحوه متفاجئاً، يتنحنح الرجُل الكبير فارِداً كتفيه العريضين، ثمّ يقفز إلى حيث يوجِّه ماوكلي سيلاً متواصلاً من الناس إلى الغابة.

8

- «كان بإمكاننا أن نقطعها سباحةً». تقول سارة.

- «لا تكوني غبيّة». أقول لها.

نقف على نتوءٍ صخريٍّ في شمس منتصف النهار الحارقة، وفي الأسفل يتلألأ بحر إيجه مُهدِّداً، فيما تلقي الشمس ستارةً باهرةً من الذهب السائل على الماء، وفيما وراء الأفق، تنهض الأشكال الضبابيّة للتلال الخضراء والبنّيّة من البحر. إنّها الجزيرة، اليونان، أوروبّا، قريبة بشكلٍ يبعث على الحَيْرة.

- «حسناً، يمكنني السباحة. أقصد، لو كان لي زعانف». تقول سارة.

- «ماذا؟». يقول أصغر المهرّبين، ماوكلي، الذي عاد بعد أن ذهب ليتبوّل في الغابة: «يمكنكِ السباحة إلى الجزيرة؟». ينقبض صدري هلَعاً: «لا». أقول له بسرعة: «هي تمزح». تستدير سارة لتصبح مواجِهةً له.

- «ماذا لو كنت أستطيع؟». تسأل سارة: «سيكون هناك عددٌ أقلّ من الناس على متن القارب، هل تسمح لنا بالذهاب مجّاناً؟».

- «هل أنتِ مجنونة؟». يقول ماوكلي.

بعد ذلك يبتعد ماوكلي متلاشياً مثل ظلٍّ بين أشجار الصنوبر.

الحرارة لا تُطاق، نتبعه أسفل المنحدر الحادّ سالكين طريقاً متعرّجاً بين الأشجار نحو المخيّم، بين أشجار الصنوبر فوق رؤوسنا تطنّ حشرات الزيز مثل المناشير الكهربائيّة، نسير في صفٍّ واحدٍ، أختار طريقي بعنايةٍ بين الصخور والشجيرات الشائكة، أُحدِّق في قدميّ العاريتين المخدوشَتَين، لقد مضى أسبوعٌ فقط على تقبيلي لأمّي مودِّعةً إيّاها في دمشق، أتساءل ما الذي ستقوله إذا علمت أنّنا ننام في الغابة من دون طعامٍ، تحت رحمة العصابات؟

ندخل نقطة الانطلاق؛ حيث يجلس مئات الأشخاص في انتظار قواربهم، لقد كنّا ننتظر هنا طوال اليوم كي يقول لنا المهرّبون: إنّ الوقت قد حان للمغادرة. يقودنا ماوكلي إلى حيث يتسكّع المهرّبان الآخران: الرجُل الكبير، والفتى الأشقر، تحت ظلّ شجرة صنوبرٍ، معهم ثلاثة رجالٍ وصبيٌّ صغيرٌ يبدو في حدود السادسة من العُمر، يرتّب الفتى مخاريط الصنوبر، ويضعها فوق بعضها، ثمّ يتركها تهوي بين ساقيه الممدودَتَين.

- «هاتان الفتاتان تعتقدان أنّ بإمكانهما الذهاب سِباحةً، تقولان: إنّهما سبّاحتَان». يقول ماوكلي.

ينظر الرجُل الكبير إلى أعلى رافعاً حاجبَيه، يبدو متشكّكاً، لست متفاجئةً، هي عشرة كيلومترات فقط لنصل إلى اليونان من هنا، أشكّ فيما إذا كان قلقاً على سلامتنا، إنّها مسألة تبجُّحٍ فقط، هو لا يحبّ فكرة أنّ أحداً يمكنه العبور إلى أوروبّا من هنا من دون مساعدته، أنا أيضاً لديّ بعض الشكوك.

- «عشرة كيلومترات طريقٌ طويلٌ لتُقطَع سِباحةً». يقول الأكبر سِنّاً بين الرجال الثلاثة، وهو يضع يده بعطفٍ على رأس الصبيّ الصغير، ثمّة خطوطٌ من القلق العميق محفورةٌ في وجه الرجُل، ينظر إلى الرجُل الكبير، يرمقنا المُهرّب، ويقهقه بضحكةٍ مكتومة.

- «حسناً، إليكما الصفقة: ماذا لو أرسلتُ قارباً معكما، ويمكنكما السباحة بجانبه، إذا استطعتُما قطع الطريق بأكمله سِباحةً فلنْ يكون عليكما أنْ تدفعا لي». يقول الرجُل الكبير.

العيون كلّها على سارة.

- «اتفقنا». تقول سارة: «لكنْ إذا فعلنا ذلك فإنّ مجموعتنا بأكملها ستذهب مجّاناً، أقصد على متْن القارب، هناك أربعةٌ آخرون معنا».

تتجمّد الابتسامة على وجه الرجُل الكبير، يحدِّق فيها ليرى ما إذا كانت جادّةً، يرفع الرجُل كتفيه غير مُبالٍ، إلّا أنّه يقول أخيراً: إنّ بإمكاننا ذلك.

تنقبض معدتي، أمسِكُ بذراع سارة، هل سنقطع المسافة سِباحةً بالفِعل؟ من دون بذْلة سباحة؟ بملابسنا؟ عشرة كيلومترات طريقٌ طويلٌ من دون زعانف، لا بدّ من أنّ سارة مجنونة، هي تقرأ أفكاري.

- «يتعيّن عليكَ أن تُحضِر لنا ملابس سباحة». تقول سارة.

يضحك الرجُل الكبير، ويلوّح بيدِه، أتنفّس الصعداء؛ لقد انتهى الموضوع الآن.

الرجُلان الأصغر سنّاً يجلسان على الأرض، ويحدّقان فينا، لهما العيون نفسها، وللأكبر سنّاً وجهٌ مستديرٌ وودود، ولحيةٌ وشاربٌ مكتمِلان؛ أمّا الرجُل الأصغر سِنّاً، فوسيمٌ، وله حواجب كثّة، يبتسم لي متباهياً بمجموعةٍ من الأسنان البيضاء المستقيمة تماماً.

- «أنا أيهم». يقول، وهو يضع يده اليمنى على صدره: «هذا أخي باسم».

- «يسرى». أقول أنا: «وهذه أختي سارة».

- «أقسم إنّني أعرفكما». يقول أيهم: «ألستُما من دمشق؟».

- «حسناً، أنا لا أعرفك». أقول مذعورةً.

تفصلنا الآن مسافةٌ طويلةٌ عن مقاهي حيّ المالكي، أضع يدي على ذراع سارة.

- «دعينا نذهب لنرى الآخرين». أقول لها.

نسلك طريقنا عبْر الحشود التي تجلس في مجموعاتٍ صغيرةٍ في نقطة الانطلاق، هذا الجزء من الغابة تحت سيطرة الرجُل الكبير، لكنّه ليس سوى واحدٍ من مئات عصابات المهرّبين التي تعمل على امتداد ساحل بحر إيجة التركيّ؛ لدى المهرّبين عملٌ مزدَهرٌ، فهُم يتقاسمون إرسال الآلاف من الناس إلى اليونان على متْن قوارب مطّاطيّةٍ صغيرةٍ كلّ يومٍ، ومن مصلحة الجميع الحفاظ على السلام بين العصابات، وعلى بُعد بضع مئاتٍ من الأمتار أسفل الساحل يوجد معسكرٌ آخر يديره المهرّبون الأفغان، يُنسِّق الأفغان مع الرجُل الكبير، ويتناوبون على إرسال القوارب، وينتظرون حتّى يكون البحر هادئاً، ويكون خفر السواحل التركيّ بعيداً عن الأنظار. لا داعي لأنْ يشعر المهرّبون بالقلق من الشرطة؛ تقوم السلطات في بعض الأحيان بالاعتقالات، ولكنْ يوجد الكثير من أماكن الاختباء الجيّدة على طول هذا الساحل ليختفي فيها المهرّبون لمدّةٍ طويلة.

نصل إلى الجانب الآخر من معسكرنا، ونجد نبيه وماجد مستلقيَيْن على حافّة ملجأ كبيرٍ محشوٍّ بالبطّانيات بين الأشجار، الملجأ مرتفعٌ بما يكفي لأتمكّن من الوقوف تحته، أجلس على الأرض بجانب نبيه، وأشعر بالجوع؛ لمْ آكل سوى قطعتَي «سنيكرز» منذ مغادرتنا إسطنبول، أسأل ماجد إذا كان لدينا أيّ شيءٍ آخر نأكله، يعبس ويهزّ رأسه، ويتبعنا الشابّان: أيهم، وباسم، يجلسان تحت الملجأ، ويخوضان في محادثةٍ مع رجُلٍ في منتصف العشرينيّات من العمر، وله لحيةٌ داكنةٌ، وحواجب كثّة، ومعه امرأتان ترتديان الحجاب.

يقول الرجُل ذو الحواجب الكثّة: إنّ اسمه أحمد، وهو سوريٌّ من اللّاذقيّة، فأبتسم، وأستعيد صورة النخيل، والفنادق الشاهقة على طول الواجهة البحريّة هناك، يشير أحمد إلى بقيّة مجموعته، ويقول: إنّه يسافر مع شقيقتيه وبعض الأصدقاء، فتبتسم النساء في خجلٍ، وتخفِضن عيونهنّ، ويشير أحمد إلى صبيٍّ من عمري تقريباً، ويقول: إنّه صديق بشار.

نجلس ونتجاذب أطراف الحديث لتزجية الوقت، ويؤكّد لنا المهرّبون أنّنا سننطلق في أيّة لحظةٍ، لكنّ الساعات تمرّ، والقوارب لا تنطلق، وأحاول تجاهل زقزقة عصافير معدتي، ولو كان هناك المزيد من الشوكولاتة المتبقّية، لست متأكدةً من أنّني سأحتمل تناول قطعة سنيكرز أُخرى ذائبة، كانت الشوكولاته حلّاً قصير الأجل، وكانت الفكرة هي الحصول على الشعور بالامتلاء من دون الحاجة إلى المرحاض؛ إذْ لم يكن هنالك بالفعل أيّ مكانٍ للذهاب إليه، وقضاء الحاجة. أنظر شزراً إلى قنّينة المياه نصف الفارغة عند قدمَيّ، لقد قارَبت إمدادات المياه لدينا على النفاد.

يقرأ نبيه أفكاري، وينهض واقفاً.

- «ألا يوجد متجرٌ، أو شيءٌ من هذا القبيل هنا؟». يقول نبيه: «يمكننا شحن الهاتف أيضاً، سأذهب وأسأل الرجُل الكبير».

يذهب نبيه للعثور على الرجُل الكبير، وبعد لحظةٍ نراه يعود، أخبره الرجُل الكبير أنّ هناك متْجراً خلف التلّة على طول الطريق، يأخذ نبيه هاتف ماجد، ويقول: إنّه سيعود حالاً، أتساءل للحظةٍ ما إذا كان يجب أن نذهب معه، أنظر إلى سارة، هي تُنظّف أظافرها باستعمال قلم ماجد.

- «يا إلهي! هذا مقزز، سارة، أتعرفين كيف تبدين؟». أقول.

- «ما الأمر؟». تقول سارة.

- «تبدينَ مثل زوجة مهرِّبٍ». أقول.

- «اخرسي!». تقول سارة، وتضربني على ذراعي.

أنظُر نحو الأعلى، اختفى نبيه بالفعل في الغابة.

وبحلول الوقت الذي عاد فيه نبيه مُحمَرَّ الوجه يحمل ثلاثة أكياسٍ بلاستيكيّة ممتلئة، كانت الأشجار تُلقي بظلال المساء الطويلة على الأرض. يندسُّ بجانبنا تحت المأوى، فأسطو على واحدٍ من الأكياس التي أحضرها، وأصطاد ستّ شطائر ذابلة ملفوفة بالبلاستيك فضلاً عن رُزمةٍ من عيدان السمسم، الأكياس الأُخرى ممتلئةٌ بقوارير المياه.

يبدو نبيه مُنهكاً، كان المكان يقع على بُعد أكثر من ساعة سيْراً على الأقدام، وعندما وصل إلى هناك، وجد أنّها مجرّد محطّة وقود، والخبر السارّ هو أنّه تمكّن من شحن هاتف ماجد، يُخرج نبيه الهاتف من جيبه، ويسلّمه إلى ماجد.

- «لا تلوِّح به هكذا». يقول ماجد، ثمّ يشير إلى المكان الذي يجلس فيه الرجُل الكبير وماوكلي على حافّة الملجأ يتحدّثان إلى الأخوين: أيهم، وباسم: «ربّما يروننا».

يخفي ماجد الهاتف في طيّة ذراعه، ويكتب رسالةً إلى أمّي وأبي يخبرهما أنّنا على ما يرام، وأنّنا لمْ نغادر تركيا بعد، أقشِّر شطيرةً وأشمُّها، بين الخبز الرطب هناك شريحة من الجُبْن الأبيض المالح، وبعض شرائح الطماطم، ليست رائعةً، لكنّني على استعدادٍ لأكل أيّ شيءٍ سوى قطعةٍ أُخرى من الشوكولاتة الذائبة.

كنت أمضغ أولى الّلقم حين نظرت ورأيت الفتاة العراقيّة الصغيرة من الحافلة، كانت تقف على قدميها، وعيناها البنيّتان الكبيرتان مثبّتتان على الشطيرة في يدي، عمرها قرابة تسع سنوات، ولها وجهٌ جميلٌ ومنبسطٌ، وبشرةٌ داكنةٌ، كانت ترتدي عباءةً باللّون الأزرق الفاتح، وسترةً وحجاباً

مطابقَين. تضع رأسها على جانبٍ واحدٍ، وتلوي أصابعها بخجلٍ أمام بطنها.

أبتسم وأمسك بالشطيرة وأعطيها إيّاها، تدور الفتاة وتجري بخطواتٍ قليلةٍ عائدةً إلى والدتها التي تجلس تحت الملجأ، في الداخل يرقُد صبيٌّ صغيرٌ، ورأسه في حضنها. تنظر المرأة إليّ وتبتسم، وما تزال الفتاة تُحدّق في الشطيرة، أبتسم وأعطيها إحدى عبوات عيدان السمسم، تأخذها وترسُم ابتسامةً مرتبكةً على وجهها.

- «آمل أنّها لمْ تزعجكِ». تقول الأم.

- «كلّا، لا بأس». أقول للمرأة: «أنا يُسرى».

- «أنا أمُّ مقتدى». تقول المرأة، ثمّ تشير إلى الفتاة والصبيّ المستلقيَيْن عند قدمَيها: «هذان ابني وابنتي».

تُمسِّد أمّ مقتدى شعر ابنها الأسْود الكثّ من جبينه إلى الخلف، عيناه شاردتان في البعيد، لا يبدو على ما يرام، أُشيرُ إلى الطفل، وأسأل أمّه ما إذا كان بخير.

تقول أمّ مقتدى: إنّه مريضٌ، وهو في حاجةٍ إلى أن يُعرَض على طبيبٍ مختصٍّ، يمكنه الحصول على علاجٍ أفضل في أوروبّا، والده وابني الأصغر موجودان في ألمانيا.

تومِئ أمّ مقتدى لكوكو، الفتاة الّلبنانيّة السوريّة التي رأيتها في الحافلة، هي جالسةٌ مع مجموعةٍ من الرجال في مكانٍ قريبٍ، تقول أمّ مقتدى: إنّهم جميعاً يسافرون معاً في مجموعةٍ إلى بودابست للقاء شقيق زوجها عليّ، وهو مهرّبٌ سوف يصحبهم بقيّة الطريق إلى ألمانيا.

يقول الجميع: إنّ هنغاريا ستكون أسوأ جزءٍ من الرحلة بعد عبور

البحر، فالحدود خاضعةٌ للدوريّات الشديدة، وقد نحتاج إلى الدفع لمهرّبٍ لمساعدتنا في العبور، كما يخاف العديد من الهنغاريّين من المسلمين؛ علينا أنْ نكون يقِظين.

أسمع ضجيج قرقرةٍ قادمةٍ من وسط الملجأ، أنظر لأرى، إنّها الطفلة الصغيرة، يجلس الرجُل ذو الوجه الذي يشبه القلب مع زوجته الشابّة التي لا تبدو أكبر منّي سنّاً، وبينهما يوجد سريرٌ مرتَجَلٌ مصنوعٌ من إطارٍ مطّاطيٍّ قابلٍ للنفخ مغطّى بشالٍ، بإمكاني أنْ أرى ساقين شاحبتين ممتلئتين، وقدمين صغيرتين تلوحان في الهواء فوق الحافّة. تنحني الأمّ الشابّة على السرير المُرتَجَل، وتتفقّد الطفلة بهدوءٍ، أضع بقيّة شطيرتي في فمي، وأنهض واقفةً، وبينما ما أزال أمضغها، أُلقي نظرةً أقرب.

- «كم عُمرُها؟». أسأل، وأنا واقفةٌ قُربَ سرير الطفلة.

- «أربعة أشهر ونصف». يقول الرجُل.

يتفرّس الرجُل في وجهي مليّاً، وإلى جانبه وزوجته تجلس المرأتان اللّتان كانتا تحدّقان فينا في الساحة في إسطنبول، إحداهما أكبر سنّاً، في منتصف الستينيّات من العمر، والأُخرى في مثل عُمر أمّ الطفل؛ في حدود الثامنة عشرة تقريباً، معهم رجُلٌ آخر أتذكّره من الحافلة جزئيّاً، لأوّل مرّةٍ أعرف أنّهم جميعاً جزءٌ من عائلةٍ واحدةٍ كبيرة.

- «إنّها جميلة». أقول مُلتفتةً نحو الطفلة.

النساء جميعهنّ ينظرن إليَّ الآن، وقد بدأت وجنتاي بالاحمرار، يا له من موقفٍ حَرِجٍ، يجب أنْ أقول شيئاً آخر: سوف أُعرِّفهم بنفسي. يضع الرجُل ذو الوجه قلبيّ الشكل يده على صدره، ويقول: إنّ اسمه زاهر، ويشير بدوره إلى مرافقيه، ويقدّمهم لي، وهُم: زوجته، وأخته، وأمّه، وأخوه حسبما يقول.

- «والفتاة الصغيرة؟». أسأله.

- «اسمها قمر». يجيبُ زاهر.

قمر، قمر، أنظر إليها مرّةً أُخرى، تلوي ساقيها وقدميها، وتحدِّق في وجهي بعينيها الشاحبتين الواسعتين. قمر، اسمٌ على مُسمّى. توجد حَوْل رقبتها سلسلةٌ حمراء صغيرة، فيها محفظة بلاستيكيّة.

- «ما هذه؟». أسأل مشيرةً إلى المحفظة البلاستيكيّة.

- «إنّها مجرّد معلوماتٍ حَول هويّتها، وأسماء وأرقام الأشخاص للاتّصال بهم في حال وجدها أحدهم». يقول زاهر، وهنا يتوقّف الرجُل عن الحديث، ثمّ يقول: «تعرِفين، في حالة حدوث أمرٍ ما».

أجاهِدُ لأُبعِد عن مخيّلتي المشهد المفاجئ لهذه الطفلة، وهي تتحوّل إلى رقمٍ آخر في إحصاءات الأجساد مجهولة الهويّة التي تنجرِف إلى الشواطئ الغربية.

- «لن يحدث شيءٌ إذا كنّا على متْن قاربكم». أقول للرجُل، لقد خرجت الجملة قبْل أن أفكّر فيما أقوله: «أختي وأنا سبّاحتان».

تتبادل النساء النظرات، ثمّ ينظُرنَ إلى المكان الذي تجلس فيه سارة، وهي تضحك مع بشار، وترسم دوائر في التراب بغُصنٍ طويل. أنتهي من حملةِ الحصول على الإعجاب، وأنسحب عائدةً إلى مجموعتي.

يأتي الأخَوان: أيهم، وباسم، ويجلسان معنا بينما تغطّ الشمس بسرعةٍ وراء الأشجار المُجاورة لنقطة الانطلاق، ومعهما رجُلٌ آخر له وشمٌ على هيئة ماسةٍ على معصمه، واسمه عبد الله.

- «إذنْ، أنتما السبّاحتان المشهورتان». يقول عبد الله.

أنظر في عينيه باستحياء.

- «نعم، نحن هُما». تقول سارة: «يمكننا التغلّب على أيّ واحدٍ منكم في السباق».

يضحك عبدالله: «ليس على البرّ». يضيف قائلاً.

- «جرِّب». تقول سارة.

تحمَرُّ وجنتاي مرّةً أخرى، وأشيحُ بوجهي. على مسافةٍ متوسّطةٍ منّا يجلس زوجان تحت إحدى الأشجار، أُحدِّق فيهما من خلال الشفق، يُمسكان بأيدي بعضهما ويتبادلان القُبَل على الشفاه، أُصدَم لرؤية هذا المشهد، يقتفي بشار أنظاري.

- «هذا أخي». يقول بشار. بعد ذلك، حين يرى تعابير وجهي يضيف قائلاً: «هو وزوجته».

- «آسفة، كنتُ فقط...». أقول.

يضحك بشار.

- «أعرف». يقول لي: «هُما دائماً على هذه الحال، لقد تزوّجا منذ بضعة أسابيع فقط».

- «روميو وجولييت». تقول سارة كاتمةً ضحكتها: «شهر العسل تماماً».

يصل المهرّبان: ماوكلي، وذو الشعر المربوط على هيئة ذيل الحصان مع هبوط المساء قبْل نهاية المحادثة لينضمّا إلى مجموعتنا.

- «هل أنتِ متزوّجة؟». يسألني ذو تسريحة ذيل الحصان، ويجلس إلى جواري.

- «كلّا». أقول بحزمٍ، فيما يحمرُّ وجهي مرّةً أُخرى: «أنا سبّاحة». تبدأ المجموعة تحت المأوى في التجمّع استعداداً لقدوم اللّيل، وأشعر

بالارتياح عندما تتولّى والدة زاهر المسؤوليّة، تطلب إلينا أنْ نأتي وننضمّ إلى النساء الأُخريات في منتصف المأوى.

- «نعم يا «ماما»». تقول سارة، وهي تضحك.

أمّا أنا، فلا أضحك، ومع تلاشي آخر خيوط الضوء، أشعر بالسعادة؛ لأنّ «ماما»، أعني أمّ زاهر، موجودةٌ معنا. قد لا نروق لها، لكنّها متعقّلةٌ كثيراً. من مكان وقوفي ألقي نظرةً خاطفةً خارج الملجأ على الّليلة الغبِشة، إلى جانب معسكر الأفغان، لا بدّ من أن يكون هناك على الأقلّ ألف شخصٍ غريبٍ على هذا الساحل، أضمّ صوتي إلى «ماما» والنساء الأُخريات الّلواتي يجلسْن فيما يشبه الكومة، وفي الوسط، تجلس قمر في الإطار المطّاطيّ بجوار والدتها، بينما تجلس أمّ مقتدى في مكانٍ قريبٍ مع طفليها؛ أمّا الرجال، فشكّلوا حلقةً خارجيّةً من حولنا.

تُناولني «ماما أمّ زاهر» كيساً للنوم، تمسك الفتاة الّلبنانيّة كوكو بالطرف الآخر، لذا نتّفق على تشارُك الكيس، وقبْل أنْ أدخل في الكيس يناولني ماجد وسارة والآخرون أكياسهم البلاستيكيّة التي تحتوي الأشياء الثمينة، أدسُّ الأكياس في أسفل كيس النوم بجانب قدَمَيّ، تبقى سارة مع بشار وبعض الأشخاص الآخرين على حافّة الملجأ، وأيديهم تغطّي رؤوس سجائرهم لإخفاء الضوء، أسمع سارة تضحك، وأنا أتلوّى محاولةً تلمُّس الراحة على الأرض القاسية من تحتي.

أنام نومةً سيّئةً؛ فالأرض خشنةٌ، وغير مستويةٍ، وممتلئةٌ بالأحجار والأغصان، ننام في كومةٍ مختلطةٍ من الأيدي والأرجُل، فلقد نصبنا خِيامنا على منحدرٍ طفيفٍ، وأنا أنزلق كلّما استغرقت في النوم، ومع بزوغ أوّل ضوءٍ في صباح السماء الشرقيّة كانت المروحيّات قد أتت. أستيقظ على ضجيجٍ ما يبدو كأنّه حشرةٌ عملاقةٌ تحلّق فوق رؤوسنا، قلبي ينبض بقوّةٍ،

لكنْ بعد القصف العشوائيّ الذي رأيته في سوريا، يبدو الخطر ضئيلاً، وفي مكانٍ بعيد. إلّا أنّ ما يشغلني هو الفضول لا أكثر.

أخرجُ من كيس النوم، وأحاول ألّا أُوقظ كوكو، أخرج من أسفل المأوى لأرى رمحاً كاسحاً من الضوء الأبيض ينطلق عبْر الأشجار، يرفرف سقف المأوى مع الريح، المروحيّة فوقنا مباشرةً، وثمّة ما يشبه انفجاراً صوتيّاً مشوّهاً يُرسِل رسالةً باللّغة التركيّة من خلال مكبّر الصوت.

تظهر سارة، وهي تفرك وجهها، وتغطّي عينيها من شعاع ضوء الكشّاف الباهر، وبينما نقف خارج الملجأ، تعبث الريح بشَعرنا بينما نتسمَّر واقفين نتأمّل السماء بلا حَولٍ ولا قوّةٍ، وتصدح مكبّرات الصوت مرّةً أُخرى، وهذه المرّة باللّغة العربيّة.

- «اخرجوا، نحن نعلم أنّكم هنا».

أنظر إلى سارة، وأتساءل عمّا إذا كان ينبغي لنا أنْ نجري، تُحدِّق سارة في المشهد، عيناها مثبّتتان على ضوء الكشّاف، وهو يجتاح مظلّة الغابات فوقنا، يأتي الرجُل الكبير مُهروِلاً، يبدو مسترخياً، لكنّه يحمل مسدّساً صغيراً: «ما الذي يحصل؟». تتساءل سارة.

- «لا شيء، لا شيء». يقول الرجُل الكبير: «تجاهلوهم فقط، نحن من يدير هذا المكان، اجلسوا وانتظروا، سوف يذهبون قريباً».

كان على حقّ، فبعد ثلاثين ثانية بدأت الريح في التلاشي حينما راحت المروحيّة تعلو مبتعدةً داخل اليابسة، وبدأ صوت الطنين يهدأ، ننتظر أنا وسارة بصمتٍ حتّى يختفي تماماً، أتمطّى متثائبةً، وأعود إلى سريري المؤقّت، فأندسُّ مرّةً أُخرى في كيس النوم، تتحرّك كوكو، وتتنفّس، وتتقلّب مواصِلَةً تنفّسها المُنتَظم العميق، أحدِّق في سقف الملجأ

المصنوع من البطّانيّات، وأبقى مستيقظةً تماماً أسابق أفكاري إلى أنْ ينبَلج ضوء النهار على المخيّم.

يخرج زاهر وأمّه -»ماما»- وبقيّة أفراد الأسْرة من الملجأ، وينزلون بهدوءٍ عند الفجر للصلاة، فأنهض، لكنْ ليس هناك الكثير لأفعله، أستريح حَوْل المخيّم معظم الصباح، وأحاول ألّا أتخيّل «برغر كينغ». أتحدّث إلى الناس لصرْف انتباهي عن قرقرة الجوع في بطني. تُعامد الشمس رؤوسنا، وها هي عائلة زاهر تصلّي مرّةً ثانيةً حين يدخل الشابّ ذو تسريحة ذيل الحصان إلى الملجأ ليخبرنا أنّ المهرّبين جهَّزوا القارب. علينا أنْ نقرّر بيننا من سيذهب أوّلاً، يفرغ زاهر من صلاته، ويرفع يده، فأنظرُ إلى «ماما» وإلى الطفلة قمر، لا يمكنهما البقاء هنا من دون طعامٍ، أو مأوى إلى الأبد، من المنطقيّ أنْ يذهب زاهر وعائلته أوّلاً.

بعد ذلك ترفع أمّ مقتدى، المرأة العراقيّة مع الطفلين الصغيرَين يدها، أنظر إلى ولدها الصغير، وجهه شاحبٌ ومهيبٌ، يبدو أنّه يحتاج إلى مساعدةٍ عاجلةٍ، أتمنّى لو أنّ بإمكاني إرساله مباشرةً إلى الأطباء في ألمانيا بقدرة قادر. يهزّ الشابّ ذو تسريحة ذيل الحصان رأسه في إيماءةٍ للعائلتين، ويتلفّت حَوله باحثاً عن المزيد من المتطوّعين للقارب الأوّل. أمسح بأنظاري أرض نقطة التجمّع الجرداء، ليس هناك أثر لبقيّة مجموعتنا، أو أبناء عمومتنا: نبيه، وماجد، أو الرجال الآخرين: مهنّد، والفتى الأشقر. يبحث الأخوَان: باسم، وأيهم قلقَين، وهُما يحدّقان في وجهيَنا أنا وسارة، أرفع كتِفَيّ بلا مبالاةٍ، وأنا أنظر نحوهما. لا يمكننا الذهاب مِن دونِ الآخرين.

تُقرّر كوكو التطوّع، ويقف عبد الله، الرجُل ذو الوشم، يليه بشار، وثلاثة رجالٍ آخرين، وصل العدد إلى خمسة عشر، ويخرج الفتى ذو ربطة

ذيل الحصان من الملجأ، ويطلب إلى المتطوّعين أن يتّبعوه، بعد بضع دقائق من الفوضى تأخذ المجموعة بعض الحاجات الشخصيّة، وتقرّر رميها في الغابة، ويترك كلّ واحدٍ منهم كومةً من الملابس تحت الأشجار، ولا يأخذ سوى كيسٍ صغيرٍ من الأشياء الثمينة، أشاهد زوجة زاهر، وهي تلفُّ الطفلة قمر في شالٍ، وتسندها إلى كتفها، لقد ذهبت الأسْرة قبْل أن نودِّعها، أُتمتِم بكلماتٍ راجيةً التوفيق من أجل الطفلة.

تقفز سارة، وتقول لي: «هيّا بنا، تعالي نشاهدهم، وهُم يذهبون».

طنين جوقة الزيز يصمّ الآذان، فيما نصعد أنا وسارة غابةً شديدة الانحدار نحو النتوء الصخريّ، حيث يمكن أنْ نرى البحر بوضوحٍ جدّاً. وصلنا ونحن نتصبّب عرَقاً في الوقت المناسب لرؤية زورقٍ رماديٍّ ممتلئٍ بأجسامٍ صغيرةٍ يظهر من أسفل خطّ الشجر أدناه، وبينما يتسارع المحرّك ترتفع لَطخةٌ صغيرةٌ من الدخان الأبيض من الخلف، لا يزال الماء صافياً كمرآة، نتابع في صمتٍ، بينما يندفع القارب في البحر تحت شمس منتصف النهار التي لا ترحم، أزيح عينيّ عن الضوء الأبيض، وأمسح العرق عن جبهتي.

تكسر سارة الصمت: «في حال حدث شيءٌ ما في أثناء ذهابِنا في البحر، فأنت تعرفين ما يجب فعله، أليس كذلك؟».

أمتنع عن الإجابة.

- «يُسرى! تعلمين ما عليكِ فعله، صحيح؟».

أشاهد الزورق، وهو ينطلق في المياه الزجاجيّة، يسير بهديرٍ متقطّعٍ نحو أوروبّا، أفكّر في عينَي قمر الكبيرتين، وببطاقة الهويّةِ حَول عنقها.

- «ما الذي تعنيه؟». أقول.

تتحوّل سارة، وتُمسك بكتِفيّ، وتدوّرني حولها لأغدو في مواجهتها.

تقول: «إذا غرق القارب هناك فأنت ستسبحين، هل تسمعينني؟ ستتركين الجميع وشأنهم، وستسبحين فقط. أنت وأنا سنسبح، حسناً؟ سنكون بخير».

ألتفت بعكس اتّجاه الضوء الباهر لأنظر في وجهها، إنّها جادّة.

- «يُسرى، أتسمعينني؟».

أومِئ لها، وأذهب بعيداً مُنسلَّةً بين ظلال الأشجار.

9

- «أخبار سيّئة». يقول ماوكلي أمام من تبقّى من مجموعتنا، وهو ينحني لدخول الملجأ: «قاربكم معطّل».

يرتجف قلبي، هذا يعني أنّنا لن نعبُر اللّيلة أيضاً؛ أيْ: إنّنا سنمضي ليلةً أُخرى في هذه الغابة، وسيتعيّن علينا الانتظار حتّى يجد المهرّبون قارباً بديلاً. لا أحد يعرف كم من الوقت سيستغرق الأمر، ربّما غداً، وربّما بعد غد، بطني يهدر احتجاجاً، لقد مضى يومان، ونحن هنا.

يقول مهند: «لكنّنا نتضوّر جوعاً، لا يُمكنك احتجازنا هنا إلى الأبد، يوجد نساءٌ وأطفالٌ هنا، إمّا أن تأخذنا غداً، أو سنعود إلى إسطنبول، لنْ تحصل على قرشٍ واحدٍ منّا».

يتمتم المتأخّرون تحت الملجأ بالموافقة على ما قاله مهنّد، تنضمّ امرأةٌ عراقيّةٌ لمْ أرها من قبْل إلى المجموعة بينما نتحدّث، تحمل طفلاً، ويتبعها طفلٌ وطفلةٌ من ورائها، توقّفت المجموعة عن الكلام مع دخول الرجُل الكبير إلى الملجأ.

- «سوف تذهبون غداً، سنأتي بقاربٍ وستذهبون غداً جميعاً». يقول الرجُل الكبير بلهجةٍ حازمة.

أتلفَّت حولي، لقد انطلَق عددٌ آخر من القوارب بعد ظُهر ذلك اليوم،

وأُفرِغ المخيّم، ولكنْ لا يزال هناك أكثر من عشرين منّا لمْ يغادروا، من المستحيل أنّه يقصد أنّنا جميعاً سنركب قارباً واحداً. يلوّح الرجُل الكبير بيده ويسير، يُحدّق ماوكلي فينا أنا وسارة، ثمّ يلتفت ويسير مختفياً في غابة الصنوبر، وبعد نصف ساعةٍ عاد ماوكلي، وهو يحمل حقيبةً قماشيّةً طويلة.

يقول ماوكلي مُكشِّراً، وهو يُلقي الخيمة على الأرض عند قدمَيّ: «قصرٌ للأميرات. لكِ يا حبيبتي».

كان الصبيّ والرجُل الأكبر سنّاً الذي رأيته جالساً مع الرجُل الكبير في اليوم الأوّل يمشيان لتفقُّد الخيمة، يساعدنا والد الصبيّ، الذي يقول: إنّ اسمه إدريس، في نصْبها خارج الملجأ. يراقبنا ابنه مصطفى بنظرةٍ جادّة. في تلك اللّيلة، استلقيت إلى جوار سارة في الخيمة أحدّق في سقفها القماشيّ، ذهبت خواطري مرّةً أُخرى إلى دمشق، إلى صخب المدينة القديمة، وأتخيّل أمّي وشهد تشتريان احتياجات البيت من السوق، وأغطّ في النوم متمنّيةً لو كنت معهما.

في صبيحة اليوم التالي أنهض مع بزوغ الضوء، أتجوّل في أنحاء المخيّم جميعها، ومعدتي تُقرقر، أمشي وحيدةً إلى النتوء الصخريّ؛ أريد أنْ أرى البحر، فينقشع ضباب الصباح كاشفاً عن التلال الخضراء والبنيّة للجزيرة، فتبدو أقرب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، ويُهيّأ لي كما لو أنّني أستطيع بلوغها ولمْسها.

أعود إلى المخيّم في الوقت المناسب لأجد الرجُل الكبير يتعثّر، وهو يمسك بذراعه؛ كان ينزف، أعطاه أيهم قميصاً ليستعمله كضماد، يقول الرجُل الكبير: إنّ قتالاً نشب مع المهرّبين الأفغان على الشاطئ، ربّما كانوا هُم الذين ثقبوا قاربنا، العصابة الأُخرى غاضبةٌ، وهُم يقولون: إنّ عصابة الرجُل الكبير انتهكت القواعد بإرسال العديد من القوارب دفعةً واحدة.

يهرول ماوكلي إلى المخيّم، ويومِئ إلى رئيسه على وجه السرعة، يناول الرجُل الكبير القميص الملطّخ بالدماء إلى أيهم، ويتبع ماوكلي في الطريق نحو الشاطئ، وعند الظهيرة يعود المهرّبون الثلاثة: الرجُل الكبير، وماوكلي، وذو تسريحة ذيل الحصان، وجوهُهم محمَرَّة، وهُم يتصبّبون عرَقاً في هذا القيْظ.

- «هيّا بنا». يقول الرجُل الكبير، وهو يقف مباعِداً بين ساقيه بعيداً، ومُصفِّقاً بيديه مثلما فعل في الساحة في إسطنبول: «حان وقت الذهاب، فلنذهب الآن، ليتبعني الجميع، ارتدوا سترات النجاة الخاصّة بكم، واتبعوني، ليس لدينا الكثير من الوقت».

يتعارك الخوف والإثارة في داخلي، لقد حان الوقت، فأهرَع إلى الخيمة، وأباشر جمْع أشيائي مرّةً أُخرى، كانت سارة تهمّ بالخروج من الباب ذي السحّاب، وهي تحمل حقيبتَيْنا، تعود سارة إلى الخيمة مرّةً أُخرى، وترمي حقيبة سترات النجاة.

- «دعوا كلّ شيء وراءكم، لا مكان معنا للحقائب». يقول ماوكلي.

تترك سارة الحقائب حيث هي، وتستدير لتسير وراء ماوكلي، نسير في اتّجاه اليسار خارج المخيّم عبْر طريقٍ صخريٍّ شديد الانحدار نحو الشاطئ، ليس لديّ سوى ما أرتديه، وحقيبة الأشياء الثمينة. أرتدي سترة النجاة الكاكيّة، وأنظر إلى حذائي. لا وقت لأستبدل به حذائي الصيفيّ، فأنزلقُ خلْف سارة وماوكلي على امتداد شاطئٍ صغيرٍ من الحجارة مخفيٍّ عن الأنظار من كلا الجانبين؛ بسبب الصخور العالية.

واحداً تلْو الآخر، تنسلُّ المجموعة من الطريق إلى الشاطئ: يظهر إدريس مع ابنه مصطفى على كتفيه، ثمّ تأتي المرأة العراقيّة، وهي تحمل طفلها، والفتاة والصبيّ يمسكانها بأيديهما ويتبعانها عن قُرب، بعد ذلك

تأتي امرأةٌ صوماليّةٌ لمْ أرها من قبْل، ثمّ الأخوان: باسم، وأيهم، يليهما أفغانيّان، فشابّان عراقيّان، وخمسة رجالٍ سودانيّين لا أعرفهم؛ أمّا بقيّة مجموعتنا: مهنّد، ونبيه، والفتى الأشقر، وماجد، فيظهرون في مؤخّرة الرَّكْب، أحصي الجميع مع وصولهم، أربعة وعشرون من ضمنِهم أنا وسارة.

الرجُل الكبير ليس قريباً، لكنّ الشابّ بتسريحة ذيل الحصان ينتظرنا ببنطاله المرفوع، وهو يقف في المياه الضحلة الخضراء التي تغمر ساقيه إلى الركبتَين. ينحني ذو تسريحة ذيل الحصان، ويمسك بزورقٍ مطّاطيٍّ رماديٍّ قابلٍ للنفط، يتمايل وراءه في الماء. بالنظر من قريبٍ يبدو الزورق صغيراً على نحوٍ عبثيٍّ، طوله قرابة أربعة أمتار، ويبدو كأنّه لعبةٌ للسيّاح، وجوانب القارب عبارة عن أنبوبٍ ثخينٍ قابلٍ للنفخ، يلتقي طرفاه عند نقطةٍ في القوس، وعلى طول الجزء العلويّ يمتدّ حبْلٌ رفيعٌ، لا توجد مقاعد في المنتصف، فقط جزءٌ سفليٌّ مسطّحٌ، وثمّة حاجزٌ بلاستيكيٌّ يصل إلى الركب، يُشكّل الجزء الخلفيّ من القارب، في الجزء الخلفيّ هذا، رُكِّبَ محرّكٌ خارجيٌّ صغيرٌ أبيضُ اللّون من النوع الذي يحتوي على سلك سحبٍ للتشغيل، ليس هناك وقتٌ للتساؤل كيف سيتّسع هذا الزورق المطّاطيّ للجميع.

- «هيّا، هيّا». يستعجلنا ذو تسريحة ذيل الحصان، وهو يلوّح بذراعه: «اصعدوا».

يدفع ماوكلي بأيهم من ظهره متعثّراً نحو الزورق، تتسبّب الحركة باندفاع الزورق حين يحاول الجميع ركوبه دفعةً واحدةً، يوجّهنا ماوكلي: نحن، والنساء الأُخريات، والأطفال، نحو مقدّمة القارب، فيما يضرب أحدَ الرجال السودانيّين برِفقٍ ليزيحه عن الطريق. ترفع سارة الفتاة الصغيرة، بينما تكافح الأمّ العراقيّة مع طفلها.

يتمايل القارب بصورةٍ عنيفةٍ، فيحاول ذو تسريحة ذيل الحصان تثبيته، أجثُم على القوس عند النقطة التي يلتقي فيها جانبا الأنبوب المنفوخ مُنكمِشةً على نفسي ما أمكنني. الزورق مكتظّ، ولشدّة اكتظاظه كان مغموساً في الماء لدرجةٍ تجعل الماء يطوف على حافّته، وإذا قمت بالضغط على الزورق إلى الأسفل فسوف تغمره المياه وتُغرِقُنا.

يقول مهنّد، وهو يجلس منحنياً في مؤخّرة الزورق: «ابقوا جميعاً بلا حركةٍ ما أمكن». يدفع ذو تسريحة ذيل الحصان وماوكلي الزورق إلى أنْ يصل مستوى الماء إلى أكتافهما، ويسحب ماوكلي نفسه ليصعد الزورق متسبّباً بمَيلِ أحد جوانبه، وتدفُّق مياه البحر إلى أرضيته.

- «انتبِهي!». قال مهنّد، بينما كان القارب يهتزُّ، وطرفه المقوَّس ينغمس في الماء ورائي ليبتلَّ بنطال الجينز خاصّتي.

أنظرُ إلى الأطفال، يوجد خطأٌ ما؛ لا يمكن لهذا القارب أنْ يأخذنا جميعاً. يشقّ ماوكلي طريقه في القارب المزدحم نحو جزئه الخلفيّ، ويسحب سلْك المحرّك، لا يحدث شيء، في المحاولة الثالثة، يهْدر المحرّك، ويدور مطلِقاً سحابةً صغيرةً من الدخان الأبيض، فنُبحر ببطءٍ مبتعدين عن الشاطئ، وبعد ثوانٍ يعلو صوت محرّكٍ أكبر بكثيرٍ وراءنا، ألتفت وراء كتفي لأشاهد زورقاً سريعاً أبيضَ يقترب من مرمى نظري.

- «هنا!». يصرخ ماوكلي موقِفاً المحرّك: «حسناً، ليخرج الجميع الآن».

وفي البحر إلى جوارنا يُبطئ القارب السريع محرّكه، ويدور ليصبح مواجهاً لنا، هناك شريطٌ أحمرُ فوق القوس، وكتابةٌ باللّون الأسْود أسفل أحد جوانب القارب؛ خفَر السواحل التركيّ. يقف القارب سدّاً في طريقنا، ويمنعنا من المغادرة، فيصرخ الفتى ذو تسريحة ذيل الحصان من المياه الضحلة قائلاً شيئاً لمْ نفهمه، وهو يرشُّ الماء نحونا، أنزل عن الزورق من

جهة القوس، وأساعد الآخرين على النزول، معظم الركّاب لا يزالون على متْنه، ومن ورائنا يصدح مكبّر الصوت من القارب السريع.

- «أطفالي لا يمكنهم السباحة». تصرخ المرأة العراقيّة من الزورق. تصل سارة إلى القارب، فتلتقط ابنة المرأة، وتُنزِلها على الأرض الجافّة، يبكي ولد المرأة بينما تعود سارة عبْر الماء لإحضاره.

في الخطوة التالية تنتفض ساقي اليمنى من ورائي، فأسحبها، لكنّها تأبى أن تمضي؛ علِق حذائي بين صخرتين كبيرتين في قاع البحر، يندفع الرجال الآن من مقدّمة القارب، ويدفعون بقوّةٍ من كلا الجانبين للوصول إلى الشاطئ.

- «مهلاً، احترسوا!». أصرُخ: «أنا عالقة، ساعدوني!».

لا أحد يسمعني وسط هذا الذعْر، قدمي لا تتزحزح، يدفع شخصٌ ما كتفيَّ من الخلف نحو الأمام، أُخرِجُ يدَيَّ، وأرفسُ الصخرة فيما تستقرّ راحتايَ على الأرضيّة الصخريّة الحادّة، فيتسرّب الملح إلى أنفي بينما يغوص رأسي وكتفاي تحت الماء، أشعر بوخزةٍ من الألم في قدمي، وهي تستدير في الفخِّ الذي علقت فيه، أخرج إلى سطح الماء سعياً وراء الهواء.

يسحب ماوكلي وذو تسريحة ذيل الحصان القارب من الماء، ومن ورائهم كان الآخرون يختفون في الغابة، أنظر لأرى سارة تحمل الفتاة على ظهرها، وتجرّ الولد الباكي من يده، وتتوارى بين أشجار الصنوبر.

- «مهلاً، انتظري!». أصرُخ، وأنا أَلْهث، وأسحب أنفاسي بشهقاتٍ قصيرةٍ، وأشدُّ رِجلي بكِلتا يدَيّ، لقد علِقَت بسرعةـ سارة لا تلتفت إلى الوراء.

- سارة، انتظريني!

كان المهرّبون آخر المهرولين، وهُم يصعدون منحدراً صخريّاً،

ويحملون القارب فيما بينهم، وما هي إلّا ثوانٍ حتّى أُخلِي الخليج الصغير، وبقيت الآن وحْدي. ورائي، في المياه المفتوحة، يزيد زورق خفَر السواحل سرعته، باكيةً ومذعورةً أغطس في الماء، وأتخبّط محاوِلةً تلمُّس أربطة حذائي الأيمن، أحُلُّ عقدة الحذاء، وأمسكه بكلتا يديّ ساحبةً قدمي بقوّةٍ إلى الأعلى، وبالكاد تتزحزح.

- «هيّا، هيّا، أرجوكِ!». أئِنُّ ممسكةً بأرضيّة الحذاء، وجاذِبةً قدمي.

أخيراً، تحرَّرَت. أنزلقُ في الماء، لقد تحرَّرت. لاهثةً ومُنهَكةً أتخلّى عن فردة حذائي اليُمنى، وأنقذِف على الشاطئ حيث أعرُجُ من قطعة الحجر الحادّة في جوربي المبتلّ بالماء. أتسلّق إلى الغابة، وأسير قافزةً على طول الطريق إلى المخيّم، سارة تنتظرني على حافّة نقطة التجمّع في الأرض الجرداء. أعرُج إلى المخيّم ساحبةً أنفاسي بمشقّةٍ، وأنا أبكي، فأجلس على الأرض، وأضمُّ رُكبَتَيّ إلى صدري، وأضعُ ما تبقّى من جبيني فوق ذِراعَيّ، فتتسارع أنفاسي.

- «يُسرى؟». تجثو سارة أمامي: «ما الذي يجري، ما المشكلة؟».

أشعر بالهلع إلى درجةٍ تجعلني عاجزةً عن الإجابة، ومن مكانٍ غير بعيدٍ أسمع المرأة العراقيّة تصرخ بالآخرين.

- «لقد تركتم أطفالي ليغرقوا». تصرخ المرأة: «لنْ نعود إلى هذا القارب. أنتم جميعكم قتَلة، لا تلمسوني».

أعزل نفسي عمّا يجري، وأُركّزُ على تنفّسي، وبحلول الوقت الذي استطعت فيه التحدُّث مرّةً أُخرى كانت المرأة وأطفالها قد اختفوا. لا ألومها؛ التوتّرات شديدةٌ هنا، والجميع متوتّرون، وفقدوا صبْرهم، كلّنا نريد مغادرة المخيّم، لكنّنا الآن رأينا القارب، وسمعنا محرّكه، وهو يتعطّل، ورأيناه كيف بدى مغموساً في الماء.

الهواء بعد ظُهر اليوم مُثقلٌ بنُذُر الشؤم، يسير ماجد بخطىً سريعةٍ؛ لمْ يعُد يطيق الانتظار، إمّا أنْ نركبَ القارب، وإمّا أنْ نعود إلى إسطنبول. من الواضح أنّنا لا نستطيع البقاء هنا ليلةً أُخرى. عاد الرجُل الكبير، وهو يتجوّل حَول نقطة التجمّع، ويبدو متحمّساً، يقول: إنّ بإمكاننا الذهاب حالما يختفي خفَر السواحل.

أخلع فردة حذائي عديمة الفائدة، وأرميها في الأدغال. جفّت ملابسي بسرعة في حرارة هذه الظهيرة، وتضع سارة بعض ملابسنا على الأرض، فأستلقي عليها. تزداد وتيرة الريح، وتتهادى فوق رؤوس أشجار الصنوبر مُهدِّئةً معدتي المهتزّة، ها أنا أغْفو.

- «حسناً، لنذهب، هيّا!». يصرخ الرجُل الكبير.

أفتح عيني، وأجلس متسمِّرةً باستقامةٍ، فيعدو الرجُل الكبير مرّةً أُخرى إلى نقطة التجمّع، وينادي علينا لارتداء سترات النجاة التي في حَوزتنا. يقف ماجد فوقي، ويبدو شاحباً، يتحرّك ببطءٍ متعمّداً، بينما يسحب هاتفه من حقيبته البلاستيكيّة، ويكتب شيئاً ما فيه، ثمّ يطفئه ويضعه بعيداً، يضع ذراعه في سترة النجاة، وينظر إليّ، فأنظر حَولي ذاهلةً.

- «كم الساعة الآن؟». أقول.

- «قرابة السادسة، هيّا يا يُسرى، استيقظي». يقول، وهو يربط الأشرطة حَول خصْره.

- أخبرتُ والديكِ أنّنا في طريقنا.

أرتدي حذائي البحري، وسترة النجاة الخاصّة بي، هذه المرّة لا يستطيع المهرّبون استعجالنا، نتمشّى عائدين إلى الشاطئ بصمتٍ، وتهبّ الرياح بقوّةٍ الآن، مُطيِّرةً خصلاتٍ من شعري الملفوف لتلفح وجهي، وأفكّر في أمّي، وأبي، وشهد، وأتساءل: أين هُم، ومع من، وماذا يفعلون. أتساءل عمّا إذا كنت سأراهم مرّةً أُخرى.

نصل إلى نهاية الأشجار، حيث ينحدر الطريق إلى الشاطئ، يجعلني مشهد البحر أتسمَّر في مكاني، في الخليج الصغير، تتكسّر المياه الخضراء بكثافةٍ، وهي ترتطمُ بالحجارة، وبعيداً عن مياه الشاطئ يُرى البحر المفتوح الأكثر قتامةً، والممتلئ بالصفوف البيضاء التي تشبه أسناناً متمايلة.

يقف الفتى ذو ربطة ذيل الحصان مغموراً بالماء حتّى خصْره، مثلما كان في المرّة السابقة، لكنّه هذه المرّة يتأهّب كلّ بضْع ثوانٍ لمواجهة موجةٍ جديدةٍ من الأمواج التي ترتطم بالقارب من ورائه. الريح تعبث بشعري، وتُمسِّد بنطال الجينز خاصّتي فوق ساقَيّ، فنتزاحم في صعودنا إلى القارب الذي يهتزُّ على نحوٍ خطِر.

يسحب ذو تسريحة ذيل الحصان وماوكلي القاربَ أكثر إلى حيث لا توجد أمواجٌ تتكسَّر، فيطفو القارب على مستوى أعلى من دون وزن المرأة وأطفالها، يسحب ماوكلي نفسه إلى أعلى القارب، فيشُدُّ سلْك المحرّك أربع، أو خمس مرّاتٍ حتى يرتجف، ويبدأ بالدوران، فترتفع مقدّمة القارب، وتصطدم بالخليج الصغير.

يومِئ ماوكلي إلى أحد الأفغان الذين يجلسون بالقرب منه في الخلف، يتجمّعون معاً عند المحرّك لمدّة دقيقةٍ تقريباً، ثمَّ من دون أنْ ينْبس بكلمةٍ، يُدلّي ماوكلي ساقيه من القارب، ويندفع قافزاً منه، ويمضي بحركة سباحةٍ حُرّةٍ غير منتظمةٍ من خلال الأمواج نحو الشاطئ، فأنظر إليه ذاهلةً، لمْ يقل أحدٌ شيئاً عن أنَّ على أحدنا قيادة القارب، أضغط على كتف سارة، فتلتفت نحوي.

أُشير إلى المكان الذي كان يقف فيه ماوكلي قبْل بضع ثوانٍ.

- «ألن يأتي معنا؟». أقول بصوتٍ عالٍ من فوق المحرّك.

ترفع سارة كتفيها، وتهزّ رأسها.

تلوّح الأمواج الآن أكبر وأكثر قتامةً بعد أن ابتعدنا عن ملجأ الخليج الصغير، تسير نحونا ملتمعةً مثل معدنٍ في الشمس، يضرب الزورق المطّاطيّ أولى الأمواج بمقدّمته، ويواصل السير عبْر قمم الأمواج وأسفلها نحو الغَوْر، أنا مبتلَّةٌ من الخلْف بجدارٍ من الماء المالح البارد، ينسكب جدار الملح فوقي، ويسيل على أرضيّة القارب، بينما نرتفع مرّةً أُخرى فوق الموجة التالية، ونعود مرّةً أُخرى لنستقرّ في الغَور؛ حيث تغسل الماء مقدّمة الزورق، وتلطمني من الخلف.

أُزيح شعري عن جبهتي، وأخلع نظّارتي خشية أن يُسقِطها الماء، أستطيع أنْ أرى من دونها، ولكنّ التفاصيل تصبح زائغةً بعض الشيء، لمْ أحسب حساب هذا الأمر؛ أنْ نكون على متْن قاربٍ، وأنا مبتلّة. يُخطئ الأفغانيّ التقدير، وترتطم الموجة التالية بجانب القارب، فننجرف إلى اليمين، فيما تصبح ذروة الموجة تحتنا.

وهنا يبدأ الدعاء للمرّة الأولى.

- «يا الله!». يصيح إدريس: «لا إله إلا الله».

أكرّر دعاءه، وأتمتم بالكلمات صمتاً، بينما نركب موجةً أُخرى، فتتطاير المياه البيضاء في الغَور، وتضرب ظهري وذراعي، وتعصف الرياح، وأنا أرتجف من البرْد.

- «الحمد لله قَدْر ما يستحقّ الثناء». يقول مهند.

ينضمّ الآخرون إلينا، ويكرّرون الصلاة مراراً وتكراراً مع صعودنا مجدّداً نحو قمّة موجةٍ أُخرى، ويهتف الركّاب بالكلمات بصوتٍ واحدٍ فوق همهمة المحرّك، ويردّدون العبارات المألوفة فيما يُبحِر الأفغانيّ عبْر الأمواج واحدةً تلْو الأُخرى. يتلفّت مصطفى حَوله، لا يزال يبتسم بسعادةٍ بينما يلْهج الكبار بالدعاء من أجل أرواحهم.

- «أستغفر الله». أقول، وأنا أنظر إليه: «اِغفر لي يا الله، ساعدنا يا ربّ».

ما هي إلّا خمْس عشرة دقيقةً في المياه المفتوحة حتّى كان المحرّك يختنق ويستسلم. بدأنا نتباطأ، وراحت مقدّمة القارب تغطس أكثر في الماء، تتوقّف الدعوات، ويصمت الجميع، العيون كلّها على الأفغانيّ، ها هو يسحب حبْل تشغيل المحرّك، نصيخ السمْع، بينما يدور القارب، ويعلو ويهبط، من دون أنْ يعمل المحرّك.

تعلو موجةٌ كبيرةٌ من الخلْف، ويمتطيها القارب منجرفاً إلى الوراء، يمسك نبيه الحبْل من جانب القارب، أنا أفعل ذلك أيضاً، مرّةً أُخرى نركب قمّة موجةٍ جديدةٍ، وننجرف في الغور حيث تندلق كميّةٌ من الماء الأبيض فوق ظهر الأفغانيّ. تشكّلت حَول قدمَيَّ برْكةٌ عميقةٌ على أرضيّة القارب. يزداد الفزع مع بدء الدعاء مرّةً أُخرى بصوتٍ أعلى من أيّ وقتٍ مضى.

- «ألقوا بما تستطيعون كلّه بعيداً عن الزورق». يقول مهنّد، وهو يقف مثبّتاً نفسه.

نبدأ بالتخلّص من الحقائب والأحذية في البحر، ثمّ نباشر جمْع الماء بأيدينا، ورمْيه من جانب الزورق، لمْ يُجْدِ الأمر نفْعاً. يتدفّق المزيد من الماء في كلّ مرّةٍ ينغمس فيها القارب في الغَور، يدور القارب وتلطمه الأمواج من جوانبه، الموج الآن يهدّد بانقلاب القارب بنا، فمن دون المحرّك يبدو يقيناً أنّنا سنغرق. أحدّق برعبٍ في الزبد الأبيض في الأسفل، لنْ ينجو الآخرون إذا رمانا القارب وسْط هذه الأمواج.

- «علينا أن نفعل شيئاً». يقول مهنّد في غمرة الدعاء.

ينظر حَول القارب بغضبٍ، ثمّ يتجهّم وجْهه، لقد حسَم أمْره.

- «لا حول ولا قوّة إلّا بالله». يقول مهنّد.

ينحني مهنّد ليمسك بالحبْل الذي يمتدّ حَول جوانب القارب، يُدَلّي ساقاً واحدةً فوق حافّة الزورق، ويمدُّها، ثمّ يميل إلى الأمام، ويرفع ساقه الأُخرى، لُينزِلَها في الماء، لا يزال يتشبّث بالحبْل، ويخفض جذْعه إلى أسفل، كي يصبح في مواجهة الأمواج من الأسفل، وعيناه مفتوحتان إلى أقصاهما، ووجهه شاحبٌ. أُحدِّق فيه بإعجابٍ، هذا الرجُل لا يستطيع السباحة، أنظر إلى الماء ورائي، ارتفع القارب قليلاً من دون وزْن مهنّد.

تكافح سارة لتثبيت قدميها، وتُناول حقيبتها البلاستيكيّة التي تحتوي أشياءها الثمينة إلى المرأة الصوماليّة، وتنظُر إلى الماء في الأسفل.

- «إنّا لله وإنّا إليه راجعون». تقول سارة، ثمّ تُمسك بالحبْل من مهنّد على الجانب الآخر من القارب، وتقفز من الحافّة، وتختفي في الماء. أنظر إليها ذاهلةً.

يبدو القارب طافياً أكثر فوق الماء بعد أنْ نزلت سارة عنه، فكرة مهنّد صائبةٌ، لكنّ القارب يحتاج إلى المزيد من الرفْع. أشاهد الأفغانيّ يسحب سلْك المحرّك، وأستمع إلى الدعوات اليائسة.

يخفق قلبي بسرعةٍ، أنا سبّاحة؛ لنْ أجلس هنا أبكي مثل رضيعٍ، يجب أنْ أُساعد، لنْ أسامح نفسي أبداً إنْ حدث أيّ مكروهٍ لهؤلاء الناس، فأنظر في وجوه الجميع من حَولي، ما زال مصطفى يبتسم في وجهي كأنّها لعبةٌ رائعةٌ، ونبيه شاحبٌ يرتجف، ويبدو ماجد كأنّه سوف يتقيّأ، والمرأة الصوماليّة تراقبني بعناية.

أنهض وألقي نظّارتي في حضْن ماجد، وأُمسِك بالحبْل، وألقي نظرةً على الجانب عند الموجة، فيتملّكني الخوف لوَهلةٍ وأتردّد، لمْ أكن في الماء بهذا الشكل من قبْل، وأنحني على الجانب، وأنظر إلى سارة، تخطو في الماء، وتُحدّق في الموجة الصاعدة، وتلتفت الآن نحوي.

- «إيّاكِ يا يُسرى!». تصرخ سارة: «اِبقِي في القارب». أعبسُ وأهزّ رأسي معترضة.

- «أتسمعينني؟». تصرخ سارة: «أنا أعني ما أقول! اجلِسي مكانكِ في القارب».

أُمسك الحبل، وأُدَلِّي ساقي من القارب، وأنزلق بين الأمواج.

10

يعلو صوت سارة فوق الدعوات المتضرِّعة.

- «يُسرى! بربّك ما الذي تفعلينه؟».

أتجاهلها. يرتفع الموج ويهبط، يلتصق كتِفا سترة النجاة حول أُذُنَيّ على نحوٍ مزعجٍ، أنا الآن في الماء، وهو أكثر دفئاً ممّا تخيّلت، على الأقلّ بالقرب من السطح، ألفُّ الحبْل بإحكامٍ حَول أحد معصمَيّ، وأمسكه بأصابعي.

- «يُسرى!». تصرخ سارة مرّةً أُخرى: «عودي إلى القارب».

- «كلّا!». أصرخ: «بإمكاني السباحة أيضاً، لماذا لا أكون في الماء؟».

- «لكنْ من دون نظّارتك؟». تقول سارة: «قد تصابين بالدوار والإغماء، أنت تعرفين أنّكِ لا تستطيعين التحكُّم بالأمر، وبعدها ما الذي سيحدث؟ سوف تُفلِتين الحبْل و...». أقاطعها هنا.

- «إذا كان الأمر خطيراً فلماذا أنتِ في الماء؟». أصرخ: «كفاكِ فزعاً، أنا سبّاحة، يمكنني القيام بذلك».

أنظر إلى سارة نظرة تحدٍّ، لنْ أبْرَح مكاني. يسحب الأفغانيّ حبْل تشغيل المحرّك، بعد كلّ عِدّة سحباتٍ يهدِر المحرّك، لكنّه لا يدور، إنّه

كابوسٌ سيّئٌ، كابوسٌ وحَسْب، يجب أنْ تنتهي الكوابيس. أُحكِمُ قبضتي على الحبْل.

ألْمح الجزيرة من بين الأمواج، تلالٌ خضراءُ ضبابيّةٌ تنتشر فيها بقعٌ من الصخور الرماديّة، إنّها قريبةٌ جدّاً، لكنْ يمكننا الموت بسهولةٍ على مقربةٍ منها، ربّما تبعُد نصف ساعةٍ، تماسَكي لنصف ساعةٍ، اِبقي على قيْد الحياة، تماسَكي، سارة معكِ، الآخرون لا يستطيعون السباحة، يمكننا إنقاذهم.

القارب الهشّ يعلو، ويهبط، وينجرف، ويدور، يسحب الأفغانيّ شريط التشغيل، المحرّك لا يُصدِر ولا حتّى هديراً الآن، وينضمّ أحد الركّاب السودانيّين إلى مهنّد في الماء، الأمر مفيدٌ؛ فمن دوننا أصبح القارب أعلى في الماء، لكنْ من دون المحرّك لنْ تُجدي دفّة التوجيه نفْعاً في مواجهة الأمواج العاتية، فكلُّ موجةٍ من هذه الموجات تجعل الزورق يدور مثل لعبةٍ في حَوض الاستحمام.

تعلو موجةٌ أُخرى، ويُخيّم الماء الداكن فوقنا، ندورُ دورةً كاملةً لنصبح في مواجهة الطريق التي أتينا عبْرها، إذا اصطدمت الموجة التالية بالزاوية الخطأ فقد ينقلب بنا القارب بسهولة.

- «أديروه!». يصرخ مهند.

نتوقّف عن السير في الماء، ونبدأ بركْل الزورق ودفعه إلى اليسار ليصبح مواجهاً الجزيرة، يصطدم القارب برأس الموجة، ويركبها صعوداً، ثمّ يهوي في الغور الخلفيّ.

المسبح ليس البحر، ففي المسبح تكون المياه محدودةً، ويُمكن ترويضها، ومعرفة خفاياها، هناك أيضاً حوافٌّ وقاعٌ؛ أمّا السباحة في هذه الظروف، فتشبه عدم وجود ذاكرةٍ عضليّةٍ، كأنّني أسبح للمرّة الأولى في حياتي.

نركل، ونضغط، ونسحب، لكنّ هذا كلّه لا ينفع. نحن سبّاحون، ولكنْ في هذه الأمواج لا يمكننا تحريك القارب بالسباحة بمفردنا، من دون المحرّك لا يمكننا إحراز أيّ تقدّم.

أُركّز على ما يمكننا القيام به، ويمكّننا من البقاء في الماء، وجعل القارب أخفّ وزناً، وبعدئذٍ رفعه نحو الأعلى، فوق الأمواج، ويمكننا إسناد القارب من الخارج وتدويره لمواجهة رأس الموجة، ومنْعه من أنْ ينقلب، ويمكننا التأكّد من أنّ القارب موجّهٌ في الاتّجاه الصحيح نحو الجزيرة، ويمكننا ركوب الأمواج، والتأكّد من أنّها تجرفنا في الاتّجاه الصحيح. نرفُس أنا وسارة وندفع، لكنْ بلا جدوى، فمهما حاولنا لا نستطيع أن نُزحزح القارب، لو أنَّ جهودنا تُفلح في دفعنا نحو الجزيرة، فالمسألة تتوقّف على أمتارٍ معدودة.

يجلس أيهم وباسم على جانب الزورق فوقنا مباشرةً، وكلاهما ينظران نحو الأسفل من جانب القارب مُحدّقَيْن فينا بإعجاب.

- «يا أيهم». تنادي سارة بعد قرابة عشرين دقيقة: «أيمكنك أنْ تفعل شيئاً حيالَ بنطالي الرياضي؟». «يا أيهم». تنادي سارة بعد قرابة عشرين دقيقة: «إنّه يسْحَل دوماً».

- «لديّ سكّين». يقول أيهم: «دعينا نقصّه من الأسفل، قرِّبي ساقك منّي».

تدور سارة حَول نفسها لتصبح مُواجِهةً للبحر المفتوح، وترفع ساقها اليمنى من الماء نحْوه، بنطالها الرياضيّ ملتصقٌ حَول فخذيها، وهو يكشف ملابسها الداخليّة، على الرغم من كلّ شيء، لا نستطيع أنا وباسم سوى الضحك، هي تضحك أيضاً، أصِلُ إليها بيدي الفارغة، وأشدُّ مطّاطة بنطالها لتجنيبها المزيد من الإحراج.

يُمسك أيهم ساقها أسفل الركبة بكلتا يديه، ويسْحبها بحيث يستقرّ باطن ساقها على فخْذه، وعلى متْن القارب يرفع الآخرون أعناقهم ليروا، خلْفَ أيهم يقف العراقيّان، وأحد الرجال السودانيّين يُمسِكون سكاكينهم استعداداً للمساعدة.

- «مهلاً». يقول أيهم: «احترسوا، انتبِهوا إلى القارب أمامكم، توجد ساقٌ يجب الانتباه إليها».

أبعَدَهُما أيهم، وبدأ ينشُرُ القماش المبلّل بالماء ليقطعه في دائرةٍ خشنةٍ فوق ركبة سارة، بعد ذلك تمدُّ سارة ساقها الأُخرى لفعل الشيء نفسه، الجانبان غير متساويَين، لكنّ البنطال أصبح أخفّ، واستقرَّت مطّاطة الخصْر حَول خصْر سارة.

- «أهذا أفضل الآن؟». يسألها أيهم.

- «أفضَل». تقول سارة، وتعود إلى وضعيّتها السابقة.

يُحدّق أيهم في هاتفه، لديه إشارة تغطية، يُفتّش باسم في جيبه، ويُخرِج كمشةً من الورق، ويعطيها لأيهم، يُدخِلُ أيهم رقم خفَر السواحل اليونانيّة، ويضغط هاتفه على أذنِه، وينتظر الردّ، توقّفَ الدعاء على متْن القارب، الجميع يُنصِت.

- «نحن نغرق». يصرخ باللّغة الإنجليزيّة على الهاتف: «عشرون شخصاً، نساء وأطفال أيضاً، معنا طفلٌ صغيرٌ، والمحرّك مُعطّلٌ، والقاربُ يغرق».

يتوقّف الكلام بينما يستمع أيهم إلى الردّ.

- «لا، أنت لا تفهم». يقول أيهم على الهاتف: «لا يمكننا العودة، المحرّكُ مُعطّل، نحنُ نموت، أرجوك، عليك أنْ تنقذنا».

يُبعِدُ أيهم الهاتف عن أذنه، ويحدّق في الشاشة غير مُصدِّق، بعد ذلك

يحاول على نحوٍ محمومِ الاتصال بالمزيد من الأرقام في هاتفه، إلاَّ أنّه لا يستطيع الوصول إلى أيّ شخصٍ آخر.

- «لقد طلَب إلينا اليونانيّون أنْ نعود أدراجنا». يقول أيهم: «لا أستطيع الاتّصال مع خفَر السواحل التركيّ».

لا يوجد أيّ شخصٍ على متْن القارب يحمل رقم الرجُل الكبير، أو رقم ماوكلي، لذلك يتّصل أيهم بالمهرّب الوسيط في إسطنبول، ويُخبرُه الوسيط بأنّه لا يستطيع فِعلَ شيء. في النهاية، يحاول أيهم الاتّصال بوالديه.

- «بابا؟». لا تخَف، أنا في حاجةٍ إلى مساعدتك؛ نحن في البحر، وقاربنا مُعطَّل، أيمكنك نشْر هذه المعلومات على مجموعة فيسبوك المخصّصة للقوارب المستغيثة؟ سأرسل إليك تفاصيل موقعنا.

أفكّر في أمّي، وأُغالِبُ الدموع، ماذا سيكون حالها إذا شاهدت المنشور على فيسبوك؟ هل ستعتقد أنّنا لقينا حتْفنا أم إنّها ستتوقّع منّا أن نسبح لإنقاذ الآخرين؟

- «نحنُ نحبُّكما أيضاً». يقول أيهم لوالده على الهاتف: «يجب أنْ أُنهي المكالمة الآن لتوفير شحن البطّاريّة».

يُقفِل أيهم الخطّ، ويضع هاتفه بعيداً، الجميع صامتون بينما تضرب الأمواج القارب، ويسحب الأفغانيّ الحبْل، لكنّ المحرّك لمْ يعُد يستجيب، والركّاب واهنون يتملّكهم الجوع والخوف، يبدؤون بالدعاء مرّةً أُخرى، وهُم يهتفون بصوتٍ واحد.

أمّا أنا، فأصارع الأمواج، وفي قمّة كلّ موجةٍ تصل ذروةٌ هائجةٌ من مياه البحر إلى رأسي مقابلِ القارب، ويدخل الماء المالح في عيني، وأنفي، وفمي، وعند أسفل كلِّ غَوْر، يمتلئ بنطال الجينز خاصّتي بالماء،

ويسحبني إلى الأسفل بينما تتحرّك سترة النجاة حول أُذنَيّ، وتخدش قماشتها الخشنة رقبتي.

ينادي مهنّد من الجانب الآخر من القارب قائلاً: إنّه لمْ يعد قادراً على المواصَلة، حان دور شخصٍ آخر للنزول إلى البحر، ينْحني إدريس على الجانب، ويساعد مهنّداً والرجُل السودانيّ في الخروج من الماء، ويهتزّ القارب على نحوٍ خطيرٍ، وهُم يرتمون على أرضيّته، ويقف مهنّد وينظر حَوله، ثمّ يشير إلى نبيه وماجد.

- «دورك في النزول إلى الماء». يقول مهنّد.

ينهض ماجد، وينظر بهدوءٍ من القارب.

- «لكنّني لا أستطيع السباحة». يقول ماجد.

- «لا وقت للأعذار». يُجيبُه مهنّد: «حتّى أنا لا أستطيع السباحة، كلّ ما يلزم هو الإمساك بالحبل».

- لا يمكنني رؤية أيّ شيءٍ من دون نظّارتي.

- «سوف أموت». يقول ماجد.

- «نعم، أعتقد أنّ هذا هو الوضع». يقول مهنّد: «ربّما يكون هذا أسوأ ما قد يحدث، وحينها سينتهي الأمر كلّه، أليس كذلك؟ لنْ يكون هناك ما يُقلقك بعد ذلك».

يطوي ماجد ذراعيه، ويهزّ رأسه، ومع زيادة الوزن يغطس القارب أكثر في الماء. تدور كلّ موجةٍ حَوله تسعين درجةً، وتصطدم مقدّمة القارب برأس الموجة الكبيرة اللّاحقة، ويصعد فوقها، ويرتطم القارب بالغَور، وينسكب مقدار دلوٍ من الماء على أرضيّته، ويُفرِغ الركّاب المذعورون الماء بأيديهم.

- «لقد تحوَّلنا إلى الاتّجاه الخاطئ». تصرخ سارة.

نواصِلُ ركْلَ القارب، وتوجيهه نحو الجزيرة.

يقف نبيه، وينظر إلى الجانب ساحباً نفَساً عميقاً، وينزل عن القارب، ويختفي في الماء، يقف ماجد وينظُر كما لو أنّه يبدو على وشك أنْ يُفرغ ما في جوفه، ويزمُّ شفتيه، ويتسلّق القارب بعْد نبيه، وبعْد عشر دقائق يرغبان في الخروج، والفتى الأشقر يستعجِلُهما في ذلك، فينظر مهنّد باحثاً عن متطوّعٍ آخر بين الرُكّاب اليائسين، أيهم وباسم ينظران إلى بعضهما، وينهض باسم، ويقول: إنّه سينزل، فهو أثقل وزناً.

يتسلّق باسم الموجة بيني وبين سارة، يُمسك الحبْل بكلتا يديه بإحكامٍ، ووجهه شاحبٌ، وعيناه فاغرتان: «تشبَّث فقط». تقول له سارة: «ستكون على ما يُرام». بينما يُجبِر نفسه على الضحك.

- «إذا كنتِ تستطيعين ذلك، فهذا يعني أنّني أستطيع أيضاً». يقول باسم.

وفيما أُمسِك الحبْل، أنتقل بحركة سباحةٍ أشبه بالرقص إلى الجانب الآخر لموازنة القارب، وينزلق إدريس إلى الأمواج بجواري، ويظهر وجْه مصطفى فوقنا في الفجوة التي كان يجلس فيها والده، وينظر إليّ بعينَين مدهوشتَين تغلب عليهما الجِدّيَّة، ويشير إليَّ، ثمّ إلى والده، وبعدئذٍ إلى الصفّ المحنِيّ من البالغين الذين يلهجون بالدعاء على متْن القارب، فيتجاهلونه.

ينظر مصطفى إلينا مرّةً أخرى، ويصفّق بيديه مطلقاً صرخةً، يشفُّ ثغره عن ابتسامةٍ، أمدُّ لساني ناظرةً نحْوه، ويتسرّب بعض الماء المالح في فمي، ترتسم على وجهي ملامح الاشمئزاز من ملوحة الماء، يصفّق مصطفى بيديه مرّةً أُخرى ويضحك، أقاطِع عينيّ، وأنفخ خدَيّ في حركةٍ فكاهيّةٍ، فيشير الطفل نحْوي مرّةً أُخرى، ويصرخ مُبتَهِجاً.

يسحب الأفغانيّ حبْل تشغيل المحرّك، أنظرُ مرّةً أُخرى إلى الجزيرة، وأصارع موجةً صاعدةً من اليأس، تبدو الآن أبْعد من أيّ وقتٍ مضى، لقد انتهى أمر المحرّك. نحن ننجرف الآن مع المياه، لا يوجد الكثير لنفعله سوى إمساك الحبل والانتظار، وحين تدور الأمواج حولنا، يقوم أربعتنا بتوجيه الزورق نحو الطريق إلى الجزيرة.

أصبح صوت الدعاء أعلى، يركب الزورق موجةً شاهقةً أُخرى، ويدور تسعين درجةً إلى اليمين، وتنتشر دفقةٌ من الماء، وتندفع إلى الأمام لتستقرّ في القارب، نواصل دفْع القارب وتوجيهه ليصطدم بالموجة التالية. بدأ الحبْل بِحزٍّ كفيَّ متسبّباً بخطوطٍ حمراءَ، ألفُّهُ مرّةً أُخرى على نحوٍ مائلٍ حَول معْصمي، وأنظر إلى أطراف أصابعي، تبدو مجعّدةً وشاحبة.

الشمس معلّقةٌ في السماء، وها هي تنخفض نحو الجزيرة، ويتسبّب ميولها في مواجهة عينَيّ بتشويش بصري، أعتقد أنّه مرّ على وجودنا في الماء نحو ساعة ونصف، ساعة ونصف لعبور عشرة كيلومترات من الماء، ربّما كنّا وصلنا الآن لو أنَّ المحرّك لمْ يتعطّل. تنبعث أصوات فرقعاتٍ من القارب أعلاه؛ لقد عثر مصطفى على صافرة الاستغاثة، وهو يُطلِقها بقوّةٍ، يناديه إدريس من الماء بجواري.

- «توقّف يا مصطفى». ينادي إدريس بصوته الضعيف والمرهَق.

ينحني مهنّد جانباً نحو الصبيّ مادّاً يده.

- «أعطِني إيّاها». يقول مهنّد.

يأبى مصطفى.

يصرخ الولد ضاحكاً، ويشبك الصافرة بكلتا يديه، ويسحبها إلى بطنه، يقف مهنّد ويمسك مصطفى من كتفيه، لكنّه يُفلِت من قبضته، ويتجاهل الرجُل الأكبر سنّاً ويجلس، يبتسم مصطفى وينفخ في الصافرة، الجميع

يشمئزّ من الضوضاء التي تثقب الآذان، ولكنْ لا أحد لديه القوّة لوقف مَرح الولد، هو لا يدرك حجْم الخطر الذي نحن فيه، دَعوه يلعب.

تعلو صيحةٌ جماعيّةٌ من القارب، الأفغانيّ متحمّسٌ يصرخ في اللّغة الفارسيّة، ويشير إلى شيءٍ ورائي، أقلب رأسي، وأرى زورقًا آخر ينزلق خلال الأمواج على بُعد قرابة ثلاثين متراً.

- «ساعدونا، انتظروا، نحن هنا!». أضمُّ صوتي إلى الصرخات، وأُحرّر أحد معصمَيَّ من الحبْل، أرفع ذراعي في تلويحةٍ كبيرةٍ نصف دائريّة.

زورقٌ رماديٌّ غامقٌ مثل زورقنا، لكنّه أطول بكثير، قرابة أربعين شخصاً يرتدون سترات نجاةٍ برتقاليّة الّلون، مجتمعين في زورقٍ قابلٍ للنفخ يتّجه نحو العُمق، وعلى الرغم من الحمولة إلّا أنّ القارب الطويل ينهض عالياً في الماء مخترقاً البحر الهائج، ويستعدّ بثقةٍ لمواجهة الأمواج المتلاطمة، وفي مقدّمته، تحت قوسه، تُشاهَدُ رغوةٌ بيضاءُ ناجمةٌ عن سيْر القارب الواثق، وهو يمْخر عُباب البحر.

نصرخ بصوتٍ أعلى! يضحك مصطفى، وينفخ في الصافرة، ويشيرُ اثنان من ركّاب القارب الآخر نحو قاربنا، ويصرخون لقائد زورقهم، لكنّه لا يغيّر مساره، ويواصل القارب سيْره عبْر الأمواج، وبعد بضْع لحظاتٍ مؤلمةٍ يتوارى تماماً. نحن وحْدنا من جديد، وحْدنا تحت غروب الشمس، وبين الأمواج أمام المشهد المدهش للجزيرة.

ألفُّ الحبْل بإحكامٍ حَول معْصمي، ويتملّكني الذهول، كان لديهم متّسع لنا، كيف يمكنهم تركنا لنغرق؟ تتعمّق صدمتي لتغدو غضباً يستشري في داخلي، وتغطُّ الشمس على نحوٍ أسرع الآن لملاقاة قِمم الجزيرة، وتبدو الجزيرة بعيدةً مثلما كانت، وقريبةً مثلما كانت أيضاً.

أغلق عينيّ بإحكامٍ، نحن سبّاحون، سوف ننقذهم، يمكننا إبقاء القارب

في الطريق الصحيح، ومنعه من الانقلاب، أو الغرق. تهبُّ الريح، ويعود البرْد من جديدٍ ليفعل فعله في قدميّ، وباطن ساقيَّ، وعضلات فخذَيّ، بإمكاني أنْ أشعر بالشلل يتملّك ساقَيّ، وأتمنى أنْ تتوقّف الأمواج لمدّة دقيقة.

تلهث الخواطر في ذهني: ربّما يجرفنا التيّار، وربّما ستدفعنا الأمواج إلى الشاطئ، وقد يدور المحرّك مرّةً أخرى، وقد يمكننا اجتياز هذه المسافة في نهاية المطاف. ما الذي قالته سارة من قبْل؟ دعي الجميع وشأنهم، واسبحي فقط. قد يكون هذا هو سبيل الخروج من هذه المحْنة، يمكننا السباحة، هي أشبه بسلاحنا السريّ، يمكنني السباحة حَول القارب، والوصول إلى سارة، ويمكننا أنْ ننطلق معاً عبْر الأمواج، وسنترك الآخرين لمصيرهم، ليس ذنبي أنّهم لا يستطيعون السباحة، ولكنْ كيف يمكنني العيش بعد ذلك؟

ينظُر مصطفى مرّةً أُخرى من القارب، أشدُّ خدَّيَّ لأرسم على وجهي ملامح سمكةٍ، وأعْكس عينَيَّ لتسليته. يقهقه ضاحكاً، ويستدير أحد الرجال السودانيّين في مقعده أعلاه، ويبتسم لي قائلاً:

- أنتِ شجاعةٌ جدّاً.

أفتَعِل ابتسامةً على وجهي.

- «دعنا نصل أوّلاً». أقول.

أنظر بعيداً في الماء، تتلألأ الأمواج باللّون البنفسجيّ الداكن، فيما تبرق ذُراها بأبيض قِشديٍّ تحت ما تبقّى من أشعّة الشمس لهذا النهار. أُكافح للاستمرار. «دعْني وشأني». أقول في سرّي: «ليس هذا وقت الكلام». يتردّد صوت الرجُل في رأسي: في قمّة الشجاعة.

أسمع باسم وسارة يضحكان على الجانب الآخر من القارب، «لنْ

تذهب إلى أيّ مكان». يقولان، وإلى جواري يقبض إدريس على الحبْل بصمتٍ كئيبٍ، وأتمنّى لو كان باسم معي لتسليتي. تنطلق الآن موجةٌ ضخمةٌ أُخرى إلى الأمام. «ربّما نكون أكثر أماناً هنا». أقول لنفسي بينما نُدير القارب في مواجهة الجزيرة: «أشكّ في أنّ باستطاعة السبّاحين الأقوياء البقاء وحْدهم هناك، مع ذلك، نحن السبّاحون، وقد وعدنا أن نُنقذ هؤلاء الناس».

يغطُّ آخر شفقٍ أحمر للشمس وراء الجزيرة، وتصطبغ رؤوس التلال باللّون الورديّ، وفوقها تبدو السماء صفراءَ بنّيّةً تتلاشى تدريجيّاً إلى اللّون الأزرق الزاهي، وبعدئذٍ يظهر قمرٌ نصف دائريٌّ باهتٌ في السماء.

عيناي ملذوعتان ومتورّمتان من الملح، أبقيهما مفتوحتَين، وأواصل التركيز، فتمرُّ المشاهد أمام أحمر عينَيّ المغلَقتَين: أبي يُلقيني في الماء، الدبَّابة تُصوّب نحو طريقنا في داريّا، القذيفة تخترق السقف، وتخمُد في مياه المسبح، نتجمّع في الطابق السفلي، نستمع إلى صوت سقوط شظايا المباني في الخارج.

إذا غرقتُ الآن سيذهب الأمر سُدىً، لنْ يكون هناك وقتٌ للعيش، ولا للفوز، أنا في سريري في دمشق، أصوغ الكلمات في مخيّلتي، أنا لست هنا، ما يحدث الآن غير حقيقيّ، نركب موجةً كبيرةً أُخرى، وأفتح عينيّ. في السماء من فوقنا، تخترق أكثر النجوم سطوعاً الزُرقة الداكنة لهذه اللّيلة، ويتلاشى الضوء بسرعةٍ، وتكتسي الأمواج لوناً أزرقَ يميل إلى السواد، وتغدو أعلى من أيّ وقتٍ سبق، أُغمِض عينيّ مرّةً أُخرى، وأُصارع لإغلاقها تماماً.

- «ماذا لو كانت هناك سمكة؟». يقول صوتٌ في رأسي، فتسري جرعةٌ من الخوف في داخلي، سمكة ضخمة في العتمة أدناه، بفمها الكبير،

وعضلاتها، وأسنانها العملاقة، وأتصور ساقَيَّ من الأسفل متدليّتَان في الغَوْر بلا حولٍ ولا قوّةٍ، فريسة وجبة! أفتح عينيّ، أدفع الصوت بعيداً عن مخيّلتي، أُنظري، ها هو مصطفى على متْن القارب، ما زال يبتسم. تستمرّ الموجات الداكنة في الانقضاض، أُجهِد عينَيَّ مُحاوِلةً أنْ أرى من خلال سطح الماء حِبريّ اللّون، وهو يتلألأ تحت ما بقي من بصيص الضوء مثل دهانٍ أبيض.

لمْ يتأخّر الصوت كثيراً قبْل أنْ يعود، «هذا المكان مقبرة». يقول في أذني: «فكّري في هؤلاء الأشخاص كلّهم، مِثلك تماماً، أولئك الذين غرقوا هنا، الشباب، وكبار السنّ والأمّهات، وأطفالهنّ، الآلاف من الأرواح تبدَّدت في الأمواج، ربّما توجد بقايا جُثث في قاع البحر من تحتك، لمْ تحظَ بفرصة الدفن، ولَم تُجلَب إلى البيوت حيث أحبّتها، حتّى إنّ هويّاتها لم تُعرَف، مجرّد إحصائيّةٍ أُخرى نسيها العالم».

أزجُرُ الصوت ليصمت، لكنْ من الواضح أنَّ الأمر يروق له: «كابَدوا ساعةً تِلوَ الأُخرى مثلما تُكابِدين». يواصل الصوت: «عبثاً صارَعوا من أجل البقاء على قيد الحياة في عُرضِ البحر، استنفد الماء قوّتهم كلّها، ثمّ ابتلعهم، تلك المِيتات الرهيبة كلّها من دون أن يستمع أحدٌ إلى صرخاتهم المستغيثة، أراهن أنَّ الغرق أمرٌ مؤلمٌ». يقول الصوت المُمتلئ خُبثاً: «لِمَ لا تستسلمين الآن وينتهي الأمر؟».

- «لتضَع حدّاً للأمر». أصرُخ في الصوت الذي في رأسي: «إمّا أن نغرق، وإمّا أنْ نصل، يجب أنْ يحدث شيءٌ ما». تنتابني القشعريرة، عضلاتي تؤلمني من البرد المتزايد، ومعدتي تتشنّج من ماء البحر الذي ابتلعته. يزوغُ بصري من الدموع، وأصارع كي أرى من جديد، خمس دقائق أُخرى وسيدور المحرّك. خمس دقائق أُخرى من الألم. تماسَكي فقط،

اِبقي حيّةً لخمس دقائق أُخرى، دعي جسدكِ يتولّى المسؤوليّة، ثِقي فيه، أوقفي عقلكِ، ودعي قلبكِ يتكفّل بالأمر.

تركتُ لعقلي أنْ ينساق، وهدَأَ الصوت. تمرُّ دقائق، وأنا ممسِكةٌ بالحبْل، وأدير القارب، وأخطو في الماء متمسّكةً بالنجاة، وما هي إلّا لحظاتٌ قليلةٌ حتّى دَهمني عبثُ ما نحن فيه، كدتُ أضحك بصوتٍ عالٍ. ربّما يمكن للصوت أنْ يفسّر لي ما يحدث، «ما الذي نفعله هنا؟». أسأله: «ما الذي نفعله هنا على متنِ زورقٍ أشبه بلعبةٍ واهيةٍ في هذا البحر الهائج؟ كيف بلغت الأمور هذا الحدّ؟ متى أصبحت حياتنا رخيصةً إلى هذه الدرجة؟ أهذا حقّاً المَخرجُ الوحيد، السبيل الوحيد للنجاة من القذائف؟».

الصوت جاهزٌ للإجابة: «تلك هي المقامرة». يقول الصوت: «أم هل كنتِ تُفضّلين الانتظار حتّى تسقط القذيفة على بيتكم، وينهار السقف على سريركِ في أثناء النوم؟ هذا هو الخيار الذي اتّخذتِه، هذه هي الصفقة، وتلك هي خياراتك». إمّا أنْ أجِد مخرَجاً، وإمّا أنْ أقضي في المحاولة. ما زالت عيناي مُغلقتَين بإحكامٍ، أفتح فمي، وأرفع صوتي للمشاركة في الدعاء.

- «نَجِّنا يا الله». أقول بصوتٍ عالٍ: «هَبني القوّة، وامنحني الشجاعة، واجعل الأمواج تتوقّف، يا ربّ، هدِّئ الريح، وارفع القارب على الماء، يا الله، دعْ هذا الأمر ينقضي بسلام».

أفتح عيني، وأنظر إلى السماء المُظلمة، ثمَّة في الأعلى نورسٌ صغيرٌ أبيضُ بأجنحةٍ لها أطرافٌ سوداءُ، يندفع محلّقاً، ثمّ يتمايل على مقربةٍ من حرارة القارب عند قوسِه. يستقيم النورس على مستوانا، ويبقى في الهواء كما لو كان يريد أن يُرشِدنا إلى الطريق. «اُنظُر!». أقول للصوت: «ربُّنا معنا، يسمع دُعاءنا».

- «لا يمكنني الاستمرار أكثر». يأتي صوت باسم من الجانب الآخر من القارب: «أخرِجوني!».

ينحني أيهم، ويسحب شقيقه من البحر. كان باسم متصلّباً، وقد تجمَّدت أطرافه، مدَّده أيهم على أرضيّة القارب كرجُلٍ ميت، يستلقي باسم مُرتجفاً، وغير قادرٍ على الكلام، أو الحركة، ويرفع إدريس ذراعه بوَهنٍ ليشير إلى أنّه لمْ يعد يقوى على المواصَلة، يسحبه مهنّد أيضاً؛ أمّا أنا، فقد أدرَكتُ أنَّ ساقي تعطّلت تماماً، وبعد ثلاث ساعاتٍ في البحر، كان الحبْل وسترة النجاة هُما فقط ما أبقى رأسي طافياً فوق الماء.

- «أريد أنْ أخرج». أقول.

- «وأنا». يأتي صوت سارة من الجانب الآخر: «حان الوقت لينزل شخصٌ آخر».

يمدُّ مهنّد نفسه من القارب، أُمسِك يديه، فيسحبني إلى القارب، أرتمي على الأرض خائرة القوى، تصطكُّ أسناني من البرْد. يسحب أيهم سارة، فتهوي على الأرض بجواري، نتسلّق للجلوس على الحافّة الأسطوانيّة للزورق. مرّةً أُخرى تتلاطم الأمواج، وتدور حَول القارب، وينسكب الماء في القارب بينما نركب الأمواج.

بجواري على القوس، يهتزّ نبيه بعنفٍ، وعيناه شاغرتان، ووجهه شاحبٌ كالميّت، يُسمعُ صوتٌ خشِنٌ لأنفاسه التي يسحبها بصعوبةٍ، فأحاول لفتَ انتباهه، إلّا أنّه لم يعد يَعي ما يجري، وإلى جواره ماجد، جِلده مُصفَرٌّ، وعيناه ساهِمتان، يحدّق فيما بين قدميه بكآبة. يُعاوِد الأفغانيّ محاولاته، فيسحب الحبْل؛ المحرّك يهدُر.

- «أين نظّارتي؟». أقول لماجد.

لا يردُّ ماجد. أمدُّ نفسي وألوّح بيدي أمام وجهه. يشير إلى الماء وراءه؛ لقد ألقى بها في البحر.

- «ماذا؟». أصرُخ: «ماجد! أحتاج إلى نظّارتي كي أرى، طلبت إليك أنْ تعتني بها».

يحدّق ماجد بي، ولا يكترث لما أقوله، نظرهُ مثبَّتٌ على المحرّك الذي يُهَمِهِم، يسحب الأفغانيّ الحبْل مرّةً أُخرى، فيهدر المحرّك منبَعثاً من الموت. أسحب أنفاسي حينما يهدر المحرّك، ويرتفع القوس من الماء، ويبدأ بشقٍّ طريقه مُخلِّفاً رغوةً بيضاء وراءه، فتندفع الرغوة البيضاء عند أسفل القارب، وتتلاشى في الّلون الأزرق الداكن.

- «الحمد لله». يقول مهنّد متنفّساً الصعداء: «احمدوا الله».

يدبُّ الأمل، والفرح، والفَرَجُ، في نفوس الركّاب المرهَقين. تظهر المزيد من النجوم في السماء الزرقاء فوقنا، وما زالت لطخةٌ رقيقةٌ من الّلون البرتقاليّ تحتضن الأفق فوق التلال، إلى اليمين حيث توارت الشمس. يتراقص صفٌّ من الأضواء البيضاء على خطّ الساحل راسِماً الحدّ الذي ينتهي عنده البحر الداكن، وتبدأ الجزيرة الغامقة. أهي أقرب من ذي قبْل؟ المحرّك يعمل جيّداً الآن، لكنّ أحداً لا يقوى على الابتهاج. وعلى أيّ حال، لقد تعلّمنا ألّا نثق به.

يقول مهنّد، وهو يتلفّت مستعرضاً الوجوه المستنزَفة: «سنصل إلى هناك على نحوٍ أسرع إذا عاد شخصٌ ما إلى الماء».

لا ينبس أحدٌ بكلمة، فتتّجه أنظار الجميع إلى سارة التي ترتجف بجواري على الحافّة الأسطوانيّة للقارب، يحدِّقون بنظراتهم في كتفيها وساقيها القويّتين، بعضهم ينظر إلَيّ أنا أيضاً، أسناني تصطّك من البرْد، وكتفاي يهتزّان لا إراديّاً، فتعود الأنظار نحْو سارة.

ألَمْ تكن هي السبَّاحة العظيمة التي كانت تقول: إنَّ بإمكانها السباحة إلى اليونان؟ بدا أنّ نظراتهم تقول ذلك. تنظر سارة إلى الركّاب وجهاً تِلو

الآخر، مُتشرِّبةً نظرتهم المستعطِفة، وأنظر حولي، هذا لَيسَ عدْلاً، لا شكّ في أنَّ شخصاً آخر سوف ينهض. يُخيّم الصمت، وتتكاثر النجوم، والعيون مُسمَّرةٌ على سارة؛ تتطلّع إليها، وتحضُّها لإتمام ما بدأته.

في النهاية تنهّدت سارة، ونهضت من جديد، وجهها مشلولٌ ويائس، وعيناها محمَرَّتان، ومنتفختان من الملح. لا أقول شيئاً، لكنّي مغمورةٌ بالشفقة، والامتنان، والفخر؛ إنّها أختي الشجاعة، مرتجفةً تُمسك الحبْل، وتهبط مرّةً أُخرى إلى الماء الداكن.

يستدير أيهم ليواجهها جاثياً على أرض القارب، فيما يميل برأسه وكتفيه من فوق الحافّة الأسطوانيّة للقارب نحْوها.

- «أمسكي يدي». يقول أيهم. تمدُّ سارة إحدى يديها، فيما تُمسك الحبْل بالأُخرى.

- «كتفاي». أسمع سارة تقول متألّمةً وسْط ضجيج المحرّك، وتطلب من أيهم أن يقترب أكثر.

تتركُ سارة الحبْل، بينما تمسك بيَد أيهم الأُخرى، يرفعها أيهم فوق سطح الماء فيما تتدلّى، والماء يغمر صدرها، ورأسها متّجهٌ نحو الأمام على جانب القارب. يخيّم صمتٌ مطبقٌ، ها نحن نتقدّم أخيراً، وجَّهنا أنظارنا صوبَ الجزيرة التي تلوح في الأفق الآن، وتبدو أكبر من السماء الداكنة.

رفعت سارة رأسها بعد مُضيّ نحو عشرين دقيقة.

- «أرجوك». تقول سارة متوسّلةً: «أرجوك، أشعر ببردٍ فظيعٍ، دعني أعود إلى القارب مرّةً أخرى».

يحملها أيهم إلى القارب، تخور قواها، وأنا أنظر إليها بينما تتكئُ بظهرها على ساقَيّ. يتسلّل صوت اصطكاكِ أسنانها إلى مسْمعي، تشدُّ ركبتيها إلى صدرها، وتترك رأسها يهوي بينهما.

بينما نقترب من اليابسة تسكنُ الريح، وتتلاشى الأمواج. يعلو أزيزُ المحرّك بينما يشقُّ القارب طريقهُ بسهولةٍ عبْر الأمواج الساكنة، ومن خلال اللّيل المُلبَّد تلوح في الأفق بقعةٌ طويلةٌ من الشاطئ الرماديّ المستقيم.

- «إنّنا نقترب من اليابسة». يقول مهنّد: «احذروا الصخور!».

ترفع سارة رأسها، وتتحرّك لتجلس بجواري على الحافّة الأسطوانيّة للقارب، تخلعُ سترة النجاة، وتلقيها أمامها أرضاً، ثمّ تتسلّق حافّة القارب، وتنزلق إلى المياه الداكنة، أراقبُ بدهشةٍ كيف تقاوم سارة الغرق ممسكةً بالحبْل، بينما تحاول السباحة على صدرها باليدِ الأُخرى، وبينما تمرِّرُ الحبْل بينَ يديها، تهزُّ سارة مقدّمة القارب برِجلها، وتدفع به بعيداً عن الصخور نصف المغمورة كلّما رأتها، وموجِّهةً القارب نحو اليابسة.

تغطس لتتحقّق من عُمق المياه، وبعد بضع ثوانٍ تظهرُ مرّةً أُخرى، أراقبها منتظرةً الإشارة، فتعاودُ الغطس، لكنّها تعومُ بصورةٍ أسرع مع ابتسامةٍ عريضة.

- «إنّها اليابسة». تقول سارة: «إنّها اليابسة».

11

أقفزُ إلى المياه التي بمستوى رُكبَتَيّ، فيتبعني بقيّة ركّاب القارب، يتسلّق مصطفى ظهْر إدريس واضعاً ذراعيه حَول رقبة والده. الأفغانيّ آخر من يغادر القارب. يتركُ مصطفى المحرّك يدور، بينما يصطدم القارب بالصخور الكبيرة على حافّة الشاطئ، تتنفسُ المجموعةُ الصعداء. العدالة للقارب الذي كادَ يودي بنا. ترنُّ دعوات الشكر في أذنيَّ بينما أتقدّم بصعوبةٍ على الشاطئ.

- «الحمد لله». أقول همساً. أنا مرهقةٌ لدرجة أنّني لا أشعر بشيءٍ سوى خَدَر الراحة: «الحمد لله، الحمد لله».

تحزُّ أحجارٌ بحجْم قبضة اليد قَدمَيَّ الحافيتينِ، بينما أتذكّر نعلي البحري. كنت قد رأيته آخر مرّةٍ في القارب، أعرجُ إلى تجمُّع الصخور؛ حيث يقف القارب، القوس شبه محطّم، وعالقٌ بين صخرتين، وأرى بنطالاً رجالياً أسود اللّون في المياه المتدفّقة من حَولي، لا شيء آخر. ليس هناك أثرٌ لنَعلي، ولا حتّى لنظّارتي. أفتح سُترة النجاة الخاصّة بي، وأفتّش فيها، لا يزال جواز سفري في المحفظة البلاستيكيّة في حمّالة صدري.

تقدّم العديد من الرجال نحْو القارب، والغضب يعلو وجوههم، كان كلّ واحدٍ منهم يحمل سكّيناً في يده، تهاوى الرجالُ على القارب، ومزّقوا

جانبه الأسطوانيّ في بضع حركاتٍ سريعةٍ وغاضبةٍ، أطلق الزورق ما يشبه تنهيدة غضبٍ انتشرت في الهواء، وبعد تفريغه من الهواء، بدا القارب صغيراً جدّاً، وأشبهَ بقطعة قماشٍ رماديّةٍ، فتجاهلتُه فحسْب.

تقف سارة بعيداً قليلاً بلا حراكٍ، ويداها على وركيها، محدِّقةً في الأضواء وراء الشاطئ الطويل المستقيم. تُهروِل المرأة الصوماليّة نحو سارة، وتحضنها بحرارةٍ، ثمّ تتّجه نحْوي بذراعيها الممدودتين، فيما تنهمرُ دموعها على وجنتيها، وبينما تأخذني بين ذراعيها، لا أشعر سوى بالبرد، والإعياء، والعطش.

- «أنتِ بطلتي». تهمسُ المرأة في أذني، وتُقَبّل خدَّيَّ الحمراوين المنتفخين.

أكاد لا أصدّق، لقد نجونا! أشعرُ كما لو أنّ أطرافي عبءٌ عليّ، أنحني كمن يركع، وآخذ نفَساً عميقاً، وأستسلم لنشوةٍ غامرةٍ. لقد فعلناها، انتهى الأمر، لكنّ الفرحة لم تدُم سوى بضع ثوانٍ فقط؛ إذْ إنّ ذهني سُرعانَ ما استحضر المشكلات المُلحّة المقبلة؛ أحتاج إلى الطعام، والماء، والنوم.

كانَ ابنا عمّنا: نبيه وماجد، يتمشّيان على امتداد الشاطئ الخشن متعثّرَين بالصخور، وقطع الأشجار الشائكة والجافّة في الظلام؛ أمّا الركّاب الآخرون، فكانوا يخلعون سترات النجاة، ويرمونها فوق الصخور. أخرَجَ الكثير منهم هواتفهم النقّالة التي بدت أضواء شاشاتها المنتشرة على امتداد الشاطئ كمصابيح اللّيل.

كان الشاطئ ضيّقاً؛ لذلك سار أفرادُ المجموعة في طابورٍ واحدٍ، وإلى يسار الشاطئ انتصب جدارٌ حجريٌّ قديمٌ تغطّيه شجيرات الكرْمة الساحليّة الخشنة. يتحدّث ماجد في هاتفه في مقدّمة المجموعة، وفجأةً يتوقّف منتظراً بجانب مبنى حجريٍّ واطئٍ، كانت سارة أوّلُ الواصلين إليه؛ حيث ناولها سمّاعة الهاتف.

فورَ اقترابي منهما، أعطتني سارة الهاتف، إنّه أبي. لا أرغب كثيراً بالتحدّث، كان صوتُ أبي بعيداً جدّاً كما لو أنّه كان يتحدّث إليّ عبْر الضباب، كنتُ أحدّق في بوّابةٍ حديديّةٍ صدئةٍ في ذاك الجدار الحجريّ، وأحاول التركيز على كلمات أبي. كان وجهُ أمّي حاضراً في مخيّلتي، بينما أخذ أبي يتحدّث، أتساءل عمّا إذا كانت تعرف أنّنا على قيْد الحياة.

أعيدُ الهاتف إلى ماجد، وألقي نظرةً سريعةً على الوقت الظاهر في الشاشة، كانت الساعة التاسعة وثمانٍ وثلاثين دقيقة، كانت هواتفنا ما تزال مضبوطةً حسب توقيت تركيا، مضت ثلاث ساعاتٍ ونصف على ركوبنا البحر، لكنّها بدتْ كما لو أنّها عشر ساعات. يتملّكني العطش من جديد، ولكنّني أنطلق خلْف الآخرين على امتداد الشاطئ في اتّجاه الأضواء.

أصل إلى مجموعةٍ من الطاولات الخشبيّة المغطّاة بأغطيةٍ بلاستيكيّةٍ ذات مربّعاتٍ زرقاء. كان هناك طريقٌ مرصوفٌ يؤدّي إلى مطعمٍ واطئ، وعلى جانبيَ الطريق، كانت المصابيحُ الظاهرة للعيان معلّقةً بين أشجار الفاكهة. ما من أحدٍ في المطعم، فالطاولات مهجورة. أقف في نهاية الطريق، وأُمعِنُ النظر.

أرى عجوزاً يجلس إلى إحدى الطاولات، كان يرتدي قميصاً ذا مربّعاتٍ زرقاء وبيضاء تشبهُ أغطية الطاولات، يجلس الرجُل متّكئاً إلى الخلْف، وذراعه اليمنى مسنودةٌ خلْف كرسيّه، وبيده لفافة تبغٍ مشتعلة، يراقبني بصمتٍ، وإلى يمينه يجلس رجُلٌ أصغر سنّاً بقميصٍ أزرق داكن. كان الرجلُ منحنياً إلى الأمام، مباعداً ساقيهِ، بينما كانت يداه مشبوكتين بين فخذيه، وكان يراقبني هو الآخر.

ثمّة كلبٌ أشقرُ كبيرٌ من سلالة لابرادور ينظر من تحت الطاولة، خطوتُ خطوةً إلى الأمام على الممرّ، وعندها نهض الكلب وراحَ ينبح،

كانت أذناهُ مشدودتين إلى الخلف، وذيْله ينوس بحركةٍ عنيفةٍ، بينما راح يبادل بين قدميه الأماميّتين، ويُحدّق بي. شعرت بالتردد.

ناديتُ الرجُليْن بالإنجليزيّة قائلةً: «أريدُ شراء قنّينة ماء».

تمتمَ الرجُل الأكبر سنّاً، لكنّهُ لمْ يتحرّك. راح الكلب ينبح على نحوٍ مسعور.

- «مرحباً». قلتُ، ثمّ أعدتُ السؤال مجدّداً: «أيمكنني الحصول على الماء؟ أو العصير؟ أو الكولا؟ لديّ نقود». أخيراً، نهض الرجُل الأصغر سنّاً، وأمسك الكلب من طوقه.

- «كلّا». يقول الرجُل هازّاً يده، كأنّه يطردُ قطّةً شاردةً: «لا ماء لدينا».

حينها عُدتُ إلى الشاطئ، وشعرتُ كما لو أنّني تلقّيتُ لكمةً في معدتي. تحوّل الألم إلى غضبٍ، لا بدّ من أنَّ الرجُليْن راقبا مشهد نزولنا على الشاطئ بحذافيره، كان بإمكانهما رؤية ملابسي المبلّلة، وسماع صوتي المرتجف. أتساءل عن السبب الذي يجعل إنساناً يرفض بيع الماء لفتاةٍ جرفتها الأمواجُ حالاً أمام مطعم؟

ترفع سارة حاجبيها دهشةً، بينما أتمايل عائدةً إلى المجموعة.

لا تعرف ما تقوله.

- «دعونا نخرج من هنا». أقول لهم.

يراقبنا إدريس من الشاطئ عن بُعد، وهو يحمل مصطفى بإحدى ذراعيه، يضحكُ الصغير مصطفى، ويهتاجُ لرؤيتي، يُنزلهُ إدريس، فيعدو فوق الحجارة، ويلفُّ ذراعيه حَول خصْري. أضع ذراعاً واحدةً حَول كتفه، ونسير معاً عبْر الشاطئ المفروش بالحصى.

أتبعُ المجموعة بعيداً عن الشاطئ على طريقٍ ترابيٍّ يصطفّ عليه صفٌّ من المباني التي تشبه المنازل الخاصّة، تصطكُّ أسنانُ مصطفى، ويرتجف

بعنفٍ، بدأتُ السيْر في طريقٍ صغيرٍ في اتّجاه المنزل الأوّل، ولا يزال مصطفى متمسّكاً بخصْري، وبينما كنّا نقترب من البيت، رأيت فتاةً شقراء من عُمري تقريباً تراقبنا من وراء البوّابة. توقفْتُ، وحاول مصطفى الاختباء ورائي.

- «مرحباً». قلتُ بالإنجليزيّة.

- «ياسّاس».(*) أجابت الفتاة، وهي تنظر إلى ملابسي المبلَّلة بالماء، وقدميَّ العاريتين، ثمّ إلى الولد الصغير الذي كان يرتجف بجانبي، أخذتُ نفساً عميقاً.

- «ألديكِ ملابس جافّة للطفل؟». أسألُها.

- «بالتأكيد». تقول الفتاة: «انتظرا هنا».

تغيب الفتاةُ داخل المنزل، وبعد لحظاتٍ تعود وهي تحمل حذاءً بالياً بأربطةٍ، ومعه سترةٌ كحليّةٌ كبيرة. تملَّكني الفرح. تُناولني الفتاة الحذاء بينما تُمسك بالسترة بكلتا يديها، أبتسم، وأضع يدي اليمنى على صدري.

- «شكراً». أقول للفتاة بينما أضع الحذاء على الأرض لآخذ السترة.

أستديرُ نحو مصطفى، وأطلب إليه أنْ يرفع يديه لأُلبِسهُ السترة ابتداءً من رأسه، كانت السترة سميكةً وجافّةً، لكنّ مقاسها كان أكبر منه بكثير، غطّت أكمامُ السترة كَفَّيْ مصطفى؛ لذلك طويتُ الأكمام فوق معْصمَيْه. أنحني وأشدُّ الحذاء على قدمَيَ، مقاسُ الحذاء كبيرٌ جدّاً، لكنّني أشدُّ الأربطة بإحكام، أنهض وأرفع إبهامي شاكرةً الفتاة.

- «انتظري لحظة». تقول الفتاة، ثمّ تهرول إلى داخل المنزل، ولا تلبث أنْ تعود مع كأسَيْ ماء. أبتسم بامتنانٍ، وأجترعُ كأس الماء دفعةً واحدةً، وكذلك يفعلُ مصطفى. أنظرُ إلى الخلف عبْرَ الأشجار الممتدّة

(*) Yassas كلمة يونانية وتعني مرحباً. (م).

على طول الطريق المُظلم، هناك يتسكّعُ إدريس في نهاية الطريق في انتظار مصطفى، أبتسم للفتاة مجدّداً، ثمّ أنطلقُ مع مصطفى لنلحق بالآخرين. يركض الصبيّ إلى ذراعيِّ والده.

- «يا لها من سترةٍ جميلة!». يقول إدريس، وهو يداعب شَعْر مصطفى.

نلحق ببقيّة المجموعة على الطريق، ومصطفى بيننا. ألْحظُ أنّ إدريس لا يرتدي حذاءً.

- «يا مصطفى». أناديه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يلتفتُ الطفل نحوي.

- «هل استمتعتَ بالرحلة؟». أسأله.

يعبسُ مصطفى.

- «أعني على متْن القارب، هل استمتعت؟ هل ترغب في تكرار ذلك؟».

- «لا». يقول الطفل جازماً، ويهزّ رأسه.

- «ولكنْ لِم لا؟». أقول ضاحكةً.

- «كان بابا في الماء». يجيب الطفل.

أتجهّمُ وأطردُ من مُخيلَتي مشهد الأمواج المتلاطمة، بعد بضع مئاتٍ من الأمتار يلتقي الطريق الترابيّ بطريقٍ مُعَبَّدٍ، ويشكّلان منعطفاً حادّاً إلى اليسار يصعد في اتّجاه البرّ. تنتظرنا سارة عند الزاوية، وهي ترتدي الحذاء الأسْود الذي رأيته يطفو في القارب من قبْل، كان مقاسُ الحذاء أكبر من أنْ ترتديه، لذا بدتْ كما لو أنّها تخوض في المياه مع كلّ خطوة.

نمضي قُدُماً مارّينَ بآخر المزارع الصغيرة، إلى اليمين، تتشبّث مجموعاتٌ من الصنوبر بجُرفٍ صخريٍ شديد الانحدار، ويتلاشى النسيم الخفيف، ويخبو اندفاع الموج من البحر، بينما تعلو أصواتُ الجنادب ما إنْ نبدأ الصعود. يحلّ الظلامُ سريعاً، وفي الأعالي، وحْدها النجوم من

يحدِّد الخطَّ حيث ينتهي التلّ، ويبدأ اللّيل، فلا أضواء كهربائيّة في الأفق.

تكسر سارة الصمت، وتسأل إدريس ما الذي حدث لأمِّ الطفل مصطفى، يلتفت إدريس، ثمّ يتجهّم وجهه، ويقول لنا: إنَّ والدته وأفراد عائلتها جميعاً قُتِلوا في غارةٍ جويّةٍ واحدة.

أحبس أنفاسي.

- «أنا آسفة». تقول سارة.

- «لمْ يبق أحدٌ سوانا الآن». يقول إدريس قبْل أنْ يمضي مُسرعاً: «لو كنت وحْدي، كنت سأبقى في العراق. كانت لديّ وظيفةٌ جيّدةٌ، وكنت أحصل على ما يكفي من المال، لكنّ مصطفى في حاجةٍ إلى مستقبل».

نمشي بصمتٍ، ونجد الآخرين ينتظروننا عند مفترق طُرق، يلتوي طريقٌ أسفل التلّ إلى يميننا، بينما يلتفُّ الآخر بحدّةٍ إلى اليسار، ويتّجه إلى أعلى الجبل. ينظرُ ماجد وأيهم في هاتفيهما، كانت بطّاريّتا الهاتفين على وشْك النفاد. نظَرنا من حولنا، لا أضواء في الأفق إلى الآن. أنظُر إلى الوراء على الطريق الذي سلكناه في الحال، ومن مسافةٍ بعيدةٍ قليلاً أرى رَجُلَيْن ذوي بشرةٍ داكنةٍ يقتربان، كلاهما يحمل سترة نجاةٍ برتقاليّةً، وما إنْ مرَّا بنا، سألهما مهنّد أين يذهبان، يتجاهلاننا ويقولان شيئاً بلغةٍ لا نفهمها. انعطف الرجُلان يساراً، وابتعدا عن الجبل.

- «إذنْ، الجهة الصحيحة إلى اليسار». يقول مهنّد، ثمّ يبدأ السير.

أمّا أنا، فأتنهّد وأتبعه، بينما يضحك الآخرون بارتياح، كذلك يضحك الأخَوَان: أيهم وباسم، ويتندَّران حَول بنطال سارة الخشن.

- «أحسنت يا أيهم». يقول باسم ويضيف: «عندما نصل إلى ألمانيا يمكنك أن تبدأ حياةً جديدةً كخيّاط. ها هي سارة ترتدي أكثر صيحات الموضة إثارةً هذا الصيف: شورتها البحريّ التعِس».

بينما نتسلّق، يغدو رأسي فارغاً، وأتوقّف عن التفكير في البحر، أنا مرهقةٌ لدرجة أنّني لمْ أنتبه كم بلغَ منّي العطش، أريد أنْ أنام فقط، أُركّز على أنفاسي، وعلى الإبقاء على الوتيرة نفسها. أخطو خطواتٍ ثابتةً ومحسوبةً، نسير على الطريق المتعرّج تحت غطاء النجوم، وبعد ساعةٍ، أو نحو ذلك، تتناهى إلى مسمعي أصواتٌ خافتةٌ، وإذْ أستدير إلى الزاوية الأُخرى، أرى مجموعةً من الأضواء على التلّ أعلاه، إنّها القرية.

نسير على الطريق نحو الجانب الآخر لنرى مصدر الضوضاء، فنجد تجويفاً مفلطحاً على جانب الطريق، إنّه موقفٌ للحافلات، وقد خُصِّصَ هذه اللّيلة للتخييم المؤقّت. المئات من الناس إمّا مستلقون، وإمّا جالسون في مجموعاتٍ صغيرةٍ على الأرضيّة الإسمنتيّة، وبينما نعبُر من أمامهم، يحدِّق عددٌ قليلٌ منهم بنا، ويشيرون إلى أرداف سارة المهرولة، لكنّها لا تلقي لهم بالاً. شاهدتُ الرجُلين الفارسيّين اللّذَين تبعناهُما أعلى التلّة، كانا مستلقيَين جنباً إلى جنبٍ على حافّة الطريق بينما أسندا رأسيهما إلى سترات النجاة.

واصلنا المسير، ونحن نتضوّرُ جوعاً، ونتوقُ إلى الجلوس في مكانٍ ما كي نستريح، ونتناول الطعام. يتفرّع الطريق، وننعطف يميناً مارّينَ بطابورٍ من الناس يجلسون القرفصاء على طول جدارٍ حجريٍّ طويلٍ، ينحسر عدد الأشخاص في الطابور، بينما يتعرّج الطريق، ويقطع الجبل، وإلى اليمين، تنحدر الأرض بشدّةٍ وصولاً إلى الساحل حيث نزلنا، وفي اليسار تتربّعُ قريةٌ على المُنحدر.

أخيراً، عثرنا على ضالّتنا، إلى جهة اليمين توجد مصطبةٌ مزدحمةٌ تحدُّها عرائش الكرْمة، وعلى الجانب الآخر من الطريق يوجدُ مبنى متواضعٌ من دَوْرٍ واحدٍ، مكتوب فوق باب المبنى الكلمات التالية: «H Ρεματιά. Bar. Taverna».

إنّه مطعمٌ وبار، نصعدُ المصطبة الواحد تلْو الآخر، كنّا في حالة إرهاقٍ شديدٍ حالتْ دون إحصائنا لنظرات العائلات اليونانيّة التي تنهي وجباتها في تلك الّليلة الدافئة. جلس أفراد مجموعتنا المؤلّفة من عشرين شخصاً إلى بضع طاولاتٍ طويلةٍ ومنخفضةٍ في الركن الأبعد من المدخل، بينما جلستُ على مقعدٍ يطلُّ على الوادي الظليل، ومن فوقنا النجوم، وفي الأسفل نرى البحر الأزرق الداكن.

تُقبلُ امرأةٌ في منتصف العُمر، ذاتُ شعرٍ بنّيٍّ أجْعد، لتسجِّل طلباتنا مبتسمةً، تطلب سارة الماء والبطاطس المقليّة، وتتبع المرأة إلى الداخل للبحث عن مقبسٍ كهربائيٍّ لشحن هواتفنا. أنهضُ أنا أيضاً، وأتسلّق بِضعَ درجاتٍ لأجد دورة المياه، وحجرةً صغيرةً في الأعلى، أنيرُ المصباح المكشوف طاردةً الحشرات والبعوض طويل الساقين التي ترفرف حَول الجدران البيضاء، وأنظرُ في المرآة.

انسلخَ جلدُ كتفَيَّ بسبب سترة النجاة، وعلى زاوية حاجبي الأيسر، وحتّى خدّي، يمتدّ خدْشٌ أحمرُ طويلٌ، وتبدو كدمةٌ أرجوانيّةٌ ظاهرةٌ فوق صدغي الأيسر. كانت رقبتي كلّها حمراء منتفخة؛ بسبب مياه البحر المالحة. أشعر بالدوار، وأفتقد نظّارتي، أستندُ إلى المغسلة، وأغمض عينيَّ، فتتدافعُ الأمواج خلْف أجفاني، وينتابني شعورٌ بالغثيان، أفتح عينَيَّ، وأثبِّت نفسي، ثمّ آخذُ نفساً عميقاً.

أعود إلى الطاولة لأجد عدّة قوارير مياهٍ كبيرةٍ، أمسكُ واحدةً منها، وأشرب نصفها دفعةً واحدةً، تحضِرُ المرأةُ وعاءً من الخبز، والزيتون، والبطاطس المقليّة، فنأكل بصمتٍ، مثل الآلات، لقد سَلَبنا التعبُ الرغبةَ في التحدُّث. تعودُ المرأة لأخذ أطباقنا، فتنظر إليّ، ثم إلى سارة، وبعد ذلك تنظر إلى مصطفى، وتبتسم مرّةً أُخرى.

- «هل أنتم لاجئون؟». تسألنا.

تلك الكلمة، من الغريب أنْ نسمعها أخيراً بصوتٍ عالٍ.

تقول سارة: «لقد وصلنا حالاً على متْن قارب».

- «ألديكم مكانٌ تنامون فيه؟». تسألنا المرأة مجدّداً.

تهزُ سارة رأسها نافيةً.

- «اسلُكوا الطريق أسفل التلّ». تقول لنا المرأة: «هناك كنيسةٌ صغيرةٌ مفتوحةٌ، يمكنكم النوم بداخلها».

تنتاب سارة الدهشة، وتقول: «لكنّنا مسلمون».

ترفعُ المرأة حاجبَيها، وتضع يدها على ساعد سارة.

- «أتظنّين أنّ هذا يهمّني؟». تقول المرأة، وقد بدا عليها الانزعاج: «لنْ يضايقكم أحد».

تخبرنا المرأة أنه يجب علينا الذهاب إلى موقف الحافلات القريب صبيحة اليوم التالي، حيث يُسَيِّرُ بعض المتطوّعين حافلةً من هناك، تغادر الحافلة في السابعة صباحاً من كلّ يومٍ، وسوف تُقِلُّنا حيثما نشاء. تشكرُ سارة المرأة، وتسحب ورقتَين نقديَّتين صفراوين بقيمة خمسين يورو، يصيبُ المرأةَ الذهول بينما تأخذُ إحدى الورقتين وتختفي في الداخل.

- «ما اسمك؟». تسألُ سارة المرأة التي عادت مع الفكّة.

- «نيكي». تجيبُ المرأة: «وما اسمكِ أنتِ؟».

- «سارة». تجيبُها أختي، ثم تشير إليّ: «وهذه أُختي الصغيرة يُسرى. شكراً على المساعدة يا نيكي».

نُبطئ المسير، ونتقدّم بصعوبةٍ لمدّة عشر دقائق أسفل الطريق، وأخيراً نحطُّ رحالنا في كنيسةٍ بيضاء صغيرةٍ تتربَّع على أرضيّةٍ مرتفعةٍ

في سفْح الجبل. لمْ يكن حجْم الكنيسة أكبر من إسطبلٍ، وقد انتصب صليبٌ حديديٌّ عند طَرفَيْ سقف البلاط المائل. يقعُ بابُ الكنيسة على الجانب الآخر للطريق، أحاول فتْحه، فأجده يتأرجح مفتوحاً. تنظرُ المرأةُ الصوماليّة حَولها بارتباك، هي تُغطّي رأسها بحجابٍ، ولا يمكنها النوم في غرفةٍ مع رجالٍ ليسوا أقرباء لها.

يتولّى مهنّد المسؤوليّة، ويخبرني أنْ ننام في الداخل: أنا، وسارة، ومصطفى، والمرأة الصوماليّة، ويقول مهنّد: إنّ الرجال سوف ينامون على الطاولة والمقاعد الحجريّة الطويلة المقابلة لأحجار الرصيف إلى يسار الباب. الجوّ باردٌ جدّاً، وكُنّا جميعاً لا نزالُ مبلّلين بمياه البحر، أشعر بالأسى لحال الآخرين، ولكنْ ما باليد من حيلة.

- «لمن هذا الحذاء؟». تسأل سارة بينما تخلع حذاءها الأسْود.

- «إنّه لي». يجيبُ إدريس، ثمّ يتقدّم واضعاً يده بيدِ سارة، ويرفعها، ثم يضعها على خدّه: «يمكنكِ الاحتفاظ بالحذاء بعد ما بذلتِه من جُهد».

- «لا تقل هذا، نحن عائلةٌ واحدةٌ الآن». تقول سارة.

أدفع الباب الخشبيّ، وأخطو داخل الكنيسة الصغيرة. كان مصدر الضوء الوحيد في الكنيسة يأتي من ثلاث شموعٍ مثبّتةٍ في الرمل فوق حاملٍ معدنيٍّ أسْود في إحدى الزوايا. ألقت الشموع بظلالها الخافتة على الجدران الحجريّة، أُحدِّقُ في الصور الذهبيّة والبنّيّة المعلّقة على الجدران، في إحدى الصورتين أمٌّ تحمل طفلها، وفي الأُخرى ثلاثة رجالٍ بوجوهٍ منبسطةٍ تحيطُ برؤوسهم الهالات.

يتكوَّرُ مصطفى على سجّادةٍ قديمةٍ مزخرفةٍ مقابل الحائط البعيد، بينما تخلعُ المرأة الصوماليّة غطاء رأسها لاستعماله كوسادة. أستلقي بجانب سارة ظَهْراً لظَهرٍ من أجل الدفء، وأشعرُ بها ترتجف.

أُغمِض عينيَّ، وأرى الأمواجَ تتلاطمُ في مخيّلتي، وترتفعُ الأمواجُ مراراً وتكراراً، وأشعر كما لو أنّها ترفعني، ثمّ تبتلعني؛ ما أزال في البحر. أستلقي على ظهري، وأفتح عينَيَّ لأتخلّص من هذا الشعور، ثمَّ أعاودُ إغلاقهما، فأرى سلاسل من الأضواء البيضاء الضبابيّة تتراقص على الشاطئ، وعندها تُشرِقُ ابتسامةٌ عريضةٌ على مُحيًّا مصطفى.

الجزء الخامس

الفخّ

12

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

عيناي ترمشان، أشعرُ بوخْزٍ في عضلاتي، بينما أنقلب على جانبي، يجلُس مصطفى الصغير في مكانٍ قريبٍ على أرضيّة الكنيسة، وينظر نحْوي، أقف وأثبّت نفسي على الجدار المطليّ بالكلْس، لقد نجحنا في اجتياز الحدود والبحر، نحن في أوروبّا الآن أحياءَ نُرزَق.

يَصِرُّ البابُ الخشبيّ بينما أفتحُه، أخرج وأغمضُ عينيَّ متحاشيةً الضوء، كانت الشمس قد أشرقت بالفعل، يجب أنْ نلحقَ بالحافلة. يقفُ ماجد في الجوار متأمّلاً هاتفه، يقول: إنّنا قرب قريةٍ تسمى سيكامينيا، يلفظ الكلمة مقطَعاً مقطَعاً، ويقرأ بعنايةٍ من الشاشة. أنظرُ من خلْف كتفه إلى الخريطة، نحن على الشاطئ الشماليّ لجزيرةٍ تدعى ليسبوس. إنّها رحلةٌ ليومٍ كاملٍ جنوباً من هنا إلى ميتيليني، عاصمة الجزيرة. يجب على الوافدين الجُدد جميعهم الذهاب إلى هناك لتسجيل أسمائهم لدى السُّلطات، وشراء تذكرة عبّارةٍ لرحلة الذهاب إلى البرّ الرئيس في اليونان.

لسنا وحْدنا القادمين الجُدد، فطيلة سنوات، شهد سكّان الجُزر توافد السوريّين وغيرهم ممّن حطّوا رحالهم هنا على متْن قوارب المهرّبين من تركيا، لكنّ الوضع مختلفٌ هذا الصيف؛ لمْ يكن أحدٌ يتوقّع وصول الكثير منّا، ففي آب/ أغسطس من العام 2015 وحْده، وهو الشهر الذي وصلنا

فيه، وصل أكثر من ثمانين ألفاً من الوافدين الجُدد عن طريق البحر إلى هذه الجُزر. تناضل السُّلطات اليونانيّة للتكيُّف مع هذه الظاهرة، وتعتمد بشدّة على دعم المتطوّعين، أهل ليسبوس ليسوا أثرياء، ولكنّ السكّان المحليّين كرماء. يخرجُ الصيّادون بقواربهم إلى البحر في مهامّ إنقاذٍ عفويّةٍ، بينما يتبرّع آخرون بالطعام، والأدوية، والملابس، حتّى إنّهم يفتحون منازلهم لأولئك الباحثين عن مأوى.

أُدخِلُ كفَيَّ في النافورة القديمة قبالة باب الكنيسة، وأرشُّ الماء البارد على وجهي المتورّم، ورقبتي التي انسلخ جِلدها، ثمّ أرجع إلى الآخرين. كان باسم وشقيقه أيهم قد استيقظا ويستعدّان للمغادرة. تخرجُ سارة من الكنيسة بينما أكتمُ ضحكة.

- «يا إلهي! ما الذي حدث لكِ؟». أقول لسارة.

بدا وجه سارة مجمرّاً تغطّيهِ خدوشٌ وكدماتٌ زرقاء، وقد خرج شعرها من رباطه، والتصق حَول رأسها، وكان بنطالها مبقّعاً ببقع الملح البيضاء الجافّة.

- «اخرسي». تقول سارة التي غلبها النعاس: «ينبغي أنْ تنظري إلى شكلكِ أوّلاً».

يقود ماجد المجموعة على طول الطريق بجانب المطعم الذي توقّفنا عنده الّليلة الفائتة نحو موقف السيّارات للعثور على الحافلة، ننعطف عند الزاوية، ونتسمَّرُ كلٌّ في مكانه. يا لها من فوضى!

كان هناك حشدٌ من الناس يتدافعون بقوّةٍ أملاً في الوصول إلى حافلةٍ صغيرة. كانت هذه الحافلة وسيلة النقل الوحيدة التي يديرها المتطوّعون، والتي ستغادر القرية اليوم؛ لذا أراد الجميع أنْ يغتنموا الفرصة. أتفحَّصُ الحشد، فأرى امرأةً شقراء ترتدي سترة عمّالٍ، وتقف بباب الحافلة، يبدو

أنّها مسؤولة. تتقدّم سارة، وتخبر المرأة أنّنا نريد الذهاب إلى ميتيليني، وتسألها إنْ كان بإمكاننا ركوب الحافلة.

- «أليس لديك ختم؟». تقول المرأة الشقراء، وتشير إلى باطن يد سارة.

تهزُ سارة رأسها نافيةً، بينما تشير المرأة إلى الحشد، وتقول: إنّ الآخرين أمضوا أيّاماً هنا، وهُم يتحيّنون الفرصة لركوب الحافلة، ويشيرُ ختْم الحبْر على أيديهم إلى ترتيبهم في طابور الانتظار. أُطلِقُ تنهيدةً يائسةً؛ فجميعنا مرهَقون، وفي حاجةٍ إلى الاستحمام والنوم، ولمْ يكن أحدٌ منّا على استعدادٍ لأنْ يمشي خمسة وأربعين كيلومتراً إلى ميتيليني. قد لا نصلّ إلى وجهتنا بحلول الظلام، ما يعني قضاءنا ليلةً أُخرى في العراء. أرتعشُ لمجرّد الفكرة، فتشفقُ المرأةِ علينا، وتخبرنا أنْ نسير لمسافةٍ أبعد وصولاً إلى بلدةٍ تسمّى مانتامادوس؛ لأنّ حافلةً أُخرى سوف تغادر من هناك منتصفَ النهار. كان عدد الواصلين إلى هناك أقلّ، ما يعني فرصةً أفضل لنا لنستقلَّ الحافلة.

يجد ماجد البلدة على الخريطة، إنّها تبعد عن مكاننا مسافة ثلاث ساعاتٍ سيْراً على الأقدام، يخورُ فؤادي، وتهدرُ معدتي، وأتألّم وأتضوَّر جوعاً، وما زال ملح مياه البحر يكسو جسمي، لكنْ لا خيار لديّ، علينا المُضيّ قُدماً. نتبع ماجد عبْرَ الطريق الجبليّ المتعرّج، بينما يتشبَّث صفّ أشجار الزيتون بالمنحدر الصخريّ إلى اليمين. وفي جهة اليسار ينحدر الوادي الجافّ صَوب البحر المتلألئ، يُشعِرني مشهَدُه بالدوار. أتحاشى النظر إلى الوادي، وأُركّز عوضاً عن ذلك على الأرض الملتهبة أسفلَ قدمَيّ. كانت الشمس قد توسّطت السماء في الوقت الذي أصبحت فيه الأمور على ما يرام، رأينا مجموعةً من أسطح المنازل القرميديّة أسفل الوادي؛ حيث ارتفعَ برجُ الكنيسة الورديّ الغامق بين المباني.

- «هذا هو المكان المقصود». يقول ماجد، وهو يراجع هاتفه: «مانت-١-ما-دوس».

يلتحمُ الطريق مع المنحدر، ويلتفُّ بانحدارٍ شديدٍ عبْر البلدة، نصعدُ التلّ وصولاً إلى موقف الحافلات، فيخبرنا حشدٌ من السوريّين والأفغان المنتظرين أنّنا في المكان الصحيح. نحطُّ رحالنا بجانبهم تحت أشعّة الشمس في انتظار الحافلة، ومن بين أسطح المنازل، يدقُّ جرس الكنيسة مُعلناً الوقت: الحادية عشرة والنصف، وبعد بضع دقائق، تصارعُ سارة للنهوض على قدميها، وتقول: إنّها ستذهب للبحث عن بنطالٍ جديدٍ، وتمدُّ يدها لتسحبني، أتبعها في طريقٍ جانبيٍّ وصولاً إلى متْجر ملابسَ صغيرٍ مُظلم. كانت هناك امرأةٌ تنظرُ من الخلف عندما دخلنا المتْجر.

- «ياسّ». تقول المرأة مبتسمةً.

تبتسم سارة، وتشير إلى بنطالها الممزّق حَول فخذها. ترفعُ المرأة حاجبيها، ثمّ تستدير ذاهبةً إلى المخزن، لتعود ومعها بنطالٌ رياضيٌّ أسْودُ وتعطيه لسارة. تشكرُ سارة المرأة، وتعطيها ورقةً نقديّةً كبيرةً ورديّة اللّون من فئة الخمسمئة يورو، تنظرُ المرأة إلى الورقة النقديّة بذهول، فهذه أشبه بثروةٍ صغيرة.

- «خمسمئة!». تقول المرأة، وتشير إلى الرقم في الزاوية العليا من الورقة النقديّة - خمسمئة يورو.

- «آسفة». تقول سارة: «هل المبلغ كبير؟».

تتنهّدُ المرأة، وتطلبُ إلينا أنْ ننتظر، ثمّ تأخذ الورقة النقديّة من سارة، وتغادر المتْجر، ولا تلبث أنْ تعود ومعها رزمةٌ من الأوراق النقديّة الصفراء، وتشرعُ في عدّها ببطءٍ على الطاولة، عندها يظهر ابن عمّنا واقفاً بباب المحلّ.

- «وصلت الحافلة». يقول.

تُمسكُ سارة الأوراق النقديّة، وبنطالها الجديد، وننفعُ خارج المتْجر، وحين نصل إلى موقف الحافلات نجدُ حافلةً صغيرةً قديمةً لونها أزرق داكن. كان محرّك الحافلة يدور مُحدِثاً ضجّةً، بينما كان الآخرون يحتشدون حَول بابها، وعلى رأس الحشد يقف أحدُ المتطوّعين ويصرخ:

- «العائلات أوّلاً». ثمَّ يشير إلى مصطفى، ويسأل قائلاً: «أين أمُّ هذا الطفل؟».

تنتهزُ سارة الفرصة، وترتفع يدها.

- «أنا هنا». تقول سارة، ثمّ تشير نحوي مع بقيّة الرفاق: «إنّها أختي، وهؤلاء أقاربي».

يقوم المتطوّع بخَتم الجزء الخلفيّ من أيدينا بالحبر في أثناء صعودنا على متْن الحافلة. أتساءل: من يهتمّ إذا لمْ نكن حقّاً مرتبطين بقرابة الدم؟ نحن نشعر كأنّنا أفراد عائلةٍ واحدةٍ بعد ما كابدناه كلّه. أُسندُ رأسي إلى نافذة الحافلة الصغيرة، وأتفرّج بينما نتحرّك جنوبًا عبْر الجزيرة صعوداً وهبوطاً على الطريق الساحليّ، وبعد ساعةٍ ننزل في موقفٍ كبيرٍ للسيّارات خارج الميناء في مدينة ميتيليني. ألتفِتُ حَولي، فأرى مئات الأشخاص يخيّمون على الطريق الإسمنتيّة، والكثير منهم ينتظرون تسجيل أسمائهم لدى السُّلطات، فيما كان بعضهم الآخر قد سجلّوا أسماءهم مسبقاً، وينتظرون شراء تذكرة عبّارةٍ تُقِلُّهم إلى البرّ. يمتدُّ طابورٌ غير منضبطٍ وصولاً إلى مبنى هيئة الميناء المتهدّم؛ حيث تجري عمليّات التسجيل، فنستريحُ للانتظار على الطريق الإسفلتيّة. لقد مرّت عدّة ساعاتٍ قبْل أنْ ندخل المبنى. يلتقط رجُلٌ ببزّةٍ رسميّةٍ صورةً لنا، ثمّ يسأل باللّغة الإنجليزيّة: من أين نحن، وإلى أين نحن ذاهبون، وتتكفّل سارة بالترجمة.

- «إلى ألمانيا». تجيبُ سارة بحزم: «سنجد صديقتي هالة في هانوفر».

يخبرنا المسؤول بأنّ علينا مراجعة المكتب بعد يومين للحصول على تصريح إقامةٍ مؤقّتة. هناك اتفاقيّةٌ في الاتّحاد الأوروبيّ تنصُّ على وجوب تقديم طلبٍ للُّجوء في أوّل بلدٍ نَدخله. في الأحوال العاديّة، يُسمح للدول الأوروبيّة الأُخرى بإعادة الأشخاص للتقدّم بطلبٍ للُّجوء إلى حدود الاتّحاد الأوروبيّ، لكنْ هذه ليست أحوالاً عاديّةً، ولا أحد يعيدُ طالبي الّلجوء إلى اليونان في الوقت الحاليّ، فالبلاد غارقةٌ باللّاجئين، وعلى أيّ حال، نحن لا نريد البقاء في اليونان، بلْ نخطّط للوصول إلى ألمانيا. لكنّنا لنْ نستطيع شراء تذاكِر العبَّارةِ قبْل أنْ تكون لدينا أوراقٌ رسميّةٌ، عندها فقط يمكننا الذهاب إلى البرّ اليونانيّ، ومن الناحية العمليّة، تُعدّ هذه الأوراق، وهي تصاريح الإقامة، بمنزلة إذنٍ قانونيٍّ يسمح لنا بالمضيّ نحو أوروبّا.

نجُرُّ أقدامنا متثاقلين تحتَ أشعّة الشمس الساطعة، ونتفحّص الحشد، ما زلنا في مجموعتنا الأساسيّة التي انطلقت من دمشق: مهنّد، والفتى الأشقر، وأبناء عمّنا: ماجد، ونبيه، وكذلك الأَخوان: أيهم وباسم، لكنّنا أضعنا إدريس، وابنه مصطفى، والآخرين الذين كانوا على متْن القارب في مكانٍ ما في الطابور. أتلفَّت حَولي، نحتاج إلى الاستحمام، وإلى مكانٍ نستريح فيه لاستيعاب محنة الّليلة الفائتة. يتطوّع باسم وسارة للبحث عن فندقٍ، ونتبعهم إلى جانب موقف السيّارات. كان هناك بشرٌ في كلّ مكانٍ، حتّى إنّ بعضهم نصبوا خياماً على الطريق الإسفلتيّة. لا تزال شمس آخرِ النهار تسوطنا بأشعّتها، نجد بقعةً نتفيّأ بظلّها بينما يتجوّل باسم وسارة في البلدة ليعودا بعد ساعةٍ، وتبدو سارة كما لو أنّها كانت تبكي.

تقول سارة، وهي تنهارُ على الدرج بجواري: «لنْ يسمح لنا أيٌّ من الفنادق بالإقامة لأنّنا سوريّون».

- «جميعهم يريدون رؤية أوراق التسجيل أوّلاً». يقول باسم، وهو يسقط بجانب سارة: «أوراق، أوراق، أوراق، لقد جرَّبنا فنادق المدينة برمّتها».

يمرُّ بنا رجلٌ يرتدي بدلة عمّالٍ، أنهض وألوّح له سائلةً عن مكانٍ يمكننا النوم فيه، فيخبرنا الرجُل أنَّه يتعيّن علينا الذهاب إلى مخيّمٍ مؤقّتٍ أُنشئ لطالبي الّلجوء. يشير الرجُل إلى مكانٍ قريبٍ تنطلق منه حافلةٌ مجّانيّةٌ، وبينما كنّا نجمعُ قِوانا للنهوض سمعنا صوتاً مألوفاً.

- يُسرى، سارة! أنتما على قيد الحياة، الحمد لله.

ننظرُ وإذا بزاهر، والد الطفل الذي التقيته في مخيّم المهرّبين، يمشي نحونا فاتحاً ذراعيه، وترتسم ابتسامةٌ عريضةٌ على وجهه ذي الجبين الواسع، والذقن الضيّق.

- «الحمد لله». يقول زاهر، ويقبِّل كلّ واحدٍ منّا عدّة مرّاتٍ على الخدَّين.

- «اللّيلة الفائتة كنّا نظنّ... كنّا نظنّ أنكم أخفقتم في اجتياز البحر». يضيف زاهر.

لا يريدنا زاهر أنْ نعود إلى المخيّم للنوم؛ لأنّه سمِع أنّ المخيَّم مكتظٌّ بالفعل، لدرجة أنّ الناس يفترشون الأرض، ويطلب إلينا أنْ نأتي معه إلى حديقةٍ قريبةٍ؛ حيث كان ينام في العراء مع عائلته والآخرين من مخيَّم المهرّبين، وهُم يستعملون الحمَّامات في شاطئٍ خاصٍّ قريب. أنظر إلى سارة، وأهزُ كَتِفَيَّ، سيكون من الجيّد أنْ نكون بين الأصدقاء، ويبدو أنّ النوم على الأرض هو خيارنا الوحيد في هذه الجزيرة المزدحمة. يعرض زاهر أن يُرينا متْجراً قريباً؛ حيث يمكننا شراء أكياس النوم. نتبعه خارج موقف سيّارات الميناء عبْر الطريق، ونعطف يميناً عند الزاوية. يُطالعنا

مرفأٌ كبيرٌ من أمامنا مُشكِّلاً ثلاث زوايا من مربّع، وفي الوسط، تحتضن أمواجُ البحر الخضراء الوادعة جدار الميناء بلُطف.

يقول زاهر، وهو يلتفت إلى مهنّد: «لقد رأينا المنشور على فيسبوك اللّيلة الفائتة حَول قاربكم، واتّصلنا بالشرطة اليونانيّة لمساعدتكم... لكنْ عندما لمْ تأتوا... حسناً، خشينا الأسوأ».

تتشنَّج أمعائي حين أستعيد صرخات أيهم اليائسة من القارب في ذاكرتي. تُطرِقُ مجموعتنا أنظارها في الأرض، وتسير بصمتٍ، ولا أحد منّا على استعدادٍ للحديث حَول رحلة العبور حتّى الآن، يتوقّف زاهر عند متْجرٍ مفتوحٍ على واجهة الميناء، ويتدلّى من المظلّة فوق واجهة المتْجر مزيجٌ غريبٌ من الهدايا التذكاريّة الرديئة، ومعدّات التخييم. يشتري كلٌّ منّا كيساً للنوم، ثمّ يقودنا زاهر عائدين عبْر الميناء، ونخرج في اتّجاه طرف البلدة. إلى اليمين، على امتداد الخطّ الساحليّ، أشاهدُ تمثالاً برونزيّاً مثبتاً على قاعدةٍ حجريّةٍ، وكانت هناك امرأةٌ ترتدي فستاناً طويلاً فضفاضاً، وهي تخطو خطوةً واحدةً نحو البحر رافِعةً شعلةً مُتَّقِدةً بيدها اليمنى.

- «مهلاً، أليس هذا تمثال الحرّيّة؟». أقول.

يقول أيهم مبتسماً: «نعم، يبدو أنّ هذا القارب قد أوصلنا إلى مكانٍ أبعد ممّا كنّا نظنّ».

أخبط ذراع أيهم قائلةً: «يا إلهي! هل كانت تلك نُكتة؟».

يلتفُّ الطريق في مكانٍ قريبٍ، لنجد أنفسنا وجهاً لوجهٍ أمام العديد من الكلاب الجرباء ذات الشعر الطويل، وكانت الكلاب تحكُّ أجسادها، وتسترخي بكسلٍ على أرض الإسفلت الملتهبة، وإلى جهة اليمين امتدَّ سورٌ حديديٌّ صدِئٌ على طول أحد الجدران، وصولاً إلى بابٍ دوّارٍ عليه لافتةٌ تقول: «شاطئ تساماكيا»، وخلْف البوّابة تمتدّ طبقةٌ من الرمال

الرقيقة بجانب البحر، وعلى الطرف الآخر من الطريق يرتفع منحدرٌ عشبيٌّ تحت غابة صنوبرٍ مبعثرةٍ، كان أفراد العائلات والمجموعات الصغيرة إمّا يفترشون العشب، وإمّا يتجوّلون في المكان، أو نائمين في الظلّ. حالهم حالُنا، كانوا ينتظرون أوراقهم ليتمكّنوا من الانتقال إلى البرّ، ومواصلة رحلاتهم شمالاً إلى أوروبّا. نسير وراء زاهر لنصعد بعض الدرجات المتقاربة، كانت الملابس، والقمامة، والبطّانيّات متناثرةً فوق العشب على جانبَيّ الطريق، وفي الأعلى، ينتهي الدَرج إلى موقف سيّاراتٍ مغبرٍّ، وهناك ملعبٌ صغيرٌ للأطفال يحدُّه حائطٌ منخفضٌ من الطوب.

- «انظروا من وجدت». يقول زاهر مبتسماً، بينما نقترب.

يلتفتُ حشدٌ من الوجوه المألوفة، كانت مجموعة مخيَّم المهرِّبين موجودةً بأكملها في المكان. كانت المرأة الأكبر سنّاً، «ماما»، تجلس على الأرض بجوار زلاَّقةٍ تغطّيها رسومات الغرافيتي، بينما ترقدُ الصغيرة قمر في حضنها بسلام. تُشرقُ ابتسامةٌ عريضةٌ على مُحيًّا «ماما».

- «الحمد لله». تقول «ماما»، وهي تُمرّرُ الصغيرة إلى زاهر، وتستجمع قواها للنهوض: «الحمد لله على سلامتكم». تقول «ماما».

تعانقني أنا وسارة عناقاً حميماً، بينما تنتظرُ أمّ مقتدى وطفلاها في الخلْف فاتحةً ذراعيها لاحتضاننا.

- «اعتقدنا أنّكم...». تقول أمّ مقتدى، وهي تُمسكني بقوّةٍ، بينما تتقدّم الفتاة اللّبنانيّة كوكو، وتُقَبّلني على الخدّيْن؛ أمّا أحمد، اللّاذقانيّ الذي يسافر مع صديقه وشقيقتيه، فيصافح الرجال بحفاوة. كانت لحظاتٍ مؤثّرةً، فعلى الرغم من أنّنا أمضينا وقتاً قصيراً معاً، إلّا أنّ هؤلاء الناس يعدّوننا عائلةً واحدة.

- «يا إلهي! أنا في حاجةٍ إلى حَمّامٍ على نحوٍ عاجل». تقول سارة بمجرّد انتهاء العناق والتحيّة.

تعرضُ كوكو أنْ ترشدنا إلى المبنى الذي يحوي الحمَّامات، فنتبعها مرّةً أُخرى أسفل المنحدر، وصولاً إلى الباب الدوّار الصدئ. تشيرُ كوكو عبْر السور إلى مبنى في الخلْف، ما علينا فعلهُ كلّه فقط هو الدخول والقول: إنّنا نريد السباحة، وهي مجّاناً. تُخرِجُ كوكو علبة شامبو من حقيبتها، وتعطيها لنا، أبتسم وأشكرها، ثمّ أفتح البوّابة الصدئة. هذه هي المرّة الأولى التي أستحمُّ فيها منذ أنْ كنت في إسطنبول قبل خمسة أيّام. يسيل الماء أسْوَد، أقف بلا حراكٍ لمدّة عشرين دقيقة، وأُحدِّق في البلاط، وأترك الماء يتساقط على رقبتي. في الخارج، كانت سارة، وكوكو، وابن عمّي نبيه، وإخوته: أيهم، وباسم ينتظرونني عند الباب الدوَّار. تعودُ بنا كوكو إلى جانب الميناء، ثمّ عبْر متاهةٍ من الشوارع الخلفيّة، تتوقّف خارج مطعمٍ أمامه طاولاتٌ بيضاءُ تؤدّي إلى الشارع، وعلى لوحةٍ فوق باب المطعم عُلِّقت كلمة «داماس»، وتعني دمشق.

– «نحن في المكان الصحيح إذنْ». تقول سارة مبتسمة.

كان المطعم ممتلئاً بالسوريّين الذي يتناولون الطعام، أو يتحدّثون بصوتٍ عالٍ، أو يتنقّلون عبْر الهواتف التي تُشحَن على مجموعاتٍ متشابكةٍ من مقابس الكهرباء الموضوعة على الطاولات. أسمعُ صراخاً عالياً من الجزء الخلفيّ من المطعم، ثمّ ألتفتُ، وإذْ بي أرى مصطفى جالساً مع والده إدريس، وحين رآني، أسقط الصغيرُ شوكته، وركضَ نحوي واضعاً ذراعيه حَول خصْري.

يقول إدريس، وهو يبتسم: «ها هُم أبطالنا السبّاحون».

يلتفتُ الزبائنُ من حَولنا، ويلكزون بعضهم مشيرين نحونا، وسرعان ما راح الجميع ينظرون إلينا مبتسمين ومتهامِسين.

– «ما الذي يحدُث؟». أهمس لسارة.

- لا أدري، أظنُّ أنّهم سمعوا بما حدث.

تتلألأ الأمواج، وتزحفُ من جديد، فتتشنَّج أمعائي.

يقول أيهم، وهو يلكِزُني: «يبدو أنّكِ مشهورةٌ في اليونان الآن أيضاً».

- «اُصمُت». أجيبُه بينما يتوردُّ خَدَّاي.

نأخذُ أطباق اللّحم والأرزّ، ونخرجُ إلى الطاولات على الشرفة، فنتناول طعامنا بصمتٍ مطبقٍ لبضع دقائق، ثمّ وبين اللّقيمات، نخبر إدريس عن مكان تخييم زاهر في الحديقة، ويوافق على الانضمام إلينا، فيبتسم مصطفى، ويضرب بقبضتيه على الطاولة. نفرغُ من الأكل، ونتجوَّل في أرجاء المدينة، وحول الميناء، وأعلى التلّ، إلى المخيَّم الواقع في ملعب الأطفال. كان الطريق مرصوفاً بمئات الواصلين الجُدد الذين افترشوا الأرض في العراء في هذه اللّيلة الصيفيّة. أندسُّ في كيس نومي الجديد بين كوكو وسارة، وأستلقي مستيقظةً أستمع إلى جوقة الكلاب التي تنبح، وإلى صدى الموسيقا من الحانات والبارات. تتردّد أصوات حشرات الزّيز بين الأشجار، كذلك أسمع أصوات فرقعات الدرّاجات الناريّة في الشوارع، فأُغمِض عينيَّ، وأشعر بالأمان لأوّل مرّةٍ منذ أيّام. من الجيّد أنْ أعاود اللّقاء بـ«ماما» وقمر، هذا ما قلتُه في نفسي قبْل أنْ يغلبني النعاس؛ المرأة الكبيرة، والطفل الصغير سوف يحميانِنا.

صبيحة اليوم التالي يناقش زاهر وماجد خطوتنا التالية، كان زاهر والآخرين قد وصلوا قبلنا، لذلك فقد سبقونا في عمليّة التسجيل، وكان من المقرّر أنْ يحصلوا على أوراقهم في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، لكنّ أوراقنا لنْ تكون جاهزةً حتّى اليوم التالي. يقول زاهر: إنّهم سوف ينتظرون حصولنا على الأوراق كي يتسنّى لنا متابعة الطريق معاً. منحني كرمُهُم هذا شعوراً بالراحة، أنا سعيدةٌ للسفر مع مجموعةٍ أكبر، فإحدى

مزايا السفر الجماعيّ هي الشعور بالأمان أكثر. يلتفت ماجد نحوي، كان لدينا بعض الوقت لنقضيه، لذلك فقد عَرَضَ عليَّ شراء نظّاراتٍ عوضاً عن تلك التي فقدتها. أتبعه لنذهب إلى جوار الميناء، مروراً بالحانات، والمخابز، والمتاجر السياحيّة في الشوارع الخلفيّة المتعرّجة، وأخيراً، نعثر على مختصّ بصريّاتٍ، لكنّه يقول: إنّ الأمر سيستغرق أسبوعاً على الأقلّ لتحضير الوصفة الطبّيّة الخاصّة بنظّارتي، لا يمكننا الانتظار هنا هذه المدّة كلّها، وهذا يعني أنّني سوف أُضطرُّ إلى الاستغناء عنها. أشعر بالانزعاج، أسبوعاً كاملاً؟! كان الأمر سيستغرق يوماً واحداً في سوريا. نعودُ إلى الميناء، وفي طريقنا، ندخل إلى موقف السيّارات. بدا لنا أنّ الحشد أكبر ممّا كان عليه في اليوم السابق، نرى زاهر وعائلته يخرجون من وسطِ الزحام، فيبتسم زاهر، ويلوّح بقطعةٍ من الورق في الهواء، ثمّ يشير إلى حشدٍ ضخمٍ على الجانب الآخر من موقف السيّارات، كان يقصد طابور الحصول على تذاكر العبَّارات إلى البرّ. يصيبني الذهول؛ إذْ يبدو هذا الطابور بطولِ طابور التسجيل.

في اليوم التالي، وبعد انتظارٍ طويلٍ على الطريق الملتهبة، نتمكّن من الحصول على أوراق تسجيلنا. أمعِنُ النظر في الحروف اليونانيّة الغريبة على الورقة، وأتساءل عن معناها، ما نعرفه كلّه هو أنّ هذه الحروف تعني أنَّ بإمكاننا الخروج من الجزيرة. نأخذ أماكننا في الطابور الآخر للحصول على تذكرة العبَّارة على الفور، وبعد ساعاتٍ قليلةٍ نتمكّن أخيراً من شراء تذاكر لعبَّارةٍ ستغادر مساء اليوم التالي. أخيراً، وبعد التخييم لليلةٍ أُخرى في الملعب، تحتشد مجموعتنا بالكامل على متْن العبَّارة المتّجهة إلى العاصمة اليونانيّة أثينا. كانت مسافة الرحلة ثلاثمئة كيلو متر، وستستغرقُ إحدى عشرة ساعة. كانت العبَّارة تغصُّ بالمسافرين لدرجة أنّنا اضطُررنا

إلى النوم على الطاولات في المقصف الموجود في الدّور العلوي. أُمضي الّليل في صراعٍ مع نوبات الغثيان، وأحاول تجاهلِ حركة البحر أسفلَ مِنَّا، وفي وقتٍ مبكّرٍ من صباح اليوم التالي نصل إلى بيرايوس، وهو ميناءٌ صناعيٌّ كبيرٌ بالقرب من أثينا. لا نتوقّف، بلْ نتبع الحشود مارِّينَ بالآلّيات الصدئة على طول رصيف الميناء. لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ قبْل أنْ نصادف جمعاً من بائعي البطاقات بالتهريب.

– «أين تريدون الذهاب؟». يقول أحدهم باللّغة العربيّة بينما نمرُّ بالقرب منهم.

– «إلى ألمانيا». يردُّ ابن عمّي ماجد قائلاً.

يضحكُ المهرّب، الجميع يتّجه شمالاً، إلى ألمانيا، أو السويد. يقول المهرّب: إنّ الحافلة التالية ستغادرُ في منتصف الّليل، لكنّها لن تُقِلّنا أبعدَ من الحدود التالية، ومن هناك نَعبرُ إلى مقدونيا، وهي دولةٌ صغيرةٌ تقع على طول الطريق من اليونان إلى هنغاريا. قليلون منّا سمعوا بمقدونيا من قبْل، لكنْ ماجد أبرم صفقةً مع المهرّب، وصعدنا جميعاً على متْن إحدى الحافلات، نسافر طيلةَ الّليل، ونعبرُ البرّ الرئيس لليونان على بُعد 500 كيلومتر شمالاً إلى الحدود المقدونيّة. غَمرتني السعادة؛ إذْ لم نكن مضطّرين إلى قطع هذه المسافة سيْراً على الأقدام، ننزل من الحافلة بُعيدَ الفجر على جانب طرِيقٍ بجوار فندقٍ مهجورٍ، وتصلُ ثلاث حافلاتٍ أُخرى إلى المكان في التوقيت ذاته، فتتدفّق الحشود خارج الحافلات، وتبدأ بشقّ طريقها المدروس عبْر الحقول في خطٍّ طويلٍ مُلتوٍ.

– «نعم، هذا صحيح». يقول ماجد، وهو ينظر إلى هاتفه، ويحاول معرفة الأسماء: «إيدوميني، غيفغيليا، الحدود هناك، هذا هو الطريق إلى مسار القطار الذي يؤدّي إلى نقطة العبور».

- «لا أمزح، لمْ أكن لأُخمِّن هذا أبداً». يقول مهنّد مُلوِّحاً بيده صوبَ الحشود.

نضحك أنا ونبيه، لمْ ينتبه ماجد إلينا، فقد كانَ غارقاً في الشاشة. نتبعُ الحشود عبرَ العشب الطويل إلى أنْ نصل إلى مسار القطار، لقد وصلنا، ها هي الحدود بين اليونان ومقدونيا. يجلس حشدٌ غفيرٌ من الناس على مسار القطار منتظرين تحت أشعّة الشمس للعبور. كان الجوّ مشحوناً، وفي الأمام، كانت هناك مجموعةٌ من الشرطة تغلق طريقنا، نجلس منتظرين في مؤخّرة الحشد، ألتهِمُ إصبع شوكولاتة، ثمّ أختفي في الغابة بجانب مسار القطار لتغيير ملابسي، وبعد نصف ساعةٍ نسمعُ ضجيجاً في مقدّمة الحشد، بينما تسمح الشرطة لقرابة خمسين شخصاً بعبور الحدود، فننهض، وننضمّ إلى الحشد الذي اندفع إلى الأمام كالسيل. كنّا نصرخ ونتدافع. يُطيحُ بي رجُلٌ سودانيٌّ، ويدفعني بقوّةٍ إلى الخلْف، إلى ابن عمّي نبيه، فيتقدّم نبيه ليدفع الرجُل إلى الخلْف.

- «لقد حاولتَ الدخول في غير مكانها». يقولَ الرجُل مُشيراً إليّ.

يتّجهُ الأَخوان: باسم، وأيهم نحو الرجُل.

- «كلّا، لمْ تحاول ذلك». يقول أيهم: «أنت من دفعها».

- «جميعكم تدفعوننا». قال أحد الرجال مشيراً إلى مجموعتنا، وهو يقترب نحو أيهم.

وسُرعان ما تطوّر الجدال إلى مبارزةٍ في التدافع، وفي غمرة هذه الفوضى، تقدّمنا أنا وسارة في الطابور. هدأ الجدال في النهاية، لكنَّ الغضب سيزداد أكثر بينما ننتظر تحت شمس الظهيرة لنتحرّك ببطءٍ شديدٍ نحو تجمُّع الشرطة. وأخيراً، وبعد خمس عشرة دقيقةً من الانتظار في مقدّمة الحشد أمام الشرطة، يقف الضبّاط جانباً، ويسمحون لنا بالدخول

إلى مقدونيا، وبينما نعبرُ الحدود، يمسك كلّ واحدٍ منّا بيدِ الآخر في هيئة سلسلةٍ طويلةٍ للحفاظ على أفراد مجموعتنا معاً.

بعد الحدود مباشرةً وجَّهَنا شرطيٌّ نحو مبنى منخفض، كان يتوجّب علينا الذهاب إلى هناك للتسجيل والحصول على ورقةٍ تمنحنا حقّ اللّجوء المؤقّت في مقدونيا لمدّة ثلاثة أيّام، وهو ما يكفي من الوقت للسفر عبْر البلاد، وبمجرَّد حصولنا على الأوراق، يمكننا ركوب حافلةٍ تُسَيِّرها الحكومة إلى الحدود التالية، وإذا تحرَّكنا بسرعةٍ فقد نتمكّن من عبور مقدونيا بحلول الظلام. كانت الحدود الصربيّة لا تبعد سوى ساعتين فقط بالسيّارة شمالاً، ومن هناك يتوجّبُ قطعُ أربعمئة كيلومتر أُخَر للوصول إلى العاصمة الصربيّة بلغراد، وإذا حالفنا الحظّ، فبإمكاننا قضاء اللّيلة هناك، ثمّ نبدأ التخطيط لكيفيّة عبور نقطة الحدود التالية في الصباح، وهي الأسوأ من بين الحدود جميعها التي سنجتازها؛ عبور الحدود الصربيّة إلى هنغاريا.

يلقي زاهر نظرةً على الطابور الطويل المبعثر خارج المبنى، ويعبس بينما تبدأ قمر بالبكاء بين ذراعيه، يُناول زاهر الطفلة لزوجته، ويهزُّ رأسه.

- «طابورٌ آخر». يقول زاهر مضيفاً: «دعونا لا نهتمُّ بمسألة الحصول على الأوراق، لا يمكننا الانتظار هنا إلى الأبد، يجب أنْ نتابع طريقنا».

يُصِرُّ زاهر ومجموعته على التحرُّك، لكنْ ماجد ليس في عَجَلةٍ من أمْره، يقول: إنّنا يجب أنْ نبقى هنا، وننتظر الحصول على ورقة العبور قبْل المضيّ قُدُماً. يستهجن زاهر، ويقول: إنَّ بإمكاننا أنْ نجتمع مرّةً أُخرى عند الحدود التالية. أنا لا أحبِّذُ فكرة الانفصال، لكنّ ماجد عنيد، وبالتالي فإنّنا سنبقى إلى حين الحصول على الأوراق.

- «لنلتزم بأيّ قواعد غبيّةٍ يعطوننا إيّاها، لا أريد المزيد من المتاعب على الطريق لمجرّد أنّني لا أملك بعض الأوراق». يقول ماجد.

- «إنّه على حقّ، هي أشبه بلعبةٍ، وعلينا الالتزام بقواعدها. إذا قالت السُّلطات: إنّنا في حاجةٍ إلى الأوراق، فيجب أنْ نحصل عليها». يُردِف مهنّد.

ننضمّ إلى الطابور، وننتظر تحت أشعّة الشمس اللّاذعة، وبعد خمس ساعات نجد أنفسنا جالسين أمام اثنين من عناصر الشرطة، نعطيهم أسماءنا من دون أن يأخذوا بصماتنا. لا يطلب الشرطيّان منّا إبراز جوازات سفرنا، لذا نتركُ أنا وسارة جوازينا في حمّالَتي صدرَينا. تمنحنا الشرطة ورقة عبورٍ مختومةً، وتُدخلنا في حافلةٍ ذاهبةٍ إلى الحدود الصربيّة. من الواضح أنّ المقدونيّين يريدون منّا مغادرة بلادهم بأسرع وقتٍ ممكنٍ، وهذا أمرٌ حسنٌ بالنسبة إلينا؛ يسعدنا أنْ نتحرّك بهذه السرعة، وبينما نحن على متن الحافلة المتّجهة إلى صربيا، يتلقّى ماجد رسالةً من زاهر يقول فيها: إنّه يتعيَّن عليهم أنْ يعودوا أدراجهم، فمن دون أوراق عبورٍ، أعادتهم الشرطة إلى الحدود. يقول زاهر: إنّه سيلتقينا لاحقاً في بلغراد.

- «ها». يقول ماجد راسماً على محيَّاه ابتسامة النصر: «أرأيتم؟ إنّها لعبةٌ، ولها قواعدها».

أُحدِّقُ بشدّةٍ من نافذة الحافلة مُغالبةً الغضب، فيبتسم ماجد مرّةً أُخرى عندما نعبُر إلى صربيا، ويكون علينا إبرازُ أوراقنا لرجال الشرطة، لا بدّ من أنّه كان على حقّ، وعلى الجانب الآخر من الحدود، تنتظر حافلةٌ أُخرى مجّانيّةٌ تُسَيِّرُها الحكومة لتُقِلَّنا في آخر رحلةٍ تمتدُّ مسافة أربع ساعاتٍ شمالًا إلى بلغراد. لا تريد الحكومتان: الصربيّة، والمقدونيّة منَّا البقاء في أيٍّ من البلدين، لذا تَنقُلانا بالحافلات على وجْه السرعة شمالاً وغرباً نحو الدول الأوروبيّة الأغنى؛ إلى ألمانيا، والسويد، وفرنسا.

نزلنا من الحافلة في محطّة حافلات بلغراد في وقتٍ متأخّرٍ من المساء،

ثمَّ تبعنا الحشد إلى حديقةٍ مكتظّة. كان هناك جمهورٌ غفيرٌ من الناس يخيِّمون في العراء على الأرض الجرداء المُغبرّة؛ أمَّا أولئك الذين حالفهم الحظُّ، فكانت لديهم خيام. تناثرت أكوام القمامة النتنة في أرجاء الساحة، بينما كانت عصاباتٌ من الغُرباء تتجوّل في الظلام. في تلكَ اللّحظة انتابني شعورٌ بالقلق، سارة تقرأ أفكاري.

- «فلنحاول العثور على فندق». تقول سارة، وهي تتلفَّت حولها: «يمكننا لقاء الآخرين غداً».

نقصدُ المدينة للبحث عن غرفٍ ننزلُ فيها، يرفضُ أصحاب الفنادق الواحد تلْو الآخر تقديم الخدمة لحامِلي جوازات السفر السوريّة، يا له من شعورٍ مؤلم! وهنا أعود بذاكرتي إلى المطعم على الجزيرة الذي رفض أنْ يبيعني المياه، نحن نملكُ مالاً، أليس هذا كافياً بالنسبة إليهم؟ كان الوقتُ متأخّراً، والشوارع تبدو خاليةً عندما اهتدينا إلى فندقٍ يستقبلنا من دون وثائق. ندفع ضعف أجْر النزول، لكنّني مرتاحةٌ جدّاً لوجود غرفةٍ بصرفِ النظرِ عن التكلفة. أُغلِقُ أنا وسارة باب غرفتنا، فأستحمُّ لمدّة ساعة، ثمّ أندسُّ في الأغطية النظيفة والناعمة. لمْ أكن قد حظيتُ بنومةٍ هانئةٍ منذ مغادرتنا إسطنبول. مرَّ على ذلك سبع ليالٍ، أسبوع بحاله. لقد نسيتُ شعورَ الرُّقاد بهدوءٍ في السرير.

في الصباح الباكر، نجد زاهر والآخرين في الحديقة، كانوا قد نصبوا خيامهم على الأرض المغبرّة، لا توجد في المخيَّم غير الرسميّ مياه، هناك فقط دورات مياهٍ مؤقّتةٌ تعمل بالمعالجة الكيميائيّة. أُفكِّرُ في الأغطية النظيفة، والحَمَّام، ثمّ أشعرُ بالضيق، لا بأس، أقول في نفسي، هذه هي الحياة، لا يمكن للجميع تحمُّل تكلفة غرفة الفندق. تُؤَمِّن لنفسك مكاناً آمناً للنوم إذا استَطعت. أجلس بين «ماما» وزوجة زاهر، كلاهما شغوفتان

بالطفلة قمر، تُلاعبانها بينما تنظر إليهنَّ بعينيها الّلتين تشبهان زوجَيْ أقمارٍ باهتَيْن، يُقبل الأخوان: أيهم، وباسم لإلقاء تحيّة الوداع علينا، فهما يخطّطان للسفر جوّاً إلى ألمانيا من هنا باستعمال بطاقاتٍ شخصيّةٍ مزوَّرة. إذا نجحت الخطّة، فسيكون هذا اختصاراً كبيراً من شأنه أنْ يوفِّر عليهما أسابيع من السفر البرّيّ، لكنَّها مجازفةٌ، وإذا ما ضُبِطا يستعملان جوازات سفرٍ مزوَّرةً، فقد يُلقى القبض عليهما.

– «إذنْ، سنقابلكم في ألمانيا». يقول أيهم بينما يضغط على يدي: «إلى أيّ البلاد تنويان الذهاب؟».

– «إلى هانوفر، نخطِّط للقاء هالة، صديقة سارة». أُجيبُه.

– «حسناً، سنلتقي بكم هناك إذنْ». يقول أيهم.

تمنّيت له التوفيق، ثمّ ألقينا عليهم تحيّة الوداع.

– «لنْ يتمكّنوا من الوصول إلى الطائرة». يتمتم ماجد في أثناء مغادرتهم.

أجلس بلا حراكٍ على التراب البنيّ المُغبرِّ، كان العشب قد اختفى منذ فترةٍ طويلة. يحيطُ بنا المئات من الناس، ومجموعاتٌ من الشباب والأُسَر التي تضمُّ الشيوخ والأطفال الصغار، وينامون، ويأكلون، وينتظرون، ويرسمون خطواتهم التالية في هذا المكان. كان سماسرة التهريب يتربّصون حَول حافّة الحديقة، وكان الجميع يتحدّثون عن أفضل طريقةٍ للعبور إلى هنغاريا، يقولون: إنّ الشرطة الهنغاريَّة تشنُّ حملةً قمعيّةً ضدّ الّلاجئين على الحدود، لكنْ لا يزال من الممكن الدخول إلى البلاد. انقسمت مجموعتنا بشأن الخطوة التالية؛ يقول مهنّد: إنّه يريد دفع المال لمهرِّبٍ لينقلهُ عبْر الحدود وصولاً إلى العاصمة الهنغاريَّة بودابست، وماجد حريصٌ على مرافقته، بينما يقول زاهر والآخرون: إنّهم سيذهبون إلى قرية هورجيس

الصغيرة على الحدود الصربيّة الهنغاريّة، ومن هناك سيتابعون مسيرهم، ويمكننا أيضاً الذهاب معهم، فيسألنا ماجد عمّا نريد أنْ نفعله أنا، وسارة، ونبيه، وما إذا كنّا نفضّل صعود سيّارة أحد المهرّبين مع مهنّد أم المشي عبْر الحدود مع زاهر.

- «أريد أنْ أبقى مع زاهر والمجموعة الكبيرة، إنّهم أصدقاؤنا، دعنا نذهب معهم. ينتابني شعورٌ جيّدٌ تجاههم، فقد غَدونا أُسرةً واحدةً». أقول لماجد.

كان هذا الشعور يتعاظم في داخلي بينما رحتُ أتكلّم بصوتٍ عالٍ؛ هؤلاء الأشخاص يهتمّون بنا، لقد انتظرونا على الجزيرة، وساعدونا، وأرادونا أنْ نقيم معهم في اليونان، ولمْ يكونوا مضطّرين للقيام بذلك أصلاً. تبتسم سارة ونبيه، مع إيماءةٍ بالموافقة، لقد حسمنا أمْرنا، سوف نعبر إلى هنغاريا مع زاهر والآخرين.

أرخى الغسق لونه على الحديقة، وعاد التوتُّر إلى الأجواء. نعود: أنا، وسارة، وابنا عمّنا: نبيه، وماجد إلى الفندق تاركين البقيّة ليرقدوا، وفي صبيحة اليوم التالي نعود إلى الحديقة لنجد أيهم وشقيقه باسم يجلسان مع المجموعة، قال الشقيقان: إنّ الإجراءات الأمنيّة كانت مشدّدةً للغاية، لذلك لمْ يتمكّنا من الصعود على متْن الطائرة المتّجهة إلى ألمانيا، من الواضح أنّ الخيار الوحيد أمامهما هو محاولة العبور إلى هنغاريا معنا سيْراً على الأقدام.

- «مرحباً». يقول صوتٌ ذكوريٌّ من خلْفي باللّغة الإنجليزيّة: «هل أستطيع الجلوس معكم؟».

ألتَفِتُ، فأرى رجُلاً يبتسم لمجموعتنا، كان يرتدي قميصاً من الكاكي، وله عينان بنّيتان كبيرتان وودودتان، ولحيةٌ قصيرةٌ خشنة.

- «ممم، أظنّ ذلك، ما الذي تريده؟». أقول.

يقول الرجُل: إنَّ اسمه ستيفن، وهو يعمل صحافياً في قناة الأخبار البلجيكيّة «VRT»، ويُنتج مع الطاقم المرافق برنامجاً إخباريّاً. يشير ستيفن إلى رجُلٍ يقف بجانبه، وهو يحمل كاميرا، ومن ورائه يحمل رجُلٌ آخر ميكروفوناً بغطاءٍ من الصوف، وله عصا طويلة. يقول ستيفن: إنّ هذيْن الرجُلين هُما الطاقم: المصوّر لودفيغ، ومهندس الصوت ستيفان.

يقول ستيفن: إنّه يودُّ التحدّث إلينا حَول رحلتنا، وستكون المقابلة لصالح برنامجٍ شبابيٍّ لإطْلاع الشباب في بلجيكا على ما يجري هنا، حسْب ما قال.

أبتسم لستيفن، ستكون المقابلة فرصةً مُرحباً بها للتسلية، وللخلاص من الملل، ومن الأحاديث كلّها عن الحدود، والمهرّبين، وهنغاريا. أقف وأنظرُ نحوَ الآخرين، ويومئ الكبار برؤوسهم غير موافقين، فهُم قلقون بشأن الظهور أمام الكاميرا، فقد يجلب الأمرُ المتاعب لاحقاً. أتلفَّتُ حولي، الشمس ساطعةٌ، وأشعرُ بالثقة، لقد نجحنا إلى الآن، وأتساءلُ: أيّ ضررٍ قد يترتّبُ علينا من الظهور أمام الكاميرا؟ أتبعُ ستيفن إلى ركنٍ هادئٍ من الحديقة، نختار بقعةً في ظلال بعض الأشجار الطويلة، أجلس القرفصاء على الأرض قُبالة ستيفن، يُثبِّتُ ستيفن الميكروفون أمامي بينما يُوجِّهُ لودفيغ الكاميرا إلى وجهي.

- «حسناً، هَلّا أخبرتِنا ما الذي تفعلينه هنا؟». يقول ستيفن بمجرّد أنْ تتحرّك الكاميرا: «أخبرينا عن نفسكِ».

أخبره أنّني كنت عضواً في الفريق الوطنيّ للسباحة في سوريا، وأنّني ذاهبةٌ إلى ألمانيا؛ لأنّني سمعت أنّها مكانٌ جيّدٌ للتدريب والدراسة، لا أمانَ في سوريا، وكان علينا مواصلة التنقُّل للهرب من القصف، ولا يوجدُ

مستقبلٌ لنا في سوريا. لا أستطيع أنْ أدرس، أو أحلم، لذلك خرجنا في سبيل البحث عن فرصةٍ لحياةٍ أفضل. أيُّ شيءٍ سيكون أفضل من البقاء هناك في انتظار الموت، أو نهاية الحرب، أيّهما يأتي أوّلاً. يومِئُ ستيفن بتأثُّرٍ، ويسأل عن آمالي وأحلامي في المستقبل.

- «أريد أنْ أصبحَ سبَّاحةً محترفةً، وأحلمُ بالمشاركة في الألعاب الأولمبيّة يوماً ما».

يتوقّف ستيفن، ويرمقني بنظرةٍ غريبةٍ، ثمّ يلقي نظرةً حَوله. تجمَّع زاهر والآخرون مُشكِّلين حلقةً محيطةً بنا بينما كنّا نتحدّث. يشير ستيفن نحوهم، ويسألني مع من أُسافر، فأُجيب أنّني مسافرةٌ مع أختي، وأبناء عمّي، وبعض الأصدقاء الذين أصبحوا مثل العائلة. تنتهي المقابلة، ويُديرُ لودفيغ الكاميرا لتصوير الحشود في الحديقة. ننهضُ، ثمّ يصافحني ستيفن، ويشكرني بينما تتقدّمُ سارة للانضمام إلينا.

- «لقد كابدنا الكثير للوصول إلى هنا». أقول، وأنا أُشيرُ إلى سارة: «كان علينا السباحة».

عندها بدا ستيفن مذهولاً، وراح يُحدِّقُ فينا.

- «سِباحة؟! ما الذي تعنينه؟». يسألنا ستيفن.

- «نعم، لقد سبَحنا من تركيا إلى اليونان». أُجيبُه.

يرفعُ ستيفن حاجبيه، ويهزّ رأسه غيرَ مُصدِّقٍ، وعندها تدخّلت سارة قائلةً:

- «هذا صحيح، نحن سبَّاحات، لذلك اضطّررنا إلى أنْ نسبح».

يومئ ستيفن إلى المصوّر لودفيغ على وجه السرعة.

- «حسناً». يقول ستيفن: «فلنُعِد المقابلة مرّةً أُخرى».

أهزُّ كتفاي وأجلس، فتتحرّكُ الكاميرا مرّةً أخرى، وأُخبِر ستيفن عن

الأمواج الشاهقة، والقارب الصغير المكتظّ، ومدى انخفاضه في الماء. أُتابع قائلةً: إنّني وسارة سبّاحتان، وأنّنا سبحنا لإبقاء القارب طافياً فوق سطح الماء، وبقينا في عرضِ البحر لمدّة ثلاث ساعاتٍ ونصف. كان الجوّ بارداً ومظلماً، وكنّا خائفين، لكنّنا وصلنا في النهاية، الحمد لله، كانت هذه المرّة الأولى التي أروي فيها القصّة علناً أمام أيّ أحد. أُكابد في سبيل تذكُّر التفاصيل التي تبدو بعيدةً، وغير واقعيّةٍ، مثل حلمٍ سيّءٍ يتلاشى بعد الاستيقاظ. يبتسم ستيفن، ويشكرني مرّةً أُخرى، ونأخذ صورةً شخصيّةً معاً، وأعطيه رقم هاتفي، ويقول: إنّه سيبقى على اتّصالٍ بي.

عُدنا إلى الفندق في تلك اللّيلة، وفي صبيحة اليوم التالي غادر مهنّد للقاء مُهَرِّبِه، وتَرَكَ صديقه الفتى الأشقر معنا. لمْ يكن وداعُنا لمهنّد عاطفيّاً، فنحن نعتقد أنّنا ربّما سنقابله في مكانٍ ما في الطريق، إلّا أنّنا لمْ نره أبداً بعد ذلك الوقت، لكنّني سمعت من أبي في وقتٍ لاحقٍ أنّه وصل إلى ألمانيا بمفرده. يعود زاهر إلى الحديقة، ويقول: إنّه تَوصَّلَ إلى حافلة مهرِّبين لنقلنا جميعاً إلى الحدود الهنغاريّة في صباح اليوم التالي. تقتضي الخطّة أنْ نعبُر من هناك إلى هنغاريا.

الشرطة الهنغاريّة مختلفةٌ عن نظيراتها التي قابلناها حتّى الآن، وإذا ضُبِطنا على الحدود فإنّ أفضل ما يمكن أنْ نأمله هو العودة إلى صربيا، لكنّهم قد يعتقلوننا عوضاً عن ذلك، ويقتادوننا إلى السجن. لقد سمعنا قصصاً عن المعاملة القاسية والضرب، لكنّ مصدر قلقنا الأكبر يتمثّل في أنْ يجد الهنغاريّون جوازات سفرنا، ويسجّلوننا، ويأخذون بصماتنا، وإذا حدث ذلك قبْل أنْ نصل إلى ألمانيا، يمكن أن يعيدونا إلى هنا بموجب قواعد اللّجوء في الاتّحاد الأوروبي. الأمر معقّدٌ، ولسنا متأكّدين من الوضع القانونيّ، وجُلُّ ما نعرفه هو أنّه يتعيَّن علينا تجنُّب الشرطة بأيّ ثمن.

في الحديقة، يبدو القلق على مُحيًا أمّ مقتدى، بينما يتشبّثُ طفلاها بعباءتها الطويلة، تنظر أمّ مقتدى حَولها إلى المرأة المحجّبة الأُخرى في مجموعتنا.

- «يقول صهري علي: إنّنا سنحتاج إلى أنْ نبدو أوروبيّين عندما نعبُر إلى هنغاريا، هُم يخافون من المسلمين هناك، أتذكرون؟ لا يمكننا أنْ نظهر بمظهرٍ مختلفٍ عنهم، وهذا يعني ألّا نرتدي الحجاب، وسيتعيَّن علينا تغطية رؤوسنا بالقبّعات عوضاً عن الحجاب». تقول أمّ مقتدى.

يُساورُ الشكُّ النساء الأُخريات، لكنّ أمّ مقتدى تُصِرّ على ما تقول، فأذهب أنا وسارة معهم إلى متْجرٍ لبيع الملابس الرخيصة بالقرب من الحديقة، وتشتري النساء المحجّبات قبّعاتٍ شمسيّةً كبيرةً مصنوعةً من القشّ لتغطية شعرهنّ، بينما نشتري أنا وسارة شورتات وقمصاناً، وفي أثناء غيابنا يذهب ماجد مع نبيه إلى مكتب حوالات ويسترين يونيون للحصول على المزيد من الأموال للمرحلة التالية من رحلتنا. نلتقي بزاهر والآخرين في وقتٍ مبكّرٍ من اليوم التالي على الطريق المتاخم للحديقة، وهناك كانت الحافلة بانتظارنا لتُقِلّنا مسافة مئتي كيلومتر شمالاً إلى الحدود الهنغاريّة.

ننزلُ من الحافلة على جانب طريقٍ بالقرب من بعض الأشجار، كان هناك الكثير من الأشخاص الذين يتجوّلون في المكان هائمين وخائفين يبحثون عن مُرشدٍ لإطلاعهم على وسيلةٍ لعبور الحدود من دون أن يُلقى القبض عليهم. يقود زاهر مجموعتنا خارج الطريق على مسارٍ رمليٍّ، وبعد بضع دقائق يتوقّف زاهر، ويشير نحو الأشجار، علينا أنْ نصعد المنحدر، ونجد مسارات القطار، ثمّ نتبعها عبْر الحدود، لكنَّ الشرطة منتشرةٌ في كلّ مكانٍ، وإذا ذهبنا مع هؤلاء الناس كلّهم، فسوف يُقبَض علينا لا مَحالة؛ لذلك، يجب أنْ ننتظر هنا، ونتظاهر بأنّنا نستريح لنترك الحشد يمضي قدماً،

وننتظر لنرى ما يحدث، لربّما ستكون الشرطة منشغلةً جدّاً في التعامل مع الحشد، وحينها يمكننا التسلُّل من دون أن يلْحظنا أحد.

نجلس في أرضٍ مقطوعة الشجر، بينما يتدفّق الآخرون الضائعون في الطريق نحو عناصر الشرطة المنتظرين. أخيراً، يختفي الحشد عن الأنظار تاركاً مجموعتنا وراءه مخفيَّةً قليلاً.

عندها حقَّقنا غايتنا في أنْ نكون وحيدين.

13

يظهر رجُلٌ صغيرٌ ذو عينين لوزيّتين من العدم، ويقترب من مجموعتنا، له وجهٌ واسعٌ بُنيّ اللّون، تحيطهُ كومةٌ من الشعر الأبيض والأسود، وفوق أنفه نظّارةٌ مربَّعةٌ كثيفةٌ، وإلى جانبه تقف امرأةٌ ذات شعرٍ بنّيٍّ قصيرٍ ومجعَّد.

- «هل ستعبرون الآن؟». يسألنا الرجُل باللّغة الإنجليزيّة.

- «من هذا الرجُل؟». يسأل زاهر: «هل يريد المال، أم ماذا؟».

يقولُ الرجُلُ: إنَّ اسْمه لام، كما تبتسمُ المرأة لنا ابتسامةً دافئةً، وتقول: إنّ اسْمها مجدلينا. يَضمُّ لام يديه تحت سترته، ويُخرجُ كاميرا ذات عدسةٍ ضخمة.

- «نحن صحفيّون، أنا ألتقطُ الصور، أريد أنْ أعبُر معكم إلى هنغاريا لالتقاط الصور». يقول لام، وتتكفّل سارة بالتوضيح للمجموعة.

- «يمكنه فعل ما يريده كلّه شريطة ألَّا يوقَعَ بنا».

تنظرُ سارة إلى لام وتبتسم.

- «حسناً، يمكنكما مرافقتنا». تقول سارة.

ننهض جميعاً بصعوبةٍ، وتقف سارة وتأخذُ قمر من ذراعَيْ والدتها، وتضعها في حمّالةٍ حمراء مربوطةٍ إلى صدر الأمّ، وتعطي زوجة زاهر

لسارة شالاً وردياً لتلفّهُ حَول الطفلة لتظلّلها من شمس الظهيرة، فيلتقط لام صورةً لمجموعتنا، ثمّ يتبع هو ومجدلينا زاهر على طول الطريق الرمليّ، نتبعهم أنا وسارة عن قُربٍ بينما كان الآخرون يسيرون متثاقلين. ينعطف زاهر يميناً على الطريق إلى غابةٍ صغيرة، نتسلّق المنحدر الحادّ، ونخرج من الأشجار إلى مسار سكّة قطار. يلتمع زوجان من القضبان المعدنيّة الصلبة المتوازية تحت شمس الظهيرة، لا يوجد عوارض على مسار السكّة، فقط طريق ترابيّة جرداء نمشي متثاقلين عبْرها.

- «ألا تعمل القطارات؟». أهمسُ في أذنِ لام.

- «أوه، لا تعمل غالباً». يقول لام، ويغمز بعينه، ثمّ يلتفتُ إلى إحدى الجهات لالتقاط المزيد من الصور، بينما تسير مجموعتنا، وبعد بضع دقائق يتوقّف زاهر واضعاً إحدى يديه خلف ظهره، وموجّهاً راحة يده نحونا.

- «ابقوا هادئين، لا تنبسوا ببنتِ شفة». يقول زاهر.

أُعطي إشارةً إلى الآخرين بينما يختفي زاهر في الأشجار إلى اليسار، ونتبعه أسفل المنحدر، وفي الأسفل، تتفتّح الأشجار على حقل ذرةٍ كبيرٍ، فيتوقّف زاهر، ويرفع يده، وأتسمَّرُ خلْفه بينما ينحني إلى الخلْف، ليهمس في أذني.

- «تلك هي الحدود». يقول زاهر بينما يتابع الخريطة على هاتفه، ويشير إلى نهاية الحقل إلى يمينه: «تلك هي هنغاريا».

يرسم زاهر خطّاً بإصبعه من اليسار إلى اليمين لإظهار الطريق الرئيس، حيث تنتظر الشرطة، وسيتعيَّن علينا أنْ نختبئ في حقل الذرة، ومحاولة العبور، وتجاوز الشرطة. يجب أن نبقى منخفضين؛ لأنّنا إذا وقفنا سيروننا.

- «لا كلام، ولا تدخين». يقول زاهر، بينما يلتفت إلى المجموعة مضيفاً: «حافظوا على هدوء الأطفال، وأغلِقوا هواتفكم النقّالة، وانتظِروا إشارةً منّي للركض، عندما أقول اجلسوا، عليكم أنْ تجلسوا، اتفقنا؟».

أومئ برأسي في إشارةٍ على الموافقة.

يسيرُ زاهر منحنياً، ويشقُّ طريقه بين سيقان الذرة، ورأسه بمستوى ثمارها، فأتبعهُ مُبقيةً رأسي محنِيّاً، وساحبةً أنفاسي بصعوبة. كان لام، ومجدلينا، وسارة، على مقربةٍ ورائي، وعلى مسافة عشرين متراً من الحقل، يقف زاهر في مكانه رافعاً كفّه في اتّجاهنا، أتوقّف بلا حراكٍ أنا أيضاً، وبعد ذلك يشير زاهر بحركة يده إلى أنَّ علينا أنْ نجلس أرضاً.

- «اجلسوا». يقول لي زاهر هامساً.

أجثُمُ على الأرض، ويحذو الآخرون حذْوي في الخلْف، فننتظر بصمت. تنقضي دقائق، ثمّ يقف زاهر، ويومئ لنا، وهو ينعطف إلى اليمين بين سيقان الذرة، فنتّجه مباشرةً نحو الحدود الآن، يمتدّ الطريق على امتداد طرف الحقل على بُعد مئتي مترٍ إلى اليسار، كانت سيّارات الشرطة مركونةً على نحوٍ متلاصقٍ في هيئة طابورٍ طويلٍ على طول الطريق، إذا وقفتُ بكامل طولي سيرى كلّ من ينظر إلى الحقل رأسي. يتسمرّ زاهر في مكانه مجدّداً، ويشير إلينا لكي ننخفض.

- «إنّهم ينظرون في هذا الاتّجاه، انتظِروا هنا». يقول زاهر.

نجلس لننتظر، وبينما يسود الصمت أستمِعُ إلى أصوات رجال الشرطة يزحفون في الحقل نحونا.

لا صوت يُسمَعُ سوى طنين الحشرات، وتغريد الطيور؛ حافظَ الأطفال على هدوئهم. أُثبِّتُ نظري نحو الأرض، ولا أقوى على النظر في وجوه الآخرين، فالوضع حَرجٌ للغاية، نحن بشر ولسنا حيوانات، ومع ذلك

فنحن هنا مثل مجرمين نجثم في أحد الحقول، وتطاردنا الشرطة. أُقرفص وأقطفُ سيقاناً طويلةً من العشب، وأُمزّقها إلى أشلاء.

كانت أشعّة الشمس ذهبيّةً، وغَدت الظلال أطول في الوقت الذي نهض فيه لام وأومَأ لنتبعه، وبينما ننحني لنخفض رؤوسنا عن مستوى شتلات الذرة تتضاءل الذرة، ويكثُر العشب الطويل، وهنا يومئ لنا زاهر للجلوس مجدّداً. تبكي الطفلة قمر، وتكسر الصمت المُطبق، وسرعان ما تقومُ سارة بتسليم الطفلة لزوجة زاهر التي تبدأ في إطعامها للحفاظ على هدوئها، فيخيِّمُ الصمتُ مرّةً أُخرى في الحقل.

يقف ابن أمّ مقتدى الصغير أمام والدته، كانت عيناه حمراويْن ومرهقتين، وقد شدَّ وجهه بألم. تُداعبُ أمّ مقتدى رأسه من الخلف حتّى جبينه، وتدعه يستلقي، ورأسه في حضنها. انقضت ساعةٌ بصمتٍ مشدودٍ قبْل أنْ يشير إلينا زاهر لننهض. كان الولد الصغير مرهقاً للغاية، ولا يستطيع التحرّك، تغضَّنَ وجهه، ثم أجهشَ بالبكاء رافعاً ذراعيه نحو أمّه.

- «هُسّس». تقول الأم: «لا تبكِ يا حبيبي». ثمّ تحمله بين ذراعيها.

نتسلّل، ونتبع زاهر عبْر العشب الطويل، فيجري زاهر إلى الأمام قبْلنا، أعدو خلفه محنِيَّةً، وأتنفّس بقوّةٍ بينما يتبعنا لام ومجدلينا عن قُرب، ومن خلفهم كانت سارة تحمل الصبيّ الصغير على ظهرها؛ أمَّا أمُّ مقتدى، فتمسك بيد ابنتها، وتركض خلفهم. نتوقّف، ونعاود السير محرِزين تقدّماً بطيئاً بصمتٍ عبْر العشب. تميل الشمس منخفضةً فوق الحقل بينما يجلس زاهر أخيراً ويستطلع هاتفه، ثمّ يبتسم بارتياح.

- «هذا هو المكان». يقول زاهر: «لقد نجحنا في العبور، أصبحنا الآن في هنغاريا».

يومِئ لام، ثمّ يلتفت نحوي مبتسماً ابتسامةً عريضة.

- «أحسنتُم». يقول لام.

ينظر لام، ثمّ يلتقط صورةً لسارة، وهي تُنزِلُ الطفل الصغير عن ظهرها، ثمّ يضحك ضحكةً مكتومةً قائلاً: «وأنتِ يا عنتَرة الكبير، هل أنتِ بطلٌ أم ماذا؟».

نضحك أنا وسارة، كان عنترة فارساً وبطلاً عربيّاً معروفاً بمغامراته الملحميّة. أسأل لام: كيف يعرف عن عنترة، فيخبرني أنه عاش في العراق لسنواتٍ عديدة. يا لها من مفارَقةٍ أنْ يقابِل المرء شخصاً يعرف عن عنترة في حقلٍ على الحدود بين صربيا وهنغاريا! أبتسم في وجوه الصحفيّين، وهُم بعض الأصدقاء غير المتوقَّعين الذين انضمّوا إلى مجموعة السفر الخاصّة بنا.

يشير زاهر إلى مبنى منخفضٍ يبعد قرابة ستّين متراً، ويقول: إنّه محطّة الوقود، حيث يتجمَّع المهرِّبون. علينا أنْ ننتظر هنا حتّى يحلَّ الظلام؛ إذْ إنَّ الشرطة كانت لا تزال تمسحُ المنطقة بحثاً عنّا، وبعد هبوط اللّيل سنتسلّل عبْر الحقل إلى محطّة الوقود، ونجد سيّاراتٍ لنقلنا إلى بودابست، ونجلس لننتظر من جديد.

كانت الشمس تغيبُ بسرعةٍ في الحقول التي خلْفنا، وقد راح ضوء النهار يتلاشى إلى اللّون الورديّ الداكن، ويغدو مُشوَّشاً فيما يضيء الوهج الأبيض المنبعث من ساحة محطّة الوقود الأماميّة لونَ السماءِ تدريجيّاً، حتّى يصبح كلّ شيءٍ أسود، أو أبيض، أو رمادي. كانت أضواء سيّارات الشرطة تبرقُ على طول الطريق، ويعترض طريقنا حاجزٌ ذو وميضٍ أزرق، ونجلس بثباتٍ إلى حين مغادرة الشرطة للمكان، تجلس سارة بالقرب من بشار وعبد الله، كان الرجال يدخّنون، وأيديهم معقوفةٌ فوق نهايات لفائف تبغهم المتوهّجة لحجْب وهْجها. مرّةً أُخرى نحن لسنا وحْدنا؛ إذْ تَدَفَّق

سيلٌ من الناس المهرولين إلى الحدود عبْر الحقل، وانضمّوا إلينا، ولمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى كان حجم مجموعتنا قد تضاعف.

بعد هبوط الّليل بقليل، كان هناك رجلانِ وامرأة يتجوّلون على غير هدىً عبْر الحقل من محطّة الوقود، وكان هناك ما يكفي من الضوء لندرك أنّهم ليسوا رجال شرطةٍ، بلْ فتاة مراهقة من روما ترتدي تنّورةً طويلةً وقميصاً، وإلى جانبها رجلان مفتولا العضلات يرتديان ملابس سوداء.

- «إلى أين تريدون الذهاب؟». تسأل الفتاة حالما تصل إلينا.

تتولّى سارة ترجمة الحديث بين زاهر والفتاة.

- «إلى بودابست». يجيبُ زاهر.

- «كم يبلغ عددكم؟». تسألُ الفتاة.

- «ثلاثون». يقول زاهر: «كم الثمن؟».

- «ثمانمئة يورو عن كلّ شخص». تقول الفتاة: «سنحضر سيّارات كافية لنقل الجميع».

تتّسعُ عَينا زاهر استغراباً.

- «عن كلّ شخص؟!». يتساءل مندهشاً: «لا، هذا كثيرٌ جدّاً». يقول زاهر.

- «لربّما تريدون أنْ تمُسكَ بكم الشرطة إذنْ؟». تقول الفتاة مشيرةً إلى الأضواء الزرقاء الوامضة خلفها.

يتنهّدُ زاهر، ما من طريقةٍ أُخرى، يجب أنْ نخرج من هنا. يخبرُ زاهر الفتاة لكي تُحضِرَ السيّارات، سوف ننتظرها هنا. تتمشّى الفتاة مع عصابتها عائدين نحو الضوء الأبيض المنبعث من محطّة الوقود، ومن خلال ما تبيّن لنا، هُم يعملون لصالح الشرطة، ونحن تحت رحمتهم تماماً. يشرعُ زاهر في

التخطيط للجزء التالي من الرحلة، ثمّ يُحصي على أصابعه أفراد مجموعتنا الذين يستطيعون التحدُّث بالإنجليزيّة. كان هناك خمسةٌ منّا بمن فيهم أنا وسارة. عندما تأتي السيّارات سوف ينقسم مُتحدِّثو الّلغة الإنجليزيّة بحيث يصعد كلّ واحدٍ منهم سيّارةً، هذا يعني أنّني سأكون بعيدةً عن سارة في الرحلة القادمة، لكنْ لا بأس، فأنا على ثقةٍ بالآخرين معها.

في تلك الّلحظة نسمعُ ضجّةً على الطريق، يلتفتُ الصحفيّون، ثمّ يتبادلون النظرات، ويومئ لام إلينا بينما ينهض هو ومجدلينا ببطءٍ، ويسيران خافضين قامتَيهما.

- «وداعاً يا عنترة الشجاع، إلى أنْ نلتقي في معركةٍ أُخرى». يقولُ لام، وهو يغمزُ سارة.

تبتسم سارة، يبتعد لام واثباً عبْر الحقل نحو الطريق، بينما تتبعهُ مجدلينا عن قُرب. نشاهدهما إلى أنْ يختفيا في وهْج محطّة الوقود، وأشعرُ بالأسفِ الشديد لمغادرتهما، فمن دونهما سيكون حالنا أكثر كآبة. لقد جعل وجود الصحفيّين معنا لعبة المطاردة بيننا وبين الشرطة تبدو ممتعةً، ماذا يحدث إنْ لمْ تعد الفتاة مرّةً أُخرى؟ وكيف سنخرج من هنا من دون أن يُمسِكوا بنا؟ أرتجف وأطردُ هذه الأفكار من رأسي.

تنظر أمّ مقتدى إلى النساء المحجّبات الأُخريات، وتخبرهنّ أنّ الوقت قد حان لتبديل حجاباتهنّ، فهي تتيح المجال كثيراً للدلالة على أنّنا مسلمون. تختفي النسوة قليلاً بينَ العشب الطويل، ثمّ يظهرنَ من جديد، وحينها كان لا بدّ لي من كتْم ضحكتي، دسَّتِ النسوةُ شعورهنّ تحت قبّعات القشّ الكبيرة، وأبدَلْن بعباءاتهنّ التنانير الطويلة، وسترات الجينز، ورفعْن الياقات لتغطية رقابهنّ. كان المنظرُ غريباً، خاصّةً في الّليل، وفي أحدِ الحقول. أرتدي شورتاً وقميصاً جديدين، ثمّ أتخلّصُ من سُترتي

الرماديّة الوسخة في العشب الطويل، ولكنْ سُرعان ما أندم على فِعلتي؛ إذْ تنشطُ الرياح، وأبدأ بالتجمّد من البرد، إلّا أنّه كان من الخطير الذهاب للبحث عن السُترة من جديد في هذا الوقت. تمرُّ الساعات ببطءٍ دونما أثرٍ للفتاة وصديقيها في العصابة.

كان القمرُ غائباً تلك اللّيلة، حتّى إنّني لمْ أستطع رؤية أيّة نجومٍ باستثناء طبقةٍ منخفضةٍ من الغيوم الأرجوانيّة المتجهِّمة. أحاول أنْ أنام، لكنّني مرهقةٌ للغاية، كانت الأضواء الزرقاء تومض من حولي مسبّبةً لي الصداع. أنظُر إلى هاتفي، وأحجب الضوء بيدي، وحينها أتلقّى صدمةً؛ إذْ كانت الساعة تشير إلى الثالثة صباحاً. كان ابن أمّ مقتدى الصغير يبكي من جديد، كان يئنّ بجانب والدته، فتضع أمّهُ ذراعها حَول كتفيه، وتقدّم له زجاجة مياهٍ بلاستيكيّة، يشرب الولدُ الماء، ويدفع الزجاجة بعيداً، فتحيطه الأمّ بذراعيها بينما يدسُّ الولد الصغير وجهه في كتفها، تتمتمُ له بهدوءٍ، وتفيض عيناها بالدموع.

- «لا تقلق يا حبيبي، سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام». تقولُ الأُمّ، وتمسح على رأس الولد: «لا تبكِ».

تراقبُ ابنة أمّ مقتدى والدتها وشقيقها، تبدو هي الأُخرى على وشك أنْ تجهش بالبكاء.

- «يا حلوة!». أهمسُ للفتاة، فتنظرُ إليّ.

- «هل تعرفين طريقة ضفْر الشَّعْر؟». أسألها.

تومئُ الفتاة بخجل.

- «أتعرفين؟ أنا أبحث عن مصفّف شَعرٍ جديدٍ، هل ترغبين بتصفيف شعري؟».

تجرُّ الفتاة الصغيرة قدميها، وتجلس خلفي، ثمّ تجمع شَعري الطويل

في خصلات وتضفرها، وعندما تنتهي، تسحب العقدة بأصابعها، وتبدأ من جديد.

- «هؤلاء المهرّبون لنْ يعودوا، والشرطة لا تستسلم، يجب أنْ نرى ما إذا كان بإمكاننا إيجاد مكانٍ أفضل للاختباء، وربّما الحصول على قسْطٍ من النوم». يقول زاهر أخيراً.

يتطوّعُ أيهم وشقيقهُ باسم للبحث عن مكانٍ للاختباء، يذهبان صَوب محطّة الوقود، وينحنيان منخفضين ومُهرولين عبْر العشب الطويل، ثمّ يعودان بعد عشرين دقيقة. لقد وجدا خندقاً يشبهُ مسار نهرٍ جافٍّ وراء الأشجار، يمكننا الاختباء فيه من الشرطة حتّى الصباح. ينهضُ زاهر بينما يضعُ قمر داخل الحمَّالة في صدره. كانت الطفلة الصغيرة النائمة بالكاد تتحرّك، توقِظُ أمّ مقتدى ابنها بلطفٍ، وينهضان ممسكينِ بأيدي بعضهما، ويستعدَّان للجَرْي. أنهضُ أنا أيضاً، وأُمسك بيد الفتاة الصغيرة، ثمّ يعلو ضجيجٌ صاخبٌ في السماء خلْف محطّة الوقود، وينبعثُ شعاعٌ أبيضُ من السحب الأرجوانيّة؛ إنّها طائرةٌ مروحيّة.

- «حسناً، هيّا انطلِقوا». يهمس زاهر للمجموعة: «اركُضوا».

ينطلق باسم وأيهم في سباقٍ سريعٍ عبْر الحقل نحو مخبئهما، فنتبعهما بأسرع ما يمكننا. تسيرُ طفلة أمّ مقتدى الصغيرة، وتتنفّس بهلع. أنظُر ورائي، الجميع يهربون عبْر الحقل الذي أنارتهُ الأضواء الزرقاء، التي كانت تومض على طول الطريق إلى اليسار، كّنَا قُرابة سِتّين شخصاً، وقد انتشرنا بين العشب الطويل متوجّهين نحو مساحةٍ صغيرةٍ من الأشجار؛ لنتّخذها غطاءً. تَظهرُ المزيد من الأضواء الكاشفة في السماء، ويعلو صوتُ الأزيز فوقنا، فأُمسِكُ يد الفتاة بقوّةٍ بينما تبدأ بالتذمّر.

- «سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام». أهمس في أذنها بينما نبدأ بالركض.

- «إنّها مُجرَّد لعبة». أقول للطفلة.

بدأ المطر يهطل، ترتطم قطراتُ الماء المكتنزة بوجهي، ويقتربُ هدير المروحيّات. أسمع صيحاتٍ ورائي، لكنّني لا أجرؤ على الالتفات إلى الخَلْف مرّةً أُخرى. أركّز على الأخوَيْن: أيهم، وباسم في المقدّمة، يتواريان خلْف الأشجار، ويتبعهما زاهر وزوجته. ثلاثون متراً فقط، عشرون، عشرة أمتارٍ ونصل إلى هناك. أسحب الفتاة الصغيرة إلى الغابة ورائي، نلتقط أنفاسنا لبضع ثوانٍ، كانت سارة هي التالية، تختبئ تحت الأشجار، وهي تحمل ابن أمّ مقتدى الصغير على ظهرها. أُحصي بقيّة مجموعتنا، وابنَي عمّنا: نبيه، وماجد، والفتى الأشقر، ورفيقا سارة: بشار، وعبد الله.

ننطلق في الغابة، وبعد قرابة عشرين متراً أصلُ إلى حافّة حفرةٍ مخفيّةٍ، أتنفّس الصعداء، كان من الممكن أنْ أسقط فيها بسهولةٍ في الظلام. أنزلقُ أسفل المنحدر ذي الجوانب الموحلة وصولاً إلى خندقٍ بنصف عرضِ منصّة تزلُّج السكوتر، ألتفتُ إلى الوراء بينما يتجمّع بقيّة أفراد المجموعة. لا يجد معظم الغرباء الذين انضمّوا إلينا بالقرب من محطّة الوقود مكان اختبائنا. أجلس على الأرض الموحلة، وأستمع إلى صيحاتهم، وهُم يركضون ويخرجون إلى الطريق ليلقاهم عناصر الشرطة الذين كانوا في الانتظار. أُصغي حابسةً أنفاسي، ما تزال المروحيّات تُحلّق في سماء المنطقة، لكنّنا مختبئون جيّداً تحت مظلّةٍ من الأشجار، وعلى الطريق، تبدو سيّارات الدوريّات منهمِكةً في البحث. كُنّا في مأزقٍ، وما من سبيلٍ للخروج، لا يسعنا سوى الانتظار حتّى الصباح أملاً في أنْ تغادر الشرطة، فنتمكّن من الهرب والعثور على مهربٍ آخر على الطريق. أتساءل ما إذا كان لام، و«ماما»، والآخرون قد نجحوا في العبور.

الطقس أبرد في الخندق منهُ في الحقل، كان المطر قد توقّف، ولكنّ

الضباب الخفيف يخيِّم على الخندق. أختلسُ نظرةً إلى هاتفي، إنّها الرابعة والنصف، أحتاج إلى النوم، وأُفكّر في غرفتي الفندقيّة في بلغراد. مرّةً أُخرى، تمسحُ كشّافات المروحيّة مكان اختبائنا. أتذكّرُ سُترتي عندما كنت في الحقل.

- «أنا أتجمّدُ من البرد». أهمس لسارة بينما تصطكُّ أسناني.

- أريد أنْ أنام فقط.

ينهضُ أيهم، ويخلع سترته الجلديّة، فيبتسم ويضعها حَول كتِفَيّ، ثمّ يمشي على طول الخندق، وهو يتكوّر على نفسه، ويفرك يدَيهِ العاريتَين، ويتوقّف كلّ بضع خطواتٍ ليقفز، أو يُهروِل.

- «أتمنّى لو كان بنطالي معي». تقول سارة، وتفرك ساقيها العاريتين، بينما تفيض عيناها بالدموع: «لماذا ارتدينا سراويل قصيرة؟».

بعدها على الفور ينزلق رفيقا سارة: بشار، وعبد الله إلى الخندق حاملينَ حقيبَتَيْ نومٍ متّسختيْن، قام عبد الله بتقطيع الحقيبتَيْن إلى شرائط باستعمال سكّينه. أحاول صُنع سريرٍ من خامة الحقيبتَيْن، لكنّها كانت مبلّلةً من المطر، والأرض موحلةٌ جدّاً إلى درجةٍ لا يمكننا معها النوم، فتنهضُ سارة، وتقولُ: إنّها ستعود إلى الحقل لاسترجاع سترتها. أقول لها: ألّا تكون حمقاء، لكنّها لا تصغي إلى كلامي، وتنطلق عائدةً إلى الحقل. كنت متعبةً جدّاً إلى درجة أنّي لمْ أتمكّن من منْعها، لكنّها عادت بعد خمس دقائق، وهي تبتسم وترفع سروالاً رياضيّاً أسْودَ كبير الحجم.

- «انظروا ما الذي قدَّمه إليّ هذا الشخص. أنا لا أعرفه، لكنّني على استعدادٍ لتقبيله الآن». تقول سارة مشيرةً إلى أحد الغرباء المختبئين في الخندق معنا.

لمْ ينل أحدٌ قسطاً كافياً من النوم. تومضُ الأضواء، وتحوم المروحيّات

فوقنا، فننتظر. وأخيراً، مع بدء انحسار اللّيل، تهدأ الضوضاء من جانب الطريق، وتختفي الأضواء الزرقاء. يريد زاهر الذهاب، فهو قلقٌ من أنّ طفله لا يستطيع تَحَمُّل الكثير من هذا البرْد.

يبدو الطريقُ أكثر هدوءً الآن، يحتاجُ أحد المتحدّثين بالإنجليزيّة من بيننا إلى الخروج للبحث عن مُهرّبٍ، فيتطوّعُ أيهم والفتى الأشقر لهذه المهمّة، ويخرجان من الخندق، ويختفيان. نُصغي بحذرٍ، كان الهدوءُ يكتنفُ المكان، وبعد عشر دقائق ينزل أيهم والفتى الأشقر إلى أسفل المنحدر الشديد، يقولان: إنّهما عثرا على رجُلٍ لديه ما يكفي من السيّارات لنقلنا جميعاً إلى بودابست. عرض المهرّبون نقلنا إلى فندقٍ يُسمّى فندق برلين؛ حيث يقولون: إنّنا سنلتقي مُهرِّباً آخر لمواصلة طريقنا إلى ألمانيا. لنْ تكون التكلفة رخيصةً؛ خمسمئة يورو للشخص الواحد، يا له من ثمنٍ باهظٍ ندفعه مقابل السفر مسافة مئتَيْ كيلومتر إلى بودابست! لكنّنا لا نبالي طالما أنّنا سنخرج من الخندق.

نتدافع خارج الخندق، ونخرج مرتجفين من الغابة إلى فجرٍ واهنٍ ورطب. كانت خمسُ سيّاراتٍ سوداءَ متّسخةٍ، وشاحنةٌ سوداءَ تنتظرُ على طول الطريق. أصعدُ الشاحنة السوداء مع أمّ مقتدى، وأطفالها، وعبد الله، واثنين آخرين. أجلسُ في المقعد بجانب السائق، كان السائق قصير القامة في منتصف العمر، ويرتدي ملابس سوداءَ اللّون باستثناء قبّعة بيسبول بيضاءَ على رأسه.

- «خمسمئة يورو لكلّ شخص». يقول السائق.

كانت رائحة الكحول والسجائر تفوحُ من أنفاسه. أقوم بجمْع النقود من الآخرين، وتسليمها إليه، ثمّ ننطلقُ، ويديرُ المهرِّب مُسجِّل السيّارة إلى أعلى صوتٍ، فنسمع أغنيةً من موسيقا البوب الحادّة. لا أعيرها اهتماماً،

وبعد ذلك أغرقُ في نومٍ عميقٍ من فرْطِ إرهاقي من ليلتي في الخندق. أستيقظ في منتصف ساعة الذروة الصباحيّة، نزحفُ عبْر زحمة المرور تحت جسر طريقٍ سريعٍ، كان صوت الموسيقا ما يزال صاخباً. أنظرُ ورائي، فأرى الجميع يغطّون في النوم.

يخرجُ السائق عن الطريق السريع، ويركن الحافلة في مساحةٍ للتوقّف بجانب أحد الجسور، أمامنا مركزٌ للتسوّق على أطراف المدينة. يستيقظ الآخرون في الخلْف، ويُلوّح السائق من النافذة على نحوٍ مُبهمٍ، ويقول: إنّنا يجب أنْ نأخذ حافلةً أُخرى هنا. نندفعُ خارج الحافلة، ثمّ ما تلبثُ أنْ تنطلق، لنبقى تائهين وحْدنا على جانب الطريق، وفجأةً نسمع صوت صرير عجلاتٍ، وإذا بحافلةٍ صغيرةٍ بيضاء تسرعُ نحْونا، يبدو الأمر كما لو أنّها على وشك أنْ تدهسنا، لكنّنا نبتعدُ في اللّحظة الأخيرة. ينفتح باب السائق، ليظهرَ رجُلٌ أصْلعُ ذو عضلاتٍ ووشْم.

- «اِصعدوا». يقول الرجُل.

- «هل ستأخذنا إلى فندق برلين؟». أسألُهُ، فيبتسم كاشفاً عن أسنانه الصفراء.

- «فندق برلين، نعم». يقول الرجُل.

نصعدُ الحافلة، يلتفتُ السائق إليَّ ويقول: «خمسمئة». ثمّ يبصق من النافذة.

- «لقد دفعنا مسبقاً للسائق الآخر». أقول.

- «خمسمئة». يكرّرُ الرجُل، ويُشيرُ إلى الآخرين: «لكلّ شخص».

يرتجف قلبي، فلهذا الرجُل سُلطة كاملة علينا الآن.

- «لكنّنا دفعنا مُسبقاً». يقول عبد الله.

- «أعرف، لقد قلت له هذا، لكنْ ها هو أمامك إذا أردت أنْ تشرح له». أقول لعبد الله.

يُهَمهم عبد الله، ويخبط بقبضته على باب الحافلة. أنظر من النافذة إلى الأراضي الجرداء المحيطة بالمدينة، لا يمكننا طلبُ سيّارة أُجرةٍ هنا، وأنا لا أحبّذ فكرة السيْر على الطريق السريع الرئيس؛ لأنّنا سنقع في قبضة الشرطة. لا خيار أمامنا سوى الدفع مرّةً أُخرى. يتلمَّسُ الآخرون جيوبهم في المقعد الخلفيّ ورائي، ويُخرِجون النقود. أضيفُ حصّتي من الرصيد الموجود في محفظتي البلاستيكيّة، وأضع المال في يد السائق بكلّ ما أوتيتُ من جرأة. يبتسم السائق، ويدسُّ المبلغ في جيب بنطال الجينز خاصّته، ثمّ ينطلق عائداً إلى الطريق السريع. نعلق في الزحام، ونتقدّم ببطءٍ نحو المدينة.

يتربّعُ فندقُ برلين على زاويةٍ في جانبٍ صناعيٍّ مُهمَلٍ من بودابست، كان الفندق مكوّناً من ثلاثة أدوارٍ باللّونَيْن: البيج، والبرتقالي، وكان يبدو في غير مكانه تماماً، وعلى خشبةٍ على السطح، عُلِّقَت لافتةٌ إعلانيّةٌ للفندق ذي الثلاث نجوم.

يبدو أنّ الفندق لمْ يستقبل سائحاً حقيقيّاً منذ عشْر سنوات، أُركِّزُ نظري على سارة، ونحن نتوقّف بجانب مدخل الفندق، كانت تخطو بسرعةٍ، ويبدو عليها القلق. يجلس زاهر، وابنا عمّنا، والآخرون تحت الأشجار في مساحةٍ صغيرةٍ خضراء إلى يميننا. تتوقّف الشاحنة، فأفتح باب الركّاب، وأنزل.

- «يُسرى، الحمد لله! أين كنتِ؟ لقد وصلنا جميعاً إلى هنا منذ ساعة». تقول سارة.

- «لمْ أكن أعلم ذلك، أعتقد أنّنا علقنا في الزحام». أقول.

كان الآخرون ينتظرون وصولنا قبل أنْ يسألوا الفندق عن مُهرِّب. لقد قيل لنا: إنّ المكان عبارة عن نقطةٍ ساخنةٍ للتهريب، وسنحتاج إلى المساعدة في الجزء التالي من رحلتنا. لا تبعدُ ألمانيا سوى خمس ساعاتٍ بالسيّارة من هنا عبْر النمسا، لكنّ أمامنا حدود دولتَين في طريقنا. أوّلاً، سيتعيَّن علينا تجاوز الشرطة الهنغاريَّة لعبور الحدود إلى النمسا، لذلك نحن في حاجةٍ إلى مُهرِّبين.

نتطوّعُ أنا وسارة للدخول وإجراء المحادثات بينما ينتظرنا الآخرون في الخارج على رقعة العشب، نصعدُ الدرجات المفروشة بالسجّاد الأحمر، وندخل البَهْو، فنرى رجُلاً أصْلعَ يقفُ خلْف الطاولة، المزيد من العضلات والوشوم.

- «ماذا تريدان؟». يسألنا الرجُلُ بالإنجليزيّة.

- «نريد الذهاب إلى ألمانيا، وسمعنا أنّنا يمكن أنْ نحصل على سيّارةٍ من هنا». تقول سارة.

- «نعم». يقاطعنا قائلاً: «تعالا معي».

يخرج موظّف الاستقبال من وراء المكتب، ويقودنا إلى منطقة البار جِهةَ اليسار. يمشي نحو رجُلٍ يجلس إلى طاولةٍ، يرتدي الرجُل قميصاً أزرقَ، وبنطالاً لونه بيج، وحذاءً أيرلنديّاً لامعاً أسْودَ اللون. يحمرُّ وجهي خجلاً، وأنظرُ إلى سروالي القصير الملطّخ بالطين، فيرحّب بنا الرجُل باللّغة العربيّة.

- «كيف يمكنني مساعدتكم؟». يسألنا الرجُل باللّهجة السوريّة.

تخبرهُ سارة أنّنا نريد الذهاب إلى ألمانيا.

- «ألمانيا، لا بأس، بإمكاننا أنْ نرتّب ذلك، ستنزلان في إحدى غرفنا بينما نجد لكما سيّارة». يقول الرجُل.

تخبرهُ سارة أنّ معنا آخرين في الخارج، قرابة ثلاثين شخصاً، وتسأله عن تكلفة الرحلة.

- «ذلك أفضل». يقول مُبتسِماً: «سنفكّر في المال لاحقاً، أليس كذلك؟ أحضِرا الآخرين وسنريكم غُرفكُم».

نرجعُ إلى بَهْو الفندق، تقف خلْف الطاولة فتاةٌ ترتدي تنّورةً حمراء صغيرةً، وقميصاً ضيّقاً أبيضَ اللّون، تتوقّف عن تنظيف الأقداح، وترمقنا بنظراتها بينما نمرُّ أمامها، فأحدِّقُ فيها، كان شعرها المصبوغ بالأشقر والأبيض متناثراً على رأسها، وكانت تضع مساحيق تجميل. نصل إلى الدرجات، وتنادي سارة -من باب المدخل- الآخرينَ للحضور إلى الداخل، فيصعدون الدرجات، ويحتشدون في الردهة. تظهر مجموعةٌ من الرجال الهنغاريّين مفتولي العضلات، كانوا أصغر سنّاً، ومظهرهم أفضل من مظهرِ السائقين، وكانوا جميعاً مثل لاعبي كمال الأجسام، وأذرعهم عريضةً، ومغطّاةً بالوشوم الداكنة. قَسَّمَنا الرجالُ إلى مجموعات، يقترب أحدهم منّا، ويشير إليّ، وإلى سارة، والفتاة اللّبنانيّة كوكو، والأخوين: باسم، وأيهم، نتبعهُ خارجَ البَهْو إلى المصعد، فيأخذنا إلى الدور الثالث، ويسير بنا في ممرٍّ طويلٍ، فنمرُّ باثنينِ من الرجال مفتولي العضلات، يستندان إلى الجدار، وتقف بينهما امرأةٌ ترتدي ملابسَ مشابهةً لملابس الفتاة الجالسة خلْف الطاولة، فينتبهُ أحدهما إلى سارة، وهي تُحدِّقُ فيهما بينما نعبُر أمامهما.

- «أين تودُّون الذهاب فيما بعد؟». يسألنا الرجُل.

تعبس سارة في وجهه، وتقول: «إلى ألمانيا».

- «حسناً». يقول الرجُل، ويرمقُ سارة بنظراته: «إذنْ، سوف آتي لأجدكم هناك».

أتواصل مع سارة بلغة العيون، فترفع حاجبَيها، لكنّها لا تقول شيئاً، فيتوقّف الرجُل خارج أحد الأبواب، ويفتحه من دون أنْ يطرقه. ثمَّةَ حشدٌ من الغرباء ينظرون من خمسة أسِرَّة، كأنَّ هناك خطباً ما، ويوجد -على الأقلّ- ثلاثة عشر شخصاً هنا من الرجال، والنساء، والأطفال، اثنان، أو ثلاثة في كلّ سريرٍ، بين نائمٍ ومُحدِّقٍ في هاتفه النقّال، أو ينظر بسأمٍ إلى الأرض. أُحدِّقُ فيهم، أتساءل: أيّ نوعٍ من الفنادق هذا؟ يقودنا الرجُل إلى الداخل، ويخبرنا أنْ ننتظر.

- «أليست هذه الغرفة ممتلئةً بالفعل؟». يتساءل أيهم.

يتجاهله الرجُل، ويغلق الباب بعنفٍ في وجهه.

يضربُ أيهم الجزء الخلفيّ من الباب.

يصرخ أيهم: «مهلاً، هل يمكننا إحضار شيءٍ للأكل؟».

لكنْ ما مِن إجابةٍ تأتي من الممرّ في الخارج.

- «هذا مخيفٌ حقًّا». تتمتمُ سارة، وهي تستدير لمواجهة الغرباء في الغرفة. تنظر إلينا امرأةٌ ترتدي حجاباً أبيضَ اللّون، وإلى جانبها تجلسُ امرأتان أصغر سنّاً بهدوءٍ على السرير، وتبدو النسوة الثلاث خائفات. تخبرنا المرأة بأنّها تنتظر سيّارةً لنقلها هي وعائلتها من الحدود عبْر النمسا إلى ألمانيا. «في البداية، بدا الأمر كأنّه صفقةٌ رائعةٌ». تقول المرأة، لكنّها تنتظر هنا منذ أسبوعٍ، ويواصل المهرّبون إخبارها بأنّ السيّارة ستأتي في اليوم التالي، وفي غضون ذلك تنفد أموالها؛ فالغرف هنا غاليةٌ جدّاً.

- «هذا المكان غارقٌ في الفوضى». تقول كوكو بهدوءٍ من ورائنا، وتخاطب المرأة ببطءٍ، كما لو كانت تتحدّث إلى شخصٍ أحمق، وتقول: «هل رأيتِ أحداً يغادر هذا المكان؟».

تقول المرأة: إنّ بعض الأشخاص غادروا في اليوم الثاني من وجودها

هنا، لكنّها لم تسمع منهم منذ ذلك الحين. تديرُ كوكو ظهرها للمرأة، وتحمل هاتفها، وجهها شاحبٌ، وهي تتحدّث بهمسٍ مصدومةً، فتخبرنا أنّه قبْل ثلاثة أيّامٍ عثرت الشرطة على شاحنةٍ على جانب الطريق عبْر الحدود إلى النمسا، وكان بداخلها واحدٌ وسبعون جثّةً، كلّهم من السوريّين. كان الضحايا قد اختنقوا في صندوق الشاحنة، بينما هرب السائق تاركاً الجثث لتتعفّن على جانب الطريق، وكان قد مضى على موتهم أسبوعٌ حين اكتشف أحدهم الأمر. تذْهمني موجةٌ من الغثيان، بينما أستمع إلى الخبر، وأدرِكُ مصدومةً مدى ضعفنا؛ يجب أنْ نغادر هذا المكان. كانت سارة قد وضعت يدها مسبقاً على مقبض الباب، ثمّ فتحَتهُ، ونظرت إلى الخارج، ثمّ عادت إليّ ذاهلةً.

– «هذا الرجُل ما يزال هناك في الممرّ، يقف كأنّه حارس». تقول سارة.

– «الأمر مخيفٌ جدّاً». أقول لها: «إنّهم يحتفظون بالناس كسجناء هنا، يمكنهم فعل أيّ شيءٍ بنا: يمكنهم قتلنا، وتقطيعنا، وبيع أعضائنا، أو جعلنا عاهرات مثل هؤلاء النسوة هناك».

– «كُفّي عن المبالغة». تقول كوكو.

– «إذنْ، لماذا يبقوننا هنا؟». أسألُ: «لماذا لا يمكننا مقابلتهم في مكانٍ ما في المدينة عندما تكون السيّارة جاهزة؟». تتجاهل كوكو الأمرَ.

– «إنّهم يكسبون المال فقط». تقول كوكو.

تكتبُ سارة في هاتفها، تكتب للآخرين، وتطلب إليهم الخروج للقائنا في الدور السفليّ خلال خمس دقائق، فتُنهي كتابة رسالتها، وتفتح الباب.

– «عودي إلى الداخل». فجأةً يأتي الصوت من الممرّ.

– «لا يمكنك أنْ تبقينا هنا». أصرخ من وراء سارة.

– «هيّا بنا». يقول أيهم، ويندفع بعنفٍ أمام سارة خارج الغرفة.

نتبعه، ونسرع في الممرّ، ويبدو الحارس في الخارج متفاجئاً، ولكنّه لا يوقفنا، نركض متجاوزين المصعد، نجد الدرج ونتزل عليه كلّ ثلاثةٍ معاً. كان ثلاثة من الحرّاس مفتولي العضلات، والمهرِّب السوريّ ينتظروننا في البَهْو، فاندفع أحد الحرّاس نحو أيهم، لكنَّ أيهم راوَغه، وهرب نحو المخرَج، نتبعهُ أسفل الدرج وصولاً إلى موقف السيّارات.

- «من تظنُّون أنفسكم؟». يقول الرجُل السوريّ خلْفنا: «لا يمكنكم المغادرة بهذه البساطة».

نستمرُّ في الركض، فننعطفُ يساراً عند إحدى الزوايا على طول الطريق الرئيس المزدحم، نتوقّف عند محطّةٍ للحافلات، فأنظر إلى الوراء، وأكتشف أنّهم لا يتبعوننا، فنتوقّف وننتظر، وبعد قليلٍ يصل زاهر وعائلته، وابنا عمّنا: ماجد، ونبيه، والآخرون، واحداً تلْو الآخر، ويركضون إلينا. تتوقّف سيّارة أُجرة في المكان، فتنفتح نافذة الركّاب.

- «كيليتي(*)». ينادي السائق عبْر المقاعد: «محطّة القطار».

نصعدُ السيّارة، يا له من هروبٍ موفَّق! بعد أكثر من أسبوعٍ بقليلٍ قام متطوّعون هنغاريّون يعملون بناءً على معلوماتٍ سرّيّةٍ بإنقاذ مئة سوريٍّ من فندق برلين، كانوا قد أُحضِروا جميعاً إلى الفندق بوساطة المهرّبين، وقد أنفقوا ثرواتٍ تقريباً، لا لشيءٍ سوى ليُسجَنوا هنا منتظرين إلى أجلٍ غير مسمّى سيّاراتٍ تأخذهم إلى ألمانيا لمْ تأتِ قطّ.

(*) كيليتي «Keleti» هي محطة قطارات بودابست. (م).

14

نـنزلُ من سيّارة الأُجرة في ميدانٍ تخيُّم فيه حشودٌ من الناس تحت ظلّ مبنى محطّةٍ كبيرٍ متهالكٍ، تنفتِح فجوتان كبيرتان في الرصيف على مستوىً أدنى للمشاة. المزيد من الناس ينامون، أو يتجوّلون في الباحة أدناه، كان المشهدُ أشبهَ ببحرٍ من الخيام، والمناشف، والبطّانيّات، وفي الساحة أعلاه تصطفُّ سبعة مراحيض مؤقّتة. إلى جانب المرحاض الأبعد، يوجد صنبور ماءٍ منفردٌ، كانت هذه هي المرافق الوحيدة في المكان، وكانت رائحة النفايات البشريّة، واليأس تفوحُ من المكان. أنظُر حَولي في حالة ذهولٍ، إنّه أسوأ مخيّمٍ رأيته.

كان الناس هنا ينتظرون لعدّة أيّام، بلْ إنَّ بعضهم كان ينتظر منذ أكثر من أسبوع.

لا يوجد مهرّبون، لذا كان الجميع ينتظرون ركوب القطار. تنطلق القطارات الدوليّة المنتظمة من هنا عبْر الحدود إلى النمسا، لكنّ السلطات الهنغاريَّة تواصل إغلاق المحطّة في وجه الذين لا يحملون تأشيرات، قائلةً: إنّها تُطَبِّقُ القانون الأوروبيّ. في هذه اللّحظة نجتازُ حدود المحطّة، ونرى مجموعةً من رجال الشرطة يسدُّون أبوابها، وهُم يحملون الهراوات

والمسدّسات على أحزمتهم، وقد انعكست أشعّة الشمس على خُوَذِهم الخاصّة بمكافحة الشغب، يا له من مأزق!

أشعر بالدوار، نحن في منتصف الظهيرة، أحاول أنْ أتذكَّر آخر مرّةٍ أكلت فيها قطعة شوكولا سنيكرز قبْل أنْ نلتقي لام على الحدود الهنغاريَّة، كانت الوجبة الأخيرة عبارة عن وجبة إفطارٍ في الحديقة في بلغراد قبْل ثلاثين ساعة. أتلفَّتُ حولي، وجدتها! «برغر كينغ»، هنا في الساحة.

- «دعونا نأكل». أقول.

يعبسُ ماجد في وجهي؛ إذْ إنّه لا يفكّر في البرغر.

- «يمكننا الاتّصال بشبكة الإنترنت في الداخل، وإجراء ما يلزم». أقول.

نتمشّى على الطريق على امتداد شارع تسوُّقٍ مزدحمٍ، ويبقى الآخرون في الخارج بينما ندخل: أنا، وسارة، ونبيه، وماجد، لطلَب الطعام، فنفتح الأبواب، ونَشتَمُ رائحةً مألوفةً من الأطعمة المقليّة، والهواء المُكيَّف.

كانت الشاشات على الحائط تُظهِرُ محطّة الإم تي في «MTV»، نصعدُ الدور العُلويّ لتناول الطعام؛ البرغر، والكوكاكولا، والاتّصال بالإنترنت عبْر شبكةٍ لاسلكيّةٍ، بدا الأمر كما لو أنّنا فى الجنّة.

سُرعان ما يشعر ماجد بالملل، ثمّ يخرج إلى الآخرين، بإمكانه أنْ يجدنا هنا في حال طرأ أيّ شيء، نجلس في المقصورات الحمراء العميقة حتّى تبدأ الشمس في الظهور على الساحة خارج النافذة، فتتلقّى سارة مكالمةً هاتفيّةً قرابة الساعة السابعة والنصف؛ إنّه ماجد، يقول: إنّه وجد مهرِّباً وافق على مقابلتنا في مطعم «ماكدونالدز» في نهاية الطريق، ننزلُ إلى الدور السفليّ، ونخرج إلى الشارع، كانت الشمس قد غابت، وكان الهواءُ دافئاً، ورطباً، وملوّثاً برائحة أدخنة الديزل. نقابل ماجد والآخرين، ونتبعهم

على طول الطريق المزدحم، فتُدوّي صافرات الإنذار الخاصّة بالشرطة وراءنا كلّ بضْع دقائق، كان السكّان المحلّيّون يتجادلون في الشارع في الطقس الحار.

نجدُ رجُلاً مغربيّاً ينتظرنا داخل المطعم، أرى دهشَتَهُ، وهو يشاهد مجموعتنا المؤلّفة من ثلاثين شخصاً تَدخلُ المطعم، يصافحُنا المهرِّب، ويطلب إلينا أن نجلس، ننتشرُ في أنحاء المكان جميعها، ويجلس ماجد وزاهر إلى طاولةٍ مع المُهرِّب، وأجلسُ أنا وسارة في زاويةٍ مع الأخوَيْن: باسم، وأيهم، وابن عمّنا نبيه.

- «بإمكاني تناول شطيرة برغر أُخرى». أقول.

تنهرني سارة بخبطةٍ على ذراعي.

- «أليس من المفترض أنْ تكوني رياضيّةً؟». يقول أيهم مبتسماً.

- «اِخرس! نحن -الرياضيّين- في حاجةٍ إلى الحفاظ على قوّتنا». أُجيبُه قائلةً.

بعد عشر دقائق يأتي ماجد إلى طاولتنا لإطلاعنا على الخطّة، وكان المُهرِّبُ قد ذهب، وهو لا يريد أن يَراه أحدٌ معنا، لكنّه وافق على نقلنا جميعاً إلى ألمانيا اللّيلة، وسيُحضِر السيّارات إلى هنا لنقلنا، سننتظر هنا حتّى يعطينا إشارةً للخروج. أنا مرتاحةٌ ومتفاجئةٌ، كان كلّ شيءٍ مُيسّراً للغاية، سنكون في ألمانيا بحلول الصباح.

ننتظر ونُديرُ الأغاني على هواتفنا، ونلتقط صور سيلفي ونلْهو، ينهضُ ماجد كلّ عشر دقائق، ويلقي نظرةً على الشارع. تنقضي نصف ساعةٍ، أربعون دقيقةً، أخيراً، يفقد ماجد الصبر، ويحاول الاتّصال بالمهرِّب، ولكنْ ما من مُجيب. يرمُقُ ماجد العاملين في المطعم بنظرةٍ متوتِّرةٍ، كانوا ينظرون إلينا، فقد تجاوزنا حدَّ بقائنا في المطعم، نخرج إلى الشارع لانتظار

المهرِّب هناك، وفي منتصف الّليل يغلق «ماكدونالدز» أبوابه. كنّا مُرهَقين ومُحبَطين، نتخلّى عن فكرة المُهرِّب، ونعود أدراجنا إلى محطّة كيليتي لإيجاد مكانٍ للنوم.

نجتاز طريقنا بين آلاف النائمين إلى أنْ نتمكّن في النهاية من العثور على مكانٍ نظيفٍ للتخييم في الردهة تحت الأرض. أستلقي بجانب سارة على كومةٍ من الملابس، كنتُ متعبةً جدّاً لدرجة أنّي لمْ أُلقِ بالاً للضوضاء والفوضى من حولي. أُغمِضُ عينَيَّ، وأحاول تخيُّلَ شوارع دمشق المتعرّجة، فأرى أمّي وشهد مرّةً أُخرى تتسوّقان في السوق المسقوف، وتتدفّق الدموع من تحت أجفاني المغلقة، وأستلقي بلا حراكٍ، تماماً كي لا يلْحظ أحدٌ، فلا أريد أنْ يعرف أحدٌ أنّني أتألّم، يجب أن أبقى قويّةً، أنتظر وأغطُّ في النوم بينما يجفِّف النسيم الناعم الدموعَ على وَجنَتَيّ.

أستيقظ في صباح اليوم التالي على مشهدِ الأطفال، وهُم يبحثون في القمامة وسط كومةٍ من العلب الفارغة. أنظرُ إلى هاتفي، إنّه يوم الاثنين، آخر يومٍ في آب/ أغسطس. لقد مضى على بداية رحلتنا قرابة ثلاثة أسابيع. أتساءل: كم ستستغرق الرحلة؟ أصعدُ الدرج مع سارة إلى الساحة للانضمام إلى طابور الانتظار للوصول إلى المراحيض. كانت حشودُ النيام تستيقظ خارج مبنى المحطّة، فيما كانت الشرطة لا تزال تغلق مدخل المحطّة المزخرف، وتوقِفُ أيّ شخصٍ بلون بشرةٍ مختلفٍ؛ لمنعه من الدخول، ومحاولة صعود القطار.

يرنُّ هاتف سارة، وتبتعد قليلاً للردّ على المكالمة، ثمّ تعود بعد عشر دقائق. بالكاد يتحرّك طابور انتظار دخول المراحيض. كانت المتّصلة هي صديقة سارة في هانوفر، هالة، وقد اتّصلت لإخبار سارة أنّ جارها السابق من دمشق، ويدعى خليل، عالقٌ في بودابست أيضاً. هو ولَدٌ في مثل عمري

تقريباً، يبلغ من العمر ستّة عشر عاماً، ويسافر بمفرده. تسأل هالة سارة عمّا إذا كان بمقدورها الاعتناء به، فانضمام فردٍ آخر لنْ يُحدث أيّ فرقٍ للعائلة، كما أنّ لدينا العديد من الغرف. تقول سارة: إنّها أخبرته أنْ يأتي، ويلاقينا هنا في المحطّة.

في هذا الوقت يظهر الصحفيّان: لام، ومجدُلينا من الحشد، أنا في غاية السعادة لرؤيتهما؛ فهما يعرفان ما الذي يجب القيام به.

- «لمَ تأخّرتم؟». يقول لام مبتهجاً لرؤيتنا.

بعد ذلك يلتفتُ إلى سارة، ويسألها قائلاً:

- «وكيف حال فارس الشجعان عنترة؟». تبتسم سارة.

- «بخير، شكراً لك». تقول سارة: «هل تعرف كيف نخرج من هنا؟».

- «حسناً». يقول لام عابساً: «إنّه أمرٌ صعبٌ».

نستعمل المراحيض النتنة، ثمّ يتبعنا الصحفيّان إلى الأسفل للانضمام إلى أصدقائنا، كان بقيّة أفراد مجموعتنا قد استيقظوا الآن، وهُم يجلسون منتشرين على طول جدار البَهْو، وكلّهم يعملون على نحوٍ محمومٍ لإيجاد طريقةٍ للخروج من بودابست. لا تزال أمّ مقتدى ومجموعتها ينتظرون مُهرّبهم علي، الذي هو صِهْر أمّ مقتدى. كان من المفترض أنْ يقابلها هنا في المدينة، لكنّه لمْ يتّصل بهم بخصوص اللّقاء. أمضى زاهر وعائلته الصباح في محاولة الاتّصال بالمهرّبين جميعهم الذي أمكن العثور على أرقامهم، لكنْ لا أحد يردّ على هاتفه، هناك الآلاف مثلنا يحاولون الخروج، فقد ازداد الطلب على المهرِّبين.

يبدو الصعود على متْن قطارٍ إلى النمسا أفضل خيارٍ متاحٍ لنا. يقول لام: إنّه سمع إشاعةً بأنّ الشرطة الهنغاريّة ستعيد فتْح المحطّة هذا الصباح لبضع ساعاتٍ، وتسمح للناس بصعود متْن القطار إلى الحدود. من الناحية

النظريّة، كل ما يتعيَّن علينا القيام به هو شراء التذاكر والصعود، لكنّنا لسنا الوحيدين الذين سيحاولون ركوب ذلك القطار؛ إذْ يحتاجُ طابور شراء التذاكر عدّة ساعاتٍ كي ينتهي. ما من طريقةٍ أُخرى، علينا أنْ نجرّب الذهاب لمحاولة ركوب ذلك القطار. نصعدُ أنا وسارة الدرج من الجانب الأيسر لمبنى المحطّة متثاقلتَين برفقة لام ومجدلينا، حيث نصادفُ الطابور أمامنا، وكان الطابور على هيئة خطٍّ متعرّجٍ من مدخلٍ جانبيٍّ على طول زاوية المبنى.

- «يا إلهي!». تقول سارة: «سوف نبقى هنا لأسبوع».

تسمع فتاةٌ ترتدي سترة عمّالٍ صفراء ما قالته سارة، وتتوقّف بالقرب منّا، فتخبرنا الفتاة أنّه ليس علينا الانتظار في الطابور، كما تخبرنا أنّ هناك محطّات أُخرى في المدينة حيث يمكننا شراء تذاكر القطار الدوليّة. تقع أقرب محطّةٍ، وتُسمّى «ديلي» على مسافة خمس عشرة دقيقةً فقط بالحافلة. تؤكّد لنا الفتاة عدم وجود طوابيرَ هناك، ومعظم الناس لا يعرفون ذلك، فتشكرُ سارة الفتاةَ التي تختفي مرّةً أُخرى في الحشد. محطّةٌ أُخرى، الأمرُ جديرٌ بالتجربة. تتّجه سارة إلى الدور السفليّ لتعرض فكرة الذهاب إلى تلك المحطّة، وشراء التذاكر للآخرين، أجلس على الأرضيّة الإسمنتيّة لأنتظر مجدلينا بينما يلتقط لام صوراً لطابور اليائسين في الحصول على التذاكر. ينظر لام نحو الأعلى، لا بدَّ من أنّني كنت أعبسُ في وجهه.

- «كنت لاجئاً أيضاً، لذا لا بأس بالنسبة إليّ أنْ ألتقط الصور». يقول لام مبتسماً.

لقد فاجأني الأمر، لمْ أفكّر في أيّ شيءٍ بشأن التقاطه صوراً لنا، إنّه وضعٌ غريبٌ ينبغي أنْ يراهُ العالم.

- «لا أهتمّ بالتقاطك صوراً لأيّ شيءٍ، قُم بعملك فحسب». أقول.

عندها نتوقّف عن الحديث؛ لأنّ لام يعود إلى مواصلة عمله.

- «ما الذي تعنيه بقولك: إنّك كنت لاجئًا؟». أسألهُ.

- «لقد نشأتُ في لاوس». يقول لام: «ثمّ ذهبتُ إلى فرنسا، أنا الآن فرنسيّ».

أتوقّف عن توجيه الأسئلة، فيرفعُ لام الكاميرا خاصّته مرّةً أُخرى، وأشاهد عمل المصوّر. إذنْ، كان لام لاجئاً أيضاً، تلك الكلمة، كلمة لاجئ، أعتقد أنّ هذه الصفة لنْ تفارقك أبداً بمجرّد منْحك إيّاها. أُحدِّقُ فيه بكامل الاحترام والإعجاب، كان قد هرب ذات مرّةٍ، يُذهِلني أنّه عاد إلى هنا ليعيش تجربة الّلجوء معنا مرّةً أُخرى، وهو ليس هنا لالتقاط بعض الصور الرائعة فقط، بلْ تركَ عملهُ من أجل مساعدتنا.

تعود سارة مع أحد الإخوة، وهو باسم، وابن عمّنا ماجد. يذهب ماجد إلى مكتب ويسترن يونيون عند طرف الساحة، وعند عودته يعطي سارة رزمةً من النقود تكفي لشراء تذاكر لنا نحن الثلاثة وابن عمّنا نبيه. تمدُّ سارة يدها إلى أعلى قميصها، وتسحب رزمة أموالٍ أكبر من صدريّتها، فتضيفُ أموالنا إليها وتعيدها.

- «مهلاً». يقول لام، ويحمل الكاميرا خاصّته: «افعلي ذلك ثانيةً، أريد أن ألتقط صورة».

تبتسم سارة، وتعيد الكَرَّة، ثمّ تنطلق مع باسم للعثور على محطّة القطار الأُخرى. أشاهدهم، وهُم يشقّون طريقهم عبْر الساحة، وتُقرقُر معدتي، ويقرِصُني الجوع. كنتُ على وشك اقتراح تناول الطعام عندما قفز لام من دون سابق إنذارٍ، وهرب في اتّجاه مدخل المحطّة، وتبِعَتهُ مجدُلينا. أتبعهما نحو المحطّة حيث تجمَّع حشدٌ كبيرٌ من الناس على الدرج في الخارج. كان المئات من الناس المهتاجين يصرخون ويتدافعون، بينما

يقف عناصر الشرطة على جانبٍ واحدٍ يشاهدون الفوضى الحاصلة، لقد فُتِحت المحطّة، وسمحت الشرطة لأيّ شخصٍ لديه تذكرة بمحاولة حشْر نفسه في القطار المتّجه إلى النمسا.

أتجنّب الحشد، وأعود إلى الدور السفليّ للجلوس مع الآخرين، كان حشدٌ آخر يشقّ طريقه إلى مدخل المحطّة في الأسفل. تقف «ماما»، وهي تشاهد الزحام، ويداها على خصرها، كذلك يقف ابنها زاهر إلى جانبها، كلاهما يبدو مُرتاباً. لا أحد منّا يريد محاولة ركوب القطار إذا كان ذلك يعني المخاطرة بالتعرّض للدهْس حتّى الموت في هذه العمليّة، لذا نقرّر الانتظار حتّى يهدأ الوضع أكثر. إلى جانب ذلك، قد يكون الوضع أكثر أماناً بهذه الطريقة، وإذا ما تركنا هذا القطار لينطلق أوّلاً، فيمكننا معرفة ما إذا كان حقّاً سينجح بعبور الحدود إلى النمسا. في النهاية، قد يكون الأمرُ بِرُمَّته مجرّد فخٍّ، أو خدعةٍ لتطهير المحطّة، وإخراج الجميع من الشوارع إلى مخيّمٍ ما حيث سنعلَقُ في هنغاريا إلى الأبد، أو يُعيدوننا. لقد سمعنا الكثير من الشائعات، لا أحد يثق بالسُّلطات هنا، من الأفضل أن ننتظر ونرى.

تعود سارة وباسم مع التذاكر بعد ساعة، في تلك اللّحظة كان الحشد في الردهة تحت الأرض قد اختفى بعد مغادرة القطار الأوّل. أولئك الذين لمْ يصعدوا القطار تراجعوا إلى مخيّماتهم المؤقّتة في المحطّة. ترتسمُ ابتسامة النصر على مُحيّا سارة، التي تُلوِّحُ برزمةٍ من الأوراق المستطيلة، وتقول: إنَّ محطّة القطار الأُخرى كانت فارغةً تماماً، ولمْ يكن هناك أيّ طابور. تُسلِّمنا سارة تذاكرَ صالحةً لليوم التالي، إنّها مقامرةٌ؛ فلا أحد يضمن أنْ تكون المحطّة مفتوحةً أمامنا غداً.

يخرجُ مراهِقٌ من الحشد، ويسير نحْوي، ويبدو شاحباً، وله شَعرٌ بُنّيّ.

كان يرتدي سترةً سوداء منفوخةً بلا أكمامٍ، و بنطالاً رياضياً أسْودَ، وحذاءً أبيض.

- هل أنتِ سارة؟

- «كلّا، أنا لستُ سارة، تلكَ هي». أقول وأشيرُ نحوها: «أنت خليل؟».

يبتسمُ الطفل ابتسامةً عريضةً ممتلئةً، فأحبُّهُ على الفور.

- «مرحباً». تقول سارة: «سوف تأتي معنا إذنْ؟ أحضرتُ لكَ تذكرةً للسفر معنا في القطار غداً».

يجلس خليل إلى جوارنا، ويغدو على الفور جزءاً من العائلة. بإمكاني القول إنّه يشعر بالارتياح لوجود شركاء معه، جميعنا نخوض هذه التجربة معاً. في تلك اللّيلة، نجلس في «برغر كينغ»، بينما يرخي اللّيلُ سُدلهُ على الميدان، وننشرُ صور السيلفي على إنستغرام، ونتحدّث عبْر الإنترنت مع الأصدقاء في الوطن. فجأةً يضيء هاتفي، ويطِنُّ مع سيلٍ من الإشعارات، متابعون جُدد، الكثير مِنْهم، فأتصفّح حسابات المستخدمين؛ لأكتشف أنّهم جميعاً بلجيكيّون. أتعب للحصول على تفسيرٍ، لا بدّ من أنّه ستيفن، ذلك الصحفيّ الذي التقيته في الحديقة في بلغراد، أيمكن أنْ أكون على التلفزيون البلجيكيّ؟ هل يريد هؤلاء المشاهدون متابعة رحلتي عبْر إنستغرام؟ لا بدّ من أنْ يكون هذا هو التفسير المنطقي. أُحدِّق غيرَ مُصدِّقةٍ، بينما تتوالى الإشعارات. كنتُ مسرورةً ومرتبكةً لا أعرف كيف أرُدّ، أنا مجرّد فتاةٍ من سوريا ذاهبة إلى ألمانيا. لا بُدَّ من أن يكون هناك آلاف من الآخرين مثلي يقومون بالرحلة نفسها، فلماذا يهتمّون بي؟

تخطر لي فكرة أنَّ ستيفن قد يكون قادراً على مساعدتنا في الخروج من هنا، فهو صحفيٌّ تلفزيونيٌّ، ولا بُدَّ من أنّه يتمتّع بالكثير من الخبرة في الحياة، على الأقلّ سوف يعرف ما يجري. أكتب إليه، وأخبره أين نحن،

وعن خطّتنا لركوب القطار في اليوم التالي، فيرُدُّ عليَّ، ويطلب إليّ البقاء على تواصلٍ، وتوخّي الحذر.

يأتي ماجد لملاقاتنا في «برغر كينغ»، فهو لا يريد النوم ليلةً أُخرى في المحطّة، إنّه على حقّ؛ فالمكان خطيرٌ وقذرٌ، لذا قرّرنا العثور على فندق. يقول الطفل الجديد خليل: إنّه سينضمّ إلينا، لكنّ الآخرين يظلُّون في المحطّة، نُدركُ أنّ الفندق سيكون مكلفاً للغاية، إلّا أنّنا على استعدادٍ لدفع المال مقابل الحفاظ على سلامتنا. نسير في الشارع الطويل المزدحم نحو «ماكدونالدز»، ونجرّب كلّ فندقٍ نمرّ به، وموظّفو الاستقبال جميعهم يريدون رؤية جوازات سفرنا، أو يقولون صراحةً: إنّهم لا يستقبلون اللّاجئين. نصل إلى فندقٍ بواجهةٍ قديمة الطراز، ربّما إذا جرّبنا فندقاً أكثر تكلفةً، فسوف يطرحون أسئلةً أقلّ. نهرع عبْر الأبواب السحَّابة، ونصل إلى مكتب الاستقبال كما لو أنّنا مجرّد أُسْرةٍ عاديّةٍ في عطلةٍ، ربّما أمريكيّون. تؤتي المقامرة ثمارها، لا جواز سفر، ولا أوراق، أُحدِّقُ في الثريّات الباهظة في البَهْو، السعر مرتفعٌ جدّاً، ولكنّنا دفعنا بسعادةٍ غامرةٍ لتجنُّب المبيت لليلةٍ أُخرى في المحطّة.

نغادرُ الفندق في اليوم التالي، ونعود إلى المحطّة في وقتٍ مبكّرٍ للعثور على الآخرين قبْل ركوب القطار، نتلقّى صدمةً لدى وصولنا؛ إذْ نرى صفوفاً من شرطة مكافحة الشغب تُغلقُ كِلا المدْخلين. أغلقت الشرطة المحطّة مجدّداً، لكنّ هذه المرة أغلقتها تماماً. لا تسمحُ الشرطة لأيّ شخصٍ بالدخول، أو الخروج، سواء كنّا نحن أم السكّان المحلّيّين، أو السيّاح.

نذهب للبحث عن زاهر، ونشقُّ طريقنا بين العائلات، والبطّانيّات، والخيام في النفق. على غرار المرّة السابقة، أشعر بتأنيبِ الضمير، ونحن

نقترب من أصدقائنا. كانت غرفة الفندق وثيرةً جدّاً، لو كان باستطاعتي لكنت دفعت المال مقابل غرفٍ للجميع. يبدو زاهر مكتئباً، يقول: إنّنا كنّا على صوابٍ في أن نشكَّ في قطار الأمس؛ إذْ إنّه لمْ يصل إلى النمسا، ذلك لأنّ الشرطة أوقفتهُ على الطريق، واقتادت كلّ مسافرٍ لا يحمل تأشيراتٍ صالحةً إلى السجن. أنظر إلى الرتل الكئيب لشرطة مكافحة الشغب التي تغلق الباب، ثمّ إلى تذكرة القطار في يدي، ولو أردنا ذلك، لنْ نتمكّن من ركوب قطارنا اليوم، لقد أهدرنا المئات من اليوروهات؛ أُكابدُ مع موجة اليأس المتصاعدة.

تعلو الهتافات من الساحة أعلاه.

- ألمانيا، ألمانيا، ألمانيا!

نتبع الأخوَيْن: أيهم، وباسم إلى الأعلى لنرى ما يجري، فتجمَّع حشدٌ غاضبٌ خارج مدخل المحطّة، معظمهم من الرجال، يقفُ لام في طرفِ الحشد، ويلتقطُ الصور، وبجانبه، ترانا مجدلينا، وتلوِّح لنا، فنَلتحقُ بهم.

- «ألمانيا، ألمانيا، ألمانيا!». يهتف الرجال، وقبضاتهم المشدودة تعلو في الهواء. ألقوا قناني المياه البلاستيكيّة، ولوَّحوا بجوازات السفر السوريّة في الهواء.

- «لقد أخذتم أموالنا!». يصرخ رجُلٌ إلى جواري باللّغة العربيّة، ويلوِّح بتذكرة القطار عديمة الفائدة: «أيّها اللّصوص الكلاب، دعونا نصعد القطار».

- «اِفتحوا المحطّة!». يهتف الحشد من جديد: «ألمانيا، ألمانيا!».

- ألمانيا، أنجيلا، أنجيلا، أنجيلا!

- «من تكون انجيلا؟». أسألُ سارة، فتهزُّ كتفيها في إشارةٍ إلى أنّها لا تعرف.

- «أنجيلا ميركل». تقول مجدُلينا.

- الزعيمة الألمانيّة؟

- أوه، تلك هي أنجيلا.

يشكِّل صفٌّ من شرطة مكافحة الشغب جداراً في مقدّمة الاحتجاج الذي لايزالُ مُهَدِّداً. كان عناصر الشرطة يلبسون الأقنعة على وجوههم كما لو أنّهم يعتقدون أنّنا نحمل الأمراض الفتّاكة التي تنتقل عبْر الهواء، فيتوتّر الحشد من حولهم. يهربُ أحدُ الرجال، ويندفعُ نحو عناصر الشرطة، فيقفز العناصر فوقه بينما يتحرّك الحشدُ بأسْره. تندفع كتيبةٌ أُخرى إلى الأمام على طول الطريق إلى يساري، فتُمسك سارة بيدي ويد خليل، وتدفعنا إلى الوراء إلى أسفل البَهْو حيث الأمان، أرفع رقبتي في الوقت المناسب لرؤية الأخوَيْن: أيهم، وباسم، وابن عمّنا نبيه يتبعون لام بعيداً في الحشد.

في الأسفل، تجلس النساء في مجموعاتٍ صامتةٍ يستمعْنَ إلى الهتاف في الأعلى، وفي إحدى الزوايا قام عددٌ من المتطوّعين بنصْب شاشةٍ، وعرْض الرسوم الكرتونيّة «توم وجيري». يجلس حشدٌ من الأطفال الصغار في الأمام مُتقاطعي الأرجُل، وبين هؤلاء المنخرطين في الحدث، يجلس ابن ادريس الصغير، مصطفى، وأطفال أمّ مقتدى؛ أمّا أنا، فأجلس في مكانٍ قريبٍ، وأُخرِج هاتفي. أتصفّح قائمة جهات الاتّصال في هاتفي، من يمكنه مساعدتنا؟ سأجرّب الصحفيّ ستيفن مرّةً أُخرى، فأبعث برسالةٍ صوتيّةٍ إلى رقمه.

- «هناك الآلاف من الناس هنا». أقول عبْر الهاتف: «هناك مشكلةٌ ما، والشرطة تعتقل الناس؛ الأمرُ خطيرٌ هنا، ونحن لا نعرف ماذا نفعل، لقد جعلوا الناس يدفعون ثمن التذاكر، لكنّهم أغلقوا المحطّة. إنّهم يسرقون أموالنا؛ لنْ يسافر أحدٌ من هنا، فتعال إلى بوادبست لمساعدتنا».

أُنهي التسجيل الصوتيّ، وأستندُ إلى الجدار الوسخ في البَهْو، وأُغمضُ عينَيَّ، وأرى قبضاتٍ غاضبةً تضرب الهواء بينما يستمرّ الهتاف فوق رأسي. لماذا لا يدعنا هؤلاء الناس نذهب؟ نحن لا نريد البقاء، وهُم لا يريدوننا هنا أيضاً، لكنّهم أوقعونا في فخٍّ، لا يمكننا المضيّ قُدماً، ولا حتّى العودة. أضع رأسي في يدي وأضغطُ بكفيّ على جفوني؛ لأمنع الدموع. أشعر بيدٍ تربّتُ على كتفي، إنّها سارة. تمدُّ يدها وتسحبني، فنهرب من الاحتجاجات، ونعود إلى «برغر كينغ»، وبعدئذٍ إلى الفندق.

نصلُ في صباح اليوم التالي لنجد المتظاهرين الموجودين مسبقاً في الساحة أمام المحطّة يغنّون، ويهتفون، ويصفّقون في الهواء. كانوا يحملون لافتاتٍ مصنوعةً من قصاصات الورق المقوَّى تقول: «نحن نحبّ ألمانيا، نحن نحبّ ميركل». أو ببساطة: «ساعِدونا». تشعر أمّ مقتدى بالضيق في النفق؛ إذْ إنّها ما زالت تنتظر ردّاً من مهرّبها عليّ، كذلك ينفدُ صبرُ المجموعة التي تسافر معها، فلا أحد منّا يعرف إلى متى سنظلّ عالقين هنا في هذه الحفرة، نختبئُ معظم اليوم في «برغر كينغ» بينما يجلس الكبار في المحطّة لمناقشة الخطوة التالية. أصابني الملل؛ أمّا الآخرون، فكانوا يتصفّحون هواتفهم، وينصتون إليها. أسأل سارة ما الذي تفعله، وتجيبُ قائلةً: إنّها تكتب إلى ماوكلي، المهرّب التُركيّ، لقد أضافها على فيسبوك.

- «هل أنتِ مجنونة؟». أقول لها.

- «ما الخطأ في هذا؟». تقول سارة بينما ترتشف من علبة الكولا.

- قد يكون قادراً على مساعدتنا.

- «أنسيتِ عندما حشَرنا جميعاً في ذلك القارب، ثمّ قفز وتركنا نغرق؟». أقول لسارة.

ترفعُ سارة حاجبَيها، وتعود للكتابة في هاتفها بأصابعها؛ أمّا أنا، فأرسِلُ

رسالةً صوتيّةً أُخرى إلى ستيفن، أسأله ما إذا كان يعتقد أنّ المحطّة ستفتح بحيث يمكننا ركوب قطارٍ، أو ما إذا كان ينبغي لنا أنْ نحاول التواصل مع مهرّبٍ ينقلنا إلى النمسا. أُخبره أنّنا قلقون من أنّ الشرطة ستقبض علينا، وترغمنا على أنْ نبصم، وتعيدنا إلى اليونان- أو ما هو أسوأ من ذلك، إلى تركيّا. في ذلك الوقت كان ستيفن قد عاد إلى غرفة الأخبار الخاصّة به في بروكسل، وأرسل إليّ صورة خبرٍ عاجلٍ، ومضت على شاشته، لقد فُتحت المحطّة مُجدّداً، لكنْ لا توجد قطارات دوليّة تعمل. رئيس وزراء هنغاريا في بروكسل لمناقشة الوضع مع المفوّضيّة الأوروبيّة، فأتنهَّد وأشكره، ومن الواضح أنّه لا يستطيع إخبارنا بما يجب أنْ نفعله.

نعود إلى نفق منتصف اللّيل لنجد المهرِّب عليّاً يجلس مع أصدقائنا، لقد وصل أخيراً، ولمْ يعجبني من النظرة الأولى؛ إذْ يبدو متعجرفاً ومتغطرساً، وكان يرتدي قميصاً وسروالَ جينزٍ، وكان يضعُ نظّارته الشمسيّة حتّى في الظلّ. يشرح عليّ لأمّ مقتدى أنّه سيُجهِّزُ أوّل سيّارةٍ للمغادرة إلى ألمانيا اللّيلة، ويعرض العودة لاحقاً مع سيّارةٍ، ويأخذ بقيّة المجموعة، ويقول: إنّ السيّارة ستكون شاحنة تخزين، مجرّد مقصورةٍ وصندوقٍ فارغٍ في الخلف من دون مقاعد. سيتعيَّن علينا الجلوس على الأرض لمدّة خمس ساعاتٍ في السيّارة عبْر هنغاريا والنمسا إلى الحدود الألمانيّة. ينهض ماجد ويطلب إلينا المجيء معه، فننهضُ: أنا، ونبيه، وخليل، وسارة، ونتبعه.

- «ما رأيكم؟». يسأل ماجد.

- «بخصوص الشاحنة؟». تسأل سارة.

- «أم بشأن هذا الأحمق هناك؟». يضحك خليل.

- «بخصوص الشاحنة». يقول ماجد عابساً: «هل نطلب إلى عليّ أنْ يأخذنا أيضاً؟».

- «لا». تقول سارة: «لا يمكن، هل نسيتم قصّة السوريّين الذين قضوا اختناقاً الأسبوع الماضي في شاحنةٍ مشابهةٍ؟ نستطيع النجاة في البحر، ولكنْ ليس داخل شاحنةٍ من دون هواء».

أُخبرُ ماجد أنّني لا أثق في هذا الرجُل، عليّ؛ لأنّهُ سيتركنا عند أوّل مشكلة. انظُر إلى الطريقة التي تعامل بها مع أمّ مقتدى المسكينة، وعائلتها، وزوجة شقيقه؛ إذْ إنّه لمْ يردّ على رسائلها لعدّة أيّامٍ، وتركَها وحْدها مع طفليْن صغيرين يعبْرون البحر للوصول إلى هنغاريا. صحيحٌ أنّنا يائسون، ولكنْ ليس إلى هذا الحدّ.

يتنهَّد ماجد، ولا تزال القطارات عبْر الحدود إلى النمسا لا تعمل، والسبيل الوحيد هو محاولة العثور على مهرّبٍ آخر، شخصٍ نثق به. نعاود الانضمام إلى الآخرين؛ حيث يضع عليّ اللّمسات الأخيرة على خطّته مع سائر مجموعتنا، سيأخذُ أمّ مقتدى وأطفالها في وقتٍ لاحقٍ اللّيلة، ويرسل سيّارةً إلى زاهر وعائلته في أسرع وقتٍ ممكنٍ، وبعد ذلك سوف يرسل سيّارةً ثالثةً لنقل كوكو والآخرين، لكنّه لا يستطيع تحديد موعد ذلك، فيبتعدُ عليّ عبْر البَهْو نحو الدرج، وتقف أمّ مقتدى، وتمسكُ أولادها بيدها، وتبدأ بتجميع أغراضها.

- «هل تثق بهذا الرجُل؟». يسأل ماجد زاهر عندما تذهب أمّ مقتدى.

- «ليس لدينا الكثير من الخيارات». يقول زاهر مضيفاً: «لا يمكننا الاستمرار في إنفاق مئات اليوروهات على تذاكر القطار التي لا قيمة لها على أمل السماح لنا بصعود متْن القطار».

- «يبدو أنّ عليّاً منشغلٌ جدّاً بكم جميعاً، سنجد طريقةً أُخرى». يقول ماجد.

نترك الآخرين، ونقضي المساء في المتابعة مع بعض المهرِّبين الذين

يعرفهم المهرّب ماوكلي. نرتّب لقاءاتٍ مع ثلاثة مهرّبين هنغاريّين، وواحدٍ مغربيٍّ، ولكنْ لا أحد منهم يحضُر، بعد ذلك نعود إلى الفندق مُتعبين ومنهزمين.

في صباح اليوم التالي في المحطّة، لا نجد زاهر وعائلته في مكانهم المعتاد، كذلك ذهب الأخوان: باسم، وأيهم، ومثلهُما أمّ مقتدى وأطفالها، ولمْ يتبقّ سوى إدريس، ومصطفى الصغير، والفتى الأشقر، والفتاة اللّبنانيّة كوكو، وأحمد من اللّاذقية، وأخواته، واثنَين آخريْن. أشعر بوحدةٍ غريبةٍ، وأفتقِدُ الطفلة قمر والمرأة الكبيرة «ماما»؛ لمْ نودّع بعضنا.

يأتي لام ومجدلينا، وهُما يتمشَّيان خارجَ الحشد.

- «هل غادر أصدقاؤك؟». يسألُ لام.

أومئ في إشارة تأكيد.

- «ما خطّتكم إذنْ؟». يسألُ لام.

أهزُ كتِفَيّ دلالةَ على حَيْرتي، لا خطّة لدينا، يبدو الوضع ميؤوساً منه أكثر من أيّ وقتٍ مضى. يشير لام إلى الدرج المؤدّي إلى المحطّة؛ حيث التجمّع المعتاد لأولئك الذين يحاولون دخول المبنى. يقول لام: إنّه سمع شائعات بأنّ الشرطة ستسمح لبعض القطارات بالمغادرة في اتّجاه الحدود اليوم.

يمكننا محاولة شراء تذكرةٍ أُخرى، ورؤية ما إذا كان بإمكاننا أنْ نصعد متْن أحد القطارات. إذا كنّا هادئين، كما يقول لام، ولمْ نتحدّث بصوتٍ عالٍ باللّغة العربيّة، فقد نصل إلى النمسا، فالأمرُ جديرٌ بالمحاولة؛ ما من طريقةٍ أُخرى للخروج.

أنتظر مع ابن عمّنا نبيه والطفل خليل في «برغر كينغ»، بينما تعود سارة وماجد إلى المحطّة في «ديلي» لشراء تذاكر جديدة. ننظرُ عبْر نافذة

المطعم من الأعلى، بينما تتصارع الحشود في طريقها إلى مدخل المحطّة، يتأهّب عناصر الشرطة، وهُم يراقبون التدافع، فتصطفُّ أطقم المحطّات التلفزيونيّة على حافّة الساحة، يا لها من فوضى!

تعود سارة وماجد في وقتٍ متأخّرٍ بعد الظُّهْر مع تذاكر قطار الساعة الثامنة. يتضاءل الحشد في المحطّة مع غروب الشمس، نلتقي لام ومجدُلينا، بينما يجلب ماجد الشطائر للرحلة؛ أمّا الصحفيّان: لام، ومجدُلينا، فيحملان حقائب كبيرةً على ظهرَيهما.

- «نحن قادمان معكم». يقول لام.

ترتسم ابتسامةٌ على وجهي، وسيكون من الجيّد أنْ يكونوا معنا، إذا حدث أيّ شيءٍ، فإنّ لام يعرف ما يجب القيام به، وتنقبض معدتي عندما ندخل المحطّة، لكنْ لا توجد شرطة حَول المكان. نسير على المنصّة بجانب قطارٍ قديمٍ أخضر، ومن أمامنا يصعد ماجد إلى آخر عربةٍ، ويجلس إلى إحدى الطاولات، فأتبعه وأجلس في المقعد المواجه للنافذة الأماميّة مُقابِلهُ. يصطفُّ الآخرون ورائي: ابن عمّنا نبيه، وسارة، والفتى الأشقر، والطفل خليل، ولام، ومجدلينا؛ أمّا صديقنا عبد الله الذي قرّر الانضمام إلينا في الّلحظة الأخيرة، فيجلس في الخلف. أنظر إلى الوقت في هاتفي، تشير الساعة إلى ما قبل الثامنة بقليل. خمس دقائق للانطلاق، أتلفّتُ حولي، لقد ملأنا المقطورة وحْدَنا. يُفتَح الباب، وتدخل فتاةٌ شقراء، تجلس في أقصى المقطورة قُرْبَ الباب.

أخيراً، يبدأ القطار بالتحرّك، فأرمُق الآخرين بابتسامةٍ عريضةٍ؛ سنغادر أخيراً. أنظر من النافذة، ثمّة قطارات شحنٍ تنتظر في محطّةٍ أمام مستودعٍ مهملٍ، وتتقاطع السكك على امتداد الطريق، بينما تتلوّى عربات الترام الصفراء على طول الشارع أدناه. ندور على جسرٍ فوق نهرٍ واسعٍ، قليل العُمق، ذي لونٍ أخضر باهتٍ في الشَفَق.

جميعنا مُرهقون، ينهض عبد الله من مقعده، ويذهب إلى الخلْف حتّى نهاية المقطورة ورائي، ويسترخي في إحدي الزوايا، ويغطّي وجهه بسترته، فترفعُ مجدلينا نظرها عن هاتفها، وتُذَكِّرُنا بأنّه ليس هناك ما يضمن أنّنا سنصل إلى النمسا، يمكن أنْ يوقعنا ذلك في فخّ، ففي وقتٍ سابقٍ اليوم، أوقفت الشرطة قطاراً آخر متّجهاً إلى الحدود في بيسك، وهي بلدةٌ تقع خارج بودابست مباشرةً. هناك مأزقٌ الآن؛ إذْ تحاول الشرطة إجبار المهاجرين جميعهم على النزول من القطار، ونقلهم إلى مخيّم. هذا صحيح إذنْ، كانت قطارات اليوم حيلةً أُخرى، وفخّاً من قِبل الشرطة لإخلاء المحطّة، أنظر إلى ماجد، كان يُحدِّق من النافذة، ولمْ يفهم.

- «إذنْ، هل ستوقف الشرطة هذا القطار أيضاً؟». تسأل سارة.

- «لا أدري، لا أعتقد ذلك، لقد ارتدَّت خطّتهم عليهم، فالناس جميعهم يرفضون مغادرة القطار». تقول مجدُلينا.مكتبة سُر مَن قرأ

- «يوجد الكثير من طواقم التلفزيونات هناك، لا أعتقد أنّهم سيحاولون ذلك مرّةً أُخرى، أظنّ ذلك». يقول لام، ثمّ يلتفتُ إلى سارة.

- «يا رفاق، أنتم تحتفظون بجوازات السفر الخاصّة بكم، أليس كذلك؟». يسألنا لام.

تومئ سارة بأنّنا نحتفظ بها، فلا تزال جوازات السفر في أكياسنا البلاستيكيّة التي اشتريناها لعبور البحر.

- «أفكّر في أنّه ينبغي لكم إخفاء جوازات السفر في مكانٍ ما، تحسُّباً فقط». يقول لام.

إنّه على حقّ؛ فإذا أُلقي القبض علينا، ووجدت الشرطة جوازات سفرنا، فلربّما يتسبّب ذلك في مشكلاتٍ لنا لاحقاً في ألمانيا. لا تزال جوازات سفرنا مخبّأةً بأمانٍ داخل صدريّاتنا، لكنْ ليس لديّ أيّة فكرةٍ عمّا

فعله الآخرون بجوازات سفرهم. تترجمُ سارة اقتراح لام للآخرين، فيهزُّ ماجد كتفيه، ويضع جواز سفره على الطاولة، ويحذو الآخرون حذْوه. تقوم سارة بتجميع جوازات السفر، ثمّ تُخرِج الكيس البلاستيكيّ من صدريّتها، وتضع مستنداتنا جميعها بداخله، بعد ذلك تعيد الكيس إلى أسفل عنق قميصها، فيبتسم لام في وجهها: «أحسنتِ». يقولُ لام.

أحدِّقُ من النافذة، ترتفع الأشجار على جانبي القطار، بينما تمرُّ السكَّةُ بغابةٍ صغيرةٍ، ومن خلفِنا يمكن مشاهدة الحقول، والوادي، والمزيد من محطّات القطار والمستودعات. تبدأ عجلات القطار بالصرير، ويأخذ في التباطؤ، ها نحن نتوقّف، فيتقدّم القطار ببطْءٍ مارّاً بلافتةٍ فوق المنصّة مكتوبٍ عليها: كيلينفولد «Kelenföld».

ترفعُ مجدلينا نظرها عن دفتر ملحوظاتها، وتحملقُ في باب المقطورة، تنتظر وتحدِّق باهتمام، وبعد بضع دقائق ننطلق مجدّداً، وتعودُ مجدلينا إلى الكتابة. يبدأ القطار في القعقعة بينما تزداد سرعته، وفي الخارج نرى حقلاً فيه ألفٌ من أزهار عبّاد الشمس، تحني رؤوسها في ضوء الشمس المتلاشي. أعود لأتذكّر، ستّة أيّام، ستّة أيّامٍ فقط في هنغاريا، بدت كأنّها شهور.

تُطلِق عَجَلات القطار صوت صريرٍ، ويبطئُ القطار من سرعته متوقّفاً في إحدى المحطّات، نرى لافتةً أُخرى كُتِب عليها كلمة تاتابانيا «Tatabánya». تضع مجدلينا قلمها، وتحدِّق مرّةً أُخرى في باب المقطورة، فيرفعُ لام نظرهُ عن شاشة الكاميرا، ويتبادل النظرات مع مجدلينا. تُغلق الأبواب بعنفٍ، بينما نسمع تمتمّةً في الممرّ بالخارج، لكنّ باب مقطورتنا يبقى مغلقاً بإحكام، وينطلق القطار مرّةً أُخرى، ويعود الصحفيّان إلى عملهما.

نجلس بصمتٍ، لقد حَلَّ الظلام الآن، وضوء المقطورة ينعكس على الوجه الداخليّ للنافذة السوداء، فأشاهد انعكاسات صورِ الآخرين، وكان خليل نائماً، وعلى الطاولة ينظر ماجد إلى هاتفه، أرى عينيّ سارة في انعكاس النافذة، وهي تبتسم والنعاس يتسلّل إلى عينيها، وفي الطرف الآخر من المقطورة تنظر الفتاة الشقراء من النافذة، وتتحدّث بهدوءٍ في هاتفها، فيتثاءب نبيه، ويمدّ ذراعيه فوق رأسه، ويسأل ماجد عن شيءٍ يأكله، وينحني ماجد، ويسحب كيساً ورقيّاً، ويُفرغ كومةً من الشطائر على الطاولة، فنأخذ واحدةً أنا وسارة. يجمع نبيه أربع شطائر بين ذراعيه، ويضعها على الطاولة المقابلة لخليل، والفتى الأشقر، ولام، ومجدلينا.

- «شكراً». يقول لام: «لدينا طعامنا الخاصّ».

يُلِحُّ نبيه، فيأخذ الصحفيّان شطيرةً لتقاسُمها، ويحمل نبيه الشطائر الإضافيّة، ويأخذها إلى الطرف الآخر من المقطورة؛ حيث لا يزال عبد الله يغطُّ في نومٍ عميق. يلوّحُ نبيه بيده أمام وجه عبدالله، لكنّه لا يستجيب، فيتجاهل نبيه الأمر، ويمضي إلى الخلف؛ حيث تجلس الفتاة، تُراقبهُ بحذرٍ، وهو يقترب حاملاً الشطائر.

- «أتريدين أنْ تأكلي؟». يسألُ الفتاةَ بالإنجليزيّة.

تهزُّ الفتاةُ رأسها، ثمَّ فجأةً تنهارُ بشهقاتٍ صاخبةٍ، فينظرُ نبيه نحونا مُحتاراً بينما تضع الفتاة وجهها بين يديها، وكتفاها يهتزّان، ويتبادل لام ومجدلينا النظرات.

- «ما الذي يجري؟». تسأل مجدلينا بينما تنهض: «ما الذي حدث؟».

يتراجع نبيه ببطءٍ في نهاية المقطورة بعيداً عن الفتاة بينما تسيرُ مجدلينا في الممرّ نحوهما، فيعود نبيه إلى مقعده مصعوقاً.

- «ما الذي حدث؟ ماذا قلت لها؟». أسأله.

- «أُقسم أنّي لمْ أقل شيئاً، عرضتُ عليها شطيرةً فحَسْب». يجيبُ نبيه.

ينهض لام، ويسيرُ إلى نهاية المقطورة؛ حيث تتحدّث مجدلينا والفتاة بصوتٍ منخفضٍ، ويتباطأ القطار مرّةً أُخرى، وتطلق الفرامل صريرها، وعلى طول المنصّة أرى من النافذة لافتةً أُخرى كُتِب عليها «جيور» «Gyor».

ينظرُ ماجد إلى أعلى.

- «هذه هي المحطّة الأخيرة قبْل الحدود النمساويّة». يقول.

تنفتحُ أبواب القطار؛ حيث يوجدُ خطوات في الممرّ الخارجيّ، وأسمع صوت لام المرتفع في نهاية الممرّ، فتستديرُ مجدلينا عندما ينفتحُ باب المقطورة، فأنظر إلى أعلى، وتنقبض معدتي حين أرى شرطيّاً يقف في المدخل.

15

telegram @soramnqraa

يسير الشرطيّ نحْونا، ويليه شرطيّةٌ واثنان من الضبّاط يرتدون الزيّ العسكريّ الأزرق الداكن، وأحزمةً مشكولاً بها مسدّسات وهراوات سوداء لامعة، فيصلون إلى طاولتنا.

- «من أيّ بلدٍ أنتم؟». تُزمجرُ الشرطيّة في وجوهنا.

لا تزال صغيرةً، وكان شَعرها الداكن على شكل ذيْلٍ طويل. أنظرُ إلى ماجد، يبدو شاحباً، ويشعرُ بالغثيان قليلاً. تتولّى سارة المسؤوليّة، وتنظرُ إلى الشرطيّة مباشرةً عيناً بعين.

- «نحن من سوريا». تجيبُ سارة.

- «حسناً». تقول الشرطيّة: «اخرجوا من القطار جميعاً، الآن».

كنت مندهشةً للغاية؛ بحيث لمْ أستطع التحرّك بدايةً، بعد ذلك أرى لام ينظر إلينا من وراء كتف الشرطيّ الأخير، فيغمزني، فأبتسم. نقوم بتجميع الأشياء الخاصّة بنا معاً، وننزلُ من القطار إلى المنصّة. تُطوّقنا الشرطة كما لو أنّنا مجرمون مُتمرِّسون. يلحق بنا لام ومجدلينا على طول رصيف المحطّة.

- «إلى أين تقتادونهم؟». تسألُ مجدلينا.

- «من أنتِ؟». يسألها أحد رجال الشرطة، بينما ينظر إليها للمرّة الأولى.

- «نحنُ صحفيّون». تجيب مجدلينا: «إذا آذيتموهم فسننشرُ ذلك في الصحف».

- «لا تهدِّدينا». تقول الشرطيّة لمجدلينا.

تواجه مجدلينا الشرطيّة، وتتقدّم لتقف بجانبي أنا وسارة: «إنّها الفتاة الشقراء»، تهمسُ مجدلينا: «اتّصلت بالشرطة، وأخبرتهم أين كنّا نجلس». أخبرت الفتاة مجدلينا أنّها اعتقدت أنّنا أشخاصٌ سيّئون، وإرهابيّون كانوا سيفجّرون القطار، إلّا أنّها ندمت على فعلتها عندما قدّم إليها ابن عمّنا نبيه بعض الطعام.

- «يا لها من غبيّة!». تقول سارة بصوتٍ عالٍ: «ألا تستطيع أنْ ترى أنّنا مجرّد بشرٍ مثلها؟».

تُخرجنا الشرطة من المنصّة، ومن خلال الأبواب السحَّابة إلى قاعة مدخل المحطّة الكبرى، وننعطفُ يساراً إلى غرفة الانتظار.

يُجلسنا رجال الشرطة في صفٍّ على طول مقعدٍ خشبيٍّ، ومِن ورائنا كانت هناك نافذةٌ كبيرةٌ تطلُّ على المنصّة، ألتفت لأشاهد قطارنا، وهو يغادر في اتّجاه النمسا. كنّا قريبين جدّاً. مهلاً، أين عبد الله؟ أتلفّتُ حولي، إنّه ليس معنا، لا بدّ من أنّه ما يزال في القطار، ومن المُحتمل أنّه لا يزال نائماً بينما يسير به القطار عبْر الحدود من دون أنْ يعلم.

يصطفُّ عناصر الشرطة أمامنا، ومِن خلْفهم كان لام يلتقطُ الصور، ومجدلينا تكتبُ في دفتر ملحوظاتها. يجلس الفتى الأشقر في نهاية المقعد إلى يساري، ويتقدّمُ نحوهُ أحد رجال الشرطة.

- «قِفْ!». يقول الشرطيّ، ويومئ بيديه، فيقفُ الفتى الأشقر، ويقوم

الشرطيّ بتفتيشه. يطلب الشرطيّ رؤية حقيبته، فيُسلِّم الفتى الأشقر حقيبة ظهْره الصغيرة، فيقوم الشرطيّ بإفراغها على الأرض.

تنقبضُ معدتي، ماذا ستفعل الشرطة عندما يجدون جوازات سفرنا؟ هل سيأخذون بصماتنا؟ أو سيسجّلوننا بعكس رغبتنا؟ يمكن أنْ يجبرونا على البقاء في هنغاريا، أو ما هو أسوأ من ذلك؛ أنْ يعيدونا من حيث أتينا. أنظر حَوْلي بتوتُّرٍ، يجبُ أنْ نعبُر الحدود، علينا المُضيّ قُدماً، يجب أنْ نصل إلى ألمانيا.

تتقدّم الشرطيّة نحْوي، وتطلب إليّ الوقوف، ثمّ تفتّشني، فأسلِّمها هاتفي، وتقومُ بإفراغ حقيبتي، لتُفرِغ الأشياء القليلة التي أملكها على الأرض. تلتقطُ الشرطيّة بطاقةً وتُقلِّبها؛ إنّها بطاقة الفندق الذي أقمنا فيه في بودابست. تسأل الشرطيّة عن ماهيّة البطاقة، فأرفع كَتِفَيَّ إشارةً على عدم معرفتي، فتقول الشرطيّة شيئاً ما باللّغة الهنغاريَّة لرجال الشرطة الآخرين، فيضحكون جميعاً.

- «صحيح». تقول سارة باللّغة العربيّة: «يعتقدُ هؤلاء الرجال أنّهم بارعون، أليس كذلك؟».

ينفجر خليل ضاحكاً.

- «يا إلهي! الرجال الكبار مخيفون جدّاً بِعصِيّهم البلاستيكيّة الصغيرة». تقول سارة: «أراهن أنّ زوجاتهم يضربْنهم بالعِصيّ عندما يعودون إلى المنزل. يا إلهي! أنا خائفةٌ جدّاً».

نضحكُ أنا ونبيه، أعلم أنّ الضحك ليس مناسباً، بلْ قد يكون خطيراً، لكنّني لا أستطيع منْع نفسي من الضحك، يبدو الموقف سخيفاً جدّاً، الفتى الأشقر وماجد يحدّقان في قدميهما بصمتٍ مهينٍ، لا يضحكان، فيقترب أحد رجال الشرطة من سارة، ويطلُب أنْ يعرف ما الذي يُضحكنا.

تنظرُ سارة في عيون الشرطي.

- «كنّا نقول فقط إنّنا لسنا خائفين منكم». تقول سارة.

- «لِمَ لستم خائفين؟». يقول الشرطيّ: «ينبغي أن تكونوا خائفين».

- «أتعلَمين؟». أسألُ الشرطيّة: «ما أسوأ شيء يمكنكم القيام به تجاهنا؟ اقتيادنا إلى السجن؟».

تنظرُ الشرطيّة إليّ بدهشة.

- «لقد نجونا من البحر». أقول: «ما الذي يمكنكم أنْ تفعلوه بنا الآن؟».

تصمتُ الشرطيّة، فيبتسم لام، ويتابع التقاط الصور، فنرسمُ أنا ونبيه على وجوهنا تعابير سخيفةً أمام الكاميرا، بينما تنظر مجدلينا مرعوبةً تماماً. يتقدّمُ شرطيٌّ آخر نحْو ماجد الذي يجلس إلى جانبي محدِّقاً في الأرض. يأمره الشرطيّ بالوقوف، فأحثّه على النهوض، فينهض، يفتِّشه الشرطيّ، ويفرغ حقيبته على الأرض، فيسلِّم ماجد هاتفه للشرطي.

سارة هي التالية، لديها أوراقنا، لقد انتهى الأمر تقريباً، يخفق قلبي بسرعةٍ، هذه هي النهاية، ماذا لو أعادونا إلى سوريا، لمواجهة القنابل؟ عند تلك الّلحظة تماماً يرنُّ الهاتف، يقول الشرطيّ الذي فتّش ماجد شيئاً ما باللّغة الهنغاريَّة، ويسير خارج غرفة الانتظار، بينما تستدير الشرطية نحْو زملائها.

تستغلّ سارة حالة تشتّت الانتباه هذه، وتجذب حقيبة ظهرها إلى الأمام، وتبدأ في العبث بشيءٍ حَول عنقها، ثمّ تسعل بصوتٍ عالٍ، يرفعُ ماجد ذراعيه فوق كتفيه كما لو كان يتمدّد، تخفضُ سارة رأسها إلى حقيبة ظهرها، وترفع يدها اليسرى إلى أذنها. لا أصدّق ذلك! تحمل سارة الكيس الذي يحوي جوازات السفر، يأخذه ماجد ويدسّه في جيبه، لقد حالفنا الحظّ، ولمْ يلْحظنا أحد.

يعود الشرطيّ الأوّل إلى غرفة الانتظار، وتعود الشرطيّة لفحص سارة، تأمر سارة بالوقوف، فيفتّشها الشرطيّ. تُسلِّم سارة الشرطيّ هاتفها، بينما تقوم الشرطيّة بإفراغ حقيبتها، لا جوازات سفر، أتنفّس الصعداء، خطوة جيّدة يا سارة، هذا ما يمكنني فعله كلّه للاستمرار بالضحك.

ينتشر ضوءٌ أزرقُ وامضٌ عبْر غرفة الانتظار من الطريق الخارجيّ، يأمرنا الشرطيّ طويل القامة بالوقوف، فأعيد أشيائي القليلة إلى حقيبتي، وأتبع الآخرين عبْر قاعة المدخل، وبعدئذٍ إلى خارج أبواب المحطّة. كانت شاحنة شرطةٍ بيضاء تنتظرنا في موقف السيّارات، يقودنا الشرطيّ إلى الخلْف، ويفتح الباب المزدَوَج. يواجه صفّين من الكراسي البلاستيكيّة البيضاء بعضهما داخل السيّارة، وفي الخلْف ثُبِّتَ كرسيٌّ قابلٌ للطيّ على حاجز كابينة السائق. بالكاد أستطيع أنْ أرى رجلاً جالساً على الكرسيّ في الخلْف، نتكدّسُ في الشاحنة، وفي الخارج يراقب لام ومجدلينا برعبٍ، بينما يُغلَق الباب المزدوج خلْفنا.

- «مرحباً». يقول الرجُل الجالس على المقعد مبتسماً، فيما برقت أسنانه البيضاء في الظلام.

أقفزُ من شدّة خوفي، تقهقِهُ سارة، وفي الضوء المنبعث من نافذة المقصورة لا يمكنني سوى رؤية قميص الرجُل متعدّد الألوان، وبنطاله الأحمر. يدورُ محرّك الشاحنة، فيشير الرجُل فوق كتفه نحو الشرطة في المقصورة.

يقول بلهجةٍ أفغانيّةٍ غليظةٍ: «انظروا، انظروا، انظروا، انظروا، انظروا».

أكبتُ ضحكتي، تنعطف الشاحنة، وتواصل السير على الطريق، فيسحب الرجُل هاتفه، ويبتسم مرّةً أُخرى، وظلَّ يعبث بالهاتف حتّى خرج صوت أغنيةٍ من موسيقا البوب من مكبّرات الصوت الصغيرة، وحينها راح الرجُل يرفع يديه في الهواء.

- «انظروا، انظروا، انظروا، انظروا». يقول الرجُل تزامُناً مع الموسيقا.

نضحك جميعاً، بصوتٍ عالٍ الآن، وتسود حالةٌ من الهستيريا داخل الشاحنة. بدا الأمر كما لو أنّه إخلاء سبيل؛ يمنحني الضحك الشجاعة والقوّة، ويجعلني أشعر كما لو أنّ بإمكاني القيام بأيّ شيءٍ قد يأتي بعد ذلك.

- «قولي له أنْ يصمت». يقول ماجد: «سوف يتسبّب بورطةٍ لنا جميعاً».

يشيرُ الرجُل إليّ.

- «من أين؟». يسأل.

- «أنا سوريّة». أقول.

- «آه». يقول الأفغاني.

يمدّ الرجُل يده إلى جيبه، ويسحب جواز سفرٍ أحمرَ داكناً، يفتحهُ على صفحة الصورة، ويضعهُ أسفل الضوء المنبعث من المقصورة، الصورة لا تشبهه على الإطلاق؛ من الواضح أنّه تزويرٌ رخيصٌ. يُشير الرجُل إلى نفسه.

- «إيطالي». يقول مبتسماً.

تتباطأ الشاحنة، وتتوقّف، فنسمع أبواب مقصورة القيادة تُغلق بقوّةٍ، ثمّ يُفتَحُ الباب المزدوج، ويغمر الضوء الشاحنة، فتأمرنا الشرطيّة بالنزول من الشاحنة واحداً تلْو الآخر. أنتظر في الشاحنة بينما يخرج الآخرون في اللّيل، ثمّ أنهض، وأنظر حَوْلي، نحن في ساحة مزرعةٍ محاطةٍ بحظائرَ طويلةٍ، تمسكُ الشرطيّة ذراعي وتقتادني نحْو غرفةٍ معدنيّةٍ مؤقّتةٍ من دورٍ واحدٍ بين الحظائر. ندخل إلى مكتبٍ صغيرٍ فيه منضدةٌ، وخزانةٌ لحفظ الملفّات، وكرسيّان، تنتصبُ في الزاوية آلةٌ ذات لونٍ بنّيٍّ فاتحٍ تبدو كأنّها

آلة تصويرٍ، فتشير الشرطيّة إلى الآلة، ولدى اقترابي أكثر يتبيّن لي أنّها ليست آلة تصوير، توجد صفيحةٌ زجاجيّةٌ مربّعةٌ مع شاشةٍ صغيرةٍ فوقها.

– «الاسم، تاريخ الميلاد، مكان الميلاد». يقولُ الشرطي.

– «يُسرى مارديني، 5 آذار/ مارس 1998، دمشق، في سوريا». أقول.

تنظرُ الشرطيّة نحْوي، وتُحاول أنْ تستطلِعَ ما إذا كنتُ أتواقح معها. تستدير وتكتب على الآلة، ثمّ تطلب إليّ أنْ أمسك بيدي اليسرى، وتضغط علىٰ رؤوس أصابعي الأربعة إلى الأسفل على الزجّاج ذي الإضاءة القويّة. تظهر أربع بقعٍ داكنة على الشاشة، فتأخذ كلّاً من أصابعي بدورها، وتضغط وتدير أطراف الأصابع عبْر الماسح الضوئيّ، ثمّ تفعل الشيء نفسه مع يدي اليمنى، لقد سجِّلَت بصمات أصابعي في نظامهم. يرتجف قلبي، ما الذي سيعنيه هذا لاحقاً؟ تفتح الشرطيّة دُرْجاً في المنضدة، وتسحب الكاميرا، فتصوّرني، ثمّ تُخرجُ صينيّةً بلاستيكيّةً رماديّة.

– «أربطة الحذاء». تزمجرُ الشرطيّة.

أستهجن الأمر، وأسحبُ الأربطة من حذائي، وأسلِّمُها، فتشير الشرطيّة إلى السوار حَوْل معصمي، فأخلعهُ وأضعهُ في الدرْج. تمسكُ الشرطيّة حقيبتي، وتضعها في زاويةٍ مع الحقائب الأُخرى. لقد انتهينا، تمسكُ ذراعي، وتسحبني خارج المكتب إلى مبنى الحظيرة على يسارنا. تنبعث من داخل المبنى رائحة حيوانات، كلا الجدارين مُحاطان بسورٍ ارتفاعه ثلاثة أمتارٍ يمثّل سلسلةً من الإسطبلات المفتوحة في الأعلى، وهناك فجوةٌ تمتدّ حتّى السقف الحديدي المموَّج.

تقتادُني الشرطيّة إلى نهاية الصفّ، وتتوقّف خارج الإسطبل الأخير، ومن خلال القضبان أرى سارة وابنَي عمّنا: نبيه، وماجد في الداخل. تفتحُ الشرطيّة الباب، فأدخل، ثمّة ستّة كراسٍ بلاستيكيّةٍ بيضاء تشغل معظم

مساحة الأرضيّة التي تناثرت فيها بضعة جدائل من القشّ. تُقفِلُ الشرطيّة الباب ورائي، وتنطلق.

- «كان الأمر ممتعاً إذنْ». أقول بمجرّد رحيلها: «أكان الأمر كلّه من أجل أربطة الأحذية؟».

- «نعم، لقد أخذت رباط حذائي أيضاً». تقول سارة: «يبدو الأمرُ كما لو كان بإمكاني قتل نفسي برباط حذاء، يا لها من نكتة! أخبرتها أنّهُ لو أردنا قتْل أنفسنا لكنّا بقينا في سوريا، كما لو أنّني أقطعُ هذه المسافة كلّها للانتحار في مزبلة هذه البلاد».

ينفتح باب الإسطبل مرّةً أُخرى، ويدخل خليل والفتى الأشقر، فيُغلقُ شرطيٌّ الباب خلفهما، ويلقي حزمةً كبيرةً على الجزء العُلْويّ من السور، فأحملها، وأُخرِجُ قطعة قماشٍ، بطّانية صوفٍ رماديّة، أفتحها، وأقرأ الكلمات بالحروف البيضاء: «UNHCR» مفوّضيّة الأمم المتّحدة لشؤون الّلاجئين.

يعود الشرطيّ ممسكاً بصندوقٍ من الورق المقوّى في ذراعيه، فيرفع حزمةً بيضويّةً صغيرةً من الصندوق، ويلقيها فوق السور، تستقرّ الحزمة على الأرضيّة الخرسانيّة بلطفٍ، وتطيرُ الحزمة الثانية، تليها حزمةٌ ثالثةٌ، ورابعةٌ، وخامسة. تهبط حزمةٌ أُخرى فوق القشّ في الجزء الخلفيّ من الإسطبل، أمشي فألتقطها، كانت شطيرةً ملفوفةً ببلاستيك تغليف، أُزيل الغلاف البلاستيكيّ، فتُباغتني رائحةٌ كريهةٌ من الدجاج القاسي، أووه، لن أتناول هذا! حتّى إنّ الآخرين لا يكترثون حتّى بالنظر إلى الشطائر؛ نترك حزمة الطعام حيث هبطت.

أجلس بين نبيه وخليل على أحد الكراسي البلاستيكيّة، كلاهما يبدوان مكتئبَيْن، تلهث الخواطر في ذهني، وتنخزُ الدموع مُقلتَيّ، لا بدّ من

أنْ يكون صديقنا عبد الله في النمسا الآن، أو لربّما استقلّ قطاراً آخر إلى ألمانيا، وتلك الفتاة الشقراء، لماذا لم تدعنا وشأننا؟ لقد أُخِذت بصماتنا، هل هذا يعني أنّ الأمر قد انتهى؟ هل سيعيدوننا إلى تركيا، ثمّ إلى سوريا؟ ولو وصلنا إلى ألمانيا، هل سيعيدوننا إلى هنغاريا؟ ربّما لا يزال كلّ شيءٍ على ما يرام، أنا وابن عمّي نبيه دون سنّ الثامنة عشرة، لذلك صُنِّفنا كقُصَّر. سارة وماجد هُما الوصيّان القانونيّان علينا، لقد سمعنا أنّ الدول الأوروبيّة لا تُرَحِّلُ القُصَّرَ والأوصياء عليهم، لكنّنا لسنا متأكّدين، هذا ما أمامنا كلّه؛ شائعاتٌ وقوانينُ نصف مفهومة.

تنظر سارة إليّ، ثمّ إلى خليل، كلانا على وشك البكاء، خائفَينَ، ومرتبكَيْن، ونتضوّر جوعاً.

- «مهلاً». تقول سارة مبتسمةً: «لا تقلقا، لا يُمكنهم احتجازنا هنا إلى الأبد».

تخطو سارة إلى الطرف الآخر من الإسطبل، فتستدير، ثمّ تعود.

- «أتعرفان؟». تقولُ سارة: «عليكما أنْ تقولا: الحمد لله، الحمد لله، فهذا الصباح كنّا نأكل البرغر في «برغر كينغ»، وفي الّليلة السابقة كنّا ننام في فندقٍ باهظ الثمن، والآن ننام في إسطبلٍ، وهُم يرمون لنا الشطائر التي لا تأكلها الكلاب، ومن عساه يعلم غداً؟ هذه هي الحياة».

- «سارة على حقّ». يقولُ ماجد: «نحن في أمانٍ، ولمْ يُصبْ أحدٌ منّا بأذى، الحمد لله على هذا».

يظهر رجُلٌ على الدرابزين، ويقدّم نفسه بالعربيّة، يقول: إنّه مترجمٌ لنا، وإنّه هنا لمساعدتنا. يسألهُ ماجد ماذا سيحدث لنا الآن، فيخبرنا المترجم أنّ الشرطة ستبقينا هنا طوال الّليل، وسوف ينظرون في أمرنا صباحاً، ويعطوننا ورقة عبورٍ تسمح لنا بمغادرة هنغاريا، بعد ذلك سنكون أحراراً في الذهاب

حيث نشاء. ألتقط أنفاسي، قد لا تكون الأمور قاتمةً كما تبدو، وتساورُ الشكوكُ ماجد، لكنّ المترجم يُصِرّ: يمكننا عبور الحدود إلى النمسا غداً إذا أحببنا، والذهاب إلى ألمانيا، أو أينما كان. يتركنا المترجم بينما نستلقي على كراسي التشمُّس البلاستيكيّة أسفل البطّانيّات الرماديّة. لم يكن أحدٌ يرغب في الحديث، ما يمكننا فعله كلّه هو انتظار ما سيكشفهُ الغد.

أستيقظُ على صوتٍ أنثويٍّ مرتفعٍ يوقظني.

أفتح عينيّ، إنّه الصباح، فأجد صعوبةً في معرفة مكاني.

ظهري يؤلمني.

- «حان الوقت للذهاب». يقول الصوت الأنثويّ.

أنظر، فأرى الشرطيّة تقف بباب الإسطبل برفقة اثنين من رجال الشرطة، كان الآخرون قد نهضوا مُسبقاً، أزيح البطّانيّة عن ساقيَّ، وأحاول النهوض، تفتح الشرطيّة الباب، فنخرج، يقودنا رجال الشرطة خارج الإسطبل عبْر الفناء إلى الحظيرة الثانية. عوضاً عن الإسطبلات، تحتوي هذه الحظيرة على قفصٍ معدنيٍّ كبيرٍ في أحد الجوانب، ومن خلال القضبان، أرى حشداً ينتظر في الداخل، نحو أربعين شخصاً جميعهم من الرجال. أولئك الأقرب إلى الباب يلتفتون حالما ندخل، ويُحدِّقون فيّ وفي سارة، فنجلس على الخرسانة، ونبذل قصارى جهدنا لتجاهلهم.

كان الوقت آخر الصباح عندما عادت الشرطيّة ومعها المترجم. اصطحبانا إلى مبنى الاستقبال، وأعادا لنا أشياءنا. أخبَرنا المترجم أنّ الحافلة ستأخذنا من هنا إلى حيث نشاء. أزدادُ أملاً، وأنا أجهد لإعادة ربط أربطة حذائي، هل يمكنهم حقّاً إطلاق سراحنا؟ يحذِّرنا المترجم من الوقوع في قبضة الشرطة مرّةً أُخرى، إذا اكتشفت الشرطة أنّنا مُسجّلون مسبقاً لديهم، فقد يأخذوننا إلى سجنٍ حقيقيّ.

تظهر الشرطيّة مرّةً أُخرى عند باب المكتب، وتومئ لنا نحو الخارج حيث تنتظر شاحنةٌ سوداءُ كبيرةٌ، فيقودنا الشرطيّ إلى الخلف، ويفتح الباب المزدوج، لا توجد نوافذ داخل الشاحنة، فقط فتحة صغيرة في الخلف تؤدّي إلى مقصورة السائق. تتكيّفُ عيناايَ مع الظلام بينما تعبث الشرطيّة بمفتاح، فتتراجع، وهي تفتح باباً داخليّاً لمْ أره من قبْل، تتشنّج معدتي؛ إنّه قفصٌ فولاذيّ.

- «أُدخِلي». تقولُ الشرطية.

- «لكنّ المترجم قال: إنّنا أحرار في الذهاب». تقول سارة.

- إلى الداخل.

ندخل القفص، فيغلقُ الشرطيّ باب القفص بعنفٍ خلْفنا ويقفله، بعد ذلك انغلقت أبواب الشاحنة، وأصبحنا في ظلامٍ دامسٍ، ولمْ نعد نرى ضوء النهار سوى من الفتحة الصغيرة بيننا وبين المقصورة الأماميّة. يخفق قلبي بسرعةٍ، إلى أين سيأخذوننا؟ أنظر إلى سارة، بالكاد أرى وجهها في الظلام، إنّها غاضبةٌ، تمدُّ الشرطيّة نفسها إلى مقصورة السائق، وتغلق الفتحة لنغرق في ظلامٍ دامسٍ، يدور المحرّك، وتنطلق الشاحنة، فأشعر بإهانةٍ كبيرةٍ؛ لماذا يعاملوننا كما لو كنّا مجرمين؟ لا أفهم لماذا قال هذا المترجم: إنّهم سيدَعوننا نذهب، تنقلب الأذيَّة إلى غضبٍ، لقد وثقنا به، إلّا أنّه خاننا، ألمْ يكن باستطاعته أنْ يكون نزيهاً معنا؟

نجلس في صمتٍ مطبقٍ في الظلام بينما تنحرف الشاحنة وتهدر على طول الطريق، وبعد عشرين دقيقةً يتباطأ المحرّك ويتوقّف، وما هي إلّا لحظات حتّى كانت الأبواب الخلفيّة قد فُتحتْ، وغمرها الضوء. أرفع عينَيّ في اتّجاه الشمس بينما تصل الشرطيّة لفتح باب القفص. أتسلّق بمشقّةٍ وراء الآخرين، وأتلفّت حَوْلي، نحن في مخيّمٍ، تنتصب صفوفٌ

من الخيام البيضاء الفاتحة مدبّبة الرؤوس في خطوطٍ خارج مبنى طويلٍ رماديٍّ، وخارج كلّ خيمةٍ ينتصب كيس نفاياتٍ كبيرٌ يفيض بالقمامة، ورائحته كريهة، والمكان ممتلئٌ بالناس: رجال، ونساء، وأطفال، يمشون بين الخيام، ويحملون الغسيل، أو يجلسون تحت الأشجار في الظلّ، ومِن خلْفنا تصعد الشرطيّة الشاحنة، ويدور المحرّك، وتُطلِق السيّارة جرس تنبيهٍ بينما تنعطف متجاوزةً بوّابةً معدنيّةً مفتوحة. نحن الآن وحْدنا، ليس هناك أيّة علامةٍ تدلّ على وجود أيّ موظّفين.

هناك امرأةٌ تضع حجاباً باللّونين: الأبيض، والأحمر، تُحدّق في وجهي، فأسيرُ نحوها.

- عفواً، لو سمحتِ. منذ متى وأنتِ هنا؟

- «منذ ثلاثة أشهر». تقول السيّدة.

- وما الذي تنتظرونه؟

- «لا أعرف». تقول المرأة: «لا أحد يخبرنا بأيّ شيء، أريد أنْ أذهب إلى زوجي في ألمانيا، ولكنْ حين جئت إلى هنا قالوا لي: إنّ من المفترض أنْ أبقى هنا ستّة أشهر، أنا مع أطفالي الثلاثة، وكما ترين، أنا أنتظر فقط».

أنظر إليها في شفقةٍ ورُعب.

- «أنا أيضاً أريد أن أذهب إلى ألمانيا». أقول مُتلفّتةً حَولي، ومحاوِلةً إبعاد الذعر عن صوتي: «الآن، على الفوْر، اليوم، إذا غادرنا الآن فقد نكون هناك اللّيلة».

أعود وأنضمُّ إلى الآخرين. عثر ماجد على أحد سكّان المخيّم يعرف مهرّباً في قريةٍ مجاورةٍ، قد يكون المهرّب قادراً على نقلنا إلى النمسا، نحن على بُعد ساعةٍ في السيّارة من الحدود، فيتّفق ماجد مع المهرّب على أخذنا من هنا، فننتظره في الخارج على الطريق، وعلى ما يبدو ليس هناك سياج يُلزِمنا بالبقاء هنا؛ بإمكاننا الخروج.

نتعطف ونتمشّى مرّةً أُخرى نحْو البوّابة المعدنيّة، لا توجد حتّى الآن علامةٌ على وجود أيّ موظّفين، فيسحب ماجد البوّابة، وتُفتَح متأرجِحةً، فنندفع خارجين في اتّجاه الطريق، فأرمُق الآخرين بابتسامةٍ عريضةٍ؛ كان الأمر سهلاً، إلاَّ أنّنا ندرك جميعاً عدم رغبتنا في الاعتقال ثانيةً، ولا أحد منّا يريد أن يعرف كيف يبدو السجن الهنغاريّ الحقيقيّ، فنحثُّ خُطانا أكثر على الطريق بعيداً عن المخيّم.

- «لقد سئمتُ من المُهرِّبين هنا». تقول سارة، ونحن نسير: «دائماً ما يقولون بأنهم سيفعلون شيئاً، ثمّ يختفون، دعونا نعود إلى بودابست».

نتوقّف جميعاً عن المشي، ونُحدّق فيها، نحن قريبون جدّاً من النمسا بالفعل، لا تبعد الحدود سوى ساعةٍ في السيّارة من هنا، لماذا نعود إلى بودابست؟ لكنّ سارة عازمةٌ، تريد المحاولة مرّةً أُخرى في القطار، لقد سئمت من التعامل مع المهرّبين الذين لا يمكن الوثوق بهم.

- «لدينا أشخاص نعرفهم في بودابست». تقول سارة: «كما أنّنا نعرف فندقاً يمكننا المكوث فيه». لكنّ ماجد والآخرين يريدون تجريب المهرّب، ومعرفة ما إذا كنّا نستطيع عبور الحدود على الفور. يتواصل الجدال بينما ننتظر أنْ تصل السيّارة لتقِلّنا، تمرّ بعض السيّارات، ولكنّ أحداً لا يتوقّف، وبعد أكثر من ساعةٍ، تظهر حافلةٌ صغيرةٌ في مقدّمة الطريق أمامنا، تُبطئ السيّارة بينما تمُرُّ بقربنا، وتتوقّف إلى جانب الطريق. تسير سارة نحو نافذة السائق، فنتبعها، السائق رجُلٌ في منتصف الثلاثينيّات من عمره، ذو وجهٍ منبسطٍ، وابتسامةٍ لطيفةٍ، ويبدو غير مؤذٍ، وعاديّاً تقريباً. تُخبره سارة أنّنا غيّرنا رأينا، وأنّنا نريد الذهاب إلى بودابست، فيعطينا السائق تسعيرةً، وتفتح سارة الباب السّحّاب على جانب الحافلة، فنُحملِق جميعنا فيها.

- «ماذا دهاكُم؟». تتساءل سارة: «هيّا بنا، دعونا نذهب».

أتجاهلُ ما يحدث، وأدخل الحافلة، كذلك تبعني الآخرون، وقبْل أنْ ندرك ذلك، كنّا نسارع عائدين إلى بودابست، لقد فازت سارة. يُبرِزُ خليل هاتفه، ويقول: إنّه وجد مُهرِّباً آخر يمكننا تجربته، فتعبس سارة، ولكنّ ماجد يرى أنّ الأمر يستحقّ المحاولة، وبعد نصف ساعةٍ يومض هاتف خليل مرّةً أخرى ويهتزّ، لدى المهرّب سيّارتان، ويقول: إنّ بإمكانه أنْ يأخذنا إلى ألمانيا، لكنْ علينا العودة إلى بودابست بسرعة.

- «أخبِره أنّنا قادمون». يقول ماجد لخليل: «قل له: إنّنا نسير بأسرع ما يمكن».

أُحدِّق من النافذة متسائلةً ما الذي سيحدث بعد ذلك، يجب أنْ يكون هناك طريقةٌ للخروج من هذا البلد، أنا مُرهَقةٌ، وتعبت من الجَرْي، وتعبت من السيْر على الطرقات، أريد فقط الوصول إلى مكانٍ ما، أريد أنْ أشعر بالأمان، وأنْ أستقرّ. لأوّل مرّةٍ منذ مغادرتي المنزل يذهلني إدراك كم أنا بعيدةٌ عن أمّي، وعن دمشق، وعن كلّ شيءٍ، وعمّن أحبّ كلّهم، فأديرُ رأسي، وأحدِّق من النافذة بصلابةٍ آملةً ألّا يلْحظ أحدٌ دموعي. كان قد مضى على ركوبنا السيّارة قُرابة الساعة والنصف عندما وقع نظري على الأضواء الساطعة الزرقاء في الجانب الآخر من الطريق، هناك سيّارة شرطة تقف مباشرةً في منتصف المسار المقابل، ومن ورائها يوجد حشدٌ كبيرٌ من الناس يسيرون على الطريق السريع في اتجاهنا بعيداً عن بودابست. في مقدّمة الحشد، يلوِّح رجُلٌ بعلمٍ أزرقَ ضخمٍ عليه نجومٌ صفراءُ؛ إنّه عَلَم الاتّحاد الأوروبيّ.

- «انظروا إلى هؤلاء البشر كلّهم». أقول: «ما الذي يجري؟».

لا أحد يتكلّم، نُحدّق جميعاً من النوافذ إلى اليسار، بينما نمرُّ بمحاذاة الحشود، الآلاف من الرجال، والنساء، والأطفال، يسيرون ببطءٍ منهكين

على طول الطريق السريع، بعضهم يسيرون حتّى بلا أحذيةٍ، وتزيد السيّارات سرعتها حين تعبُر بجانبهم، وفي مؤخّرة الحشد تجلس بعض العائلات، وتستريح إلى جانب الطريق، فنواصل السيْر نحو المدينة.

يُنزِلنا السائق عند الساحة أمام مبنى المحطّة في بودابست، أصبح الحشد أصغر، مُخلِّفاً أكواماً من القمامة المتناثرة على الخرسانة، كذلك اختفت دوريّات الشرطة التي تحرس المدخل. نخطو داخل مبنى المحطّة، فنجد صفّاً من الناس نائمين في الداخل مقابل جدارٍ منخفضٍ، فيما عُلِّقت بناطيل الجينز لتجفَّ على الحائط فوقهم. أتساءل ما إذا كان أيٌّ من أصدقائنا لا يزال هنا، فنسير حَول الحشد النائم، وننزل في اتّجاه البهْو في الأسفل، هناك، في المكان السابق نفسه، يجلس صديقنا اللّاذقانيّ أحمد وأخواتِه؛ أمّا إدريس، فيجلس أبعد قليلاً، ويستلقي مصطفى إلى جواره، ورأسه في حضن أبيه.

- «ماذا تفعلين هنا في الخلْف؟». يقول أحمد: «ظننتُ أنّكِ أخذتِ القطار».

يتولّى ماجد إخبار الآخرين عن مغامرتنا في السجن.

- «لماذا عُدتم الى هنا؟ أتى بعض البلطجيّة في وقتٍ سابقٍ، وألقوا الألعاب الناريّة على الحشد، واضطّررنا إلى الاختباء هنا، ثمّ جاء رجُلٌ يقول: إنّه سوف يذهب إلى النمسا سيْراً على الأقدام، وذهبَت دفعةٌ من الناس معه، إنّهم مجانين! فالطريق يستغرق ما لا يقلّ عن ثلاثة أيّامٍ سيْراً على الأقدام». يقول أحمد.

إذنْ، كان هؤلاء الذين يتحدّث عنهم أحمد هُم الحشد الذي رأيناه يسير على امتداد الطريق السريع، أتساءل ما إذا كانوا سوف يجتازونه. أجول بنظري على المحطّة الخَرِبة، ربّما يجب أنْ نبدأ سيْراً على الأقدام نحن

أيضاً، في الاتّجاه الذي وصلنا منه حالاً، وحينها تماماً، يرنّ هاتف خليل، إنّه المهرّب، لقد أخبره أنّه سوف يقابلنا في «ماكدونالدز»، يرتجف قلبي، هذا إذا أتى، فنحن ندور في حلقةٍ مُفرغةٍ، هل سنخرج من هذه الورطة؟

نترك أحمد في المحطّة، ونسير على الطريق الرئيس المزدحم إلى «ماكدونالدز»، وحين نصل لا نجد أثراً للمهرّب. يتّصل خليل مراراً، لكنّ المهرّب لا يردّ، فننتظر ساعتين، ثمّ نسير مرّةً أُخرى عائدين إلى المحطّة، ونحاول الاتّصال بمهرّبٍ آخر عن طريق ماوكلي، وننتظر ردّه في مطعم «برغر كينغ». يتلاشى بصيص الأمل الأخير بينما يهبط الغسق على الساحة الخارجيّة، وفي التاسعة والنصف مساءً استسلمنا أخيراً. يبدأ المطر بالهطول، ونحن نسير على الطريق نحو الفندق القديم، بالكاد لحظت أنَّ شعري قد ابتلّ، لا أصدّق أنّنا سنخرج من هذا المكان، لا أحد منّا يتكلّم؛ كلّنا نريد النوم فقط.

يرنُّ هاتف سارة.

– «ماذا؟». تقول في الهاتف: «مهلاً... ماذا! حقّاً؟ حسناً، نحن قادمون الآن. نعم، سوف نركض، دعهُما ينتظران».

تتوقّف سارة، وتنظر نحوي، وعيناها مشرقتَان.

– «كان أحمد على الهاتف». تقول سارة، وتجذب كتفي: «يقول: إنّه سمع أنَّ الحكومة سترسل حافلاتٍ مجانيّةً في اتّجاه الحدود إلى النمسا هذه اللّيلة، الآن، انطلاقاً من المحطّة، لقد علِمَ بالأمر منذ قليل، وقال: إنّنا يجب أنْ نسرع، علينا العودة الآن».

– «أهو متأكّد؟». أسألها: «بصراحة، ما أريده كلّه هو أنْ أنام».

– «قد يكون الأمر شائعات». يقول ماجد مُشكّكاً: «أو قد يكون فخّاً آخر».

- «هل يهمّك ذلك في هذه المرحلة؟». تسأل سارة: «ما الذي يمكنهم أن يفعلوه بنا أكثر؟ دعونا نركض».

أخذت سارة الطريق نحو المحطّة مرّةً أُخرى، أتبعها وأنا أعْدو، بينما تعلو حقيبتي وتهبط على ظهري، وأنا أمرُّ بالمُشاة تحت الرذاذ الضبابيّ. تلوح المحطّة في الأفق، وتحت الأضواء الخلفيّة الحمراء للسيّارات تتلألأ البِرَك الزيتيّة السوداء، نصل إلى الميدان لنرى الحشد يتكاثر مرّةً أُخرى، كان هناك صفّان من الحافلات القديمة الزرقاء والصفراء متوقّفان على طول الطريق، نركض بينهما محاولين تفادي الحشد، ونبدأ البحث عن أحمد، سمعته يصرخ، ووقع نظري عليه مع أخواته بجانب إحدى الحافلات، وبينما ندنو، رأيتُ إدريس يقف في مكانٍ قريبٍ، يبتسم لنا، ونحن نقترب.

- «أين مصطفى؟». أسأله.

يشير إدريس من وراء كتفه نحو امرأةٍ محجّبةٍ ترتدي تنّورةً طويلةً مُنسابةً، تقف وظهرها إلينا، وهي تحمل مصطفى بين ذراعيها، فينظر الولد نحوي من فوق كتف المرأة، ويلوّح لي بيده، فتنظر المرأة، وتستدير نحونا، فأرى وجهها، وأنفجر بالضحك.

- «يا مرحباً». تقول مجدُلينا: «هل ستأتون إلى النمسا؟».

- «آمل ذلك». أقول: «لقد أحسنتِ التنكُّر».

- «هذا لا شيء». تقول مجدُلينا: «انتظري حتّى تَري لام».

على مسافةٍ بعيدةٍ قليلاً أرى لام يقف إلى جانب امرأةٍ كرديّةٍ وابنها الصغير متظاهراً بأنّه من عائلتهما. يُلوِّح المصوّر، ويفتح سترته لثانيةٍ ليكشف عن الكاميرا خاصّته، التي تبلغ قيمتها ستّة عشر ألف دولار.

- «لا تزال حبيبتي معي». يقول لام مبتسماً، ثمّ يلتفتُ إلى سارة:

«سمِعتُ أنّ العجوز عنتر قضى ليلةً مع الشرطة، هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟». تجيبه سارة قائلةً: «يمكنني قول ذلك فقط إذا نجحنا في الوصول إلى النمسا، هل أنت قادمٌ أيضاً؟».

- «بالطبع، لن أفوِّت هذه الفرصة». يقول لام.

يفتح سائق الحافلة الأبواب، ويبدأ الحشد القريب منّا بالصعود، يمكن أنْ يكون الأمر فخّاً، حيلةً أُخرى من قِبَل الحكومة لأخذنا جميعاً إلى المخيّمات. ليس هناك وقتٌ للتردّد الآن، الجموع على وشك أنْ تتعارك في الطريق إلى الحافلة، وهُم يجرفوننا في طريقهم، سيكون علينا أنْ نقامر، ربّما نفوز هذه المرّة.

أحيطُ بسارة، ويداي حول عنقها، وأنا أقفز من الفرح.

- «سنذهب إلى ألمانيا!». أصرخ.

الحافلة قديمةٌ، وهي مصمّمةٌ لتتّسع لقرابة أربعين راكباً، إلّا أنّ عددنا يزيد عن مئةٍ محشورين كلّ ثلاثةٍ في مقعدٍ واحدٍ، فضلاً عن أولئك الجالسين على الأرض. وجدنا أنا وسارة رُكناً على الأرض أمام الأبواب الخلفيّة، وانحشرنا بين الغرباء. تنطلق الحافلة بصخبٍ مُخلِّفةً سحابةً من أبخرة الديزل، أنامُ ورأسي على الباب المرتجّ، وبعد ساعةٍ أستيقظ على الصراخ. توقّفت الحافلة على جانب الطريق السريع، يُفتح بابُ الحافلة ورائي على جانب الطريق، الدخان الأسود ذو الرائحة السامّة يتدفّق من وراء الحافلة، فتمدّ سارة رأسها من خلفي، وهي تسعُل، فأضع يدي على كتفها.

- «هذا حظّك يا سارة». أقول لها مبتسمةً: «لقد خرجنا أخيراً من هنغاريا، وها هي الحافلة قد تعطّلت».

ننتظر ساعتين على جانب الطريق تحت المطر الغزير حتّى تأتي حافلةٌ أُخرى لنقلنا، إلّا أنّ الحافلة تصل مُحمّلةً بالركّاب، لكنّنا بقدرة قادرٍ ننحشر

ونكتظّ في الحافلة أكثر ممّا كنّا محشورين في الحافلة السابقة، وبالكاد أستطيع التنفّس، ناهيك عن العودة إلى النوم. بعد أنْ حشرت نفسي إلى جانب الباب، أخرجت هاتفي، وبعثتُ برسالةٍ للصحافيّ ستيفن من خلال رسالةٍ صوتيّةٍ، أخبره أنّنا جميعاً في حافلاتٍ متّجهةٍ إلى النمسا، فيردّ قائلاً: إنّه وطاقم فيلمه في طريقهم إلى الحدود. ربّما نتقابل هناك، أُتمتم بدعواتٍ صامتةٍ في سرّي: يا ربّ حقّق لنا هذه الأمنية. لقد بدأنا نسلك طريق الخروج بالفعل.

ترتَجُّ الحافلة، وتتوقّف في الطريق لننزل منها متدافعين إلى الصباح الرماديّ الباكر، ما زال المطر يهطل، وثمّة رياحٌ خفيفةٌ، ولا أستطيع أن أشعر بساقي من شدّة التشنّج. نسير وراء الآخرين مسرعين على طول طريقٍ يؤدّي إلى مبنى منخفضٍ، وبينما نعبر الحدود إلى النمسا، تنهار سارة بالبكاء. تتوقّف عن المشي، وتضع يديها على وجهها فيما يرتجف كتفاها.

– «ما الأمر يا سارة؟». أسألها.

ليس من عادة سارة أنْ تنهار بهذه الطريقة أبداً.

– «أنتِ تبكين الآن؟». يقول لام: «بعد ما حصل كلّه؟ كنتِ في منتهى القوّة طيلة الرحلة، والآن، بعد أن وصلتِ إلى برّ الأمان، تبكين؟».

– «أنا سعيدةٌ بالخروج». تقول سارة، وهي تتنهّد.

نتظر جميعنا في الاتّجاه الآخر، ونترك سارة لكي تهدأ. تقف صفوفٌ من الحافلات الحديثة المرسلة من الحكومة النمساويّة أمام الرصيف الإسمنتيّ لاصطحابنا ونقلنا إلى فيينا، ما علينا فعله كلّه الآن هو أنْ نجد لأنفسنا مكاناً على متْنِ إحداها. أنظر إلى الوراء نحو سارة، ما زالت تبكي بارتياح. يفتح لام حقيبته ويسحب عنقود موزٍ، ويعطيني إيّاه، فآكل موزةً تحت المطر، وأراقب أختي وهي تستجمع قواها.

الجزء السادس

الحلم

16

أنزل من الحافلة، وأتلفّت حَولي، يستغرق الأمر بضع دقائق لاستيعاب ما أراه. اصطفَّت حشودٌ من الناس أمام محطّة القطار الرئيسة في فيينّا مبتسمةً ومُصفِّقةً، وهي تهتف لنا. أمرُّ ببصري بلافتاتٍ ملوّنةٍ، وملصقاتٍ يدويّة الصنع، قارئةً كلماتي الألمانيّة الأولى: «Flüchtlinge»، وتعني: «الّلاجئون»، «Wilkommen» وتعني: «أهلاً بكم»؛ أيْ: مرحباً بالّلاجئين. أكاد لا أصدّق ذلك، هؤلاء الناس يريدون مساعدتنا، لقد أتوا إلى هنا للترحيب بنا في بلدهم، تملأ الدموع مُقلتَيّ، وتغمرني هذه الّلفتة الطيّبة، فنتعثَّر أنا وسارة بينما نجتازُ حشود الغرباء المبتهجين. يقدّم إلينا المتطوّعون الشاي، والشطائر، وقناني الماء، ويتقدّم رجُلٌ، ويعطي لكلٍّ منّا وردةً، تأخذ سارة الوردة، ثمّ تنظر إليّ، وترسم ابتسامةً عريضةً، فيغمرني الشعور بالارتياح، لقد فعلناها وخرجنا من هنغاريا، وها نحن الآن في النمسا، سنأخذ القطار عبْر الحدود إلى ألمانيا في الصباح.

يرنُّ هاتف سارة، إنّه صديقنا عبد الله الذي وصل إلى النمسا في القطار الذي سبقنا، هو يقيم هنا في فيينّا مع ابن عمّه، ويعرض علينا قضاء الّليلة معهم. سيكون الأمر صعباً في الشقّة الصغيرة، لكنّ ابن عم عبد الله يقول: إنّ على مجموعتنا أنْ تأتي. يقرّر لام ومجدلينا البقاء في المحطّة والعمل،

يريدان التقاط الصور، ومقابلة الآلاف من الوافدين الجُدد، والسكّان المحلّيّين الذين أتوا للترحيب بهم، وقبْل أنْ نفترق، يعدنا الصحفيّان بزيارتنا أينما انتهينا في ألمانيا. أشاهدهما يختفيان في الحشد، وأتساءل عمّا إذا كنت سأراهما مرّةً أخرى.

أنظر إلى الأسفل نحو سترتي الأرجوانيّة المبلّلة بالمطر، وبنطالي الرماديّ الموحِل، يلزمُ أنْ أعيد ترتيب مـظهـري؛ لا أريد أنْ أصل إلى ألمانيا في هذا المظهر، فنتوقّف عند محلٍّ لبيع الملابس في الطريق إلى شقّة ابن عمّ عبد الله، إنّه يوم السبت، والمحلّ مكتظٌّ بالزبائن، يرنّ هاتفي، وأنا واقفةٌ في طابور دفع الحساب، إنّه الصحفي ستيفن، أُخبِره أنّني في فيينّا، وأوافق على مقابلته لاحقاً لإجراء مقابلةٍ أُخرى.

نصل إلى شقّة ابن عمّ عبد الله، ونتناوب على الاستحمام. أقوم بتغيير ملابسي الجديدة، ورمي أشيائي القديمة. أكتب إلى أمّي وأبي، وأبلغهما أنّنا آمنون، ومرتاحون بعد خروجنا من هنغاريا، وفي وقتٍ متأخّرٍ، أرسل إليّ ستيفن رسالةً أُخرى: لقد انتهى هو وطاقمه من العمل على الحدود، ووصلوا إلى فيينّا. قابلتهم في «ماكدونالدز» وسط المدينة، أنا مرهقةٌ للغاية لإجراء مقابلةٍ، لكنّنا اتّفقنا على أنْ يأتي الطاقم التلفزيونيّ معنا، ويصوّر في اليوم التالي في القطار إلى ألمانيا.

في تلك اللّيلة نمنا على الأرائك، وعلى أرضيّة غرفة المعيشة في الشقّة. لا مشكلة لدينا في الاكتظاظ، يبدو ذلك مريحاً مقارنةً باللّيلتين اللّتين قضيناهما على الطريق. في صباح اليوم التالي، استيقظنا فجراً لنلحق بأحد القطارات التي جهّزَتها الحكومتان: النمساويّة، والألمانيّة لنقلنا إلى ألمانيا، نجد ستيفن وفريقه، لودفيج وستيفان، في انتظارنا في محطّة القطار، فنصعد جميعاً قطاراً مكتظّاً. نجد لأنفسنا مقصورةً قديمة

الطراز، مؤلّفةً من صفَّين من ثلاثة مقاعد، يواجه كلّ منهما الآخر، فأنظر من النافذة بينما يبتعد القطار عن المحطّة مسرعاً، ويبدأ الخروج من المدينة. سرعان ما بدأنا نمرُّ بغابات الصنوبر الخضراء الداكنة، والحقول المتموّجة، والمدن الصغيرة.

يدير لودفيج الكاميرا الخاصّة به، ويبدأ التصوير، فيسألني ستيفن كيف أستعدّ للتكيّف مع الحياة في أوروبّا، يباغتني السؤال، فأنا لمْ أفكّر في ذلك حقّاً، أعلم أنّها ستكون صدمةً ثقافيّةً، وأنّهم في ألمانيا سيتصرّفون بطريقةٍ مختلفةٍ عن سوريا، لكنّني لا أعرف ذلك بصورةٍ دقيقةٍ، أقول لستيفن: إنَّ ذلك لن يكون سهلاً، لكنّني سأتدبَّر الأمر، لا بدّ من ذلك. بعد ذلك يسألني ستيفن عمّا تعلَّمتُه في الرحلة، هذا سهلٌ، لقد تعلّمت أهميّة زاوية النظر. حين كنت في سوريا كنتُ أهدر الوقت في التفكير بشأن الأشياء البسيطة؛ أمّا الآن، فأنا أعرف ما هي المشكلات الحقيقيّة، كأنّ عينيّ قد فُتِحَتا.

- «هل تشعرين بأنّ أيّ شيءٍ أصبح ممكناً الآن بعد أن قُمتِ بهذه الرحلة؟». يسأل ستيفن: «كالذهاب إلى الألعاب الأولمبيّة، على سبيل المثال؟».

أنظر إليه مباشرةً في العين، وأبتسم: نعم، سأفعلها. لمْ أكن بمثل هذه الثقة من قبل. يندفع القطار في الحقول الخضراء المورقة، وفي الأفق، تنهض الجبال فوق ضباب الصباح. يوقف لودفيج تشغيل الكاميرا لمدّةٍ من الوقت، وأنا أنظر من النافذة، وأرى أمّي وشهد، ومنزلنا الذي خسرناه في داريّا، والشوارع المتعرّجة في دمشق، وأفكّر في أبي، وأحاول تصوُّرنا جميعاً معاً مرّةً أُخرى. أوشكت رحلتنا على الانتهاء، ما الذي سيأتي بعد ذلك؟

مضتْ عدّة ساعاتٍ قبْل عبور الحدود إلى ألمانيا، بإمكاني معرفة ذلك

من صيحات الاحتفال التي تخرج من العربات الأُخرى عندما نصل، أشعر بالتوتّر، وأكاد لا أصدّق، لقد فعلناها، نحن هنا. لا يهمّ إذا ألقت الشرطة القبض علينا الآن، فنحن في البلد الصحيح. نحتاج فقط إلى طلب المأوى، فيبدأ لودفيج التصوير مرّةً أُخرى بينما أُشاهد الفيلّات الكبيرة ذات الأسطح المدبّبة، والتلال الخضراء في بافاريا، ونحن نعبُرها مسرعين. يسأل ستيفن عن رأيي في ألمانيا، وما إذا كنت أعتقد أنّها نظيفةٌ جدّاً، أبتسم للكاميرا: «لا». أقول: «لقد أحببتها».

- «ألا تعتقدين أنّها تبدو مملّةً بعض الشيء؟». يسأل ستيفن.

- «سوف نجعلها ممتعةً». أقول.

نتحادث ونضحك حتّى يتباطأ القطار، ويتحوّل إلى ميونيخ، فتأتي سارة إلى العربة، وتبدأ بشرح خطّتها لي، وتقول: إنّنا عندما ندخل المحطّة سوف نهرب من الحشود، ونجد قطاراً متّجهاً إلى هانوفر، إلى صديقتها هالة. يُصدر القطار صوت صريرٍ ويتوقّف، فنخرج من العربة، ونسير على طول الممرّ نحو أبواب القطار. ينزل ستيفن وطاقمه إلى رصيف المحطّة أوّلاً لتصويرنا، ونحن ننزل من القطار، هناك اثنان من رجال الشرطة ينتظران عند باب القطار، تنزل سارة أمامي، وتذهب لتفادي المرور أمامهما، فيمدّ الشرطيّ الأقرب ذراعه لمنعها، ويرفع سبّابته: «إلى أين تظنّين أنكِ ذاهبة، حبيبتي؟». يقول الشرطيّ، ويدفعها برفقٍ إلى المسار الذي وضعوا فيه الجميع: «مِن هنا».

أُلوِّح لوداع ستيفن ملتفتةً إلى الوراء، بينما ترافقه الشرطة هو وطاقمه بحرصٍ للخروج من رصيف المحطّة. يبدو أنّنا لنْ نذهب إلى هانوفر في نهاية المطاف، سنذهب حيث يُراد لنا، إلّا أنّنا لا نمانع كثيراً، في نهاية الأمر نحن لسنا وحْدنا القادمين الجُدد، فمع نهاية هذا الأسبوع الأوّل في أيلول/

سبتمبر 2015 وحْده، وصل عشرون ألف شخصٍ في الحافلات والقطارات من هنغاريا عبْر النمسا إلى ألمانيا. لسنا أنا وسارة سوى اثنتين فقط من هذا العدد، وقد كُنّا من حصّة ألمانيا، وبالنسبة إلينا جميعاً، انتهى الأمر. لا مزيد من الحدود، ولا مزيد من المهرّبين، ولا مزيد من النوم في العراء، ولا مزيد من الخطر، ولا مزيد من الحرب. نسير خلْف الحشود إلى صفٍّ من الحافلات المتوقّفة في الانتظار، عند مدخل المحطّة، يصفّق المزيد من الناس، ويلوّحون بلافتاتٍ كُتِب عليها: «مرحباً باللّاجئين». أبتسم لسارة، إنّه مشهدٌ لا يُصَدَّق. هؤلاء الغرباء جميعهم أتوا ليهتفوا لنا، ويُقدِّموا لنا فرصةً للمستقبل. من هؤلاء الناس؟

نركب حافلةً تنقلنا إلى مخيّمٍ للاستقبال، هناك خيمةٌ كبيرةٌ مفتوحةٌ تحتوي على مطعمٍ، وفوق المطعم عُلِّقت لوحةٌ باللّغة العربيّة كُتِبَ عليها: «مرحبا». نتناول الطعام، ونخضع لفحصٍ طبّيٍّ، ثُمّ نُنقَلُ إلى حافلةٍ أُخرى، فتسيرُ بنا الحافلة لمدّة ثماني ساعاتٍ من دون أن تكون لدينا أيّة فكرةٍ إلى أين نتّجه. أخيراً، تُبطِئ الحافلة، وتخرج عن الطريق السريع، ثمّ تسير في شوارع المدينة المظلمة، وتتّجه إلى إحدى ساحاتها، فنندفع خارج الحافلة بينما يهتف حشدٌ آخر، ويحمل لافتاتٍ مكتوباً عليها بخطّ اليد باللّغة العربيّة: «مرحباً بكم في برلين شبانداو». إذنْ، نحن في برلين، العاصمة الألمانيّة. أنظرُ إلى هاتفي، أصبح الوقت متأخّراً، مع ذلك انتظر هؤلاء الناس لإلقاء التحيّة علينا. يسري شعورٌ دافئٌ في صدري، لقد فعلناها أخيراً. الثالثة صباحاً، الاثنين 7 أيلول/ سبتمبر، لقد وصلنا.

من ورائنا يخرج المزيد من الجُموع من أسطولٍ كاملٍ من الحافلات، لا بدّ من أنَّ هناك مئات مثلنا يصِلون في الوقت نفسه، المخيّم الذي وصلنا إليه جديدٌ تماماً، وقد افتُتِح تلقائيّاً لإيواء الوافدين الجُدد الذين وصلوا عن طريق هنغاريا. هنا في ألمانيا يُسمّى مُخيّمٌ مثل هذا بـ«الهايم»، وترجَمة

هذه الكلمة هي: البيت، لكنّ الألمان يستعملونها أيضاً كتعبيرٍ مختَزَلٍ لسَكن الّلاجئين، نحن أيضاً سوف نعتمِد استعمال هذه الكلمة في وقتٍ قريب.

نضمّ إلى الطابور الذي يؤدّي إلى داخل الساحة، ارتصف أمامنا صفٌّ من الخيام البيضاء المستطيلة التي بدتْ كأنّها سيّاراتٌ مركونةٌ في موقفٍ، وفي مقدّمة الطابور وقف رجُلٌ يرتدي زيّاً رسمياً، يشير الرجُل إلَيّ، وإلى سارة، وابنَي عمّنا، وخليل، فيسألنا إذا كنّا عائلةً واحدةً، فتشير سارة نحوي، وتقول للرجُل: إنّنا أخوات، فيأخذ الرجُل أسماءنا وأعمارنا، ويشير إلى خليل.

- «هو تحت السنّ القانونيّة، هل لديه وصيٌّ قانونيٌّ معه أم إنّه وحْده من دون رفقة أحد؟». يقول الموظّف.

- «خليل برفقتِنا». تقول سارة.

- «إذنْ، أنتما الوصيّتَان عليه؟». يسألنا الرجُل.

ترفع سارة كتِفَيها بلا مبالاةٍ، فيشير الرجُل إلى سيّدةٍ شقراء تنتظر بجانبه، فتقودنا إلى إحدى الخيام البيضاء، توجد في الداخل ثلاث مجموعاتٍ من الأَسِرَّة المعدنيّة السوداء ذات الدورَيْن مع فُرُش بيضاء، ومن سقف الخيمة يتدلّى مصباحُ تخييمٍ كبيرٌ، كما كانت الأرضيّة مصنوعةً من بلاستيكٍ رماديّ اللّون، وفي إحدى زوايا الخيمة يوجد سخّانٌ كهربائيٌّ صغيرٌ أبيض.

تبدو الخيمة رفاهيةً بالنسبة إلينا بعد أرضيّة محطّة القطار، وإسطبلات السجن، خيمة من فئة خمس نجوم. أتسلّق إلى السرير العُلْويّ، وأستلقي مُغمِضةً عينيّ. بإمكاننا البقاء، لا هروب بعد الآن، أكرّر الكلمات مراراً وتكراراً في رأسي. بالكاد يمكنني تصديق ذلك، بعدها أغُطّ في نومٍ عميق.

وفي الصباح، أُرسِل صورةً للخيمة إلى أمّي وأبي، وأخبرهم أنّنا في برلين، وبعدئذٍ أخرج باحثةً عن الحمّامات. هناك مبنى قرميديٌّ طويلٌ ينقسم إلى عدّة كُتل، تحتوي كلّ كتلةٍ على جزئين مخصّصين للمراحيض، وجزئين منفصلين للاستحمام، وخارج الجزء المخصّص للاستحمام تنتصب طاولةٌ تكدّست عليها صفوفٌ عاليةٌ من الصابون، وسائل الاستحمام، وشفرات الحلاقة، والمناشف، والفانيلّات التي جُمِعت كلّها من التبرّعات. آخذ ما أحتاج إليه، وأذهب إلى الداخل للاستحمام، فيتحوّل لون الماء إلى اللّون الأسْود بينما أشطف الأوساخ عن قدمَيّ، وأنظر إلى نفسي في المرآة، وأبتسم لرؤية قميص القطن الملتفّ على أعلى ذراعَيّ.

أجد الآخرين في المطعم يتناولون وجبة الإفطار المكوّنة من لفائف الخبز والجُبن، لا أحد يتحدّث عن مغادرة برلين والانطلاق إلى هانوفر، لقد سئمنا التفكير في المزيد من السفر، سعداء كلّنا بوصولنا إلى مكانٍ يمكننا البقاء فيه وحَسب. تكتب سارة إلى صديقتها هالة، وتخبرها أنّ جارها القديم، خليل، آمنٌ وبخير، وهو معنا في برلين.

بعد الإفطار، نذهب أنا وسارة للبحث في الملابس المستعملة التي تبرّع بها سكّان برلين لمساعدتنا. لنكنْ صادقين، لا أحد يريد أنْ يلتقط ثياباً قديمةً كانت لشخصٍ آخر، لكنّني أبتلع كبريائي، وأقول لنفسي: إنّكِ محظوظةٌ، كان الناس هنا كرماء جدّاً، فضْلاً عن أنّني لا أملك خياراً آخر، مع أنّنا ما نزال في شهر أيلول/ سبتمبر، إلّا أنّ الطقس في برلين يبدو كأنّه متجمّدٌ قياساً إلى حرارة بودابست، وليس معي سوى بدلٍ واحدٍ من الملابس. داخل المبنى، عَلَّقت مجموعةٌ من المتطوّعين التبرّعات فيما يشبه خزانة الملابس؛ ليوفّروا علينا مشقّة البحث في الصناديق، نستعرض سارة وأنا المزيج الغريب من السترات، والقمصان، والكنزات، وكومةً من الأحذية. اخترتُ وشاحاً ورديًّا، وقميصاً أبيضَ، وسترةً خفيفةً بيضاء،

وبعض الأحذية السوداء، وجزمة فروٍ مستعملة. تقع عيني على صندوقٍ من الدببة المخصّصة للأطفال تبرَّع به أحدهم، آخذ ثلاثةً منها.

بعد ظهر ذلك اليوم، كنّا: سارة، وخليل، وأنا، نتجوّل في أنحاء «الهايم» حينما سمعنا ضجّةً عند بوّابة المدخل، لقد وصل المزيد من الحافلات، وتدفّق مئات الأشخاص منها، وراحوا يتحرّكون حَول المدخل في انتظار منْحهم أمكنةً مخصّصةً للنوم، نتجوّل في المكان لإلقاء نظرةٍ، فأسمع صيحةً من الطابور، وأكتشف جمعاً من الوجوه المألوفة، إنّهم أصدقاؤنا؛ الأخوان: أيهم، وباسم، وزاهر وعائلته. يشفُّ فم زاهر عن ابتسامةٍ واسعةٍ، ويخطو نحونا بذراعين مفتوحتين، نتبادل جميعاً القبلات على الخدَّين. وصل الآخرون إلى ألمانيا قبْل أيّامٍ قليلةٍ مع المهرّب علي، كانوا قد نُقِلوا من ميونخ إلى معسكرٍ في بلدةٍ تدعى إيزنهوتنشتات خارج برلين قبل نقلهم إلى هنا، إنّه لأمرٌ رائعٌ أن ألتقي مجدّداً بالأشخاص الذين تشاركنا معهم الكثير في رحلتنا! الآن سنبدأ حياتنا الجديدة معاً في المكان نفسه. في تلك اللّيلة تناولنا الطعام معاً في مطعم المخيّم.

- «هل ذهبتِ إلى شارع العرب أم ليس بعد؟». يسألني أيهم بينما أسكُب طعامي.

- «ما هو شارع العرب؟». أسأله.

- «السوريّون جميعهم، في المعسكر الآخر، يتحدّثون عن هذا الشارع». يقول أيهم: «إنّه شارعٌ يقع في مكانٍ ما من برلين، وهو ممتلئٌ بالمطاعم، والمحالّ التجاريّة، والبقالات العربيّة».

في اليوم التالي نسأل المتطوّعين في «الهايم» عن هذا الشارع، فيخبروننا أنّ سكّان برلين يعرفون الشارع العربيّ باسم سونينالّي «Sonnenallee»، يجب أن نأخذ الباص من نهاية الطريق إلى محطّة القطار، ثمّ نستقلّ قطار

الأنفاق لمدّة أربعين دقيقة أُخرى، جميعنا مشتاقون إلى الوطن، لذا قرّرنا الذهاب إلى شارع العرب على الفور. نخرج من مترو الأنفاق إلى ساحةٍ عند تقاطعٍ مزدحم تصطفّ عليه مباني الخرسانة الرماديّة الداكنة، فننعطف يميناً، ونسير إلى أسفل «السونينالّي» بعد محطّةٍ للحافلات، وبعض محالّ بيع الصحف، ومحالّ الإلكترونيّات.

- «أهذا هو الشارع العربي؟». أسأل سارة: «لا يبدو عربيّ الطابع كثيراً بالنسبة إليّ».

أخيراً، عثرنا على سوقٍ مركزيٍّ عربيٍّ صغيرٍ عند إحدى الزوايا، يتجوّل أيهم في الداخل مع شقيقه باسم والآخرين؛ أمّا أنا، فأتوقّف عند الباب، فألكز سارة، وأشير نحو الطريق إلى مكانٍ لتناول البيتزا، كلانا نتضوّر جوعاً، وقد قرّرنا أن نُجرّب مطعم البيتزا، فنسير نحو المطعم، ونطلب ما نريد باللّغة الإنجليزيّة. يبدو الرجُل الذي يقف وراء طاولة البيع متجهّماً فيما نجلس في الانتظار بصمتٍ مطبقٍ؛ أمّا وقد وصلنا الآن، فإنّ ما واجهناه في رحلتنا بدأ يتوارى.

- «ألِأجل هذا تركنا بلدنا الجميل؟». تقول سارة عند وصول البيتزا التي طلبناها: «من المفترض أنّنا الآن فتيات مثل الورد نستمتع بحياتنا في دمشق، بينما نحن هنا الآن».

أشعر بفراغٍ يلتهم صدري، اعتقدتُ أنّ من المفترض أن تكون ألمانيا الجنّة الموعودة، لا شكّ في أنّ الجنة أجمل من هذا. أنا سعيدةٌ لوجودي هنا، إلّا أنّني لا أستطيع التوقّف عن التفكير فيما فقدناه كلّه. قرّرنا أنا وسارة التسوّق، وشراء الملابس لإبهاج أنفسنا، لكنّ المشكلة أنّنا نوشك على الإفلاس، ونحتاج إلى أن نتحدّث مع أبي لنطلب إليه تحويل بعض المال لنا. ننهي طعامنا، ونعود إلى الساحة؛ حيث نشتري بطاقات هاتفٍ ألمانيّةً

مع باقات بياناتٍ، ثمّ نعبُر الطريق ونذهب إلى متْجَرٍ متعدّد الأقسام لنتفرّج على الملابس. يبدو كلّ شيءٍ باهظ الثمن، لكنّني أجد بنطالاً رياضياً أسْود بسعرٍ رخيصٍ، وعند انتهائي من التسوّق، تعطيني سارة حقيبةً بلاستيكيّةً في داخلها دبٌّ ناعمٌ بنيٌّ ضخم.

– «في حال شعرتِ بالحنين إلى الوطن». تقول سارة.

أبتَسمُ في وجهها قائلةً: «على الأقل لديّ أختي معي». ثمّ أتجولّ باحثةً عن دبٍّ لأشتريه لسارة، فأنتظر حتّى نعود إلى «الهايم» لأتصل بأبي.

أطلب إليه أن يحوِّل بعض النقود.

– «ما حاجتكما إلى المال، وقد وصلتُما حالاً؟». يقول أبي.

– «للملابس يا بابا». أجيبُه أنا: «وللطعام والتنقّل كما تعلم».

– «لقد أنفقت عشرة آلاف دولار لتَصِلا إلى ألمانيا». يقول أبي: «لا أدري كيف استطعتُما إنفاق هذا المال كلّه، سيكون عليكما أنْ تعيشا فقط على ما يقدّمونه لكما».

حسناً، لقد فهمت. أنفق أبي الكثير من المال لنصل إلى هنا، لكنّ الأمر ما يزال صادماً، فأتساءل كيف سنتدبّر أمورنا؟ بمجرّد أنْ نُسجّلَ كطلّاب لجوء، ستقدّم إلينا الحكومة الألمانيّة بدلاً قدْره مئة وثلاثون يورو كلّ شهر، وسيكون علينا تدبُّر أمورنا بهذا المبلغ للإنفاق على كلّ شيءٍ ما عدا الطعام والإقامة. سيكون الأمر صعباً، فالأسعار مرتفعةٌ هنا.

هناك الكثير من سوء الفهْم بشأن النقود، ومن الصعب على بعض الناس تقبُّل هذا، لكنْ أيّ شخصٍ تمكّن من الوصول إلى أوروبّا لا بدّ من أنّه كان في وضعٍ معيشيٍّ جيّدٍ في بلاده، فقد أنفق كلّ من أعرفه ممّن وصلوا من سوريا ثلاثة آلاف دولار على الأقلّ في هذه الرحلة. كثيرون منهم باعوا ما يملكونه كلّه: بيوتهم، وسيّاراتهم، وما لديهم كلّه للوصول

إلى هنا. نحن المحظوظون، الذين كان معنا ما يكفي من المال للسفر؛ أمّا أولئك الذين ليس لديهم مدّخرات، وليس لديهم شيءٌ للبيع، فقد انتهى بهم المطاف في مخيّماتٍ في الأردن، أو لبنان، أو تركيا، ولكنْ بعد وصولنا نفدت الأموال، وأصبح علينا أنْ نعتمد على الصدقة. أنا شاكرةٌ؛ لأنّ الناس هنا في ألمانيا كرماء للغاية، ويعاملوننا بصفتنا بشراً، فهُم يريدون مساعدتنا، لكنْ من الصعب ألّا يشعر المرء بالسوء لاضطراره إلى قبول التبرّعات من الآخرين. الكثير منّا، بمن فيهم أنا، لا يريد أنْ يأخذ أيّ شيءٍ من أحد.

ليس الحصول على أموال الدعم بالسهولة التي يعتقدها أبي؛ فأوّلاً: يتعيَّن علينا التسجيل كطلّاب لجوء، وفي برلين، هذا يعني الذهاب إلى مكتب الشؤون الاجتماعيّة، وهو مجمعٌ ضخمٌ من المباني في غرب برلين يعرفه الجميع باسمه المختصر «لاغيسو» «LaGeSo». لسنا وحْدنا من يحاول التسجيل، فكلّ يومٍ يصل المئات منّا إلى برلين، إلّا أنّ هناك قدرةً استيعابيّةً في نهاية المطاف، فالمكتب لا يستطيع معالجة أكثر من أربعين طلباً يوميّاً.

وعلى أساس أنّ سارة هي الوصيّ القانونيّ بالنيابة عنّي وعن خليل، لذا فإنّها تذهب إلى المكتب بالنيابة عنّا. الحشود كبيرةٌ جدّاً، وعليها الانتظار عدّة أيّامٍ فقط للحصول على رقمٍ للوصول إلى قائمة الانتظار الفعليّة، وبعدئذٍ تحديد موعدٍ للتسجيل، وبعد ذلك، وبمجرّد أنْ تحصّل رقماً، يتعيَّن على سارة الانتظار حتّى يومض رقمها على الشاشة خارج المكتب، لا سبيل إلى معرفة موعد حدوث ذلك، قد يكون اليوم، أو غداً، أو بعد ثلاثة أسابيع من الآن. تقضي سارة معظم الأيّام وهي تُحدِّق في الشاشة، وتخشى أنْ نخسر دورنا في حال غادرت المكتب، وعندها ستُضطرّ إلى بدء العمليّة بأكملها مرّةً أُخرى. سرعان ما تشعر بالملل، وتقرّر الانضمام

إلى مجموعةٍ من المتطوّعين الذين يوزّعون الغذاء والمساعدات الطبيّة الطارئة على الحشود، ويبدو أنّ إشغال نفسها يساعدها على التحمُّل. في كلّ مساءٍ تعود متأخّرةً إلى «الـهايم»، وتبدو سعيدةً، لكنّها مُنهَكة.

- «لقد أجريت حالاً أغرب محادثة». تقول سارة في إحدى الّليالي، وهي جالسةٌ على سريرها ذي الدورَيْن في الخيمة: «هذه الفتاة المتطوّعة لمْ تصدّق أنّني لاجئةٌ؛ لأنّ لديّ هاتفاً، ولأنّ شعري مصفّف، ولأنّني أرتدي مجوهرات».

- «ماذا؟!». أسألُ.

- «نعم». تُجيبُني سارة: «ثمّ تفاجأَتْ عندما أخبرتها بأنّني كنت أملك حاسباً محمولاً في بيتنا، وقد قالت لي: إنّها لمْ تكن تعلم أنّ لدينا حواسيب في سوريا، كما لو أنّنا نعيش جميعاً في الصحراء، أو شيء من هذا القبيل، كان عليّ أنْ أخبرها أنّنا كنّا نعيش حياةً طبيعيّةً من قبْل».

نضحك كلانا، من الواضح أنّ هناك بعض الأوروبيّين الذين يختلط عليهم الأمر بشأن العالم الذي أتينا منه، وسيكون أمامنا الكثير لنوضحه لهم. أذهب مع سارة إلى المكتب مرّةً، أو مرّتين، لكنّني غالباً ما أجلس في «الـهايم» مع الباقين مستغرقةً في أحلام اليقظة. تمرُّ الأيّام، وأبدأ في مراجعة ما جرى كلّه منذ أن غادرت بيتنا، تَغيُّر وتيرة الأمور يُرهِقُني، وكانت الأيّام، والأسابيع، والأعوام الماضية حافلةً بالأحداث، إلى درجة أنّني استغرقت وقتاً طويلاً لأدرك أنّها قد انتهت حقّاً. أنا في مأمنٍ الآن، لنْ تتساقط القنابل في الشارع، أو تخترق السقف، ولست مضطرّةً إلى الاختباء من الشرطة، والنوم مع حشودٍ من الغرباء، أو التعامل مع العصابات الإجراميّة لتهريب نفسي عبْر الحدود، لكنْ مع تراجع حالة الطوارئ، بدأتُ أُدرك تكلفة سلامتي الجديدة، لقد خسرتُ بيتي، وبلدي،

وثقافتي، وأصدقائي، وحياتي، وأجلس في «الـهايم» صامتةً ومرتبكةً، لا بدّ لي من ملْء حياتي بهدفٍ، ويجب أنْ أجد طريقةً للعودة إلى المسبح.

ذات صباح، بعد أسابيع قليلةٍ من وصولنا، انضممنا أنا وسارة إلى الحشود الواقفة خلْف السور عند الباب المؤدّي إلى مكتب «اللاغيسو». تومض الشاشة فوق رؤوسنا بالأرقام، وتطلبُ الناس واحداً تلْو الآخر، فيسير متطوّعٌ من الذكور عبْر الحشود، وهو يحمل الشطائر في لوحٍ بلاستيكيٍّ، فتُلوّح له سارة.

- «سأذهب لإلقاء التحيّة عليه». تقول سارة، وتنزلق من خلال السور المعدنيّ: «ابقَي هنا، وتابعي النظر في الشاشة». .

أتلفّت حَولي ناظرةً إلى الحشود، وبعض الناس لمْ يحصلوا على «الـهايم» حتّى الآن، لذلك هُم ينامون في العراء أمام المكتب. أُحدِّق فيهم بشفقةٍ، الرجال، والنساء، والأطفال، والعائلات الذين لمْ ينتهِ ترحالهم بعد. الممثّلون الوحيدون للسُّلطات الذين يمكن رؤيتهم في المكان هُم حرّاس الأمن، ومعظمهم من السكّان المحلّيّين ذوي الخلفيّات العربيّة. أشاهدهم، وهُم يصرخون على الجميع باللّغة العربيّة مستمتعين بسُلطتهم الجديدة علينا. تعود سارة، فأخبِرُها أنّني في حاجةٍ إلى الذهاب إلى المرحاض، وحان دورها للانتظار. أشقّ طريقي بصعوبةٍ خارج الحشد، فتعلق قدمي على السور، وأتعثّر.

- «ما المشكلة؟». يقول صوتٌ ذكوريٌّ باللّغة العربيّة.

- ألا يمكنكِ أنْ تري أمامكِ يا حلوة؟

أنظر حَولي، إنّه أحد الحرّاس، وهو يشبه لاعبي كمال الأجسام.

- «ما خطبُك؟». أقول للرجُل، فأواصل طريقي إلى المراحيض كاتمةً دموعي من الأذيّة والغضب. من يظنّون أنفسهم هؤلاء الحرّاس؟ آلهةً؟

أتنفّس وأقول لنفسي: هذا هو الوضع الذي نحن فيه اليوم، لكنّه لنْ يدوم إلى ما لا نهاية. أحشر نفسي مرّةً أُخرى عبْر السور لألتحق بسارة في قائمة الانتظار، فنجلس معاً، ونحدّق بلهفةٍ في أبواب المكاتب، ونشاهد الأرقام تومض على الشاشة بتسلسلٍ عشوائيّ. يعلو الهتاف من مقدّمة الحشد في كلّ مرّةٍ يدخل فيها شخصٌ إلى داخل المبنى.

مرّت خمس ساعاتٍ قبْل أنْ يومض رقمنا أخيراً على الشاشة، ابتسمت سارة، وأمسكت بذراعي، وهي تهتف لي، بينما كان الحشد يهلّل لقدوم دورنا. نخطو إلى الداخل، ونسير نحو أحد المكاتب في الدوْر العُلْويّ، فتومئ لنا سيّدةٌ من وراء طاولةٍ في منتصف الغرفة، ونهمّ بالجلوس. تسألنا السيّدة إذا كانت جوازات سفرنا في حَوزتنا، فتضع سارة وثائقنا على المكتب، وتتفحّصها السيّدة، ثمّ تأخذ بصماتنا وصورنا، وتدوّن أسماءنا، وتواريخ الميلاد، وأماكن الميلاد، واللّغات التي نتحدّث بها، وبعد ذلك تُقدِّم لكلّ منّا ورقةً من قياس 4A عليها صورنا في الزاوية العُلويّة اليمنى، وتخبرنا أنّ الورقة هي شهادةٌ لإثبات أنّنا سجّلنا كطلّاب لجوء، سنحتاج إليها للتقدّم بطلبٍ رسميٍّ للحصول على اللّجوء، واستلام أموال الدعم الخاصّة بنا، ولكنْ لاستلام المال سيكون علينا الحصول على موعدٍ آخر في المكتب: «مهلاً». تقول سارة: «هل علينا أن نفعل هذا مجدّداً؟».

- «يا»(*). تقول المرأة، وتبتسم ابتسامةً صفراء، وفي صباح اليوم التالي، بينما كنّا نتناول وجبة الإفطار في «الهايم» أتى رجُلٌ للجلوس معنا، يقول: إنّه من مصر، وأنّ اسمه أبو عاطف، ويسألنا إذا كان هناك ما يستطيع أنْ يساعدنا به. أخبرته سارة أنّنا نرغب في الحصول على غرفتنا الخاصّة، فنحن ما زلنا نتشارك المكان مع ابنَيْ عمّنا: ماجد، ونبيه، ونحن

(*) «يا» 'Ja' أي نعم في اللغة الألمانية. «م»

فتياتٌ نحتاج إلى بعض الخصوصيّة. يختفي أبو عاطف، ويعود بعد عشر دقائق مع أحد موظّفي المخيّم، الذي يقول: إنّ لديهم مكاناً لنا. يتبعوننا إلى الخيمة لأخذ أغراضنا، ثمّ نسير معهم على امتداد مبنى من القرميد الأحمر، لندخل من خلال بابٍ عليه نقشٌ حجريٌّ في أعلاه يشبه النسر إلى حدٍّ ما، وبينما نصعد الدرج، أسأل أبو عاطف عن المبنى فيقول لي: إنَّ هذا المكان يسمّى شميدت-نوبيلسدورف-كاسيرن. تضحِكُني الكلمات الألمانيّة الغريبة.

- «لقد كانت قاعدةً عسكريّة». يقول أبو عاطف: «استعمل البريطانيّون جزءاً من هذا المجمّع كسجنٍ، كما عُقِد اجتماعٌ شهيرٌ للحزب النازيّ في مبنى قريبٍ من هنا ذات يوم، هل سبق أنْ سمعتم عن رودولف هيس؟».

- «لا». أقول لأبي عاطف: «لم أسمع عنه قط».

نسير نحو الدوْر الثاني لندخل إلى غرفةٍ مبعثرةٍ تضمّ ثلاثة أسِرَّةٍ وخزانة. أوسِّدُ دُبّي الجديد على أحد الأَسِرّة، فيتربّع الدبّ الكبير ذو الفرْو واللّون البنّيّ الذي أعطتني إيّاه سارة بفخرٍ على الوسادة. يبقى أبو عاطف واقفاً عند المدخل، ويسألنا عن رأينا في برلين، فنقول له: إنّنا ما زلنا نفكّر في المغادرة والذهاب إلى هانوفر للعثور على هالة صديقة سارة.

- «لا، لا تفعلا ذلك». يقول أبو عاطف: «ابقيا هنا في برلين، هذا أفضل لكما، هل تودَّان الدراسة؟ توجد جامعات أكثر هنا».

أنظُر بانتباه، هذه فرصتي.

- «وأندية السباحة؟». أسأله.

- «وأندية السباحة أيضاً». يقول أبو عاطف: «ولكن لماذا؟».

- «أنا سبَّاحة». أُجيبه: «أيمكنك مساعدتنا في العثور على مكانٍ للتدريب؟».

17

- «تقدّمي». تقول المرأة الشقراء: «اسبَحي».

أرتجِف، وأخطو في اتّجاه حافّة المسبح عند أقدامي، وأمُدّ ساقي اليمنى إلى الأمام، وألُفّ أصابع قدميّ حَول الحافّة الفولاذيّة، وأمسك بكلتا يدي، وإلى جانبي تفعل سارة الشيء نفسه. أُحَدِّق في ركبتيّ، وأنتظر مصارِعةً الاضطراب في أمعائي، وأشدُّ عضلاتي، وأتقوّسُ قليلاً. هيّا يا يُسرى، اسبَحي. تنطلق الصافرة، أدفع بقدمي اليمنى مُصوِّبةً قامتي، وأنطلق إلى الأمام لأصل إلى الجانب الآخر من المسبح. أهْوي، وأشقُّ الماء برؤوس أصابعي وذِراعَيّ، ورأسي مُستوٍ بمحاذاتِهِما، وأنسَلُّ عبْر حلقةٍ مستديرةٍ متخيّلَةٍ في الماء. أستجمع قوّتي لأقوم بضربة الدلفين بجذْعي، وأرفع وِركَيَّ وساقَيَّ تباعاً، وبعدئذٍ أخفض الوركين وأقوِّسُ رُكبَتَيّ. يتحرّك أسفل جسدي بحركةٍ واحدةٍ، فيما ينتفض كاحلي ليدفع الماء من خلْفي. أندفع متلوّيةً، ثمّ أصعد مخترقةً سطح الماء، وألهث، فيدور كتِفاي، ويتّجه ذراعاي إلى الأمام، وأغطّس رأسي، وتشقُّ يداي الماء مثل مجاذيف، وأسحب، وأغرف الماء في اتّجاه بطني، وأرسم شكل ثقب المفتاح بيدَيّ. تتكوّرُ ساقاي مرّةً أُخرى، ما زلت أفتقد قوّتي، ما زالت عضلاتي خائرةً، كُفّي عن التفكير يا يُسرى، اسْبحي.

تنطلق الصافرة مرّةً أخرى في منتصف الطريق في المسار الثامن، فأواصل السباحة مُنَفِّذَةً خبطاتي الأخيرة، وأمسك بحافّة البِرْكة، وأنتزع نظّارة السباحة، وأتنفّس بصعوبة. تبتسم السيّدة الشقراء من جانب المسبح، وإلى جانبها رجُلٌ أشقر يضع نظّارةً، ويومئ لنا مُشجِّعاً، ويخبرنا أنّ بإمكاننا تبديل ملابسنا الآن.

نتسلّق سارة وأنا المسبح، ونسير إلى غُرَفِ تبديل الملابس، فأتساءل في نفسي ما الذي قالوه عن تقنيّاتنا في السباحة. نحن الآن نُجري تجارب السباحة في 04 فاسافروند شبانداو «Wasserfreunde Spandau 04»، وهو نادٍ للسباحة مقرّه الحديقة الأولمبيّة ببرلين، المعروفة محلّيّاً باسم أولمبيا بارك «Olympiapark». يبدو الأمر كما لو أنّ مستقبلي كلّه يعتمد على ما يقوله هؤلاء الغرباء، فنسير إلى جانب المسبح حُفاةً نحمل أحذيتنا، ولوازم سباحتنا، فيتحدّث أبو عاطف، المترجم الذي جاء معنا من المخيّم إلى الرجُل والمرأة.

- «أحسنتما». يقول أبو عاطف: «تبيّنَ أنّ بإمكانكما السباحة حقّاً».

- «لقد قلت لك». أقول لأبي عاطف: «كنّا في المنتخب الوطنيّ، وأحرزنا الميداليّات لسوريا».

أُسلّم نظّارات وقبّعة السباحة والبدلة إلى المرأة الشقراء.

- «كلّ شيءٍ على ما يرام». يقول الرجُل الأشقر: «يأتينا الكثير من الناس الذين يقولون: إنّهم سبّاحون، ثمّ يغرقون عندما ينزلون إلى المسبح».

يُضحكني ما قاله الرجُل الذي يقول: إنّ اسمه سْفين، ويمدّ يده لمصافحتنا، بعد ذلك يشير إلى المرأة، ويقدّمها لنا بوصفها المدرّبة الرئيسة للنادي، واسمها ريناتي.

- «بإمكانكما مناداتي باسم ريني»: تقول السيّدة، وهي تبتسم

بحرارة: «أظنّ أنّنا يمكن أن نجد مكاناً لكما هنا في فاسافروند "Wasserfreunde"».

أشعر بمغصٍ في بطني، بإمكاني أنْ أسبح مجدّداً! تقول ريني: إنّ بإمكاننا البدء في التدريب مع فئتنا العمريّة؛ أي: الأشخاص الذين تزيد أعمارهم عن ستّة عشر عاماً، وسنرى كيف يمكننا المضيّ قُدُماً بعد ذلك، كما تسألنا عمّا إذا كان بإمكاننا العودة في غضون أيّامٍ قليلةٍ، يوم الجمعة؛ لحضور جلستنا الأولى. أهزّ رأسي موافقةً بحماسٍ، سأبدأ على الفور إذا استطعت. كان أمراً رائعاً أنْ أسبح من جديد!

- «كذلك من المنطقيّ أنْ تبقيا هنا إذا كنتما تتدرّبان، وأتصوّر أنّكما تودّان الخروج من «الهايم». لدينا مكان في «ألفريدز» «Alfreds»، السكن الخاصّ بنادينا، هل ترغبان في معاينة الغرفة؟».

أحبس أنفاسي؛ لمْ أكن أتوقّع أن يُعرض علينا مكانٌ لنقيم فيه. نتبع ريني خارج المجمّع إلى مكانٍ قريبٍ، فتتطاير أوراقٌ صفراء متموّجةٌ على الطريق أمام قدميَّ، بينما نسير في اتّجاه مبنى مؤلّفٍ من دوْرٍ واحد. تقول ريناتي: إنّ هذا هو «ألفريدز»، ويوجد في الداخل فندقٌ صغيرٌ يستعمله نادي السباحة للمسابقات، وفي بعض الأحيان يبيت السبّاحون هنا. نخطو إلى الداخل، وننعطف إلى اليسار نحو ممرٍّ عليه صور قديمة لِفِرَق السباحة، ولوحات الميداليّات المؤطّرة، فتقودنا ريني إلى كافتيريا اصطفّت فيها مقاعدُ خشبيّةٌ داكنةٌ، فأتلفّت حَولي، فيقع نظري على خزانة الكأس، وآلة المحاسبة القديمة في زاوية الكافيتيريا، ومن السقف تتدلّى لعبة طائرةٍ خشبيّةٍ بجانب ثريّا فيها شموعٌ مزيّفة. إلى اليسار، أشاهد امرأةً في منتصف العُمر بشَعرٍ أحمرَ تقف وراء حاجزٍ خشبيّ.

- «مورغن(*)». تقول المرأة.

- «مرحباً سيبل». يقول سْفين.

يواصل حديثه باللّغة الألمانيّة، ويشير إلينا بينما يتكلّم مع المرأة.

- «مرحباً». تقول لنا سيبل باللّغة الإنجليزيّة: «أهلاً وسهلاً».

نبتسم لها مرّةً أخرى، بعد ذلك تقودنا ريني خلْف الحاجز الخشبيّ، ونذهب من خلال بعض الأبواب المزدوجة إلى غرفة طعامٍ بيضاء مزوّدةٍ بطاولاتٍ خشبيّةٍ مربّعة. تدور ريني وتفتح الباب في الجدار الأيسر الذي يؤدّي إلى الغُرَف، فننعطف يميناً أسفل الممرّ، ونتوقّف في نهايته، تفتح ريني الباب، وتُدخِلنا إلى غرفةٍ صغيرةٍ، يوجد سريرٌ مرتفعٌ من خشب الصنوبر، وخزانةٌ ذات أدراجٍ، وكرسيٌّ من القشّ، وخزانةٌ، ومغسلةٌ، وتُرينا ريني المراحيض في الممرّ.

- «إذا أقمتما هنا فستكونان بمفردكما؛ إذْ لا أحد يعيش هنا دائماً».

عمليّاً، من المفترض أنْ نبقى في المخيّم لمدّة ثلاثة أشهرٍ قبْل أن نتمكّن من الخروج، لكنّ عشرات الآلاف من الناس وصلوا إلى المدينة في الأسابيع الماضية، وهناك نقصٌ في مساكن اللّاجئين في برلين. نحن على يقينٍ من أنّ السُّلطات ستكون سعيدةً بوجود عددٍ أقلّ من الأشخاص الذين يجب عليها إسكانهم. عُدنا من الغرفة الصغيرة لنسير على طول الممرّ، يلتفت أبو عاطف نحْوي، ويهمس بشيءٍ باللّغة العربيّة بخصوص نظّارتي.

- «ما الأمر؟». تقول ريني.

ألتفت إلى ريني، لقد كنّا محظوظتَين بأنْ نحصل على مكانٍ للعيش فيه، أشعر بالحَرج من أنْ أطلب المزيد؛ لأنّ هؤلاء الأشخاص كرماء بالفعل.

(*) مورغن Morgen: صباح الخير في اللغة الألمانية. (م).

- «حسناً، لقد فقدت نظّارتي في أثناء الرحلة». أقول: «أُعاني من حسْرٍ في النظر، وينتابني شيءٌ من الدوار من دون نظّارتي؛ لذا كنتُ أفكّر فيما إذا كنت سأبدأ السباحة مرّةً أُخرى...».

ومن دون أن تتردّد ريني، تعرض أنْ تأخذني إلى مختصّ البصريّات بعد تدريب السبت القادم. نسير معاً خلْف ملاعب كرة القدم، والمباني القرميديّة الحمراء، إلى مدخل أولمبيا بارك، فتتوقّف ريني وسْفين، ويلتفتان إلينا.

- «إذنْ، سنراكما يوم الجمعة؟». تقول ريني: «سننظر بشأن إحضار بعض معدّات التدريب الجديدة لكما، وبعد ذلك يمكنكما نقل أغراضكما خلال عطلة نهاية الأسبوع».

نبتسم أنا وسارة، ونشكرهما، ثمّ نسير إلى محطّة الحافلات، ونستقلّ الحافلة مرّةً أُخرى إلى «الـهايم». أحدِّق من نافذة الحافلة بينما نسير في الشوارع الرماديّة، لقد أذهلني كرَمُ سْفين وريني، واستولى على مشاعري. أكاد لا أصدِّق حظّنا، أردت فقط مكاناً للسباحة، لمْ أتخيّل قطّ أنّ التجربة يمكن أنْ تتحوّل إلى عرْضٍ للسكن. ننزل أنا وسارة من الحافلة، ونعبُر الطريق لنتنزّه في الشارع تحت أشجار الخريف الصفراء، وفي «الهايم» نجد صديقنا عبد الله والأخوَيْن: أيهم، وباسم يدخّنان النرجيلة في الملعب الصغير خارج مدخل المبنى الذي نقيم فيه.

- «أهلاً». يقول أيهم، وهو ينظر نحونا بينما نقترب: «أين كنتما؟».

أجلس على أحد الكراسي التي أحضرها بعض الشباب من الغرف، وأخبرهم أنّنا قمنا بتجربةٍ في نادٍ للسباحة، وأنّ بإمكاننا البدء في التدريب من جديد، أتردّد لوهلةٍ، ثمّ أُسقِطُ القنبلة: سوف يسمح النادي لنا بالانتقال للإقامة هناك. يصمت الجميع.

- «أقصدُ أنّني لا أستطيع التَدرُّب والبقاء هنا في "الهايم"». أقول في عُجالة. أحتاجُ إلى النوم هناك؛ لأنّهُ يتعيّن عليَّ الاستيقاظ باكراً. الضجيجُ يملأُ المكان نظراً لوجود الكثير من الناس، وحرّاسُ الأمن يصرخون طوال الّليل، هذا الوضع ليس جيّداً بالنسبة إلى الرياضيّين».

يمتعض عبد الله، ويرفع حاجبيه.

- «هذا الوضع ليس جيّداً بالنسبة إلى أيّ أحد». يقول عبد الله.

ينحني عبد الله، ويلتقط مضربَ تنس خشبيّاً قديماً من الأرض أسفل مقعده.

- «مهلاً». يقول عبد الله: «بما أنّكِ رياضيّة، يجب عليكِ اختبار الّلعبة الجديدة التي اخترعتُها؛ تِنِس الصابون».

يلوِّح بقطعة صابونٍ متّسخةٍ، ويرميها نحوي.

- «عليك أن تكبُر». أقول بينما ألتقطُ قطعة الصابون.

- «إنّها رمْيتكِ الآن». يقولُ عبد الله، وينهض متمايلاً مثل لاعبي التنس.

أقف وأرمي الصابونة نحوهُ، يضربها بقوّةٍ، فتنفجر، وتنهمرُ شظايا الصابون فوق بنطالي الرياضيّ وحذائي.

- «يا إلهي، يُسرى!». تقول سارة: «ما الذي تفعلينه؟».

لا أستطيع الإجابة من فرطِ الضحك، تبخّرت ضغوط الأسابيع الماضية كلّها؛ سأبدأ السباحة مرّةً أُخرى، وأشعر أنّ كلّ شيءٍ ممكن.

في يوم الجمعة التالي أستيقظ مبكّراً متوتّرةً ومتحمّسةً لجلستنا التدريبيّة الأولى، أخذنا أنا وسارة الحافلة المؤدّية إلى أولمبيا بارك، ووجدنا سْفين وريني في انتظارنا خارج المجمّع، كان معهم رجُلٌ آخر ذو

شَعرٍ أشقر رماديٍّ، بلحيةٍ خفيفةٍ، وقد عرّفنا بنفسه قائلاً: إنّ اسمه لاسّي. هو وريني يدرّبان المجموعة الأكبر سنّاً، فئة الستّة عشر عاماً وما فوق. تقول ريني: إنّهم تركوا لنا لوازم السباحة في غرفة تبديل الملابس، كان سائر أفراد مجموعتنا للسباحة داخل غرفة تبديل الملابس مسبقاً، فتوجّهنا بالشكر إلى المدرّبين، وذهبنا إلى الداخل لتبديل ملابسنا.

أنا متوتّرة، كيف يمكنني السباحة بعد انقطاعي طيلة شهرين؟ أتذكّر كم كان الأمر صعباً عندما عُدت إلى السباحة بعد قضاء أكثر من عامٍ في سوريا، وعلى أيّ حال، فإنّ التدريب أكثر كثافةً هنا من سوريا؛ في ألمانيا، يحصل السبّاحون على حصّتين تدريبيّتين في اليوم، وكنّا نتدرّب ليومٍ واحدٍ كلّ أسبوعٍ في سوريا، سيكون هذا تحدّياً، لكنْ ربّما مع بعض الجُهد سأكون قادرةً على الوصول إلى مستوى أعلى من ذي قبْل، وعلى الرغم من توتُّري إلّا أنّني في غاية اللّهفة للنزول إلى الماء. يحدِّق فينا صفٌّ من المراهقين، ونحن نسير بجانب المسبح، أنا أيضاً أنظر إليهم، الذكور جميعهم لديهم أكتافٌ ضخمةٌ، وعضلات بطنٍ ظاهرةٌ، كما أنّ الفتيات مصقولات، ولهنّ عضلاتٌ واضحة.

يطلب لاسّي إلى مجموعتنا أنْ تستحمّ متحدّثاً باللّغة الإنجليزيّة من أجلنا. يقفز الأطفال الآخرون إلى المسبح، نليهم أنا وسارة، ومن مجرّد الإحماء يمكنني القول: إنّهم أسرع منّا. أحاول متجاهلةً، وأركِّز على خبطتي، جعَلنا ليسّي وريني نشترك في سباقَيْ: الخمسين متراً، والمئة مترٍ مع السبّاحين الآخرين، نسبح أنا وسارة بالسرعة نفسها تقريباً، لكنّنا على بُعد مسافةٍ طويلةٍ وراء سبّاحي المجموعة، بعد ذلك نُبدِّل ملابسنا، ويذهب سائر أفراد المجموعة إلى دروسهم في مدرسة النخبة الرياضيّة التي مقرّها في أولمبيا بارك. لا أحد منهم تحدّث إلينا، ولا أحد ألقى التحيّة

علينا في الجلسة الثانية في المساء أيضاً، ولا في التدريب صباح السبت في اليوم التالي، بعد ذلك تصحبنا ريني لرؤية مختصّ بصريّاتٍ صديقٍ لنادي السباحة، ويقدّم خصوماتٍ للأعضاء، فيفحص عينَيّ، ويطلب إليّ مراجعته بعد أسبوعٍ لاستلام نظّارتي الجديدة. تكفّلت ريني بالفاتورة.

- «الأطفال الآخرون في المجموعة سبّاحون جيّدون، أليس كذلك؟». أقول لسارة بينما نحن على متْن الحافلة إلى «الهايم».

- «لا تقلقي، نحن لمْ نسبح منذ وقتٍ طويل». تقول سارة: «سنجاريهم من جديد».

- «لم يكن علَيّ أن أدخّن النرجيلة قطّ في السنة التي لمْ أكن أسبح فيها». أقول: «ولا حتّى أن ألْتهم ذلك البرغر كلّه في الطريق إلى هنا».

- «أفهم ما تقصدين». تقول سارة: «كتِفاي تؤلماني».

إصابة سارة القديمة، أشعر بالأسى لأجلها، لا شكّ في أنَّ محنتنا في البحر أضرَّت بها، ومن الواضح أنّها لنْ تعود إلى السباحة التنافسيّة في أيّ وقتٍ قريب. في اليوم التالي، الأحد، لا يوجد تدريب، نعود إلى «الهايم»، فنحزم أمتعتنا وأشياءنا القليلة، ويجلس خليل على سريري، وينظر نحوي، وأنا أحشو الملابس والدببة في حقيبة الظهر الورديّة، يحزنني أن أغادر أصدقائي هنا، ولكنّي أعلم أنّنا سنعود لزيارتهم بين الحين والآخر. لمْ نخبر موظّفي المخيّم أنّنا بصدد المغادرة، إضافةً إلى ذلك، قد تحتاج سارة إلى العودة للنوم هنا إذا قرّرت عدم الاستمرار في السباحة. أشكّ في أنّ أيّ شخصٍ سوف يلْحظ أنّنا ذهبنا.

نأخذ الحافلة إلى أولمبيا بارك في وقتٍ مبكّرٍ من صباح اليوم التالي، ونُلقي بأمتعتنا في الغرفة في النادي قبْل التدريب. تبتسم لنا سيبيل مُلوِّحةً من وراء الحاجز الخشبيّ في الطريق. أسبح جيّداً في التدريب، لكنّني قلقةٌ

من أنّ المدرِّبَيْن: ريني، ولاسّي، يشعران بخيبة أملٍ بسبب بطء سرعتنا. كيف يمكننا مواكبة الآخرين، وهُم يتدرّبون لحصَّتين تدريبيّتين في اليوم؛ أي: ضعف ما نتدرّبه؟ وفي تلك اللّيلة، بعد التدريب المسائيّ، استلقيت على السرير ذي الدورَيْن في غرفتنا الجديدة، ورحت أتحدّث إلى نفسي مُشجِّعةً: لا تستسلمي أبداً، على الإطلاق، مهما جرى، اسبَحي.

أسمع طرْقاً على بابنا، إنّه سْفين يسأل عمّا إذا كنّا نريد تناول الطعام معه، يقول: إنّ ريني يجب أنْ تعود إلى المنزل، لكنّه يستطيع البقاء هنا لتناول العشاء. إنّها لفتةٌ طيّبةٌ منه أنْ يبقى ليطمئنّ على استقرارنا. نسير: أنا، وسارة، وسْفين عبْر الممرّ، ونخرج إلى غرفة الطعام الصغيرة، ونجلس أمام إحدى الموائد المستديرة، وتجلِبُ لنا سيبل أطباقاً من الدجاج والأرز.

- «أيمكنني أنْ أسأل لماذا غادرتما سوريا؟». يقول سْفين بعد أن انتهينا من تناول الطعام: «هل كانت الحرب؟».

- «نعم». أجيب قائلةً: «ولمواصلة التدريب، فقد اضطّررت إلى التوقّف عن السباحة في دمشق، وكانت القذائف تسقط في أنحاء المسبح جميعها هناك».

ينظر سْفين بدهشةٍ «لمْ تكن الحرب فحسب». أقول له: «كنت أرغب في الذهاب إلى مكانٍ يمكنني فيه ممارسة مهنة السباحة، فمن غير المعتاد أنْ تستمرّ النساء في السباحة بعد سنٍّ معيّنةٍ في سوريا». أُضيفُ موضحةً لسْفين. من المتوقّع أنْ يتزوّجن ويتوقّفن عن التدريب، هذا ما حدث لعمّاتنا، لكنّني رفضتُ ذلك، وقلت: إنّني أريد السباحة.

- «إذنْ، فقد غادرتِ بلدكِ من أجل السباحة». قال سْفين: «وما الذي تريدين تحقيقه في السباحة؟».

أنظر في عينيه.

- «أحلمُ بالمشاركة في الألعاب الأولمبيّة يوماً ما». أقول.

تبدو على سْفين الدهشة.

- «أتعنين ما تقولين؟». يقول.

- «بالتأكيد». أُجيبُه أنا.

بعد ذلك نجلس في صمتٍ لمدّة دقيقةٍ، ثمّ يسألني عن مَثلي الأعلى من السبّاحين، فأخبره عن مشاهدتي لمدى قوّة مايكل فيلبس، وحصوله على تلك الميداليّات الذهبيّة الأولمبيّة كلّها، وعن فوز تيريز الشمار في بطولة العالم للألعاب المائيّة. هؤلاء هُم مَثلي الأعلى في الرياضة، ثمّ أخبره أنّني أحبّ أن ألتقي بمالالا، المراهقة الأفغانيّة التي نجت بعد إطلاق النار عليها من قِبَل حركة طالبان، وما تزال تقوم بحملاتٍ لتعليم الفتيات، هذه شَجاعة.

يسأل سْفين عن سوريا، لا أعرف من أين أبدأ.

يقول سْفين: إنّه لمْ يذهب إلى الشرق الأوسط مُطلقاً، وأنّه لا يعرف أيّ شيءٍ عنه، ويطلب إليّ أنْ أخبره المزيد عن تلك المنطقة.

- «لا أعرف». أقول لسْفين: «هل أقدّم لك بعض الحقائق؟ دمشق هي إحدى أقدم العواصم في العالم، لدى سوريا صادرات كبيرة من القطن، وأشياء من هذا القبيل».

- «لا، حسناً، لقد فهمت». يقول سْفين وهو يضحك: «حدِّثيني عن الرحلة».

أخبرَته سارة عن المهرّبين، وعن البحر، والمحرّك الذي تعطّل، وعن الأمواج، والحدود، والفندق المخيف، والمحطّة، والسجن. انتبهتُ إلى أنّني لمْ أفكّر في أيّ شيءٍ من هذه المتاعب منذ أسابيع، فقد بدأنا فصلاً آخر. من الصعب شرح ذلك، لكنّني حين أنظر إلى الماضي، أرى أنّ بعض

مراحل الرحلة كانت مضحكةً، لمْ تكن الرحلة بذلك السوء؛ لقد أصبح لدينا الكثير من الأصدقاء في الطريق.

يقول سْفين أخيراً: «لا أعرف كيف تستطيعان الجلوس هنا، والضحك في أثناء سرد تلك القصّة، فمعظم الرجال البالغين كانوا جلسوا في زاويةٍ وبكوا لو أنّهم مرُّوا بما مررتم به، وأنتما تضحكان؟!».

- «لا أعرف». أقول لسْفين: «كان الوضع سيّئاً في البحر، وفي وهنغاريا، لكنّ الباقي كان نوعاً من المرح».

- «المرح؟!». يهزّ سْفين رأسه غير مصدِّق.

أنظر من النافذة في هذه اللّيلة التشرينيّة المعتِمة، النادي هادئ الآن، وقد غادرت سيبل. لا يوجد أحدٌ غيرنا أنا، وسْفين، وسارة في المبنى، ربّما لا يوجد أحدٌ غير حارس أمنٍ على مسافة كيلومتر.

- «أعني أنّكما فعلتما كلّ شيءٍ على نحوٍ صحيحٍ، وقد وصلتما إلى هنا بسلام، ولكنْ عليكما الآن التعامل مع ما حدث، ربّما يجب أن تُعرَضا على طبيبٍ نفسيّ». يقول سْفين بينما يُعدِّل جلسَته على الكرسي.

أهزّ رأسي نفياً، فنحن لا نتعامل مع هذه المسائل بهذه الطريقة في بلادنا، فينظر سْفين إلى ساعته، ثمّ يقف ليأخذ حقيبة أدواته من خلفِ الكرسيّ، ويضعها على كتفه، يبدو أنّه يشعر بالقلق والتردّد لتركنا في المبنى الفارغ، نقول له: إنّنا سنكون على ما يرام، لذلك يتمنّى لنا ليلةً سعيدةً، ويغادر غرفة الطعام. أنظر إلى سارة، نحن الآن وحْدنا في الأولمبيا بارك التي تعود إلى العصر النازيّ، وفي الخارج، وراء تماثيل الرياضيّين الآريّين، والنسور الإمبراطوريّة الفخورة، يلوح ملعبٌ ضخم. لا أثر لمتْجَرٍ، أو سوقٍ مركزيٍّ، أو حركة، لا شيء أبداً، لا شيء يمكن فعله سوى الذهاب إلى السرير. نفتح الباب نحو الممرّ، كانت سيبل أطفأت

الأنوار جميعها، أتحسّس بيدي على طول الجدار، ولا أستطيع العثور على مفتاحٍ لأنيرها.

- «هذا المكان مخيف». تقول سارة: «أشبه بالعيش في مدرسةٍ في أثناء قيام الأموات بعد نهاية العالم».

نركض بأقصى سرعةٍ إلى آخر الممرّ المظلم نحو غرفتنا الجديدة، وبعد بضع خطوات يومض الضوء التلقائيّ فوق رأسينا، فنهوي كلانا على السرير السفليّ في الغرفة، ونحن نضحك بارتياح. أتسلّق إلى السرير العُلويّ.

- «فكّري فقط». تقول سارة من الأسفل: «في عدم وجود أحد على بُعد أميالٍ مِنّا، إذا هاجَمنا أحدٌ الآن، فسنموت قبْل أنْ تصل الشرطة إلينا».

- «شكراً على المعلومات». أقول، وأنقلب على جانبي.

أنهضُ باكراً للتدريب، وتتغيّب سارة عن السباحة لمراجعة مكتب الشؤون الاجتماعيّة «اللاغيسو» لبدء المعركة من أجل موعدنا التالي. هذا اليوم ستقوم مجموعة لاسّي بتدريبات إضافيةٍ للوزن في صالة الألعاب الرياضيّة، فألتحق بهم متجهّمةً، وأحاول بذْل قصارى جهدي، أمامي طريقٌ طويلٌ لاستعادة لياقتي البدنيّة.

في تلك الّليلة يتناول سْفين الطعام معنا مرّةً أُخرى، وفي اليوم التالي، الأربعاء، ستكون هناك جلسة تدريبٍ واحدة فقط في الصباح، لذلك نستطيع قضاء فترة بعد الظُّهر من دون تدريب. يقول سْفين: إنّه يريد اصطحابنا للتسوق، ويضيف أنَّ والدته مع ريني وعددٍ قليلٍ من الآخرين في النادي، قدّموا إليه بعض المال لشراء معدّات تدريبٍ جديدة لنا. أنظر إلى الأسفل، وألهو بالمعكرونة في صحني، وأشعر بالحَرج. هناك فرقٌ بين التقاط ملابس التبرّعات من كومةٍ مُغْفَلةٍ، وأخذ أموالٍ من أشخاصٍ

تعرفهم، حين كنّا في سوريا لمْ نعطِ أيّ شيءٍ لأحدٍ وجهاً لوجه، فقد اعتدنا أنْ نتبرّع لمؤسّسةٍ خيريّةٍ تتكفّل بوصولها إلى المحتاجين، وبهذه الطريقة لمْ يشعر أحدٌ بالحَرج، أو الدونيّة. أذكّر نفسي بمدى حظّنا في العثور على أصدقاء جُدد كثيرين، وأحاول دفْع الأفكار غير المريحة بعيداً، لكنّني أجد صعوبةً في ذلك؛ إنّها صدقة، وهذا يؤلمني.

بعد ظُهر اليوم التالي يأخذنا سْفين في القطار إلى متْجَرٍ للملابس الرياضيّة بالقرب من ميدان ألكسندر، وهو مبنى رماديٌّ مرتفعٌ في شرق المدينة. تبدو السماء واسعةً، وفارغةً سوى من برجٍ يلوح في الأفق، تعلوه كرةٌ زجاجيّةٌ كبيرةٌ ترتفع فوق المباني الخرسانيّة. في المتجَر، نشتري أحذية ركضٍ، وسراويلَ قصيرةً، وبعض ملابس الخروج. ما أحتاج إليه كلّه بعض المعدَّات للتدريب خارج المسبح، يقول سْفين: إنّ النادي عرَض التبرّع بنظّارات، وملابس، وقبّعات السباحة، وبينما كنّا عائدين إلى القطار، توقّف سْفين خارج متْجَرٍ للملابس النسائيّة. تنَحنَح ونظر إلينا بخجل.

- «حسناً». يقول سْفين: «طلبت إليّ ريني أنْ أسألكما...».

- «ماذا؟». تسأل سارة.

- «بخصوص...، حسناً، بخصوص ما إذا كنتما في حاجةٍ إلى أيّ شيءٍ آخر». يقول سْفين: «يمكنني أنْ أترككما، وربّما يمكنكما إلقاء نظرة».

- «آه، فهمت». أقول بحَرجٍ شديد.

بإمكاني أنْ أشعر بسارة، وهي تحاول ألاّ تضحك، فأتحاشى النظر في عينيها، يضع سْفين بعض النقود في يدي ويد سارة على عَجلٍ، وأخطو إلى داخل المحلّ. ننزوي في إحدى زوايا المحلّ، وتنفجر سارة بالضحك.

- «كان يقصد الملابس الداخليّة، أليس كذلك؟». أسألها.

- «نعم، أظنّ ذلك». تقول سارة: «لكنّني لست في حاجةٍ إلى أيّة ملابس داخليّة».

- «أعرف هذا». أقول ضاحكةً، وأنا أتذكّر وجه سْفين: «ولا أنا في حاجةٍ إليها أيضاً».

تجوَّلنا أنا وسارة في المتْجَر لمدّة عشر دقائق، ثمّ خرجنا خاليَتَي الوفاض. تنحنحَ سْفين مرّةً أُخرى، وقال: إنّ علينا الذهاب للبحث عمّا نأكله. ننطلق في القطار إلى بوستدامير بلاتز «Platz Potsdamer»، وهي مجموعةٌ من الأبراج الزجاجيّة البرجيّة إلى جهة الغرب من مكاننا، فنأكل في مطعمٍ إيطاليٍّ، بعد ذلك، يأخذنا سْفين في مصعدٍ إلى منصّة عرْضٍ على السطح محاطةٍ بقضبانٍ سوداء مثل القفص. تمتدّ المدينة الرماديّة المسطّحة إلى أبعد مدى يمكنني رؤيته، لا شيء مرتفع كثيراً، لا شيء غارق في القِدَم. إلى جهة اليسار، يرتفع ملاكٌ ذهبيٌّ من داخل كتلةٍ كبيرةٍ من الأشجار البنيّة والصفراء، فيشير سْفين إلى مبنى مربَّع توجد في أعلاه قبّةٌ زجاجيّةٌ، إنّه «الرايخستاغ» «Reichstag»، مبنى البرلمان الألمانيّ. أنظر في المشهد بتمعُّنٍ، محاولةً بذْل ما في وسعي لأنْ أحبّه، تهبّ رياحٌ قويّةٌ، وتلسع عينَيّ، أُغلِقهما، وأرى جبل قاسيون يلوح في الأفق فوق الشوارع القديمة، فأفتقد دمشق.

في الأسبوع التالي أُنهِكُ نفسي في السباحة، أستيقظ في السادسة صباحاً، وأُنهي التدريب في الثامنة مساءً، سارة منشغلةٌ بتسيير معاملات أوراقنا، ولا تستطيع المواظبة على التدريب. في صبيحة أحد الأيّام، طلبت إليّ المجيء إلى مكتب الشؤون الاجتماعيّة للتبديل معها بعد انتظارها طوال الّليل في طابور، فأشعر بخيبة أملٍ كبيرةٍ؛ لا أريد تفويت التدريب، أريد السباحة فقط. بين حصص التدريب، وبينما يكون الآخرون في

المدرسة، أتجوّل حول ملعب أولمبيا بارك، أو أجلس وحْدي في النادي، وفي معظم الأيّام ينضمّ إلينا سْفين في غرفة الطعام. نتحدّث لساعاتٍ عن أُسرَتَينا، وعن السباحة، وعن ألمانيا، وسوريا، والحرب.

أصبحنا أنا وسارة نعتمد على سْفين في كلّ شيء، هو وريني يدفعان ثمن وجباتنا في «ألفريدز» كلّ ليلة، أو يُخرِجانا لتناول العشاء، وفي كثيرٍ من الأحيان ينتهي سْفين بالبقاء في واحدةٍ من الغرف المجّانيّة الأُخرى، وأحياناً ينهض في الرابعة صباحاً لمساعدة سارة في إعداد أوراقنا قبْل أنْ يبدأ مهمّته التدريبيّة. الإجراءات الإداريّة معقّدةٌ على نحوٍ فظيعٍ، يسأل سْفين في أرجاء النادي التماساً للمشورة، وقد تطوّع مايكل وغابي، والدا أحد سبَّاحي سْفين، للمساعدة؛ لديهما معرفةٌ وثيقةٌ بالوضع في مكتب «اللاغيسو» من خلال عملهما. بعدها يتّصل سْفين بغابي للحصول على التوجيه في كلّ مرّةٍ يكون لدى سارة سؤال.

أتحدّث إلى أمّي على الهاتف كلّ بضعة أيّام، بعد أنْ غادرت أنا وسارة دمشق، خرجت أمّي وشهد من شقتنا القديمة، وذهبتا للعيش مع الأقارب. ينصبُّ تركيزنا الآن على إخراجها هي وشهد من سوريا، وإحضارهما بأمان إلى ألمانيا، ولكنّ الحجم الهائل للوافدين الجُدد يعني أنّ المعاملات الورقيّة للجميع تستغرق وقتاً طويلاً؛ لقد وصلت أنا وسارة إلى برلين منذ أكثر من شهر، ولمْ نتقدّم بطلبٍ للّجوء بعْد. تفتقدنا أمّي بشدّة، وغالباً ما تبكي عندما نتحدّث. أصرف انتباهها بإخبارها عن حياتنا الجديدة، وعن السباحة، وعن سْفين. تعاني أمّي في البداية لفهم لماذا أقضي الكثير من الوقت مع مدرّبي الجديد. أنا أيضاً مندهشةٌ من قدْر مساعدته لنا. في بلادنا، من الصعب أنْ يحصل المرء على مساعدةٍ كهذه سوى من أُسْرته، فلا أحد يُسدي خدمةً لأيّ أحد، على الأقلّ ما لمْ يتوقّع مقابلاً ما، وفي

إحدى اللّيالي عندما كنت أنا وسْفين نتناول العشاء في النادي قرّرت أنْ أسأله.

- «أخبرني لماذا تقدّم لنا هذه المساعدة كلّها؟». أقول: «تشتري لنا وجبات الطعام، وتأخذنا للتسوّق، وتساعدنا في الأوراق، أعني ما مصلحتك في ذلك؟».

تبدو على سْفين الدهشة.

- «لا توجد أيّة مصلحة على الإطلاق بالنسبة إليّ». يقول سْفين: «أشعر بالارتياح لتقديم المساعدة لأحدهم، لقد تربّيت على ذلك، فعندما كنت طفلاً كانت هناك حرب في يوغوسلافيا، وجاء كثيرٌ من الناس إلى برلين، فقدَّمت عائلتي المساعدة لهم أيضاً. علّمتني أمّي أنّ العالم الذي نحيا فيه عالمٌ كبيرٌ، وليس مجرّد شبانداو، أو برلين فقط. يجب أنْ أكون منفتحاً على هذا العالم».

أتملّى في وجه سْفين، فيبتسم لي.

- «وعلى أيّ حال، من السهل تقديم المساعدة». يقول سْفين: «لا فرق بيني وبينكما، فالسباحة تجمعنا».

أصمت وأفكّر فيما قدّمه سْفين لنا، وقت فراغه كلّه، طاقته، وحتّى أمواله الإضافيّة مسخرَّة لمساعدتنا في الاستقرار، هذا مؤثّرٌ جدّاً، فأقطع عهداً على نفسي بأنْ أفعل الشيء نفسه لشخصٍ آخر ذات يومٍ، سوف أحمل كرَمَ سْفين معي أينما حَللت.

في ذلك الأسبوع أسبح مُكافِحَةً من أجل مواكبة الآخرين، وأعلم أنّني سأتحسَّن، الأمر مسألة وقتٍ فقط.

في يوم السبت التالي، يأتي سْفين لملاقاتي بعد التدريب، ويقول: إنَّ مدربَيَّ: ريني، ولاسّيه يريدان التحدُّث إلينا، فنجلس جميعاً إلى إحدى

الطاولات الخشبيّة في كافيتيريا النادي، ويتنحنح لاسّيه: «نحن نعتقد أنّكِ يجب أنْ تتدرّبي مع سْفين من الآن فصاعداً».

أُفاجَأ لسماعِ ذلك، فأعمار المتدرّبين في مجموعة تدريب سْفين تتراوح بين الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة؛ أمّا أنا، فأبلغ سبعة عشر عاماً من العمر، معنى ذلك أنّني سأتدرّب في فئةٍ عُمريّةٍ أدنى بفِئتين من عُمري. يرى سْفين وجهي، ويحاول طمأنتي.

- «سيكون هذا في صالحك». يقول: «لقد فاتتكِ سنوات تدريبٍ مهمّة حين انقطعتِ عن التدريب في سوريا؛ لذا يجب أن نعمل على بناء قوّتك، من الأفضل أنْ تأتي إلى مجموعتي حيث يكون التدريب أكثر عموميّة».

أنظرُ إلى الطاولة مُغالبةً دموعي، وأشعر بحزنٍ شديدٍ، وأتذكّر كيف حطّمت ذلك الرقم القياسيّ في بطولة العالم في إسطنبول، وأحتاج إلى أنْ أقفز إلى مستوى أعلى إذا أردت العودة إلى المستوى الذي كنتُ عليه في ذلك الوقت؛ أمّا إذا بدأت التدريب في مستوى أدنى فقد يستغرق الأمر سنواتٍ لكسْر رقمي السابق ولو بنصف ثانية. آخذ أنفاساً عميقةً متلاحقةً ليهدأ ذُعري، سْفين يساعدني كثيراً على أيّة حال، لذا أعتقد أنّه من المنطقيّ أن يُدرِّبني، فأنظُر إليه، وأنجحُ في رسم ابتسامةٍ خفيفةٍ على وجهي. اتّفقنا.

في صباح يوم الاثنين التالي أبدأ التدريب مع مجموعة سْفين، فتُحدِّق بي الفتيات في المجموعة بينما أُبدِّل ثيابي، تصغُرني أكبرهنَّ سنّاً بأربع سنوات، وبعد الإحماء، يُطلِق سْفين صافرته، ويقول شيئاً ما بالألمانيّة، فتتذمّر المجموعة لصافرة سْفين وتعليماته، فينظر إليّ.

- «سنُجري سباقاً زمنيّاً». يقول: «ثلاث جولات 800 متر سباحة حُرّة، واحدة تلْو الأُخرى».

لا بأس، أنا مستعدّة، بإمكاني فِعل هذا؛ أغطس في الماء، فأتأخّر قليلاً مع نهاية الطول الثالث، وبحلول نهاية السادس أصبحتُ متأخّرة. لا أصدِّق ذلك، هؤلاء الأطفال الصغار أسرع منّي، كُفّي عن التفكير، اسبَحي فقط، أدفع بقوّةٍ، لكنْ بلا جدوى، لقد أنهى الآخرون السباق قبْلي بدقيقتين، أُمسِك بطرف المسبح، وأبحث عن سْفين لسماع نتيجتي: 12 دقيقة و32 ثانية، هذا مُحبِطٌ للغاية، يجب أنْ أكون أقرب إلى إحدى عشرة دقيقة، أذكر أنّني قطعتها ذات مرّةٍ في 10 دقائق، و5 ثوان.

نبدأ السباق التالي، لا تفكّري، اسْبحي فقط. مع كلّ نفسٍ جانبيٍّ آخذه، أرى الآخرين يمضون قُدُماً، وبعد اجتياز الطول الثاني، أنا في المؤخّرة مرّةً أُخرى، مئة وخمسون متراً في المؤخّرة. استمرّي، فقط استمرّي، لا يُجدي الأمر نفعاً، في نهاية الطول الرابع أتوقّف، وأمسك بحافّة البِركة، الآخرون بالفعل في منتصف الطريق إلى جولتهم التالية؛ أمّا أنا، فأسحب نفسي، وأرى سْفين يعبس في وجهي.

- «ما المشكلة؟». يقول.

- «لا شيء». أُجيبُه.

أخرج وأجلس بجانب المسبح، وأضع رأسي بين يديّ، فينتابني الغضب فجأة. هؤلاء الأطفال الصغار يتدرّبون مرّتين في اليوم طيلة حياتهم، هذا لَيسَ عدْلاً، لكنّني سأغدو أسرع منهم مهما كلّف الأمر. أُحدِّق في أرضيّة المسبح، وأتنفّس بعمق. يهدأ الغضب، وأُصبِحُ أكثر تصميماً من أيّ وقتٍ مضى. سأعود إلى حيث كنت، ثمّ سأتقدّم أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وسأذهب إلى الألعاب الأولمبيّة. يطلب سْفين من المجموعة القيام بجولةٍ ثالثة، ثم يجلس إلى جانبي.

- «أعرف أنّ الأمر صعبٌ عليكِ، فهناك الكثير الذي يحدث، لقد

مررتِ بالكثير من المتاعب، لكنّكِ ستعودين تماماً إلى المستوى الذي كنتِ فيه إذا واصلتِ العمل. المهمّ ألّا تستسلمي». يقول سْفين.

أتنهّد، وأعلمُ بأنّه على حقّ، لا بدَّ لي من الاستمرار مهما كان الأمر صعباً. أنهض وألتحق بمجموعة التدريب في المُجمَّع، الأطفال الآخرون في صفّ سْفين لطيفون ويريدون معرفة المزيد عنّي، لكنْ لديهم بعض الأفكار المضحكة. يوقفني بعض الأولاد من المجموعة بعد التدريب، يريدون أنْ يعرفوا ما إذا كنت سبحتُ من قبْل في مسبحٍ في سوريا. أكتم ضحكتي، وأشرح لهم بأنّني لمْ أكن أعيش في خيمةٍ في الصحراء، في مكانٍ ما، وأنّني تدَّربتُ في المسابح، وكانت لديّ ملابس سباحة، وكان لدينا جهاز تلفاز، وجهاز حاسوبٍ في البيت. تبدو الدهشة على وجوه أعضاء المجموعة، وهُم يستمعون إليّ. أُنهي حديثي متنهِّدةً؛ هناك الكثير الذي ينبغي توضيحه.

في ذلك المساء اصطحبَنا سْفين، سارة وأنا، إلى مطعمه الإيطاليّ المفضّل لتناول العشاء، وبالكاد وصلت البيتزا التي طلبناها حتّى كانت سارة تعلن أنّها ستتوقّف عن السباحة إلى الأبد.

- لم أعد قادرةً على ذلك، كتفي تؤلمني بشدّة، أريد السباحة، ولكنْ ربّما للمتعة فقط.

- «سوف تتحسّن كتفكِ». يقول سْفين: «لقد كنتِ في استراحةٍ طويلة». يضيف سْفين.

- «أبذل جهدي، لكنّها تؤلمني عندما أسبح، وهذا هو السبب الذي يجعل هؤلاء الأطفال الذين لمْ تتجاوز أعمارهم الثالثة عشرة يسبقونني في المسبح». تقول سارة.

الأمر ليس سهلاً لأيٍّ منّا، فعندما كنّا في القمّة أحرزنا الميداليّات

لفريقنا الوطنيّ، والآن هؤلاء الأطفال الأصغر سناً أسرع منّا. يقترح سْفين أنَّ على سارة أن تذهب إلى الطبيب وتسعى للحصول على بعض العلاج الفيزيائيّ، لكنّها تهزُّ رأسها، فهي تشعر بالقلق من أنّ الطبيب سيقول لها بأنّها لا تستطيع السباحة مرّةً أُخرى. يقول سْفين: إنَّ بإمكان سارة أن تأتي إلى المسبح وتسبح للمتعة وقتما تشاء.

عندها نسمع صوت ارتطامٍ عالٍ من المطبخ؛ سقطت مجموعةٌ من الصحون على الأرضيّة المبلَّطة، يجفل سْفين والعملاء الآخرون؛ أمّا سارة وأنا، فنواصل الأكل. ينظر سْفين إلينا، فأنظر إلى سارة وأنفجر بالضحك.

- «ما الذي يضحكك؟». يسألني سْفين.

- «ذات مرّةٍ في سوريا انفجر مخزن أسلحةٍ، تلك كانت صدمةً حقيقيّةً، فقد أصبحت السماء حمراء بالكامل». أقول لسْفين.

يُحملِق سْفين بنا، أضحك في وجهه، لكنّني أتذكّر مرّةً أُخرى أنّنا في أمان، لنْ تسقط أيّة قنابل على الشارع في الخارج، وتتحطّم النوافذ في المطعم جميعها، لا يجب أنْ أكون متأهّبةً للاحتماء عندما تهطل قذائف الهاون فوقنا. أُدرِك أنّه من الصعب على سْفين والآخرين فهم سبب ضحكنا ممّا حدث لنا، لكنْ هذا لا يعني أنّنا لا نهتمّ، بيْدَ أنَّ الضحك أسهل من البكاء؛ لأنّني حين أبكي سأبكي وحْدي، لكنْ إذا ضحكنا يمكننا أنْ نفعل ذلك معاً. أعتقد أنّه لا أحد يدرك مدى قوّته الحقيقيّة إلى أنْ يحين وقت تعامله مع مأساة.

خلال الأسابيع القليلة المقبلة، ستأتي سارة إلى التدريب حين تشعر برغبتها في ذلك. هي منشغلةٌ في مراجعة المكاتب من أجل الانتهاء من إجراءاتنا الورقيّة، كذلك تذهب سارة لزيارة الآخرين في «الهايم»، أو لاستكشاف برلين مع أصدقائها المتطوّعين الجُدد. أوقاتنا مختلفةٌ

تماماً، فغالباً ما تبقى سارة في الخارج حتّى وقتٍ متأخّرٍ، ثمّ تأتي لتنام، وهذا يتعارض مع وقتي؛ إذْ يجب أن أستيقظ في السادسة للتدريب. أخبِر سْفين بأنّني أعتقد أنَّ من الأفضل أنْ يكون لنا أنا وسارة غرفتان منفصلتان. يتحدّث سْفين إلى ريني التي تُؤمِّن لكلّ منّا غرفةً في النادي.

الغرفتان متشابهتان تماماً، وعمليّتان مع نافذةٍ لكلٍّ منهما تطلّ على ملعب كرة القدم، وفي كلّ غرفةٍ خزانة ملابس، وخزانةٌ بأدراج، وسريرٌ مفردٌ، وطاولةٌ بجانب السرير، ورفٌّ، ومغسلة. ما هي إلّا مدّة قصيرة حتّى كانت غرفة سارة أشْبه بمتْجَر التحف؛ حيث يمكن مشاهدة مجموعةٍ من الصور، والكتب، والمجوهرات، ومساحيق التجميل، والعطور. تقوم كلّ أسبوعٍ بتغيير الملصقات، وتربط كوفيّةً فلسطينيّةً بلونٍ مختلفٍ، أو وشاحاً، أو قناعاً جديداً صنعته مع مجموعتها المسرحيّة التي يديرها متطوّعون. أقول لها: إنَّ غرفتها غارقةٌ في الفوضى، فتلكزني مستنكِرة.

- «على الأقلّ لا تبدو غرفتي متْجراً رياضيّاً ممتلئاً بلوازم الرياضة المطويّة بأناقةٍ مثلما تفعلين». تقول سارة.

سارة على حقّ، غرفتي مختلفةٌ جدّاً، والشيء الوحيد المعلّق على حائطي هو برنامج سْفين التدريبيّ الذي كتبتُ في هامشه العُلْوي الكلمات التالية: «لا تتوقّفي أبداً، واصلي العمل»، وعلى هامشه السفليّ كتبتُ الكلمات التالية: «ستفوزين ذات يوم».

وذات يومٍ، في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر، سمِعتُ من رامي، صديقي القديم في السباحة، أنّه غادر إسطنبول. أخبرني أنّه عبَرَ البحر، ووصل إلى حيث أخوه في بلجيكا، في بلدةٍ صغيرةٍ بالقرب من مدينة غِنت (*) «Gent».

(*) غِنت، أو خِنت باللهجة المحلية، مدينة بلجيكية تُعدّ عاصمة لمقاطعة فلاندرز الشرقية في الإقليم الفالاماني. (م).

هذا مذهلٌ! أنا سعيدةٌ جدّاً؛ لأنّ رامي وصل إلى أوروبا هو الآخر، ويمكننا أنْ نعمل على تحقيق أحلامنا. أسأله عمّا إذا كان يسبح، ويخبرني أنّ لديه اختباراً في النادي، فأرجو له التوفيق كلّه، فأنا على ثقةٍ بأنّه سينجح.

أنا سعيدةٌ بالسباحة، وسعيدةٌ لكوني آمنةً هنا في ألمانيا، مع ذلك لا أستطيع أن أتجنَّب الشعور بالوحدة. يبذل سْفين قصارى جهده للبقاء إلى جانبي، لكنْ ليس لديَّ أيّ أصدقاء في مثل عُمري، وسارة غالباً ما تكون بعيدةً عن النادي، أو تكون نائمةً في غرفتنا القديمة في «الهايم»، أو في منازل الأصدقاء. الأطفال في جلسات التدريب لطيفون معي، ولكنّ حاجز اللّغة يفصلُ بيننا، وبعد مدّةٍ وجيزةٍ من إجابة رامي لي، يتقرّر أنْ يسبح بعض الأطفال من مجموعتي في مسابقةٍ إقليميّةٍ في مسبحٍ شرقيّ برلين. يأخذنا سْفين أنا وسارة لمشاهدة المنافسة، وبينما كنت جالسةً على المنصّة قرب المسبح أتت فتاتان من مجموعتنا التدريبيّة وانضمّتا إليّ. قدّمتِ الفتاتانُ نفسيهما، وقالتا: إنَّهما إليز وميتي. ابتسمتُ لهُما، كان شعرُ إليز طويلاً أشقرَ، وعيناها زرقاوين لامعتين، وقد سألتني لِمَ أتيتُ إلى هنا، وما إذا كنت سأبقى في برلين.

- «جئت بسبب الحرب في بلادي، وأريدُ السباحة». قلتُ لهما وأضفت: «آمل أن أتمكّن من البقاء».

- «هل ستأتين إلى المدرسة معنا؟». تقول ميتي ذات الشعر البنّيّ الداكن الطويل المربوط إلى الخلف.

- «لست أدري بعد». أقول.

تحادثنا لبعض الوقت فيما كان بعضُهم في المجموعة ينظرون إلينا، ونحن نتحدّث. يكسرُ الحديثُ جليدَ الصمت، وبعد ذلك يقدِّم الآخرون في المجموعة أنفسهم لي واحداً تِلو الآخر. توطَّدت علاقتي بإليز وميتي،

وفي نهاية ذاك الأسبوع دعتني إليز إلى منزلها للقاء عائلتها، كنتُ متوتّرةً في البداية، لكنّ عائلة إليز رحَّبت بي كما لو كنت قريبتهم. لدى إليز أختٌ أصغر سناً تُدعى إيمي، وشقيقٌ أكبر يدعى فرناند، وثلاثتهم يسبحون في النادي. وخلال العشاء سألتني والدة إليز، كاترين، كيف يبدو العيش في النادي، فأخبرتها أنّني أشعرُ بشيءٍ من الوحدة في أثناء غياب سارة. في اليوم التالي تأتي إليز للتحدّث إليّ بعد التدريب، وتدعوني للإقامة مع أُسرتها مدّةً من الوقت. أبتسم بينما يسري بداخلي شعورٌ بالدفء، يا لها من لفتةٍ جميلة! بعد الرحلة، و«الهايم»، والنادي، سيكون من الرائع أنْ أكون في منزلٍ عائليٍّ اعتيادي. أنقل بعض الأشياء إلى منزل إليز في اليوم التالي، وأمكثُ مع عائلتها لمدّة ثلاثة أسابيع، أفعل ما في وسعي كلّه للتأقلم مع الوضع؛ حيث تُعاملني والدة إليز مثل بناتها تماماً.

أحاول طيلة الوقت أنْ أدفع نفسي بقوّةٍ في المسبح، كانت قِواي تَخورُ بعد كلّ دورةٍ تدريبيّة. لمْ يخطر لي أبداً أنّ العودة إلى مستوى تنافسي ستكون بهذه الصعوبة. يلتزمُ سْفين الصمت، لكنْ باستطاعتي القول: إنّه يراقب عن كَثب. بدأتُ أنحف أسبوعاً تلْو الآخر، ورحتُ أستعيد قوّتي السابقة. يقترح سْفين الاتّصال بالمدرّبين القدامى في سوريا للاستفسار عن سجلّاتي، والحصول على أفضل الاقتراحات التي تلائمني، وبعدئذٍ سيكون لدينا معيار لنتطلّع إليه. يردّ المدرّبون بأفضل الأزمنة التي حقّقتها: 200 متر سباحة حُرّة في دقيقتين واثنتي عشرة ثانية، 100 متر سباحة حُرّة في دقيقةٍ وجزئين من الثانية، 100 متر فراشة في دقيقةٍ وتسعة أجزاءٍ من الثانية، 800 متر في عشر دقائق وخمسة أجزاءٍ من الثانية. أنا بعيدةٌ جدّاً عن إحراز هذه الأرقام الآن.

- «أرى أنّكِ جادّةٌ بخصوصِ السباحة، يمكنني إدراك ذلك من خلال

التزامك بالتدريب. حسناً، لمْ أحلُم بأن يكون لديّ رياضيٌّ أفضل من هذا؛ لذا فإنّ السؤال هو: هل تفعلين ذلك لأنّكِ تحبّينَ السباحة، أم لأنّكِ ترغبين حقّاً في تحقيق شيءٍ ما؟». يقولُ سْفين ذات ليلة.

– «أخبرتُكَ من قبل». أقول: «أحلمُ بالمشاركة في الألعاب الأولمبيّة يوماً ما».

– «حسناً، فلنتحدّث عن خطّة التدريب». يقول سْفين: «لنْ تصلي إلى ريو في الصيف المقبل، ولكنْ ما من شيءٍ يمنعنا من السعي نحو طوكيو 2020».

أُحدِّق فيه، هو يعني ما يقول، تتسارع نبضات قلبي، أنا بكاملِ جاهزيّتي. سْفين يأخذني على مَحملِ الجدّ. أخيراً، أجدُ أمامي شخصاً يرى أنّني مستعدةٌ لفعل أيّ شيءٍ من أجل السباحة، وهو مستعدٌّ للقتال من أجل ذلك باستعدادي أنا نفسه. يوضح سْفين أنّنا نحتاج إلى العمل على أهدافٍ طويلة الأجَل؛ فسنعمل على استعادة لياقتي، وقدرتي على التحمّل، والتركيز على التمارين الرياضيّة حتّى الصيف. أنا في حاجةٍ إلى مواصلة العمل على بناء كتلتي العضليّة، والتخفيف من نسبة الماء المحتبس لديّ. يقول سيفن: ما زلت في حاجةٍ إلى خسارة قرابة أربعة كيلوغرامات إذا أردت التوقّف عن التعمّق في سباحة الفراشة. أعلمُ بأنّه مُحِقٌّ. اللّعنة على «برجر كينغ». «لنْ نركّز على التدريبات الفنّيّة حتّى الآن». يقول سْفين: «لأنّ مقوّماتي الفنّيّة جيّدةٌ جدّاً، وهذا في حدّ ذاته يساعد كثيراً، لكنّه ليس كلّ شيء». يقول سْفين: إنّ هدفي ينبغي أنْ يكون في العودة إلى أفضل ما لديّ مع نهاية هذا الموسم، بعد ذلك، في العام المقبل يمكنني أنْ أهدف إلى التحسُّن بنسبة خمسة في المئة، ثمّ أضيفُ إليها ثلاثة في المئة العام التالي، ويضيف سْفين: أنّني إذا نجحت في ذلك، فبإمكاني الوصول إلى مستوى «Cut B»

لطوكيو بحلول ربيع عام 2020، ويفترضُ بذلك أنّني سأكون قادرةً على البدء بتمثيل سوريا.

- «التفاصيل». أقول بابتسامةٍ عريضةٍ: «الشيء الرئيس هو أنّنا نهدف للوصول إلى طوكيو».

بعد أسبوعٍ من بدء العمل على خطّتنا طويلة الأجَل، يأتي سْفين لرؤيتي بعد التدريب. يمكنني القول: إنّه متحمّسٌ، بالكاد يستطيع التوقّف عن الابتسام، وهو يُطلِعُني على أخباره. بدأ كلّ شيءٍ عندما كان سْفين يشاهد الأخبار على شاشة التلفاز في إحدى اللّيالي قبْل أسابيع قليلة حين ألقى توماس باخ -رئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة- كلمةً أمام الأمم المتّحدة، وأعلن فيها عن مساعدة الرياضيّين اللّاجئين الذين لا يستطيعون التنافس في الألعاب الأولمبيّة؛ لأنّهم فرّوا من بلدانهم.

- «لذلك بعثتُ برسالةٍ إلكترونيّةٍ إلى اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة أُخبرهم عنكِ». يقول سْفين مبتسماً: «أخبرتهم أنّنا سنهتمّ بأيّ مساعدةٍ يرغبون في تقديمها لكِ، وقد كتبوا اليوم قائلين إنّهم يفكّرون في كيفيّة دعمهم لكِ».

أُحدِّقُ في الطاولة بارتباكٍ شديدٍ؛ فالحصول على مساعدةٍ من اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة فرصةٌ رائعةٌ لأيّ رياضيٍّ، ولكنْ أن أحصل على المساعدة لأنّني لاجئة؟ يبدو الأمرُ كأنّه صدَقةٌ نوعاً ما. أريد أنْ أنضمَّ إلى منافسات الألعاب الأولمبيّة لأنّني جديرةٌ بذلك، وليس لأنّ الناس يشعرون بالشفقة نحوي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

18

كان الظلام لا يزال مخيّماً عند وصولنا، وكان موعدنا في الساعة الحادية عشرة، إلّا أنَّ سارة تقول: إنّه يجب أنْ نكون هنا في المكتب عند الساعة الخامسة للانضمام إلى الطابور. نشمُّ رائحةً كريهةً في أثناء دخولنا غرفة الانتظار ذات السقف العالي؛ كان أحدهم قد تقيّأ في الزاوية. نجد لأنفسنا مقاعدَ على امتداد أحد صفوف الكراسي الحمراء، وبحلول السادسة كانت الغرفة ممتلئةً بالأشخاص البائسين الجالسين قرب بعضهم ليدفعوا عنهم البرْد. ثمّة جيشٌ من حرّاس الأمن ذوي العضلات المفتولة يتجوّلون أمامنا على طول الجدار، أتى سْفين معنا لدعمنا معنويّاً. كان مرعوباً؛ فهو لمْ يتوقّع لنا هذا الاستقبال البائس. تخبرهُ سارة ألّا يقلق، ننتظر، ثمّ ندخل، ونقدّم طلب لجوءٍ، ثمّ ننتهي.

تمضي الساعة الحادية عشرة، كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة عندما حان دورنا. ندخل إلى أحد المكاتب، كان هناك رجُلٌ يجلس خلف الطاولة، وأعطانا بعض النماذج لنملأها، ثمّ أعطى كلّ واحدٍ منّا ورقةً، وأخبرنا أنّنا قد تقدّمنا بطلبات اللّجوء الخاصّة بنا. أشعرُ بالحَيْرة، وظننت أنّهم سيجرون مقابلةً معنا حَول سبب مغادرتنا لسوريا، لكنّ المسؤول شرح لنا أنّ هذا الموضوع يأتي لاحقاً. علينا أنْ ننتظر من ثلاثةٍ إلى خمسة

أشهرٍ أخرى للوصول إلى مرحلة المقابلة، بعد ذلك يستغرق الأمر أربعة إلى ستّة أسابيع أخرى حتّى اتّخاذ القرار النهائيّ.

صدَمَني الأمر، لقد انتظرنا مسبقاً هذا الموعد لشهرين ونصف، والآن يقولون: إنّ الأمر قد يستغرق ستّة أشهرٍ أُخرى قبْل أنْ نعرف ما إذا كنّا نستطيع البقاء في ألمانيا. يجب أن ننتظر منْحنا حقّ الّلجوء قبل أنْ نتمكّن من التقدّم بطلبٍ لِلَمِّ الشمل مع أمّي وشهد، ولكنْ سيكون الوقت قد تأخّر كثيراً. لمُّ الشملِ العائليّ مخصّصٌ للقُصَّر فقط، وسأكون في الثامنة عشرة بحلول آذار/ مارس. نحن الآن في نهاية تشرين الثاني/ نوفمبر، وبهذه الوتيرة سأحصل على حقّ الّلجوء في الصيف، ولكنّني لنْ أتمكّن من لمّ الشمل مع عائلتي، فيُحدِّق سْفين في الموظّف الذي يشرحُ لنا الأمر. بإمكاني أنْ اشعُر بغضبه. تدفع سارة كرسيّها وتنهض.

- «حسناً، فلنخرج من هنا». تقول سارة.

ذاك المساء، وبينما كانت سارة في الخارج مع أصدقائها المتطوّعين، اتّصلت بأمّي على الهاتف لإطلاعها على الأخبار، ربّما لنْ تنجح خطّتنا لإحضارها وشهد إلى ألمانيا.

- «أوه حبيبتي يسرى! لمْ أتصورَ أنّ هذه المسألة ستستغرق هذا الوقت كلّه، كان يجب عليَّ أنْ أسافر معكِ، لا يكفي مجرّد التحدّث على الهاتف، أنا أفتقد بناتي». تقول أمّي.

- «لربّما ينجح الأمر». أقول: «ربّما ستمضي الإجراءات على نحوٍ أسرع ممّا يقولون».

- «لكنّني لا أستطيع فعل أيّ شيءٍ من دونكما». تقول أمّي، وأسمعها تبكي: «ما نفعُ العمل أو التسوّق إذا لمْ يكن هناك أحدٌ أتسوّق من أجله؟ لا شيء له أيّ معنى بعد الآن، أشعر بالخواء، لا يمكنني الانتظار أطول

من ذلك، أنا قادمةٌ إلى ألمانيا الآن مع شهد مثلما وصلتُما أنتما، بإمكاننا اللّحاق بكما أيضاً».

أطلب إلى أمّي ألّا تبكي، وأقول لها: إنّنا سنتدبّر الأمر، ولكنّي أعلم أنّها محقّة. لا توجد طريقةٌ أخرى لنكون معاً من جديد، لكنَّ أمّي وشهد لا تستطيعان القيام بهذه الرحلة بمفردهما، فأتّصل بأبي في الأردن، وأُخبره أنّ الأوراق تستغرق وقتاً طويلاً، وأطلب إليه إحضار أمي وشهد إلى ألمانيا، وبذلك يمكن أن يلتمَّ شملنا جميعاً. يشعر أبي بالقلق من ترك وظيفته في التدريب، لكنّني أخبره أنّ بإمكانه البِدء من جديد هنا، لربّما يساعدهُ سْفين والنادي مثلما ساعدوني، وبينما أتحدّث إلى أبي أُدرِك كمْ أحتاج إليه معي هنا لأتدرّب، وأتطوّر، وأحقّق شيئاً ما بالفعل، فأبي فقط يعرف بالضبط ما يجب أنْ أفعله لأتحسّن، وأغدو أسرع.

أُخبِرُ سارة بخطّتي عندما تعود في وقتٍ متأخّرٍ من تلك اللّيلة، فلا تروق لها فكرة عبور شهد البحرَ على متْن قاربٍ مثلما فعلنا، ولا أنا أحبّذها أيضاً. لا أحد منّا يستطيع أن يتقبّل فكرة تشبُّث شهد على متْن زورقٍ في البحر، لكنّني سمعت قصصاً عن أُناسٍ وصلوا على متْنِ يختٍ من تركيا إلى اليونان، ربّما يمكن أنْ يدفع أبي أكثر قليلاً، ويحصل على قاربٍ أفضل، ومع ذلك، من الصعب على أيٍّ منّا أن يتخيّل أنّ أمّي وأبي ينامان في الشارع، أو ينتظران طوال اللّيل لعبور الحدود، لكنّ سارة توافق في النهاية، فما باليد من حيلةٍ أُخرى ليأتوا إلى هنا، كلّ شيءٍ يمضي بسرعةٍ بعد ذلك.

يرتّبُ والداي للقاءٍ في إسطنبول في تركيا، واتّباع المسار نفسه الذي سلكناه إلى ألمانيا، كلاهما ترك وظيفته، وأرسل بعض الأشياء الخاصّة بالبريد، وفي اليوم السابق لمغادرة أمّي وشهد لدمشق، كُنّا أنا وسْفين نتناول الطعام في النادي، وكان سْفين يلهو بصحنه.

- «هيا أخبرني ما الأمر؟». أقول.

- «حسناً». يقول سْفين، وهو يُنزلُ شوكته: إنَّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة تتحدّث الآن عن تنظيم فعاليّةٍ ما في ريو 2016: «تُشكّلُ اللجنة فريقاً أولمبياً جديداً من الّلاجئين، وقد ألمحوا إلى أنّكِ قد تكونين أحد أعضاء الفريق».

- «ماذا؟! فريق لاجئين؟ ما الذي يعنيه هذا؟». أسأله.

يقول سْفين: إنّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة تخطّط لتشكيل فريقٍ من الرياضيّين الّلاجئين؛ أيْ: من الأشخاص الذين لا يمكنهم المنافسة في الألعاب الأولمبيّة؛ لأنّهم فرُّوا من بلادهم، ولا يعرفُ سْفين تفاصيل إضافيّة حَول الموضوع؛ إذْ إنّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة كانت غامضةً للغاية بشأن التفاصيل.

- «مهلاً، هل ذَكَرَتني الّلجنة؟». أقول بينما أدفع طبق المعكرونة نصف المأكول بعيداً على الطاولة.

يقول سْفين: إنَّ من ذكَرَني هو بيري ميرو، نائب مدير الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة الذي أخبَر الصحفيّين عن فكرة الفريق خلال مؤتمرٍ صحفيٍّ، وقال: إنّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة تبحث في العالم بأسْره عن الرياضيّين الّلاجئين. كان ثلاثة لاجئين قد التحقوا مُسبقاً بالفريق وهُم: شابٌّ كونغولي في البرازيل، وإيرانيٌّ في بلجيكا، وسبَّاحةٌ من سوريا تعيش الآن في ألمانيا. أرفع حاجبيّ مذهولةً، أنا! كانوا يقصدونني، تسري رعشةٌ من الإثارة في عمودي الفقري، وتغمرني السعادة، لكنَّ شيئاً من الفزع ينتابني.

- «لا وقت لنتردّد». يقول سْفين. لقد وجدَنا الصحفيّون بالفعل، وبين عشيّةٍ وضحاها غَرِق حساب سْفين على فيسبوك بطلبات الإضافة، فقد تلقَّى سْفين ثمانين طلباً لإجراء مقابلات من قِبلِ الصحفيّين الذين يريدون التحدّث إليّ. كان معظم الصحفيّين مقتنعين بأنّني بالفعل في

فريق الّلاجئين، وسأنافس في الألعاب الأولمبيّة الصيف المُقبل في ريو. أترنّح أمام هذه الأخبار، هذا جنون! لقد قال سْفين بنفسه: إنَّه ما من سبيلٍ لأكون جاهزةً للسباحة في ريو، وفجأةً تصعقني فكرة أنّني إذا ما شاركتُ في المنافسات سيكون ذلك لأنّني لاجئة.

- «نعم، أعترف بذلك، أنا لاجئة». أقول بينما أرفعُ يدَيّ: «لكنّ فريق الّلاجئين ليس فريقي، أليس كذلك؟ هذه الكلمة لا تُعَرِّفُني، أليس كذلك؟ أنا سوريَّة، أنا سبّاحة، ولا أتدرّب للانخراط في صفوف فريق الّلاجئين. الأمرُ...، حسناً، إنّه مهينٌ قليلاً». ينظرُ سْفين في وجهي كأنّني صفعته.

- «ماذا؟!». يقول ويهزّ رأسه: «لا معنى لكلامك». يميل سْفين نحوي، وينظرُ في عينَيَ نظرة تحدٍّ.

- «أخبريني مرّةً أُخرى ما الذي تريدينه». يقول سْفين.

- «السباحة». أجيبُه: «أريد السباحة في الألعاب الأولمبيّة».

- «السباحة، حسناً». يقول سْفين: «في الأولمبياد، صحيح؟ أخبريني بهذا إذنْ، هل حقاً تُهمُّك الجهة التي تسبحين لصالحها؟».

أجلس بصمتٍ، وأصارِعُ نفسي لدقيقة، إنّها تلك الكلمة، كلمة لاجئ، إنّها القنبلة، والبحر، والحدود، والأسلاك الشائكة، والإهانة، والبيروقراطيّة، أجلْ، والصدَقة المؤلمة أيضاً.

- «يُسرى، فكّري في الأمر». يقول سْفين: «هذه فرصتكِ للقيام بأكثر شيءٍ تريدينه في هذا العالم، يمكنكِ السباحة والمنافسة، ليس في أيّ منافسة، إنّها الألعاب الأولمبيّة، حُلمكِ».

أُخبِر سْفين أنّني في حاجةٍ إلى بعض الوقت للتفكير في الأمر، فأُلغِي التدريب الذي كان مقرّراً في اليوم التالي، فقد شغل تفكيري فريق الّلاجئين، وتلك الكلمة، والأولمبياد. كلّما فكّرت في الأمر أكثر ازداد عدم تيقُّني من

الفكرة بِرمَّتِها. بعد ذلك، وعندما حسمتُ قراري ضدّ الفكرة، غيّرتُ رأيي مرّةً أخرى. هل يمكن أنْ تكون هذه فرصتي لتغيير الأمور إلى الأفضل، ولو كانت ضئيلةً جدّاً؟ ربّما أكون نموذجاً يحتذى به للناس، لأثبت لهم أنّه ولو مزّقت قُنبلةٌ حياتك، فبإمكانك النهوض، ونفض الغبار عن نفسك، والمُضيّ في طريقك.

بحلول نهاية اليوم كنتُ أشعر بالارتباك كما العادة، أُخبِر سْفين أنّني ما زلت أعتقد أنّ فكرة فريق اللّاجئين مهينةٌ قليلاً. إذا وصلتُ إلى الأولمبياد ذات يومٍ، فأريد أنْ يكون ذلك لأنّني جديرةٌ بما فيه الكفاية، ولأنّني عملت من أجل الوصول، لكنّني أفكّر في ملالة، الناشطة في تعليم الفتيات، لديها رسالةٌ، وهي هناك تُغيّرُ العالم، وأعلم أنّني لست ملالة، فأنا لم أُشبَّ على حُلم تغيير العالم، أردت فقط أنْ أسبح، هذا ما أريده كلّه، لكنّني أعمل بجدٍّ لبناء حياةٍ جديدةٍ، والتدرّب كلّ يومٍ للوصول إلى هدفي الذي يجب أنْ يعتمد على شيءٍ ما، ولأوّل مرّةٍ أرى كيف يمكن أنْ أُلهِم الناس، وعندها أُخبِرُ سْفين بأنّني اتّخذتُ قراري، سأنضمُّ إلى الفريق.

يبتسمُ سْفين بابتهاج.

- «إنّه التصرّف الصحيح». يقول سْفين.

لا شيء مستحيل، يذكّرُني سْفين. ما من خطّةٍ واضحةٍ بشأن الفريق حتّى الآن، وكيف ستسير الأمور، أو ما إذا كان يتعيّن على الرياضيّين التأهّل بالطريقة العاديّة. بالنسبة إلى الفريق، إذا كانت اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة تمضي قُدُماً في تشكيله، فستكون هناك قائمةٌ طويلةٌ، ثمّ قائمةٌ مختصرةٌ، مع ذلك، ما زلنا نعمل للوصول إلى منافسات طوكيو.

في اليوم التالي يتلقّى سْفين مكالمتين من الاتّحاد الرياضيّ الأولمبيّ الألمانيّ، كانت المكالمة الأولى من رجُلٍ يدعى ميشيل شيرب، أحد

المسؤولين عن العلاقات الصحفيّة يعرض مساعدتنا في تنسيق طلبات وسائل الإعلام جميعها، ثمّ تتّصل امرأةٌ تُدعى ساندرا لوجيمان من الذراع الألمانيّ للتضامن الأولمبيّ، وتُخبرُ المرأةُ سْفينَ أنّ الاتّحاد قد يكون قادراً على التدخّل مع وزارة الداخليّة لتسريع طلب الّلجوء الخاصّ بي، وبسارة أيضاً، وسأحتاج إلى أنْ تسير العمليّة بأكملها على نحوِ أسرع إذا كانت هناك إمكانيّة للسفر إلى ريو في فصل الصيف.

ألتقطُ أنفاسي عندما يخبرني سْفين بذلك، فإذا سارت الطلبات على نحوِ أسرع، ألا يعني ذلك أنّه يمكن لأمّي، وأبي، وشهد السفر على متْن الطائرة إلى ألمانيا، وبذلك لنْ يضطّروا إلى المخاطرة بعبور البحر؟ في صباح اليوم التالي بعد التدريب تلقَّيت رسالةً من أبي تفيد أنّهم وصلوا بأمانٍ إلى الساحل التركيّ، وأنّهم ينتظرون في فندقٍ ليهدأ البحر أكثر، ثمّ يستقلّون يختاً إلى اليونان، ولوهلةٍ عُدت بذاكرتي إلى الشاطئ في تركيا، وأنا أحدِّق في الأمواج العنيفة، فتملَّكني الرعب قلقاً عليهم، وفي حالةٍ من الذعر أكتب رسالةً مشوّشةً إلى أبي؛ لأُخبره بعدم المخاطرة بعبور البحر، والعودة، وأنّني قد أذهب إلى الألعاب الأولمبيّة، وأنّ الحكومة تُسرِّع طلبات الّلجوء، وسنكون قادرين على جلبهم إلى هنا قانونيّاً في نهاية الأمر. يردُّ أبي على رسالتي، ويدعوني إلى ألاَّ أقلق، فكلّ شيءٍ مرتّب، إنّهم قادمون.

بعد ظُهر اليوم التالي جلسنا أنا وسارة في «ألفريدز»، نحاول جاهدَتَين أنْ نفكّر في أيّ شيءٍ باستثناء البحر. نحاول أنْ ندردِش، ونصرف انتباهنا، ولكنْ في كلّ مرّةٍ نصمت فيها أرى الأمواج الّلامعة تومض بسرعةٍ أمام عيني، وبعد ما يبدو كأنّه ساعات انقضت، يرنُّ هاتفي، إنّه أبي، يقول: إنّهم وصلوا إلى اليونان، فتتّصل سارة به على الفور.

- «الحمد لله على سلامتكم يا بابا». تقول سارة: «هاتِ أمّي لأتحدّث إليها، أريد أن أسمع صوتها».

- «ماما! الحمد لله، هل أنتِ بخير؟». تسألها أمّي.

أنتظِرُ دقيقةً، ثمّ أحاول الوصول الى الهاتف، تُسلِّمني سارة إيّاه.

- «نحن بخير يا يُسرى، والحمد لله». تقول أمّي: «نحن متعبون جدّاً».

- «حسناً يا أمّي، نحن ندعو من أجلكم». أقول لها: «أوصلي قُبلاتي إلى شهد».

في اليوم التالي، يخبرني أبي أنّهم قد وصلوا بأمانٍ إلى مدينة ميتيليني في جزيرة ليسبوس، وأنّهم في انتظار الحصول على أوراقهم لمتابعة مسيرهم. يسافرون بسرعةٍ خلال الأيّام القادمة عبْر اليونان وصِربيا. تلقّيت رسالةً تفيد بأنّ هنغاريا أغلقت الحدود، وأنّهم يستقلّون حافلةً مجّانيّةً عبْر كرواتيا، وفي ذلك الأسبوع زارنا الصحفيّان: لام، ومجدلينا، أرادا مقابلتنا، والتقاط صورٍ لقصّةٍ في مجلّة. من الجيّد أنْ أراهما، لكنّهما يذكّراني بالكابوس الذي عشناه في هنغاريا في الوقت الذي أحاول فيه ألّا أقلق بشأن عائلتي. ستيفن يتّصل بي أيضاً، أُرسل إليه تحديثاً بشأن التطوّرات، فينشره عبْر الإنترنت.

- «أريد أنْ أبعث برسالةٍ إلى الناس جميعهم في بلجيكا، وسائر أنحاء العالم». أكتب له: «لا تتخلّى عمّا تريده أبداً، حاول، وإذا أخفقت، عليك المحاولة مرّةً أُخرى، والقتال حتّى آخر أنفاسك».

كما هو الحال دائماً، فإنّ أفضل تسليةٍ هي التدريب، يمكنني الآن السباحة ثلاثة تدريباتٍ لمسافة 800 متر، واحدة تلْو الأُخرى، كلّ واحدةٍ في أقلّ من عشر دقائق وثلاثين ثانية. لقد تخلّصت من الوزن الزائد كلّه تقريباً، الذي تراكم في أثناء فترة انقطاعي عن السباحة. بدأتُ أُحرز تقدُّماً،

ولكنني متلهفة للحصول على الإرشادات والتوجيهات من أبي. توقّف التدريب من أجل عطلة عيد الميلاد، ولمْ يتبقّ لي سوى الخواطر بشأن رحلة أهلي.

في اليوم السابق لعيد الميلاد، كنت أجلس إلى سارة في «ألفريدز» عندما تلقَّت مكالمةً من رقمٍ غير معروفٍ، إنّها أمّي، وقد استعارت هاتف أحد الغرباء لتخبرنا أنّهم وصلوا إلى ألمانيا، وأنّهم استقلّوا قطاراً متّجهاً إلى برلين، وفي غضون ساعةٍ كنت أقف على رصيف الانتظار في محطّة هاوبتباهنهوف «Hauptbahnhof»، وهي محطّة القطار الرئيسة في برلين. أُحدّقُ في شاشةٍ زرقاء متوهّجةٍ فوق رأسي، كان القطار على وشك الوصول، سيصلون إلى هنا فى أيّة لحظةٍ، أنا متوتّرة، أمّي، وأبي، وشهد فى برلين، تخيّم فوقنا منصّة المحطّة ذات الطبقات العديدة، وتمتدّ مشكّلةً سقف قبّةٍ زجاجيّةٍ هائلة. تتلألأ أضواء عيد الميلاد، الجوّ باردٌ، وبإمكاني أنْ أرى بخار أنفاسي.

أنظر إلى سارة، كانت تعضّ شفتها، فيتردّد صدى إعلانٍ صاخبٍ باللّغة الألمانيّة عبْر الزجاج والخرسانة، ويتهادى قطارٌ أبيضُ اللّون عبْر المنصّة في اتّجاهنا، وكانت أضواؤه الأماميّة أشبه بعينين حمراوين مثبّتتين على مقدّمته المدبّبة. أتفحّصُ نوافذ القطار الطويلة بينما تصرصِرُ العربات، وهي تتقدّم إلى الأمام، فلا أراهم. تَصِرُّ فراملُ القطار، ثمّ أرى أمّي من خلال نافذة أحد الأبواب، يَكشفُ وجهها المُتلهّف عن ابتسامةٍ عريضةٍ حالما ترانا. يتوقّف القطار، وينفتح الباب، فتخطو شهد إلى المنصّة، ثمّ تركض وتلفّ ذراعيها حَول خصْري، فتتبعها أمّي، فتأخذني في أحضانها، وتقبّل خديَّ وجبيني، ومن خلْفها يقفُ أبي، أركض نحو ذراعيه، يعانقني بشدّةٍ للمرّة الأولى منذ ثلاث سنوات.

- «يُسرى، حبيبتي». يقول في أذني: «اعتقدتُ أنّني... بعد أنْ ركبتم البحر لساعتين... لمْ أسمع أيّ شيءٍ، وبدأت بالدعاء».

أشعر بخدرٍ غريبٍ، وأنّي بعيدةٌ كما لو أنّني أنظر إلينا من إحدى المنصّات فوق رؤوسنا، بدا والدايَ مُرهقَيْن، وكانت الهالات العميقة الداكنة واضحةً تحت عيونهم. تُحدِّق شهد بي وبِسارة ووجهها مبلّلٌ بالدموع.

- «لمْ نعتقد أنّنا سنصل إلى هنا اليوم». تقول أمّي: «وصلنا إلى مدينةٍ تُدعى مانهايم، وأرادوا إبقاءنا هناك، لكنّنا أخبرناهم بأنّنا لا نريد البقاء؛ لأنّ بناتنا في برلين، وأنّ علينا أن نذهبَ إليهنّ».

تبتسمُ أمّي، وتأخذني وسارة في عناقٍ آخر، أنظر إلى شهد، كانت ترتجف، سوف يحتاجون إلى بعض الملابس الدافئة، وفي اليوم التالي ستغلق المتاجر جميعها أبوابها بسبب العطلة؛ لذلك يجب أنْ نذهب للتسوّق الآن، فتُحدِّق شهد خارج المصعد الزجاجيّ، بينما نصل إلى الدور الأرضيّ للمحطّة، وهناك، في البَهْو الرئيس، تنتصب شجرة عيد الميلاد الاصطناعيّة التي يبلغ ارتفاعها ثمانية أمتار، كانت ناعمة الملمس ودقيقةً. تلتقط لنا أمّي صورةً أمام الشجرة، ثمّ ندخل متْجَراً لبيع الملابس في المحطّة؛ حيث نشتري ستراتٍ، وقبّعاتٍ، وأوشحة. يرتّب سْفين لأمّي، وأبي، وشهد للمكوث معنا في النادي خلال عيد الميلاد، فنتناول بعض الطعام، ثمّ نعود إلى أولمبيا بارك. أتّصل بسْفين في الطريق، ويأتي لمساعدة أمّي، وأبي، وشهد على الاستقرار في غرفهم. يأخذون حمّاماتٍ طويلةً، ويذهبون مباشرةً إلى النوم، ينامون بعمقٍ حتّى اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي، عشيّة عيد الميلاد، أنتظر مع سارة في الكافتيريا الخالية من أيّ زبائن، نشاهد حبّات الثلج تدور في الخارج، وتذوب فوق

زجاج النافذة، فتستيقظ أمّي قبل الظُّهر، وتتجوّل في المكان، وعيناها مشوّشتان، فتعانقنا مرّةً أُخرى، ثمّ تجلس على أحد المقاعد الخشبيّة.

- «إذنْ، كيف كانت الرحلة؟». أسألها.

- «أوه، كان عبورنا فظيعاً!». تقول أمّي: «قالوا: إنّهم سيوفّرون سترات النجاة لنا، لكنّهم لمْ يفعلوا. كان اليخت مزدحماً جدّاً، ولِحُسن حظّنا أنّه كان هناك رجُلٌ طيّبٌ قدّم إلينا مقعداً استطعنا أنا وشهد الجلوس عليه».

- «هل كان البحر هائجاً؟». تسأل سارة.

- «لا، كان ساكناً». تُجيبُ أمي: «ولكنْ في النهاية ارتطمنا ببعض الصخور، وظننت لمدّة خمس عشرة دقيقةً أنّنا سنغرق جميعاً، إلّا أنّنا وصلنا إلى الشاطئ في النهاية، الحمد للّه».

- «ولمْ تذهبوا إلى هنغاريا؟». أقول.

- «لا، يوجدُ سياجٌ هناك الآن». تقول أمّي: «وضعَنا الجنود في حافلاتٍ إلى صِربيا، ثمّ كرواتيا، ثمّ النمسا، فألمانيا. لقد قضينا الوقت في الانتقال من حافلةٍ إلى أُخرى، وقد سارت الأمور بسرعةٍ كبيرة».

- «أها!». أقول، وأنظرُ إلى سارة نظرةً ذات مغزى.

تضحك سارة.

- «يبدو الأمر على ما يرام بالنسبة إلينا». تقول.

كان الهدوء المطبِق يُخيّم عشيّة عيد الميلاد في أولمبيا بارك، أقضي المساء مع إليز وعائلتها نتناول وليمةً ضخمةً، ونتبادل الهدايا، وفي اليوم التالي، يوم عيد الميلاد، تأخذ سارة ماما وشهد لزيارة صديقةٍ لها، ويدعونا سْفين أنا وأبي إلى شقّته. كانت شقّة سْفين مزدحمةً، كان هناك الكثير من الزوّار، ولا يبدو أنّ حاجز اللّغة مهمٌّ على الإطلاق، فيبتسم أبي للجميع بينما نأكل سلطة البطاطس الألمانيّة، والدجاج المقليّ. أنا سعيدةٌ جدّاً.

عندما وصلت إلى ألمانيا قبْل أشهرٍ قليلةٍ، لمْ أحلم قطّ أنْ أقضي أوّل عيد ميلادٍ أوروبيٍّ كهذا محاطةً بالأصدقاء.

في المساء التالي تقول سارة: إنّها ستخرج، تأتي إلى الكافتيريا لتوديعنا بمساحيق التجميل الكاملة واللّباس القصير، أجفلُ منتظرةً الجدال، فتنظرُ أمّي بهدوءٍ، وتقول لها ألَّا تتأخّر. أُحدّقُ فاغرة الفم، فأنظر إلى أبي، حتّى إنّه لمْ يرفع نظره عن هاتفه، لا أصدّق ذلك! هل ستكون الأمور مختلفةً بالفعل إلى هذا الحدّ بما أنّنا الآن في ألمانيا أم إنّ الرحلة غيَّرتنا في أعينهم؟ نعم، هو كذلك. لقد أثبتنا أنفسنا، وكنّا شجاعتَين، ولمْ نتجاوز أيّة خطوطٍ حمراء، لقد قمنا بحماية أنفسنا كما يجدر بنا، وأثبتنا أنّنا نستطيع أنْ نعتني بأنفسنا، وأنّنا نعرف ما كنّا نفعله. نحن بالغتان الآن، وأقوى بوجود أبي وأمّي، لا مشكلة إذنْ إذا خرجت سارة لرؤية صديقاتها.

بعد بضعة أيّامٍ يقول أبي وأمّي: إنّهما سَيُسَلِّمان نفسيهما مع شهد، ويذهبون إلى أحد المخيّمات، فتتّصل سارة بصديقنا أيهم الذي لا يزال يعيش في «الهايم» في شبانداو، ومثل سارة، كان أيهم متطوّعاً مع موبيت هلفت «Hilft Moabit»، وهي مبادرةٌ للمواطنين لمساعدة القادمين الجُدد على الاستقرار في برلين، فيساعد أيهم في معرفة ما إذا كان بإمكان عائلتي الدخول إلى سكنٍ مؤقّتٍ «هايم» ليس مزدحماً كثيراً، بعد ذلك ينتهي بهم المطاف في الجانب الآخر من المدينة، على بُعد قرابة ساعةٍ في القطار من مكان إقامتنا، وبعد يومين من عيد الميلاد يأتي أبي إلى «ألفريدز»؛ حيث نصطحبُ أنا وسْفين إلى المسبح، ويقترح سْفين أنْ يأتي أبي ويساعد مجموعتنا التدريبيّة. أنا سعيدةٌ حقّاً لأوّل مرّةٍ منذ أسابيع؛ فعائلتي هنا، وجميعنا بأمان، وأستطيع السباحة، وبإمكان أبي مساعدتي على التحسُّن.

أقضي ليلة عيد الميلاد مع إليز وعائلتها، الجميع يريد أنْ يعلّمني التقاليد الألمانيّة، وفي منتصف الّليل نتفرَّج من النافذة بينما تنفجّر مئات الألعاب الناريّة فوق المدينة، ثمّ نُذَوّب قصاصاتٍ صغيرةً من المعدن الرقيق في وعاءٍ من الماء، تخبرني إليز أنّ الأشكال تهدف إلى التنبّؤ بالمستقبل، لكنّني لا أحصل على إجاباتٍ عمّا سيحدث.

في بداية العام الجديد يبدأ سْفين بالتفكير بشأن دراستي، ويرتّب لي دروساً خاصّةً لتعليمي الألمانيّة من خلال صديقةٍ له تدعى كورينا، تأتي مرّتين في الأسبوع لمدّة ساعةٍ، وندرس في «ألفريدز». تعلُّم الألمانيّة عملٌ شاقٌّ، ولكنّ معرفتي للإنجليزيّة تساعدني كثيراً. وذات يومٍ، في أوائل شهر كانون الثاني/ يناير، يدخل سْفين في نهاية الدرس، بينما كنت أقرأ واجبي، كان التمرين للكتابة باللّغة الألمانيّة يدور حَول من هُم أعزّ أصدقائي، فأنظرُ إلى ما كتبت.

- «صديقتي المفضّلة هي إليز "*Elise ist Freundin beste Meine*"».

أُهجّئ ببطء: «صديقي المفضَّل هو سْفين "*Freund ist Sven*"».

أنظر إلى سْفين وأبتسم، كان سْفين يقف في المدخل، وعيناه مُحمَرَّتان. يبتسم، ويتنحنح، فيستديرُ، ثمّ يخرج.

قد لا تعدو المناسبة كونها بدايةً لسنةٍ جديدةٍ، ولكنْ يبدو أنّ الجميع يفكّرون كثيراً في مستقبلي. في تلك الّليلة، وبينما نحن على مائدة العشاء مع سْفين، يسأل أبي ما إذا كنت أخطّط للدراسة في الجامعة: «بالطبع». أقول، ولكنْ سْفين يعبس، ويهزّ رأسه، فالدراسة في ألمانيا ليست بسيطةً كما أعتقد، لقد غادرت سوريا قبْلَ أنْ أُنهي دراستي، وبالتالي ليس لديّ شهادة مرحلة الثانويّة. يقول سْفين: إنّ الجامعات الألمانيّة لنْ تستقبلني من دون الشهادة ويعرِض التحدّث إلى مدير مدرسة بويلتشاو «*Poelchau*»

ومدرسة النخبة الرياضيّة هنا في أولمبيا بارك، ومعرفة ما إذا كانوا سيستقبلونني أم لا.

- «للسنة النهائيّة فقط؟». أسأل سفين.

- «حسناً، لا. أعتقد أنَّ عليكِ أنْ تبدئي من جديدٍ مع الأطفال في مجموعتنا، فالتعليم يجري باللّغة الألمانيّة؛ لذا عليكِ أن تتعلّمي اللّغة أوّلاً، ثمّ بعد أربع سنوات ستقدّمين فحص «الأبيتور» «Abitur»، وهو امتحانٌ يخضع له طلّاب المدارس الألمانيّة في نهاية المرحلة الثانويّة، وبعدئذٍ يمكنك مباشرة الدراسة». يقول سْفين.

يصعقني سماع هذا الكلام.

- «أربع سنوات؟! لا تكنْ سخيفاً، لنْ أعود إلى المدرسة لمدّة أربع سنواتٍ أُخرى. كنت في حاجةٍ إلى سنةٍ أُخرى في سوريا لإنهاء المدرسة». أقول لسْفين.

هذا مُحبط، يبدو الأمر أشبه بكابوس، أريد أنْ أمضي قُدماً، لا أنْ أعود إلى الصفّ التاسع، أنا أتدرّب بالفعل مع الأطفال ذوي الأربعة عشر عاماً، والآن يريدني سْفين أنْ أعود إلى المدرسة معهم؟ أُتَرجِم لأبي، بالتأكيد لنْ يتوقّع منّي العودة إلى المدرسة، لكنْ لدهشتي يوافق أبي على أنّ هذا ما يجب عليَّ فعله!

- «لنْ تستمرّي في السباحة إلى الأبد يا يُسرى». يقول أبي: «أنتِ في حاجةٍ إلى التعليم».

أُديرُ عيني وأتنهّد، لا مناص من العودة إلى المدرسة، أحد الأخبار السارّة أنّ أولمبيك سوليدارتي، ذراع اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة التي تدعم تطوير الرياضيّين، قدّمت إليّ منحةً دراسيّةً، وقد خصَّصَت الأموال للوازم التدريب، وتكاليف السفر للمشاركة في المسابقات، وليس لهذا علاقة بما

إذا كنت سألتحق بفريق الّلاجئين، فالمنحة أُعطِيت لي بصَرف النظر عن ذلك، إنّها فرصةٌ رائعة!

أنا في غاية الّلهفة لأعود إلى السباحة، وكلّي حماسةٌ لبداية التدريب مرّةً أُخرى بعد عطلة عيد الميلاد. ينضمُّ أبي إلينا في جلستنا الأولى، لكنّه يبقى هادئاً في الغالب، ويراقب سْفين في العمل، وفي أحد الأيّام، بعد وقتٍ قصيرٍ من بدء التدريب، أوقفني ريتشي، أحد الأولاد في المجموعة، وأنا في طريقي إلى غرفة تبديل الملابس ليخبرني أنّ والده يعزف الدرامز في فرقةٍ موسيقيّةٍ، ويدعوني إلى إحدى حفلاته يوم السبت القادم. يقول ريتشي: إنّه دعا توماس من المجموعة أيضاً، وكان والده قد دعا سْفين مسبقاً. كان ذلك مفاجئاً ومؤثّراً، سيكون من الّلطيف أنْ أكسر الرتابة، وأذهب لحضور شيءٍ مختلف. أخيراً، وبعد أسبوعٍ طويلٍ من العمل الشاقّ يأتي يوم السبت. سارة أيضاً تنوي الخروج، وكلانا نرتدي ثياباً مناسبةً، فيوصلني سْفين إلى المكان؛ حيث نلتقي ريتشي، وتوماس، ووالديه، فشعرت بالسعادة والارتياح، فهذه هي المرّة الأولى التي أخرج فيها منذ شهور.

نأخذ بعض المشاريب، ونجلس في إحدى الزوايا في انتظار بدء الحفل. كنت أتصفّح فيسبوك، وقد رأيت منشوراً يقول: «اُرقدي بسلامٍ يا آلاء». لا يمكن أنْ تكون المقصودة هي آلاء، صديقتي من المدرسة في دمشق! تنتابني موجةٌ من الغثيان، كلّا، إنّها مزحة، لا بُدّ من أنّها مزحةٌ سَمجة. أنتقل إلى الأسفل في صفحتي على فيسبوك، لأجد منشوراً آخر: «الرحمة لروحك يا آلاء». أُمرِّر نحو الأسفل، ثمَّة منشورٌ ثالث، هذه المرّة من ابنة عمّ آلاء.

- «سْفين!». أقول، والهلع يتملّكُني.

يتكدَّر وجه سْفين الذي بدا عليه القلق.

- «ما الأمر؟». يقول.

أقف، وأشعر أنّ الغرفة تدور من حَولي، لا يمكن أنْ يكون هذا صحيحاً، لا يمكن أن تموت آلاء، لقد كانت هناك قبل أشهرٍ فقط في المقهى في منطقة المالكي، بلطفها، وجنونها، وحيويّتها. أبتعد عن الطاولة، وأختفي خلف إحدى الستائر، وأتّصل بسارة.

- «سارة، هل رأيتِ؟». أقول: «يقولون: إنّ آلاء قد ماتت».

بالكاد أسمع ردّها، أخبرتني أنّها ستعود إلى « ألفريدز»، وأنّها ستقابلني في النادي، ثمّ تقفل الخط. أشعرُ أنّ الجدران تنهار من حَولي، فتحتشدُ الدموعُ في مُقلتيّ، وأخرجُ من وراء الستارة لأرى سْفين واقفاً يتابع ما يحدث معي.

- «لقد ماتت صديقتي». أقول: «رأيت ذلك على فيسبوك، يجب أن أذهب». يُنزل سْفين علبة الكولا من يده، ويُحضر معاطفنا من حُجرة الودائع، لا طاقة لي على التحدّث بينما يوصلني سْفين إلى مسكني. أبحثُ في فيسبوك، وأبكي. لمْ تكن الحرب هي السبب في موت آلاء، فقد غادرت هي وشقيقتها الكبرى سوريا مُسبقاً، ولمْ يكن البحر أيضاً؛ لأنّهما لمْ تذهبا بعيداً. قُتلت الشقيقتان في حادث حافلةٍ في طريقهما من إسطنبول إلى إزمير. كانت الحافلة تسير بسرعةٍ في مكانٍ ما في التلال، ثمّ انقلبت، واحترقت.

عُدنا إلى النادي بعد عشرين دقيقة. كانت سارة هناك، تنتظر عند إحدى الطاولات في غرفة الطعام مع صديقتها، ما زلت لا أستطيع الكلام، أمشي أمامهم إلى غرفتي، وأُغلق الباب، ثمّ أرمي بنفسي على السرير، وأبكي، يقف سْفين خارج الباب ويقرع، لا أجيب، فيناديني سفين، وأمتنع عن الإجابة، أحتاج إلى أنْ أكون وحيدةً فقط.

- «يُسرى؟». إنّها سارة هذه المرّة، تقول: «هيّا أُخرجي للحديث معنا».

- «من فضلكم». أقول: «دعوني وشأني. اذهبوا فحسْب».

- «هيّا يا يُسرى». تحاول سارة مرّةً أُخرى: «آلاء وشقيقتها في مكانٍ أفضل الآن، أعرف أنّ الأمر مُحزنٌ، لكنْ على الأقل هُم في سلامٍ الآن».

أتجاهلها، لا أستطيع التحدّث إلى أيّ شخصٍ الآن، وفي النهاية تستسلم سارة وتذهب. ألتقط هاتفي، ربّما هذا كلّه خطأ، ربّما نجوا. أُبلِغَ عن مقتل سبعة أشخاصٍ فقط، بينما أصيب الثلاثون الآخرون، ربّما آلاء في المستشفى في مكانٍ ما في تركيا؟ أراسلُ ابنة عمّ آلاء، هل ماتت حقاً؟ لأنّ هناك ناجين من بين ركّاب الحافلة: «اذهبي وتحقّقي من الأمر». أقول لها: «لربّما نجوا». إلّا أنّ الردّ يأتي مباشرةً: «لا، حبيبتي، آسفة، لقد رحَلَتا بالفعل». أنهارُ مرّةً أُخرى منتحبةً.

هناك قرْعٌ عنيفٌ على الباب، إنّه أبي. أطلب إليه أنْ يتركني وحْدي، تجتاحني أمواجُ الحزن، أبكي لدقائق بلا انقطاعٍ، ثمّ أتوقّف، وأنظر إلى الحائط، أتنفّس بعمقٍ، وأحاول أن أُهدِّئ نفسي، ولكنْ بعد ذلك أفكّر في أمّهما وفقدانها ابنتين في آنٍ واحد. تُحطِّمني المأساة مرّةً أُخرى، وأنهارُ من جديد، أشهق وأزفر، وتجتاحني الموجة الثانية. الألم الذي كابدتاه، طريقة موتِهما، الأمل الذي شعرتا به في رحلتهما، الخوف. أبكي مرّةً أُخرى، وأدعو من أجل روحَيهما. كان اللّيل يتلاشى في الخارج حينما رقدتُ في سريري مُنهكة. أرى وجه آلاء بينما أستسلمُ للنوم، وتنتقعُ الوسادة بدموعي.

أرى نفسي في شقّةٍ في دمشق مع أمّي وشهد، وصوتُ صفيرٍ يشقُّ الهواء في الأعلى، ثمّ يعقبه صوت ارتطامٍ، فتهتزُّ الجدران وتنهار، ليسقطَ البناء من حَولنا، فتصرخ شهد بينما ينهارُ المبنى.

أطبَقَ الظلام على المكان، الأنقاضُ من حَولي، أُخرجُ نفسي وأسعلُ من الغبار. لا أرى أمّي، ولا شهد، فأحفرُ بذُعرٍ بحثاً عنهما، وبينما أُفتِّش بين الركام أسمع أنيناً من تحت الخرسانة المُحطَّمة، صوتاً ينادي باسمي، فألتفت، وأرى أمّي هادئةً ومبتسمةً تحمل شهد بين ذراعيها.

تخيّم العتمة من جديد، أنا في المسبح في برلين، أخطو في الماء، وأتمسّك بحافّة المسبح، بينما يتردّد صدى صوتٍ عميقٍ في الماء، وفي أرجاء القاعة.

- «يُسرى، لديكِ قرارٌ لتتّخذيه». يقول الصوت: «وليسَ لديكِ متّسعٌ من الوقت. يمكنكِ البقاء هنا، أو يمكنك العودة إلى بلدكِ، والمعاناة مع البقيّة، يجبُ أن تَختاري، يُسرى، عليكِ أنْ تختاري».

أستيقظ باكية.

الجزء السابع

العاصفة

19

يحضرُ أبي حصصي التدريبيّة جميعها خلال الأسابيع القليلة الأولى بعد عيد الميلاد. يشاهدني كيف أسبح، ويقدِّم إليّ النصائح والتوجيهات، وهو غالباً ما يجلس بهدوءٍ في الصفوف الخلفيّة؛ يشعر بالخجل من الإدلاء بتعليقٍ، أو الاختلاف مع سْفين، وبمرور الوقت ينسحب أبي تدريجيّاً من المسبح، فأتفهّم ذلك؛ لأنّ لديه أشياء أُخرى يقلقُ بشأنها من قبيل استكشاف برلين، وتقديم طلب اللّجوء، وتعلُّم الألمانيّة.

يأتي سْفين معي ومع سارة إلى مقابلات اللّجوء الخاصّة بنا في نهاية كانون الثاني/ يناير؛ حيث تكون المشرفة على ملفّنا موظّفةً تُشرف عادةً على الحالات الخاصّة مثل: الجواسيس، والمشاهير، والشخصيّات الرياضيّة، وقد فوجِئَت حين سألناها عمّا إذا كان بإمكان سْفين الدخول إلى غرفة المقابلة معنا، فنحن أوّل نساءٍ رأتهُنَّ يجلِبن رجُلاً معهنّ. أبتسمُ، وأقول لها: إنَّ سْفين محسوبٌ علينا أكثر، وفي الواقع، أصبح سْفين فرداً من العائلة الآن على أيّة حال. كانت المقابلة واضحةً ومباشرةً، سألتنا الموظّفة أسئلةً عن خلفيّاتنا، وما إذا كنّا نشطين سياسيّاً في سوريا، وكيف ولماذا أتينا إلى ألمانيا. استغرقت المقابلة نحو ثلاثين دقيقة، وفي النهاية أخبرتنا المشرفة أنّنا سنحصل على القرار النهائيّ بخصوص لجوئنا في غضون ستّة

أسابيع. لقد خطونا خطوةً أخرى في عمليّة الّلجوء، ستّة أسابيع فقط حتّى نعرف على وجه اليقين ما إذا كان بإمكاننا البقاء في ألمانيا.

أشعر بالارتياح، ولكنْ في الحافلة، في طريقي إلى أولمبيا بارك، يتملّكني الشعور بالذنب، فالمعاملة الخاصّة لا تبدو صائبةً بالنسبة إليّ، لقد حصلنا على مقابلاتنا على نحوٍ أسرع؛ لأنّني قدْ ألتحق بفريق الّلاجئين، ولأنّ إدارة اتّحاد الألعاب الأولمبيّة الألماني تَدخَّلت لدى وزارة الداخليّة. أنظُرُ إلى الشوارع الرماديّة، وأتساءل كيف تسير عمليّة الّلجوء لأيّ شخصٍ آخر. الأمر برُمَّته في يد الحكومة التي يمكنها أنْ تجعلك تركض من مكتبٍ إلى آخر، ومن طابورٍ إلى آخر، ولربّما يتخطّى المرء العراقيل جميعها، إلّا أنّ المسؤول عن المِلفّ يمكنه في نهاية المطاف أنْ يقول: لا، ويطلب إليك المغادرة، والعودة لمواجهة ما هربت منه كلّه، لا شكّ في أنَّ عبور الحدود المغلقة لهوَ أفضل من ذلك، يمكنك استعمال ذكائك الخاصّ لاجتياز حاجزٍ ماديٍّ؛ أمّا هنا، إذا قالت الحكومة: لا، فهذا يعني أنّه ليس لديك الكثير ممّا يمكنك القيام به حيال ذلك.

أُذَكِّر نفسي أنّ المعاملة الخاصّة هي من أجل الوقت فقط؛ إذْ تدخّلت وزارة الشؤون الخارجيّة مع وزارة الداخليّة لتسريع أموري حتّى أتمكّن من السفر، كذلك فإنّ المسألة لا تقتصر على الذهاب للمشاركة في الألعاب الأولمبيّة في ريو، فقد رتَّب لنا سْفين أيضاً السفر إلى لوكسمبورغ للمشاركة في منافسة سي آي جي مِيت «*Meet CIJ*» في نهاية نيسان/ أبريل بعَدِّها إحدى الفعاليّات التأهيليّة الرسميّة لريو، ومع أنَّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة كانت غامضةً بخصوص ما إذا كنت سأحتاج إلى التأهّل إلى فريق الّلاجئين بالطريقة المعتادة، إلّا أنّهم قالوا: إنّه لا مشكلة في السباحة في فعاليّةٍ تأهيليّة.

في يوم الاثنين التالي أعود إلى المدرسة، قبْل شهرٍ من عيد ميلادي الثامن عشر، أجد نفسي في الصفّ التاسع من جديد. كان سْفين سعيداً للغاية، إلّا أنّني لمْ أكن سعيدةً بهذا القَدْرْ، و مع ذلك أشعر بالامتنان لهذه الفرصة، وأعلم أنّ الجميع يريدون الأفضل بالنسبة إليّ، ولكي أكون نزيهةً، فإنّ الجانب الإيجابيّ الوحيد هو تقاسم الروتين نفسه مع الأطفال في الرابعة عشرة من العمر، في مجموعتي التدريبيّة. كانت الدروس بمنزلة تعذيبٍ، لقد سمعت هذا من قبْل، أجلس في المقاعد الخلفيّة أرسم، وأكتب، وأُحدِّق من النافذة، إلى أن يحينَ الوقت للسباحة مرّةً أُخرى. «اِسْمي لاجئة». أكتب في الجزء الخلفيّ من كتاب التمارين. «على الأقلّ هكذا يُسَمّونني». وبحلول نهاية الأسبوع الأوّل تظهر المشكلات بيني وبين المعلّمين؛ إذْ إنّهم يُبلِغون سْفين بأنّني لست شاكرةً لفرصة التعليم.

لقد أساؤوا فهْمي، فأنا أريدُ أنْ أدرس بالفعل، ولكنْ ليس بهذه الطريقة.

على الأقلّ هناك الكثير من الملهيات عن متعةِ رياضيّات الصف التاسع! طلبات وسائل الإعلام جميعها لشخصٍ واحد، وقبْل بدء الدراسة بمدّةٍ وجيزةٍ قام رئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ، بزيارة منشأةٍ للّاجئين في أثينا، وأكّد للصحفيّين أنّه سيكون هناك فريق للّاجئين في أولمبياد ريو. تنهالُ طلبات إجراء المقابلات مرّةً أُخرى على صندوق بريد سْفين، قرأت الكثير منها بنفسي، لكنّني تركت كلّ شيءٍ لسْفين ليردّ عليه. منذ وقتٍ طويلٍ وسْفين يتلقّى الكثير من رسائل البريد الإلكترونيّ، لكنّه لمْ يتمكّن من قراءتها كلّها.

– «من الغريب أنّهم يريدون التحدّث إليّ فقط». أقول لسْفين: «ماذا عن الرياضيّين اللّاجئين الآخرين الذين ذكرت اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة أنّهم سيشاركون في الفريق؟ الكونغولي، والإيرانيّة؟».

- «لست متأكّداً من أنّ الصحفيّين عثروا عليهما». يقول سْفين: «أنتِ تتحدّثين الإنجليزيّة، كما أنّكِ سوريّة، والكثير من الصحفيّين يودُّون التحدّث عن الحرب. علاوةً على ذلك، هناك قصّتك المدهشة».

- «عن أيّة قصّةٍ تتحدّث؟». أسألُ سفين.

- «قصّة القارب يا مغفّلة!». يقول سْفين.

- «أوه! تلكَ القصّة». أقول: «لكنّنا روينا تلك القصّة مسبقاً للصحفيّين العام الماضي، لماذا يريد أيّ شخصٍ أن يسمعها مرّةً أُخرى؟». يهزُّ سْفين رأسه.

- «لا أعتقدُ أنّ الأمر يتمّ بهذه الصورة». يقول سْفين.

لا توجد طريقةٌ يمكنني من خلالها تلبية طلبات إجراء المقابلات جميعها؛ لذلك يقترح ميشيل شيرب -من الاتّحاد الألمانيّ للألعاب الأولمبيّة- عقدَ مؤتمرٍ صحفيٍّ، وبهذه الطريقة يمكنني التحدّث إلى المراسلين جميعهم في وقتٍ واحدٍ عوضاً عن مقاطعة جلسات السباحة، والمدرسة الخاصّة بكلّ مُـتدرّب. في البداية، نخطّط لحدثٍ صغيرٍ في النادي في منتصف َآذار/ مارس، ونتوقّع أنّه ربّما سيأتي عشرون، أو ثلاثون صحفيّاً. قام سْفين ومايكل بصياغة بيانٍ صحفيٍّ أعلنا فيه يوماً إعلاميّاً في آذار/ مارس، وتضمّن البيان الطلب إلى الجميع أنْ يَدَعوني وشأني حتّى ذلك الحين. أدعو أصدقائي الصحفيّين: ستيفن، ولام، ومجدُلينا للحضور؛ لأنّني أعلم بأنّ وجودهم سوف يُشعِرُني بالتحسُّن في ذلك اليوم إذا أتوا. وعلى أيّ حال هُم يمثّلون جزءاً كبيراً من قصّتي.

لمْ يمضِ وقتٌ طويلٌ على نشر البيان الصحفيّ حتّى تلقّيت رسالةً أُخرى من رامي صديقي في السباحة، يقول فيها: إنّه يسبح مرّةً أُخرى مع أحد الأندية في مدينة غِنت البلجيكيّة، وأنّه وجد مدرّباً رائعاً لإرشاده.

يسألني رامي عن فريق الّلاجئين؛ إذْ يريد معرفة ما إذا كان بإمكان سْفين مساعدته على التواصل مع الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، فأقول له: إنّ مدرّبه يستطيع أنْ يفعل ذلك مباشرةً، وفي الحقيقة تحمَّستُ لفكرة أنّ رامي سيحاول الانضمام إلى الفريق أيضاً، لو حالفنا الحظّ، وتَمكنّا من الذهاب إلى ريو، فسيكون كلّ شيءٍ أسهل بكثيرٍ إذا كان صديقي القديم رامي هناك أيضاً، سنكون قادرين على شقّ طريقنا بسهولةٍ في المنافسات.

تنقضي الأسابيع، وأسبح، وأجلس بمللٍ في الدروس، ونقضي أنا وسارة معظم أيّام الآحاد مع أمّي، وأبي، وشهد، ليسوا سعداء في «الهايم»؛ فهناك حوادث سرقةٍ، ومشكلاتٌ أمنيّةٌ أُخرى. تقول أمّي: إنّ الطعام سيّئٌ، والحمّامات قذرةٌ، فنعِدُ بإخراجهم من هناك في أقرب وقتٍ ممكنٍ، بمجرّد أنْ تأتي الأوراق، كذلك نخطّط لإيجاد شقّةٍ؛ حيث يمكننا العيش معاً، ومع اقتراب المؤتمر الصحفيّ بدأتُ أشعر بالقلق مرّةً أُخرى بشأن فريق الّلاجئين. أنا رياضيّة، لماذا يجب عليَّ الذهاب إلى الأولمبياد لمجرّد أنّني لاجئة؟ أبوحُ لأمّي بشكوكي في أحدِ أيّام الآحاد، أواخر شباط/ فبراير.

- «لا تكوني سخيفة، حبيبتي». تقولُ أمّي بلا تفكير: «أنتِ تستحقّين ذلك، لقد عملتِ بجدٍّ من أجل السباحة طوال حياتكِ».

- «لا، بالفعل يا أمّي، لا أدري ما إذا كان ينبغي لي فِعل ذلك». أقول لها.

لكنّ أمّي لا تصغي إليَّ حقاً.

- «فكرّي في الأمر فحسب». تقول: «ذلك الوقت كلّه الذي أمضيتهُ إمّا جالسةً في المسبح، وإمّا أحضر منافساتك لمْ يكن عبثاً».

أفهم سبب صعوبة التواصل مع عائلتي، فلدى أمّي وأبي الكثير الذي يتعيّن القيام به، وهما منشغلان بأوراقهما، أو طلبات الّلجوء الخاصّة بهما،

وفي منتصف شهر آذار/ مارس تلقَّيت مع سارة رسالةَ تفيد بأنّ كلّاً منّا قد حصلتْ على حقّ اللّجوء، وأنّ بإمكاننا البقاء لمدّةٍ لا تقلّ عن ثلاث سنوات في ألمانيا، سوف نرتاح أخيراً! أفكّر في سْفين، وميتي، وإليز، وعائلتها، وريني، والنادي، والمدرسة. كان الجميع كرماء جدّاً، لقد ساعدوني في الوصول إلى هذا الطريق الطويل بالفعل في حياتي الجديدة. ندركُ الآن أنّ ما نقوم ببنائه ليس مؤقّتاً فقط، فأنا أعلم الآن أنّ بإمكاني البقاء، ومواصلة العمل من أجل حُلمي.

لا أرى سارة كثيراً؛ إذْ إنّها تخرجُ كثيراً سعياً وراء أمورها الخاصّة، وفي إحدى اللّيالي جئت إلى النادي بعد التدريب، وسمعت أغنياتٍ من الطرب السوريّ التقليديّ قادمةً من غرفتها في الممرّ. طرقتُ الباب، لأجدها واقفةً عند المغسلة تضع مساحيق التجميل، وتستعدُّ للخروج، جلستُ على سريرها، ورحتُ أتأمّل الجدران؛ حيث أحدث مجموعة من ملصقاتها المجنونة.

- «هل تفكّرين بالعودة؟». تقولُ سارة، وهي تنظر في المرآة، وتضع الكحل على عينيها.

- «تقصدين إلى سوريا؟ بالتأكيد، ولكنْ عندما ينتهي هذا كلّه». أقول لسارة.

- «أعتقد أنّني عائدة». تقول سارة.

- «ماذا؟! الآن، هل أنتِ مجنونة؟». أقول ذاهلةً لسارة.

- «ألستِ مشتاقةً إليها؟». تقول.

بعد ذلك تتوقّفُ سارة لرسم خطّين من أحمر الشفاه الداكن على فمها.

- «ألا تشعرين بالسوء حيال الأشخاص المحاصرين في سوريا كلّهم؟». تقول.

- «بالطبع». أجيبُها: «لكنْ كيف لعودتي أنْ تساعدهم؟».

تُلقي سارة نظرةً أخيرةً على المرآة، وتلتفت لتواجهني، تُغيّر الموضوع فجأةً، وتسأل عمّا إذا كان بإمكانها استعارة سترتي السوداء، فأهزّ رأسي غير موافقة.

- «كلّا، إنّها سترتي المفضّلة، ومن المحتمل أن تمزّقيها، أو أن تُضيّعيها».

- يا إلهي! أتعلمينَ أنّكِ أصبحتِ مزعجةً على نحوٍ لا يطاق؟

- «ماذا؟ ألأنّني لنْ أسمح لكِ بالحصول على سترتي؟». أقول.

- «أنْ تتمتّعي بمنحةٍ دراسيّةٍ لا يعني أنّكِ أفضل من أيّ شخصٍ آخر». تقول سارة: «أم لأنّكِ مشهورةٌ جدّاً الآن؟».

أُحدّقُ فيها، ثمّ أنهض، وأخرج مُغلِقةً الباب ورائي، لأذهب إلى غرفتي، وأستلقي على سريري، ثمّ أبدأ في البكاء. إذا كان هذا رأيُ أختي بي، فما الذي يقوله الآخرون؟ أفتح فيسبوك، فأرى إحدى صديقاتي في دمشق، وقد غيَّرت صورة حسابها الشخصيّ إلى صورةٍ لبحرٍ هائج، وكتبت فوق الصورة بالخطّ الأبيضِ المائل جملةً تقول: «بعد العاصفة تأتي الأيّام الهادئة». أتملّى في الصورة لبرهةٍ، لقد استمرّت العاصفة مدّةً طويلةً، متى يعود الهدوء إلى سوريا بأيّامٍ هادئة؟ متى سأنعم بالهدوء؟

- «لا أحتاج إلى المِنح». أتحدثُ إلى جدار غرفة نومي: «لا أُريدُ أن أكُونَ مشهورَة، أريدُ السلام حتّى أتمكّن من إعادة بناء حياتي».

في أوائل آذار/ مارس، قبْل ثلاثة أيّامٍ من عيد ميلادي الثامن عشر، تُشكِّلُ اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة الفريق رسميّاً، وتنشرُ إعلاناً حَول ذلك. في هذا الصيف سوف يسير فريقٌ أولمبيٌّ للّاجئين حاملاً العلَم الأولمبيّ في حفل الافتتاح، وسيكون هناك ما يصل عدده إلى عشرة رياضيّين ضمن

الفريق يجري اختيارهم من قائمةٍ طويلةٍ تضمّ ثلاثةً وأربعين عضواً مرشّحاً للفريق، من بينهم أنا يسرى مارديني، وكذلك صديقي السبَّاح رامي.

إنّها المرّة الأولى التي تذكرني فيها اللّجنة بالاسم. يرنُّ هاتف سْفين كثيراً لدرجة أنّه وضعه في الثلّاجة للحصول على بعض الهدوء، كذلك تنهار حساباتي الخاصّة على وسائل التواصل الاجتماعيّ من فرط الضغط، ويبدأ الناس العاديّون بمراسلتي، ولا يخلو الأمر من بعض الإهانات إلى جانب الكلمات المشجِّعة. تبرزُ واحدةٌ من بين الرسائل الجيِّدة، يكتب إليّ شابٌّ من داخل سوريا، ويقول: إنّ والدته قُتِلت في الحرب، وتركَتهُ وحيداً لرعاية أُسرته، وأنَّ الطعام غالي الثمن لدرجة أنّهم بالكاد يأكلون. «شكراً لكِ». يكتبُ الشاب: «حياتي صعبة، لكنّكِ ألهمتني للمضيّ قُدماً». قرأتُ رسالته مراراً وتكراراً.

يكتب آخرون ليحذِّروني من سْفين، ويشكّكون في لطفه، ويسألون عن غرضه، ويبدو أنّه لا يمكن لأحدٍ أن يدرِكَ معنى صداقتنا، حتّى والداي لا يستطيعان فهْم سبب مساعدة سْفين الكبيرة لي، يعتقدون أنّ سْفين لا بدّ من أنّه يسعى وراء شيءٍ ما، كالشهرة مثلاً، أو المال، أو أيّاً يكن. أقول لهم جميعاً: إنَّ هذا سُخف.

ثمّ هناك الصحفيّون، لمّ أكن أعرف أنّ هناك الكثير منهم، يخبرني سْفين أنْ أوقِف الإشعارات جميعها على هاتفي، وأن أتوقّف عن مطالعة رسائل بريدي الإلكتروني. يقول: إنّه ومايكل سيتدبّران الأمر، ويبدو أنّ معظم المراسلين لا يفهمون ما هي القائمة الطويلة، ويعتقدون أنّ وجودي في هذه القائمة يعني أنّني سأذهب إلى ريو من دون شك، ولكنْ لا شيء قد تقرّر بالتأكيد، لقد فوجئنا جميعاً بمستوى الاهتمام في المؤتمر الصحفيّ. قبل أسابيع قليلةٍ من اليوم الكبير، أخبرَ مايكل سْفين عبْر الهاتف أنّنا

سنحتاج إلى غرفةٍ أكبر، يوجد الآن ستّون وسيلةً إعلاميّةً قادمةً، وبعضهم طواقم تلفزيونيّة تحتاج إلى مساحةٍ أكبر، لنْ يتّسع النادي لنا جميعاً.

يقترب عيد ميلادي الأوّل في ألمانيا، أفكّر في الحفل الذي أقامته لي سارة مع لِين في المالكي بدمشق العام السابق، أين أصدقائي السوريّون كلّهم الآن؟ قرّرت أنْ أحتفل بهذه المناسبة، وطلبتُ إلى سْفين تنظيم حفلٍ صغيرٍ في «ألفريدز» بعد التدريب بمشاركة أصدقائي في السباحة. لمْ يستطع سْفين الحضور في اليوم نفسه؛ إذْ كان عليه أنْ يسافر إلى إنجلترا لحضور مناسبةٍ عائليّةٍ، لكنّه اتّصل بي من إنجلترا في اللّيلة السابقة. في ألمانيا، كما قال سْفين على الهاتف، يحتفل الجميع في منتصف اللّيلة السابقة ليوم ميلادهم. كانت الساعة الثانية عشرة إلّا خمس دقائق، ابتسم سْفين على الشاشة، وقال: إنّ لديه مفاجأة لي، يطلب إليّ أنْ أذهب إلى غرفتي، وأفتح الصندوق الخشبيّ، فأفعل ذلك، فأجد في الغرفة صندوقاً على الطاولة بجانب السرير، كما يوجد مفتاحٌ في الداخل. أخبرني سْفين أنْ أستعمل المفتاح لفتح باب أكبر غرفةٍ في الممرّ. أديرُ المفتاح، فيُطقطق القفل، وينفتح الباب، فأشهق من دهشتي، لقد زيَّنَ سْفين الغرفة بأكملها بلافتاتٍ برّاقةٍ، ولافتات عيد ميلاد: «واو!». قلت بابتسامةٍ عريضة: «سْفين، هذا مذهل!».

- «هل وجدتِ الهدايا الخاصّة بكِ؟». سألني سْفين.

تلفتُّ حَولي لأرى ثلاثة طرودٍ على الطاولة بجانب السرير، فتحت الطرد الأوّل بلهفة، إنّها بدلة ضغطٍ باهظة الثمن للمساعدة في إنعاش العضلات بعد التدريب، وفي داخل الطرد الثاني زوجا أحذيةٍ رياضيّةٍ بيضاء من ماركة «أديداس»؛ أمّا الثالث، فكان أصغر الطرود حيث بدا كأنّه كتاب. مزّقت الورق، إنّه كتاب سيرة حياة مالالا! ابتسمت. يا له من صديقٍ

مذهل! من دون سْفين، أين سأكون الآن؟ لقد أدركتُ في وقتٍ لاحقٍ فقط أنّ سْفين لم يكن الوحيد، كان الآلاف من المتطوّعين في أنحاء ألمانيا جميعها يدعمون القادمين الجُدد. لقد وصلنا ونجَوْنا من هذا الكابوس، وكنّا محظوظين بأنْ نجد أصدقاء لمساعدتنا على الاستمرار.

بعد أيّامٍ قليلةٍ من عيد ميلادي تقوم الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، ومفوّضيّة الأمم المتّحدة لشؤون الّلاجئين بإرسال فرق تصويرٍ إلى المسبح لمقابلتي. أقول الكثير عن الألعاب الأولمبيّة، وكيف حلمتُ بها دوماً، وكم هو مثيرٌ مَنحي هذه الفرصة الرائعة. تلتقط الفِرق لي صوراً خارج الملعب مع الحلقات الأولمبيّة في الخلفيّة. جعلني مصوّر الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة أقفز في الهواء من شدّة الفرح المرّة تلْو الأُخرى، ولدى مغادرتهم لمْ أستطع أن أكتم سؤالي لسفين عن سبب إرسال الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة لطاقم التصوير إنْ لمْ يتأكّد بعد ما إذا كنت سأشارك في الفريق. يقلّل سْفين من أهميّة ذلك بالقول: إنّه ما مِن شيءٍ مؤكّد بعد. وعلى أيّة حال، ما زلت غير متيقّنةٍ من مسألة الفريق بالكامل، وفي كلّ يومٍ أجد نفسي متأرجحةً بين الإثارة الجامحة، والشك المعطِّل.

على الرغم ممّا يُشعِرُني بالامتنان كلّه، إلّا أنّ الأوقات ما تزال صعبةً؛ فأنا لا أُحب المدرسة، إليز، وميتي، وسْفين أصدقاء رائعون، لكنْ ليس لديّ أصدقاء في مثل سِنّي. أفتقد سوريا على نحوٍ رهيب، كما أنّ اهتمام وسائل الإعلام يزيد من الضغوطات. أرغب كثيراً بالمشاركة في الألعاب الأولمبيّة، لكنّني في الوقت نفسه لا أريد المِنح. أتقدّم على نحوٍ أسرع في المسبح، ولكنْ ما من سبيلٍ لأتأهّل بالطريقة العاديّة إلى ريو: تبدأ سباحتي بالمعاناة، ونلتزم بخطّة سْفين في طوكيو التي تهدف إلى استعادة أفضل أداءٍ لي بحلول الصيف. أحاول ألّا أفكّر في الأزمنة القياسيّة المؤهِّلة

لريو: دقيقة واحدة لمسافة 100 متر فراشة، و2:03 لمسافة 200 متر سباحة حُرّة، في حين أنّ أفضل نتائجي تتأخّر بنحو تسع ثوانٍ عن كِلا الرقَمَين المذكورين آنفاً. آخر ما أريد القيام به هو التحدّث إلى الصحفيّين حَول هذه التفاصيل في مؤتمرٍ صحفيٍّ؛ أعني عن سجلّاتي، أو عن الأولمبياد، أو عن كوني لاجئةً أو بالأخصّ عن رحلة القارب. سْفين يعلم أنَّ هذا الأمر ليس بالسهل بالنسبة إليّ، ويشعر بالقلق من الضغط الذي يُسببّه.

– «يسرى، كلمةٌ منكِ تُنهي الأمر». يقول سْفين في إحدى الّليالي قبل أسبوعٍ من المؤتمر الصحفي: «عليكِ فقط أنْ تخبريني إذا كنتِ لا ترغبين في ذلك كلّه، يمكننا إلغاء كلّ شيء، والانسحاب من الأمر برمّته، وسأتحدّث إلى الاتّحاد الألمانيّ للألعاب الأولمبيّة، وإلى الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، بإمكاننا إلغاء كلّ شيء».

أنظر في وجه سفين، يبدو جاداً.

– «لكنْ إذا فعلنا ذلك، سيكون الأمر نهائيّاً». يقولُ سْفين: «سيكون كلّ شيءٍ قد انتهى وما من سبيلٍ إلى التراجع، لنْ يكون هناك أولمبياد، وسيكون الحلم قد ذهبَ أدراج الرياح».

أُطرِق النظر أرضاً، وأصارعُ نفسي، لطالما كان حُلمي أنْ أنافس في الألعاب الأولمبيّة، ولكنّني كرياضيّةٍ لستُ جاهزةً بعد. كانت أفكاري لا تزال مضطّربةً في الوقت الذي ذهبتُ فيه إلى الفراش في تلك الّليلة، وبالكاد أطفأتُ النور حتّى اهتزّ هاتفي، إنّها رسالةٌ من سْفين.

– «أعتقد أنّه يجب أنْ تعرفي لماذا أفعل ما أفعله كلّه». تقول الرسالة: «أحياناً ما أشعرُ، وقد سمعت ذلك يُقال أيضاً؛ أنّ الناس يعتقدون أنّني أفعل هذا كلّه لمصلحتي الخاصّة. أريد التحقّق من أنّكِ لا تعتقدين ذلك، فمنذ اليوم الأوّل الذي وصلتِ فيه أنتِ وسارة، أردت مساعدتكما فحسب. من

أجل ماذا؟ من أجل المساعدة فقط، أنا لا أبتغي أيّ شيءٍ، لا المال ولا الشهرة».

اتّسعت عيناي، وأنا أقرأ رسالته، أعرف سْفين، إنّه ليس كما يظنّون، هو يقدّم المساعدة بسعادةٍ؛ لأنّ هذا ما هو عليه، وهذه هي الطريقة التي نشأ بها. هو في طبيعته مساعدٌ للآخرين من دون انتظارِ مقابل. أتابع قراءة الرسالة.

- «أوّل ما قلتِه لي لدى وصولكِ هو أنّكِ تريدين الذهاب إلى الألعاب الأولمبيّة». يقول سْفين: «واليوم بإمكانك الذهاب، إنْ لم يكن هذا العام ففي عام 2020، يمكنكِ إثبات خطأ المشكّكين، أولئكَ الذين وضعوا العراقيلَ في طريقكِ كلّهم، تذكّري، أنا هنا لمساعدتكِ في تأمينِ مستقبلِ يا يسرى، طابت ليلتكِ».

أبتسم وأعود لأفكّر إلى أيّ مدى وصلنا أنا وسْفين، إنّه على حقّ، كان التنافس في الأولمبياد حلمي دائماً، والآن، بمساعدته، أصبح تحقيق حُلمي في مُتناول اليد، ولكنْ ما يزال ثمّة خطأٌ ما.

قبل أيّامٍ قليلةٍ من المؤتمر الصحفيّ يتلقّى سْفين مكالمةً من مايكل يقول: إنّ نائب مدير اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، بيري ميرو، سيحضر شخصيّاً، يعتقد سْفين أنّه قد يرغب في الحضور لتأكيد أنّني سأكون في الفريق، إلّا أنّني ما أزال ممزّقةً، لا أريد أنْ أذهب إلى ريو إذا لمْ أستحقّ ذلك، أو إذا كان السبب أنّني سوريّةٌ ولاجئةٌ فحسب، وعلى أيّة حال، لماذا يجب أنْ أكون أنا؟ أنا متأكّدةٌ من أنّ الكثير من الأشخاص الآخرين يحبّون أنْ تتاح لهم هذه الفرصة، وفجأةً حسمتُ قراري، لنْ أفعل ذلك، سأنتظر وأذهب إلى الألعاب الأولمبيّة عندما أكون مستعدّةً. أُخبرُ سْفين بأنّني لا أستطيع المشاركة، وفي تلك اللّيلة أتّصل بأبي، وأُعلِمهُ بقراري، لا أريدُ

المِنح، لست في حاجةٍ إلى أن يشعر الناس بالشفقة عليّ، وعلى أيّة حال، هل يذهب الرياضيّون إلى الألعاب الأولمبيّة بدافع الإحسان؟

- «لربّما أنتِ على حقّ». يقول أبي: «لكنْ ربّما تفكّرين أيضاً في هذا الأمر بطريقةٍ خاطئة، فكّري في جهدكِ الذي بذلتِهِ من أجل السباحة، وتلك الساعات والتضحيات كلّها، لِمَ لا تنتهزين هذه الفرصة؟ وبعد ذلك يمكنك استعمال صوتكِ لمساعدة الناس».

أفكّر في الفظائع التي أراها كلّ ليلةٍ عندما أتصفّح ملفّ الأخبار؛ التفجيرات الانتحاريّة، وهجمات الغاز، والأطفال الجوعى، والدماء، والهروب اليائس، والدعوات في البحر، وأولئك العالقين إلى أجلٍ غير مسمّى على طول الحدود؛ حيث الأسلاك الشائكة التي لا نهاية لها. مساعدة الناس، نعم، أحبّ أنْ أفعل ذلك، ولكنْ كيف؟ إذا ذهبت إلى الألعاب الأولمبيّة، فلن تتوقّف الحرب، أو تفتح الحدود، أو حتّى تتناقص طوابير الانتظار في مكتب الشؤون الاجتماعيّة في برلين، لكنّ أبي يقول: إنّني أستطيع مساعدة الناس بطريقةٍ مختلفة.

- «قِلّةٌ من السوريّين يحصلون على هذا النوع من الفرص للتحدّث». يقول أبي: «يمكنكِ أنْ تكوني صوتهم، فأنتِ تعرفين جزءاً كبيراً من قصّتهم؛ لأنّكِ مررتِ بها أيضاً. إنّها فرصةٌ لنا جميعاً ليلقى صوتنا آذاناً مُصغية».

في وقتٍ لاحقٍ استلقيت على السرير، وأنا أفكّر في الأمر، لقد سئمت من الاكتفاء بالمشاهدة منِ بُعدٍ بلا حَولٍ ولا قوّة بينما يعاني شعبي. إذا ذهبت إلى ريو، فستكون لديّ بالتأكيد قوّة أكبر ممّا لديّ الآن، وعلاوةً على ذلك، لكلّ شيءٍ قوّة دفعٍ ذاتيّة. في غضون أيامٍ قليلةٍ سأتحدّث إلى العالم، إلى الصحفيّين، وطواقم التلفزيون من اليابان إلى البرازيل، وإلى شبكات الأخبار الأميركيّة، وشبكات الأخبار العالميّة، والصحف، والمجلّات من

أنحاء أوروبا وأميركا جميعها. أبي على حقّ، يجب أن أخبرهم بقصّتنا من أجلنا جميعاً.

في اليوم السابق للمؤتمر الصحفيّ، جلست مع سْفين في «ألفريدز» لتزجية الوقت قبل التدريب المسائيّ، أسأله ما الذي سيحدث إذا انتهى بي الأمر لأشارك في ريو، ويقول: إنّه يعتقد أنَّ هذا الاهتمام الإعلاميّ كلّه قد يجعلني مشهورةً بعض الشيء، لكنّه يحذّرني من ألّا أُعوِّل على ذلك على المدى الطويل، ويقول: إنّ وسائل الإعلام تنتقل دائماً إلى ما هو أحدث، ولكنْ يمكننا استعمال ذلك بدايةً ليكون منصَّةً ليصل صوتي، وأنَّ بإمكاني استثمار هذا الصوت لإلهام الشباب، والرياضيّين الطموحين، والأطفال في المدارس، وما إلى ذلك، بعدها يتوقّف سْفين، وينظر إليّ.

- أما زلتِ تريدينَ أن تكوني صوتاً للتغيير، مثل مالالا؟

أنظرُ في عينيه.

- «إذا طلبوا إليّ سأفعل ذلك». أقول.

- «على أيّة حال، إذا حصلتِ على فرصةٍ للذهاب إلى الألعاب الأولمبيّة فستذهبين. هذا هو قرارك النهائيّ، أليس كذلك؟». يقول سْفين: «أعني: قرارٌ نهائيٌّ، ولنْ نناقشه مرّةً أُخرى؟».

- «نعم». أقول لسفين: «وسوف أشارك في المقابلات جميعها، لكنّني أريد أن أتحسّن في التحدّث إلى وسائل الإعلام، فإذا كان لي أنْ أُسمِع صوتي، فإنّني أريد أن يصغي الناس إليَّ». يسردُ سْفين على أصابعه ما يريد الصحفيّون معرفته: سيرغبون بسماع قصّة القارب، وقد يسألون عن سوريا، كما أنّهم سيسألون عن السباحة، ولماذا أريد أنْ أكون في الفريق.

- «سأخبرهم الحقيقة ببساطة». أقول: «سأفعل ذلك من أجل إلهام الناس لفِعلِ ما يؤمنون به بصَرف النظر عن أيّ شيءٍ، ولأبيّن لهم أنّه إذا

كانت لدينا مشكلات، فهذا لا يعني أنّه يجب علينا الجلوس والبكاء كالأطفال. أريد أنْ أجعل الّلاجئين جميعهم فخورين بي، وأن أُثبِت لهم أنّه وإن كانت رحلتنا صعبةً، فبإمكاننا تحقيق شيءٍ ما».

قول تلك الكلمات لسْفين جهْراً يمنحني الشجاعة، لقد دَهشني مدى شعوري بالهدوء. أفكّر في رسالة الفتى من سوريا، ربّما يستحقّ الأمر هذا العناء كلّه إذا كان بإمكاني مساعدة أشخاصٍ مثله على الاستمرار.

أسمع أصواتاً قادمةً من خارج النادي، أذهب إلى النافذة، وأرى أبي يقف في أسفل الدَرج، ومعه طاقم تصويرٍ، وأبو عاطف، المترجم من «الهايم» القديم. من الواضح أنّهم يبحثون عنّي، لكنْ لم يخبرني أحدٌ بأيّة مقابلاتٍ اليوم، فيهتزُّ هاتفي في جيبي، إنّه أبو عاطف يتّصل بي، أرمي الهاتف على السرير؛ كلّا، لنْ أتحدّث إلى طاقم الأخبار. سوف أتحدّث إلى مئة صحفيٍّ غداً، ولديَّ تدريبٌ في غضون عشر دقائق، لكنّنا عالقون في النادي، ولا يمكننا الوصول إلى المسبح من دون السيْر خلْفهم. أنحني أسفل عتبة النافذة، وألحظ حارس الأمن يقترب من المجموعة، ألتقطُ أنفاسي، ربّما سيُخرجهم، لكنّ الحارس يتجوّل مرّةً أُخرى، ويبقى الطاقم منتظراً أنْ يلتقي بي في طريقي، فيهتزُّ هاتفي مرّةً أُخرى، المتّصل أبي هذه المرّة.

– «يا إلهي!». أقول: «يجب عليك فعل شيءٍ ما يا سْفين، لا يمكننا الوصول إلى المسبح من دون أن يرونا».

يسحبُ سْفين هاتفه من جيبه، ويتّصل بِبيتر، نائب رئيس النادي، فهو يعلم ما يجب فعله، يقول بيتر: إنّه سيأتي، ويصرف طاقم الأخبار حتّى نتمكّن من الخروج إلى التدريب. يُنهي سْفين المكالمة، وننتظر بيتر، وبعد بضع دقائق نشاهد بيتر من النافذة، وهو يخطو في اتّجاه النادي، يقول شيئاً لأبي عاطف، وتتبعه المجموعة بأكملها نحو مدخل منتزه أوليمبيا بارك،

وبعد لحظاتٍ قليلةٍ يرنُّ هاتف سْفين، إنّه بيتر يخبرنا أنّ الطريق خالٍ من أيّ أحد. أُمسِكُ بحقيبة لوازمي، ونركض على طول الممرّ خارج باب النادي، وننزل الدَرج، ونَعدو عند الزاوية المؤدّية إلى المسبح؛ حيث لا يوجد أبي، ولا أبو عاطف، ولا طاقم التصوير.

فقط رجُلٌ طويل القامة، ذو شعرٍ داكنٍ، يرتدي بدلةً، ويبدو تائهاً.

- «سْفين؟». يسأل الرجُل.

يمدُّ يده، ويقدّم نفسه، مايكل شيرب من الاتّحاد الألمانيّ للألعاب الأولمبيّة شخصيّاً، وللمرّة الأولى. يصافحُ مايكل سْفين بحرارةٍ، ثمّ ينظر إليَّ، ويبتسم.

- «لا بُدَّ من أنّكِ يسرى الشهيرة؟». يقول مايكل.

- «هذه أنا». أقولُ مبتسمةً.

يضع سْفين يده على كتف مايكل، ويرشده نحو مدخل المسبح.

- «نحن في عَجلةٍ من أمرنا للوصول إلى المسبح». يقول سْفين: «لقد حوصرنا في الحال في النادي؛ لأنّ طاقم التصوير كان يبحث عنّا في الخارج».

- «أوه! لا». يقول مايكل، ووجهه مشدودٌ بقلق: «أتمنى لو أنّني لمْ أتأخّر، لربّما كان بإمكاني مساعدتكم في إبعادهم».

أستيقظ باكراً في صباح اليوم التالي، وألتقي سْفين لتناول الإفطار مع نائب مدير اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، بيري ميرو، ومايكل قبْل المؤتمر الصحفيّ. كنت متوتّرةً بادئ الأمر، لكنّ الجميع مريحون للغاية، ومن السهل التعامل معهم، نتحدّث عن طفولتي في سوريا، وحياتي الجديدة هنا في برلين، ويخبرنا بيري عن خطط اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة الخاصّة بالفريق.

تخطّط اللّجنة لإنشاء فريقٍ أولمبيٍّ حقيقيٍّ، مثل الفِرق الأُخرى، مع مختصّي العلاج الطبيعيّ، والأطباء، والملحق الصحفيّ، وقادة الفريق. من الواضح أنّ الجميع في اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة متحمّسون للغاية بشأن المشروع.

بعد الفطور نذهب إلى الغرفة الكبيرة التي استعرناها من اتّحاد برلين الرياضيّ، الذي له أيضاً مقرٌّ في أوليمبيا بارك، فننتظر في غرفةٍ جانبيّةٍ صغيرةٍ مع بيري وضيوفٍ آخرين في اتّحاد الرياضة الأولمبيّ الألمانيّ. يأتي لام ومجدلينا، ويجدوننا وراء الكواليس. كان لام في مزاجٍ رائعٍ، يعبث، ويمزح، ويلتقط الصور، وهو ما يساعدني على تهدئة أعصابي، وعندما يحين الوقت، يفتح سْفين الباب، ونخطو إلى المؤتمر الصحفيّ المكتظّ. أوّل شخصٍ تقع عيني عليه هو الصحفيّ البلجيكيّ ستيفن، أبتسِم وأُعانقه، إنّه لأمرٌ مشجِّعٌ للغاية أنْ يكون معي أصدقائي هنا بين هؤلاء الغرباء كلّهم. أتفحصُ صفوف الكراسي، وأجدُ 126 صحفيّاً من أنحاء العالم جميعها، ثمانية عشر من طواقم التصوير يصوّرون من الخلْف، تلاحقني كاميراتهم بينما أشقّ طريقي إلى الصفّ الأوّل للجلوس بين بيري ميرو وبين أبي. تجمهَر حشدٌ من المصوّرين عند قدمَيّ، تطقطِق فتحات كاميراتهم على وقع صوت رسالة الفيديو المسجّلة مسبقاً لرئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ.

– «نساعدهم على تحقيق حلمهم في التميّز الرياضي». يقول باخ: «حتّى حين يضطّرون إلى الفرار من الحرب والعنف».

أستحضرُ الهدوء، وأُركّزُ على رسالتي، يجلس مايكل على منصّةٍ صغيرةٍ مرتفعةٍ، ويقدّم مقدّمةً قصيرةً قبل وصولنا: أنا، وبيري، وسْفين إلى المسرح، ومن ورائه كانت سلسلةٌ من صور لام معروضةً على شاشةٍ

أعلى رأسه. تتوالى الصور، أنا وسارة نسير على سِكك القطار على الحدود الهنغاريَّة، مجموعتنا راقدةٌ في حقول الذرة، مختبئة من الشرطة. هل حدث ذلك كلّه بالفعل؟ أكادُ لا أصدّق! ينهي مايكل مقدّمتهُ، ثمّ نقفُ: أنا، وسْفين، وبيري. تُطقطِقُ الكاميرات مرّةً أُخرى، وتضُجُّ القاعة، فيجلس الصحفيّون في مقاعدهم، ويرفعون أقلامهم، ويفتحون أجهزة الحاسوب المحمولة الخاصّة بهم. يخيِّمُ الصمت، وأنا أخطو على المسرح، يحدِّق الصحفيّون فيّ، ويصوِّبون عدساتهم نحو قُبَّعتي، وحذائي الرياضيّ، ووجهي العفويّ، أحدِّقُ فيهم بينما يقدّم بيري نُبذةً حول خطط الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة للفريق. ماذا يفعل هؤلاء المراسلون كلّهم هنا؟ أنا لست عضواً في الفريق حتّى الآن؛ لذا أعتقد أنّ سبب وجودهم لا بدّ من أن يكون تلك الكلمة التي سيستعملونها جميعاً في عناوينهم؛ كلمة لاجئ.

أستعرض الحشدَ، فأرصدُ أصدقائي: ستيفن، ولام، ومجدلينا، كانوا مبتهجين ومستعدّين لرؤيتي، أشعرُ بضيقٍ في حنجرتي، وثقلٍ في صدري، تضطَّرِبُ معدتي، وأتساءل في لحظة جنونٍ: ما الذي سيحدث لو أخبرتهم بالحقيقة الصادقة؟ إذا أخبرتهم عن شعور المرء حينما يُختَزَلُ بكلمةٍ واحدةٍ، وحاولتُ توضيح معنى هذه الكلمة بالنسبة إلى أولئك الذين أُجبِروا على الانضواء تحت مُسمّاها، لاجئ، قوقعةٌ فارغة، وبالكاد إنسان، ولا مال، ولا مأوى، ولا مرجعيّة، ولا تاريخ، ولا شخصيّة، ولا طموح، ولا مسار، ولا شغف. ماضينا، وحاضرنا، ومستقبلنا، تلاشت جميعها، واستُبدِلَت بها تلك الكلمة المدمِّرة. أبتسم بينما تومض الكاميرات محافظةً على رباطة جأشي، ومُركِّزةً على رسالتي التي سأبُثُّها.

– «حسناً، سنفتح المجال الآن للأسئلة». يقول مايكل، فيما بدَت الأيدي المرفوعة كما لو أنّها غابةٌ تصل إلى السقف.

20

أتلفَّتُ ماسِحةً بنظري عدسات الكاميرات، يريدُ الصحفيّون معرفة ما حدث على متْن القارب، أبتسِم وأروي لهم قصّتي بلباقةٍ، لكنّني أتكلّم من دون انفعالٍ عاطفيّ. ينغلق قلبي، ويحجُب مشهَد الأمواج الزاحفة، عقلي هو الذي يعمل فقط. سبَحنا من تركيا إلى اليونان، وبعد خمس عشرة دقيقة توقَّف المحرّك عن الدوران. نحن سبَّاحتان؛ لذا نزلت أنا وشقيقتي في الماء، وأمسَكنا بالحبْل، وبعد ثلاث ساعاتٍ ونصف وصلنا إلى اليونان. أُنجِزُ خمس مقابلاتٍ جماعيّة على التوالي، وأعيدُ الكلمات نفسها مراراً وتكراراً، من المستحيل أنْ تسترجع قصّة العبور المرعبة لكلّ مراسل. أُبقي قلبي بعيداً، وأحتفظ بالابتسامة الهادئة على مُحيّاي.

كان نائب مدير اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة بيري ميرو أوّل من يغادر المؤتمر الصحفيّ، وقال في كلماته الأخيرة: إنّه سوف يرانا في ريو. أنظُر إلى سْفين مندهشةً، إذنْ، من المؤكّد أنّني في الفريق الآن، أليس كذلك؟ لكنّ سْفين يقول: إنّنا ما زلنا لا نعرف بالتأكيد. لمْ يُبلغه أحدٌ بأيّ شيءٍ مؤكّد، الأمر بمجمله شديد الغموض. أعتقد أنّه إذا كانت اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة ترغب بانضمامي إليه، فسوف أكون فيه.

في الأيّام التالية للمؤتمر الصحفيّ تظهر مئات المقالات، ومقاطع

الفيديو التي تروي قصّة القارب بشتّى ضروب الخيال، صوَّرتني بعض القصص أدفعُ القارب، وبعضها الآخر صوَّرني أجرُّه إلى الشاطئ. بعض القصص تأتي على ذِكرِ سارة، خِلافاً لبعضها الآخر، كما تذكُرُ قصصٌ أُخرى الشباب الآخرين في الماء. كانت أكثر القصص إثارةً للسخرية تلك التي صوَّرتني وحْدي مع حبلٍ ملفوفٍ حَول خصري، وأنا أسبح سباحةً حُرّةً، وأسحب قارباً مكتظّاً بـ 150 شخصاً إلى برّ الأمان، تماماً مثل أفلام الرسوم المتحرّكة، وكما لو أنّني امرأةٌ خارقةٌ، لكنّ أكثر القصص غرابةً هي عنوانٌ رئيسٌ في إحدى الصحف العربيّة كان يقول: «شقيقتان سوريّتان تسبحان من اليونان إلى ألمانيا». أتلقّى عدداً قليلاً من الرسائل التي تتّهمني بالكذب والخداع، وأُدرِك للمرّة الأولى أنّه بصَرف النظر عمّا يقوله المرء، فإنّ الصحفيّين يحصلون على القصّة التي يريدونها، وأعتقد أنّهم كانوا يبحثون عن بطَلةٍ، بينما لمْ يكن ما أردته سوى السباحة.

إذا كنّا نأمل أنْ يرضي المؤتمر الصحفيّ وسائل الإعلام، فنحن مخطئون. تنهالُ الرسائل على البريد الإلكترونيّ لسْفين بصورةٍ غير مسبوقةٍ، ويصل إلى بريده الإلكترونيّ نحو 300 رسالةٍ في الأسبوع، نتلقّى عروضاً لتحويل قصّتي إلى كتابٍ، أو حتّى فيلم. كان أولئك الذين يقفون وراء المقترحات مثابرين للغاية؛ يقوم رجُلٌ من شركة إنتاجٍ في نيويورك بالاتّصال بسْفين كلّ خمس دقائق لعرض مشروع فيلمٍ ضخمٍ، ويتحدّث دائماً عن أموالٍ كبيرةٍ، ويفاخر بعلاقاته في هوليوود، ويخبره سْفين أنّنا نركّز على الألعاب الأولمبيّة، لكنّ المنتِج يواصل قوله: إنّه إذا كنّا نريد أنْ ننتج فيلماً، فلنْ يكون أحد مهتمّاً بي بعد انقضاء الصيف، أتساءل ما إذا كان الرجُل محقّاً، لكنّ سْفين يصرُّ على أنّه ينبغي لنا أن نأخذ الأمور بهدوءٍ شديدٍ، لدينا ما يكفي من الأمور المتعلّقة بالمشاركة في ريو التي يجب

إتمامها، ولا داعي للقلق بشأن المال في الوقت الحاليّ؛ لأنَّ لديَّ منحة التضامن الأولمبيّ.

أحاول التركيز في التدريب، لكنّ الضغط يزداد، وفي عقلي الباطن ما أزال آمل في حدوث معجزةٍ، فأحلم بالتأهّل إلى الفريق بالطريقة العاديّة، والذهاب إلى الألعاب الأولمبيّة، ليس لأنّني لاجئةٌ، ولكنْ لأنّني سريعةٌ بما فيه الكفاية، وأتصوّر اجتياز المراحل جميعها وصولاً إلى النهائيّ، وأتخيّل نفسي، وأنا أُحرز ميداليّةً أولمبيّةً، إنْ لم يكن في هذا الصيف ففي طوكيو عام 2020، يحرص سْفين على التذكير بأنّنا نهدف فقط إلى الوصول إلى أفضل أرقامي القياسيّة في لوكسمبورغ نهاية الشهر. لست مضطرّةً إلى الحصول على وقت تأهيلي إلى سباقاتي، فاللّجنة الأولمبيّة الدوليّة لا تريد سوى أنْ أسبح في حدثٍ تأهيليٍّ كإجراءٍ رسميّ.

في إحدى اللّيالي، قبل أسابيع قليلةٍ من مسابقة لوكسمبورغ، أستلقي على سريري وأتصفّح موقع فيسبوك، وكانت الخلاصة الإخباريّة التي شاهدتها تحتوي عرْضاً مرعباً لمقاطع فيديو عن اجتياح أحياء حلب، التي يسيطر عليها الثوّار، وبعض الصور العنيفة على نحوٍ صارخ، فأُغمِض عينَيَّ، وآخذُ أنفاساً عميقةً، ثمّ أفتح رسائلي. تصدمني مجموعةٌ كبيرةٌ من القصص المأساويّة، وطلبات مساعدة الأطفال الذين يصارعون الموت، والأُسَرِ التي تكابد الجوع. يكتب إليّ طالبٌ شابٌّ من داخل سوريا ليقول: إنّه يتمنّى أنْ يتمكّن من الهرب مثلما فعلت، فأُغلِقُ هاتفي مرعوبةً، وأطفئُ الضوء.

أنا في النادي مع أمّي وشهد، فتحدِّقُ أمّي في الفراغ، وفي عينيها بريقٌ وشرودٌ، وخدّاها منتفخان ومبلّلان بالدموع، فأُلوِّح بيديّ أمام وجه أمّي، لكنّها لا تتحرّك.

- «ماما!».

تدير رأسها نحْوي، لكنّها لا تراني، فتنظر من خلالي، ثمّ تتنهّد، وتقف، وتضع ذراعها حَول شهد، وتبتعدان، فأسمعُ أحدهم يضحك، إنّه أبي.

- «أبي! لماذا لا تستطيع أمّي رؤيتي؟».

- «لأنّكِ مُتِّ يا يُسرى، أنتِ وسارة، ألمْ تعلمي بذلك؟».

بعد ذلك يسود الظلام.

أنا في عربة قطارٍ، وفوق رأسي تومض الرموز الضبابيّة من شاشةٍ زرقاء، فأُجهِدُ عينيّ في محاولةٍ لقراءة الوجهة.

- «أين نظّارتي؟». أصرخ في العربة الفارغة: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

يخيِّمُ السوادُ من جديد.

أقف وحيدةً في المنزل، وفجأةً أسمع صوت صريرٍ قويٍّ قادمٍ من السماء، يليه ارتطامٌ ساحقٌ، فتتهاوى الجدران، وأنا أنبُش الأنقاض يائسةً، فأستيقظ، فأجد خدّيَّ مبلّلان بالدموع.

في اليوم التالي، كان أدائي سيّئاً في المسبح، ورأسي مزدحماً بصور الدمار في حلب، متى سأفقد صديقاً، أو قريباً آخر؟ يريدُ سْفين أنْ يعرف ما الخطْب، فأخبرهُ عن حلمي، فيساوره القلق، وينصحني بعدم تصفّح الإنترنت قبْل النوم، لكنّني لا أستطيع ببساطةٍ أنْ أُدير ظهْري للحرب في بلادي، يجب أنْ أعرف ما يحدث لبلدي، ولا بدّ لي من قراءة الرسائل والقصص المروّعة، وطلبات المساعدة، فهؤلاء في نهاية المطاف هُم الأشخاص الذين أريد أن أعبّر عنهم. هذا ليس عدْلاً؛ أنا في أمانٍ بينما يموتون جوعاً تحت أنقاض مُدنهم المدمَّرة من دون طعامٍ، أو كهرباء. أشعر بالعجز، فيقول سْفين: إنّ ما أمرُّ به هو ذنب الناجي، ويعرض مرَّةً أُخرى أنْ يأخذني إلى طبيبٍ نفسيّ، لكنّ هذا ليس أسلوبي.

عوضاً عن ذلك، يقيني سْفين منشغلةً، ودائماً ما تكون هناك أشياء لنخطّط لها: المواعيد الإعلاميّة، والمسابقات، ومعسكرات التدريب، والإجراءات الإداريّة، والسفر، وغالباً ما يرمقني سْفين بنظرة قلقٍ، ويسأل عمّا إذا كان إيقاع العمل فوق طاقتي، ويُشعِرُني السؤال بالتوتُّر، هل يعتقد سْفين أنّني ضعيفةٌ جدّاً، وأنّني وصلت إلى الحدّ الأقصى؟ أنا معتادةٌ على تحدّي النجاح، وكان أسلوب أبي يعتمد على معايير عاليةٍ، وتوقّعاتٍ عاليةٍ، ومكافآتٍ عاليةٍ أيضاً. حين يعاني المرء فإنّه يعاني بمفرده، ويسقط بمفرده، وينهض بمفرده أيضاً. أُخبِر سْفين أنَّ باستطاعتي مواكبة العمل، وأعلم أنّني قويّة، وأذكّره بأنّني ما أزال صامدةً على الرغم ممّا مررتُ به كلّه من أهوال.

في منتصف نيسان/ أبريل، ذهبتُ أنا وسْفين إلى المكتب للحصول على تصريح الإقامة الرسميّ الخاصّ بي، كانت الورقة بمنزلة وثيقة السفر أيضاً، وقد صدرت تماماً في وقت المنافسة في لوكسمبورغ. يُسلِّمني المسؤول كتاباً أزرقَ، ويخبرني أنَّ بإمكاني استعماله كجواز سفرٍ لأيّ دولةٍ في العالم باستثناء بلدي الأم. أنظر إلى الوثيقة في يدي، فيترك الإحساس الأوّليّ بالارتياح مجالاً لإحساسٍ عميقٍ بالخسارة، أنا حرّة في الذهاب إلى أيّ مكانٍ ماعدا وطني.

في تلك اللّيلة على العشاء، أخبرني سْفين أنّ هناك الكثير من الأشخاص، أسماء كبيرة، يرغبون في إنتاج أفلامٍ وثائقيّةٍ عنّي، ويسأل عن شعوري تجاه طاقم التصوير الذي يتابعني باستمرارٍ لبضعة أيّام، أُخبِرُ سْفين أنّني سأتكيّف مع الوضع، لكنّه يبدو متشكّكاً.

- «كنت أفكّر في أنّنا يمكن أنْ نُجري تجربة». يقول سْفين: «مع شخصٍ تثقين به، يمكننا أنْ نجعل ستيفن ولودفيغ يصوّرانك في عطلة

نهاية الأسبوع عندما نذهب إلى المنافسة في لوكسمبورغ، ما يشبه الفيلم الوثائقيّ، فسيتبعانكِ أينما ذهبتِ، ثمّ يمكننا أن نرى كيف تسير الأمور».

- «لا بأس». أقول: «سيكون الأمر ممتعاً».

نطير إلى لوكسمبورغ في آخر يوم خميسٍ من شهر نيسان/ أبريل. هذه أوّل مسابقةٍ دوليّةٍ لي منذ أربع سنوات، أنا على قائمة البداية لأربعة سباقاتٍ في سباحة الفراشة، والسباحة الحُرّة، تتوزّع على أيّام: الجمعة، والسبت، والأحد، ومن المقرّر أن يصل ستيفن ولودفيغ في وقتٍ مبكّرٍ من صباح يوم السبت، ويصوّراني في نهاية الأسبوع، وفي مساء يوم الجمعة أخوض سباقي الأوّل في السباحة، وهو سباق 50 متراً سباحة حُرّة في تسعِ وعشرين ثانية. أحرزُ المركز الثامن والعشرين من أصل ثلاثة وخمسين، فكانت نتيجةً جيّدة. لم نتحدّث أنا وسْفين بشأن ذلك، وفي أولى ساعات صباح اليوم التالي استيقظتُ على ألمٍ خفيفٍ في أسفل البطن، أنا مريضةٌ، يا له من توقيتٍ سيّئ! أقضي الساعة التالية في غرفتي في الفندق، وبالكادِ أستطيع التحرّك بسبب التشنّجاتِ التي تَلتَ موجات الغثيان، وأصارعُ للنزول إلى مطعم الفندق لتناول الإفطار، وأبتسم في وجه سْفين، إنّه عيد ميلاده اليوم.

- «عيد ميلادٍ سعيد». أقول، وأُلقي بطردٍ صغيرٍ على الطاولة.

يفتح سْفين الطرد ويبتسم، كانت في داخل الطَّرد صورةٌ مؤطّرةٌ لنا في المسبح، ألملمُ أمتعة السباحة، وأنطلق مع سْفين لمسافة عشر دقائق سيْراً على الأقدام إلى المسبح. تشنُّجٌ آخر يجعل أمعائي تتلوّى، فأتوقّف، وأتلوَّى مرّتين في انتظار أنْ تمرّ موجات الألم المزعجة.

- «كيف تشعرين؟». يسأل سْفين.

- «أنا بخير». أقول بينما أُغالب الدموع.

يتلاشى الألم، أقف وآخذ نفساً عميقاً، وأتابعُ المسير، فنجد ستيفن ولودفيغ في انتظارنا عند مدخل المسبح، وأُلاقيهما بأحرِّ الابتسام، وأُعانقهما.

- «كيف حالكِ؟». يسأل ستيفن: «هل أنتِ مستعدّة؟».

- «بالطبع». أقولُ مبتسمةً ابتسامةً صفراء بينما نسيرُ معاً إلى المسبح.

يخبرنا ستيفن أنَّ المنتِجَ النيويوركيّ يضايقه، وهو يرغب في الحصول على لقطاته جميعها من الفيلم الذي صوّرناه في بلغراد وفيينّا، وكلّ ثانيةٍ قضاها في تصويري. يواصِلُ سْفين رفْضَ طلب المنتِج، لكنّ الأخير لا يملّ، ويقول سْفين: إنّ هذا المنتِج ليس الوحيد، هناك أربع، أو خمس شبكاتٍ أُخرى تُلحُّ للحصول على لقطاتٍ من رحلتي. مرَّةً أُخرى يدهشني مدى الاهتمام بقصّتي.

- «ما في وسعي قوله كلّه هو أنَّ هذه لحظةٌ ذهبيّةٌ بالنسبة إليكِ يا يُسرى». يقول ستيفن: «أتعرفين، إذا كنتِ تريدينَ كسْب بعض المال».

يهزّ صديقي سْفين برأسه.

- «كلّا». يقول سْفين: «إنّ التفكير في إنتاج فيلمٍ، أو أيّ شيءٍ آخر سيكون أكثر من اللّازم في الوقت الحالي، لدينا الكثير لنقوم به استعداداً للأولمبياد».

يلتفتُ ستيفن نحوي.

- «إذنْ، أنتِ ذاهبةٌ إلى ريو؟». يسألني «متأكّدة؟».

- «لستُ أدري بعد، ستُصدِرُ اللّجنةُ قائمةَ الفريق النهائيّة في حزيران/ يونيو». أقول.

- «أعتقد أنّ هذا مُحتَمَل، بعد ما بذَلَتْهُ يسرى كلّه لهذا المشروع». يقول سْفين.

أترك الآخرين، وأذهب إلى غرف تغيير الملابس لارتداء بدلة السباحة، ولوازم الإحماء. بالكاد ألحظُ مُجمّع المسبح الضخم. أركّز على أزمِنتي، بينما ينتابني القلق بشأن كيفيّة تأثير المرض على أدائي في المسبح، وأعلم أنّني لا أحتاج إلى إحراز زمنٍ مُؤهِّل، لكنّ تحقيق ذلك من شأنه أنْ يُبسِّطِ كلّ شيءٍ في ذهني. كان الأطفال من حَولي يتحدّثون الألمانيّة، والفرنسيّة، والهولنديّة، من الغريب ألّا تكون هناك وجوهٌ مألوفةٌ في المنافسة، لو كنت في سوريا الآن لكنتُ عرفتُ الجميع تقريباً.

مع عودتي إلى حافّة المسبح يبدأ لودفيغ بتشغيل الكاميرا، أرتدي سمّاعاتي، وأبدأ بأرجحَةِ ذراعَيَّ للإحماء، وأُحاول حجبَ الكاميرا. أرى السبّاحين الآخرين من حَولي، وهُم ينظرون نحوي، لا أحد منهم لديه طاقم تصويرٍ يَتبعُه. أرتدي نظّارتي، وقبّعة السباحة، أتصرّفُ بهدوءٍ واسترخاءٍ أمام الكاميرا، فأُجْري عمليّة الإحماء في المسبح، وأتحدّث مع سْفين لدقيقةٍ واحدة. أوّل سباقٍ لي اليوم هو 200 متر سباحة فراشة، يصوّرني لودفيغ بينما أخلعُ سترة الإحماء، وأضعها في الصندوق المجاور لحاجز البداية، الكاميرا هناك ورائي، وأنا أتسلّق إلى الحاجز، فتدور معدتي، وتنقبض.

- «قفوا في أماكن انطلاقِكم، انطلِقوا!».

حينها أغطس، وأطوي ساقَيّ، ثمّ أخترقُ سطح الماء، وأحرِّكُ ذراعَيَّ بحركاتٍ دورانيّةٍ، وأغرف الماء نحو معدتي المتلوّية، وأتركُ لعضلاتي مهمّة إنجاز العمل. ينقضي السباقُ بلمحةٍ، لكنّني عندما ألمسُ الجدار أُدركُ أنّ هذا ليس كافياً. تُركِّزُ الكاميرا عليَّ، وأنا أسحب نفسي خارج المسبح، وأخلعُ نظّارتي، وأتّجه نحو سْفين.

- «حسناً، دقيقتان وأربع وثلاثون ثانية». يقول، وهو يقرأ من حافظة

أوراقه. أستطيع تقديم ما هو أفضل من ذلك بكثيرٍ، فألتفت مُكشِّرةً، ومتجاهلةً نظرة الكاميرا التي لا هوادة فيها. أخلعُ قبّعة السباحة الخاصّة بي، وأمشي بعيداً عن المسبح بعد السبّاحين الآخرين. أنظر إلى اللّوحة، وأقرأ التوقيت: 2:34 دقيقة، أبطأُ بواحدٍ وعشرين ثانية من المستوى المؤهّل إلى ريو. أسوأ ما في الأمر هو أنّني سبحت بسرعةٍ كافيةٍ لوصولي إلى النهائيّ لمجموعتي العمريّة، وهذا يعني أنّني سوف أُضطرّ إلى إعادة السباق في وقتٍ لاحقٍ بعد ظُهر هذا اليوم.

تبدو أصوات الإعلانات التي يتردّد صداها خافتةً وبعيدةً، بينما أسير على الدرج إلى غرفة الخزائن، كان سْفين، وستيفن، ولودفيج ينتظرون هناك، وما زالت الكاميرا تعمل. ينتابني الرعب، لست في مزاجٍ للتحدّث إلى الكاميرا، دعوني وشأني. سيكون لديَّ سباق 100 متر سباحة حُرّة خلال ساعة، أتجاهلهم، وأمشي إلى جانب المسبح لانتظار السباق التالي، فيخرج سْفين ليبحث عنّي، أشعرُ بالارتياح لرؤية ستيفن ولودفيغ، وقد كفَّا عن متابعتي الحثيثة، وها هما يأخذان الكاميرا، ويتراجعان إلى منطقة المشاهدة.

أقطع مسافة السباق في دقيقةٍ وخمس ثوانٍ، أبطأُ بثلاث ثوانٍ من أفضل رقمٍ قياسيٍّ أحرزته، لقد جئت في المرتبة 11 من أصل 13 في فئتي العُمريّة، وفي الفئة الأصغر سِناً كان الأطفال العشرون الأوائل أسرعَ منّي، وفي الألعاب الأولمبيّة لا أحد يهتمّ بالعمر، بلْ ما يهمُّ هو الزمن.

يا لها من حقيقةٍ صادمة! إذا ذهبت إلى ريو، فلنْ أصل حتّى إلى الجولة الثانية.

يريد سْفين أنْ نتحدَّث، ولكنّني لا أرغب في الكلام، فأضع سمّاعاتي، وأعتزلُ الآخرين في انتظار المباراة النهائيّة. يمرُّ الوقت ثقيلاً، ويزداد الألم

في معدتي، ويتلاشى. أخيراً، حان وقت السباحة لـمسافة 200 متر فراشة، فلْينتهِ هذا اليوم. لا يوجد سوى متسابقَين آخرَين في فئتي العمريّة؛ إذْ إنَّ السباق هو فقط لتحديد الميداليّات. أقطع المسافة بدقيقتين وأربعين ثانية، وأحتلُّ المرتبة الثانية؛ أمّا الفائز، فيقطع المسافة بدقيقتين وثمانٍ وعشرين ثانية. لقد حصدتُ ميداليّةً فضّيّةً، لكنّه انتصارٌ أجْوَف. يمكنني أنْ أُقدِّم ما هو أفضل، أسحب نفسي خارج المسبح، فلا أستطيع إيقاف الدموع، فيضع سْفين يديه على كتفي، وأتجمدّ وأشُدُّ جسدي كلّه، وأفلِتُ من قبضته. أرتدي سترة الإحماء، وأضغطُ سمّاعاتي في أُذُنيَ، ثمّ أجلس جانباً، وأحدِّق في البلاط حتّى يحين الوقت لحفل توزيع الميداليّات. كان سْفين أمامي منذ وقتٍ طويلٍ، لا أخلعُ سمّاعاتي، ولكنّني أعلم أنّه يريد منّي أنْ أذهب لِتَسَلُّمِ الميداليّة الفضّيّة، فأجلس بلا حراكٍ مُطرِقةً في الأرض.

– «يسرى، هل أنتِ رياضيّة أم لا؟». يسأل سْفين: «أرجو أنْ تذهبي لاستلامِ ميداليّتكِ».

تنهمرُ دموعي على وَجنَتيّ، ويمسك سْفين كَتِفيَّ، ويهزّهما بِرِفقٍ، فأتسمّرُ في مكاني. يقول سْفين: إنَّ عليَّ الذهاب إلى الحفل؛ لأنّه جزءٌ من المنافسة. آخر ما أريده هو الوقوف على المنصّة، لكنّ سْفين لا يستسلم. أنهض، وأذهب إلى المنصّة المرتفعة؛ حيث ينتظرني رجُلٌ أبيض الشعر، فأصافحه بينما يُقلِّدني الميداليّة حَول عنقي، وإلى جواري يوزِّعُ الفائزون بالميداليّات الذهبيّة والبرونزيّة ابتساماتهم العريضة على المصوّرين، فأبذل ما في وسعي لرسم ابتسامةٍ على وجهي، ثمّ أنزل عن المنصّة، وأخلع الميداليّة، وأعود إلى سْفين الذي كان يراقب بوجههِ المتحجّر واضعاً يديه على ورْكيه. أُلملمُ أشيائي، وأخرج من المسبح إلى غرفة تغيير الملابس، وأمسحُ دموعي بالمنشفة. لقد انتهى الأمر، فلْينتهِ. ينتظرني سْفين عند

الخزائن، ولكنْ من دون طاقم التصوير هذه المرّة. أُحدّق في الأرض، بينما ننزل أسفل الدرج إلى المسبح الدافئ.

- «ما بكِ؟». يسألني سْفين: «ألمْ تَشعُري بالسعادة للزمنِ الذي أحرزتهِ؟».

أتوقّف على الدرج، وأرمقُ سْفين بنظرةٍ متفاجئة. لستُ سعيدةً! هذه كلمة قليلةٌ لوصف حالتي.

- «سعيدة؟!». أقول مستنكِرةً: «وبالتوقيت الذي أحرزتُه؟!».

تعلو الحَيرة جبين سفين، فيما يستقرّ الإحباط في داخلي.

- «هل أنتِ بخير؟». يسأل سْفين.

- «الطريقة التي سبحتُ بها اليوم». أقول بينما أحبسُ دموعي: «يمكنني أنْ أقدّم أفضل بكثير، أريدُ أنْ أتحسّن، ولديَّ خيارات، ويمكنني التدرُّب في الولايات المتّحدة، والدراسة هناك، والابتعاد عن هذا كلّه».

يعبس سْفين مجدّداً، ويهزُّ برأسه.

- «حسناً». يقول سْفين: «افعلي ذلك، اذهبي إلى الولايات المتّحدة، وحاولي التعامل مع هذا كلّه بمفردك».

يخطو سْفين بعيداً فأُصدَم، إنّها المرّة الأولى التي أراه فيها غاضباً، أنهض محدِّقَة في الدرج لوهلةٍ، ثمّ أتّجه إلى أسفل نحو مسبح الإحماء، فأُجري عمليّة الإحماء، وأُغيّر ملابسي، ثمّ أجد سْفين وستيفن في انتظاري عند الباب الأمامي. تعودُ الكاميرا للتصوير، لا أحد يتحدّث، ونحن نخرج. يعود سْفين إلى الفندق وحيداً، بينما أصعدُ مؤخّرة سيّارة ستيفن بجانب معدّات الكاميرا. تصفعني صدمة جدالي مع سْفين لدرجة أنّني أبكي، يلتفتُ ستيِفن إلى الخلْف، ويسألني ما الخطب.

- «أنا مريضة فقط». أقول: «أيمكننا أنْ نتحدّث، كِلانا فقط؟».

عند العودة إلى الفندق، يقودني ستيفن إلى طاولةٍ هادئةٍ في البار، ونجلس معاً، آخذ نفساً عميقاً، وأقول لستيفن: إنّني لا أعرف ماذا أفعل، وأخبِره بأنّني أحلم أحياناً بالذهاب إلى الولايات المتّحدة؛ حيث يسمح لي نظام الجامعة بالدراسة والتدرُّب في الوقت نفسه. لا أطيق الانتظار للمضيّ قُدماً في مستقبلي، لكنّ سْفين يقول: إنَّني يجب أن أبقى في ألمانيا، وآخذ الأمور بهدوءٍ أكثر، وأبقى في المدرسة، لقد فعل سْفين والنادي الكثير من أجلي، أشعرُ بالحَيرة.

- «إذا كنتِ ترغبين في الذهاب إلى الألعاب الأولمبيّة، فيجب أنْ تبقَي حيث أنتِ». يقول ستيفن: «في الوقت الحالي، لا يتعلّق الأمر بالسباحة يا يُسرى، كلّ شيءٍ مُسيَّسٌ جدَّاً، أنْ تُخبِري العالم بقصّتك يبدو أكثر أهميّةً من السباحة في وقتٍ بعينِه». أعبس.

- «ولكنّني سَبَّاحة». أقول.

- «أتذكُرين عندما التقينا في تلك الحديقة في بلغراد؟». يقول ستيفن: «قلتِ لي: إنّكِ سبحتِ إلى اليونان، وأردتِ السباحة في الألعاب الأولمبيّة، أليس كذلك؟». يمدُّ ستيفن يديه.

- «حسناً، في ذلك الوقت لمْ أعتقد على الإطلاق أنّكِ ستذهبين إلى الألعاب الأولمبيّة». يقول ستيفن: «واليوم، بعد سبعة أشهر، أقف في مؤتمركم الصحفيّ، وأراقب حدوث ذلك بحقّ، فتاةٌ لاجئةٌ تذهب إلى الألعاب الأولمبيّة، يجب أنْ تعرفي يا يسرى أن قصّةً مثل قصّتكِ نادراً ما تحدُث».

أهزّ رأسي، لمْ أعتقد قطّ أنّها كانت قصّةً مميّزةً حتّى الآن، كانت مجرّد رحلةٍ بالنسبة إليّ، لكنّ ستيفن أخبرني أنّ: «لديَّ شيء فريد، عندما أتحدّث يستمع الناس إليَّ، ويتّصلون بي». يقول ستيفن: «لقد لامستهم،

وهذا يستحقّ منّي أنْ أواصل، وما عليّ فعله كلّه الآن هو سرْد قصّتي. لست مضطّرّةً إلى الفوز بميداليّةٍ أولمبيّةٍ الآن، يجب أنْ أركِّز على أنْ يكون لي صوت». يقول ستيفن. أجلس بصمتٍ فيما تعصفُ كلمات ستيفن برأسي. لقد كرَّستُ سائرَ حياتي للسباحة، كيف يمكنني وضع ذلك جانباً، والاكتفاء بالكلام فقط؟ أحتاج إلى مساحةٍ للتفكير حتّى أستوعب الأمر. أشكر ستيفن، وأستأذِنُه لأذهب وأنام. أصعدُ إلى غرفتي في الدوْر العُلْويّ، وأستلقي على سريري مُرهقةً، فتضربني نوبة تشنُّجٍ أُخرى، أُمسكُ هاتفي، وأكتب إلى سْفين، وأطلب إليه مُسكِّناً للألم، وبعد عشر دقائق يطرقُ سْفين باب غرفتي، ويعطيني حزمةً من الباراسيتامول. نَسينا جدالَنا الذي حصل في وقتٍ سابق، يبتسم سْفين متمنّياً لي ليلةً سعيدةً، ويخبرني أنّه سيخرج مع ستيفن؛ يقرّر كلانا أنّه من الأفضل ألاّ أشارك في السباقات المقرّرة يومَ غدٍ.

أستيقظُ في صباح اليوم التالي، وأشعر كما لو أنّ كلّ شيءٍ قد انقلب في رأسي. ليس لديّ سباقٌ اليوم، بلْ مقابلات فقط. لا أحتاج إلى الفوز بميداليّةٍ، أريد أنْ أسرد قصّتي ليس إلّا. يسري شعورٌ من الارتياح في داخلي، بينما أستحمّ، وأضع مساحيق التّجميل. وعلى الفطور، أمزح مع سْفين وستيفن كأنّ شيئاً لمْ يكن. كنت متحمّسةً، ومستعدّةً لمقابلتي مع ستيفن. نتَّخِذ رُكناً هادئاً في البار، ويقوم لودفيغ بإعداد الكاميرا، وتعليق ميكروفون على قميصي، وبمجرّد تشغيل الكاميرا يسألني ستيفن عن آمالي بالنسبة إلى ريو.

- «سأجعل الجميع يشعرون بالفخر». أقول: «إنّها مسؤوليّةٌ كبيرةٌ، وأعتقد أنّني سأكون جاهزةً لها، فلطالما أردتُ أنْ أكون شخصاً يُلهمُ الكثير من الناس، ويثبت لهم أنَّ في وسعهم المضيّ قُدُماً بصَرف النظر عن أيّ شيءٍ، وأعتقد أنّه لمن المذهل أنّ هذه الفرصة ليست متاحةً للجميع».

أنا هادئةٌ، وأعرف ما سأقول، وأُركِّز على صوتي، لقد تلاشى الاضطراب كلّه الذي حدث في الأسابيع السابقة بين عشيّةٍ وضحاها.

التقيت صحافياً ألمانياً في بهْو الفندق، وأُجْرِيَتْ مقابلةٌ أُخرى، وبعد الانتهاء من المقابلة كان ما يزال أمامنا بضع ساعاتٍ نقضيها قبْل رحلة العودة إلى ألمانيا؛ لذا يقترح ستيفن أن نذهب لمشاهدة معالم المدينة، فنذهب إلى لوكسمبورغ، ويصوّرني لودفيغ في مدينة ألعاب. أرمي السهام على البالونات في كشكٍ، وأربح لعبةً، ولا أفكّر في شيءٍ على الإطلاق، فيشتري لي ستيفن كعكةً ممتلئةً بالكريمة المخفوقة. عادت العلاقة بيني وبين سْفين إلى طبيعتها، عُدنا على متْن الطائرة إلى برلين. من الواضح أنّنا ما زلنا على اتّفاقٍ، وسنواصل العمل معاً كما كنّا من قبْل، لكنّي لا أسمع منه المزيد حَول الأفلام الوثائقيّة لتصوير الحياة اليوميّة.

في اليوم التالي لعودتنا، من لوكسمبورغ انتقلنا أنا وسارة إلى المكان الجديد الذي خُصِّصَ لنا، وهو شقّةٌ بغرفة نومٍ واحدةٍ، تبعدُ محطّة قطارٍ واحدةٍ من جهة الشرق عن أولمبيا بارك. تعودُ ملكيّة الشقّة إلى أخت مديرة مدرستي التي تعرِض السماح لنا باستئجارها. كنّا محظوظتَين كثيراً بحصولنا على الشقّة، فالكثير من السوريّين يجدون أنّه من شبه المستحيل العثور على شقّةٍ في برلين. يساعدنا سْفين في الأعمال الورقيّة، ويحاول حثَّ سُلطات برلين على مساعدتنا في دفع الإيجار، لكنّ الرجُل في مكتب العمل يقول: إنَّ علينا الانتظار إلى حين خروج أمّي وأبي من «الهايم» قبْل أنْ تدعمنا الدولة، ويضيف الرجُل أنّ القواعد تنصُّ على أنّه لا يمكن للّاجئين العيش بمفردهم حتّى يبلغوا السادسة والعشرين من العمر. في النهاية. يرتّب سْفين مع اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، بحيث تساعدنا في دفع الإيجار. مرّةً أُخرى نحن محظوظتان كثيراً.

من الجيّد الحصول على مساحةٍ خارج النادي؛ لأنّ الأمور غريبةٌ بعض الشيء هناك. لسببٍ مّا، ذهب رياضيٌّ واحدٌ فقط إلى الألعاب الأولمبيّة من فاسافروند(*) «Wasserfreunde» في السنوات العشر الأخيرة. من الصعب على بعض الناس أنْ يستوعبوا مسألة فريق الّلاجئين، وأنْ يروا ما وصلت إليه الآن، وبالنسبة إليهم، فإنّ فهْم هذا الأمر برمَّته يتعلّق بقصّتي وبصوتي، وليس بالسباحة.

يقترب اليوم الكبير الذي من المقرّر أن تُعلن فيه الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة عن تشكيلها النهائيّ لفريق الّلاجئين. ما من شيءٍ مؤكّد بعْد، لكنّ الجميع يتوقّع أنْ أكون ضمن التشكيلة. أشعر بالهدوء بعْد أنْ بُحتُ بهواجسي في لوكسمبورغ. لست في حاجةٍ إلى إحراز أزمنةٍ مستحيلةٍ في السباحة، وأحتاج فقط إلى سرْد قصّتي، وإيصال رسالتي، لكنّ هذا ليس سهلاً دوماً. يُنظِّم سْفين ومايكل مقابلات مع شبكتين إخباريّتين أمريكيّتين كبيرتين، يريدون عرْض لقطاتٍ بعد إعلان الفريق. نُجري المقابلات خلال ساعة الغداء المدرسيّ، وبينما أغادر قاعة الصفّ أنظرُ بشوقٍ إلى الأطفال الآخرين جميعهم، الذين كانوا يعبثون ويلتقطون الصور الشخصيّة، ويشغّلون الموسيقا على هواتفهم. ها أنا أسْرد القصّة نفسها للمرّة المليون تقريباً، جئتُ لأسْرد قصّة القارب المرعبة، فدائما ما تبدأ الأسئلة بالسؤال عن القارب، الأمرُ أشبه بلُغزٍ بالنسبة إليّ؛ لِمَ يبدو الصحافيّون جميعهم متحمِّسين لسماع تلك القصّة مرّةً تلو الأُخرى.

قبْل أيّامٍ قليلةٍ من الإعلان يأتي سْفين لرؤيتي بعد التدريب، يقول سْفين: إنّه تلَقّى تحذيراً من نائب مدير الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة بيري ميرو،

(*) فاسافروند، بالألمانية Wasserfreunde، اسم نادٍ للسباحة في منطقة شبانداو في برلين معروف بتميّزه في كرة الماء. (م).

يبلغه فيه بضرورة أنْ يقفل هاتفه يوم الإعلان. من الواضح أنّه سيكون هناك اهتمامٌ إعلاميٌّ كبيرٌ، أنا على يقينٍ من أنّ هذا لا يعني سوى شيءٍ واحدٍ، لكنّ سْفين لا يزال يحافظ على هدوئه قائلاً: إنّ هذا الأمر لا يعني شيئاً مؤكّداً، وقبْل يومٍ من الإعلان يتّصل بي صديقي القديم رامي، ويقول: إنّه رأى في المنام أنّنا معاً في الفريق. «تخيَّل!» أقول لرامي: «إذا ذهبنا إلى الألعاب الأولمبيّة، كم سيكون ذلك ممتعاً». أعِدُ بالاتّصال برامي فور سماع أيّ شيءٍ، ويعِدُ بفعل الشيء نفسه. وأخيراً، يأتي يوم الإعلان، فأُجبرُ نفسي على الذهاب إلى التدريب الصباحيّ كالمعتاد، من المقرّر أنْ أسافر أنا وسْفين إلى بطولة شمال ألمانيا في براونشفايغ «Braunschweig» في وقتٍ لاحقٍ من ذلك المساء، وبعد انتهاء التدريب أذهب إلى المنزل لأحزم أمتعتي، وأنتظر الأخبار من اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة. يرنُّ جرس الباب، كان الطارقُ لام ومجدلينا، وقد جاءا لتسجيل لحظة سماعي الأخبار بشأن الفريق.

- «هل سمعتِ شيئاً بعد؟». تسألُ مجدلينا.

- «ليس بَعد». أُجيب.

- «افتحي رسائل بريدك الإلكتروني». تقول مجدلينا.

أُخبِرها بأنّني لمْ أقرأ رسائل البريد الإلكترونيّ الخاصّة بي منذ شهورٍ، فتبتسم.

- «أتُريدين أنْ أفعل ذلك عوضاً عنكِ؟». تقول مجدلينا.

أعُطيها معلومات الدخول إلى حساب بريدي الإلكتروني، فتجلس وتُدخِلُ بياناتي في حاسوبها المحمول، بينما أحبس أنفاسي، ويسودُ الصمت.

تبتسم مجدلينا مرّةً أُخرى.

- «لقد قُبِلتِ في الفريق». تقول.

أشهقُ وألقي نظرةً من وراء مجدلينا على قائمة الأسماء في الشاشة، تنتقلُ مجدلينا إلى أعلى القائمة. كان الاسم الأوّل: رامي أنيس! أصرخ، وأمسك هاتفي، هيّا يا رامي، أجبْ على الهاتف، تضطّرِبُ أمعائي، كنت سعيدةً لأجله أكثر ممّا أشعر بالسرور لنفسي؛ لأنّه عَمِلَ بجدٍّ، والآن حان وقت المكافأة.

- «يُسرى!». يقول رامي.

- «رامي، لقد قُبلتَ في الفريق، أنا وأنت سنذهب معاً إلى ريو!».

الجزء الثامن

الحلقات الأولمبية

21

ينفتحُ الباب الأماميّ، وتخطو سارة إلى داخل الشقّة، فأقفز من سريري.

- «سارة! سأذهب إلى ريو».

تصمتُ سارة، وهي تغلق الباب خلفها، وتخلع حذاءها.

- «سأذهب إلى ريو، إلى دورة الألعاب الأولمبيّة». أكرّر القول.

- «صحيح؟». تقول سارة: «طيّب، جيّد».

- «طيّب! جيّد!». أهذا ما ستقوله كلّه؟ تحترقُ وجنتاي، بينما أنتظر ردَّة فعلها، تُحِدثُ سارة ضجّةً بحقيبتها، وتدخلُ غرفتنا المشتركة لتجلس على سريرها، وأخيراً ترفع رأسها، وتنظرُ في عينَيّ.

- «ما الأمر؟! لقد شاهدتكِ تسبحين في العديد من المسابقات، ليس الأمر بالمهمّ كثيراً». تقول سارة.

يتملّكني الذهول، لا يمكن أنْ تكون هذه مجرَّد منافسةٍ أُخرى عاديّة بالنسبة إلى سارة، إنّها الألعاب الأولمبيّة، حُلم طفولتنا. تمتلئ عيناي بالدموع.

- «هل السبب هو أنّني سأكون ضمن فريق لاجئين؟». أسألها.

- «لا تكوني سخيفةً يا يُسرى». تقول سارة: «أنا -حقّاً- فخورةٌ بذلك».

ماذا إذنْ؟ كان يمكن أنْ تكون سارة في الفريق معي، أقول لها: إنّني أردتُ أن تكون معي هناك في ريو، لكنّها توقّفت عن السباحة. تُحدِّق سارة في وجهي بإمعان.

- «تعرفين سبب توقّفي عن السباحة». تقول سارة: «لأنّني لمْ أعد أستطيع السباحة بسبب إصابتي؛ كتفاي تؤلماني بشدّة».

نجلس دقيقةً واحدةً في وجومٍ كئيبٍ، فأتساءل: كيف ابتعدنا عن بعضنا؟ بعد ذلك تخبرني سارة أنّها ستغادر برلين، فتنقبض معدتي لسماع ذلك. «ليس إلى سوريا؟!». أقول، لكنّ سارة تجيب بِلا، وتقول: إنّها ذاهبةٌ إلى اليونان. تشارك إحدى صديقاتها في عملٍ تطوّعيٍّ لمساعدة الّلاجئين هناك، وقد دعتها إلى المجيء. تتنهَّد سارة، وتفتح يديها، وتقول: إنَّه يجب عليها أنْ تبتعد عن هذا كلّه، وأنْ تعود إلى ذاتها من جديد. تخبرني أنّ كثيراً من الصحفيّين يراسلونها، لكنْ ما يريدونه هو الحديث عني أنا فقط. لا يسألون أبداً من تكون سارة، وماذا تفعل. تقول: إنّها تتلقّى رسائلَ من أشخاصٍ يسألونها عن سبب نجاحي وإخفاقي، وأنّها تشعر كأنّها تتقزّم. قريباً جدّاً لنْ تكون سارة شيئاً سوى أنّها أختي.

- «حسناً، أنا لستُ لا شيء». تقول سارة: «لهذا السبب سأرحل».

أحدِّق فيها، لماذا لمْ تخبرني بهذا كلّه من قبل؟ أعبس وأهزّ رأسي معترضةً، ولا أفهم شيئاً. ما الذي تريده؟ الشهرة أم النجاح، أو التقدير؟

- «كلاّ، بالطبع لا شيء من هذا القبيل». تقول سارة، وعيناها ممتلئتان بالدموع: «أريد فقط أنْ يتوقّف الناس عن سؤالي عن القارب وعنكِ. أريدهم أنْ يتوقّفوا عن تصنيفهم لي في هذه القصّة، أنا أكثر من هذا بكثير، تلك القصّة حدثت لكلينا، لكنّها الآن لا تدور سوى حولكِ».

أشعر بالصدمة، لمْ يكن لديّ أيّة فكرةٍ عن أنّ هذا ما كانت تشعر به

سارة، لمْ أعتقد قطّ أنَّ وجودي في الفريق سيؤذيها هكذا، لربّما أستطيع أنْ أساعدها.

- «لربّما يمكن لسْفين أنْ يفعل شيئاً». أقول، فتقاطعني سارة.

- «اسمعي فقط». تقول سارة: «أنا ذاهبة إلى اليونان للقيام بهذا بمفردي، من دونكِ».

تحمل سارة حقيبتها، وترتدي حذاءها، ثمّ تغادر، فتُغلق الباب الأماميّ وراءها، وأرمي نفسي على السرير. لمْ أشعر قطّ بوحدةٍ كهذه، وفي الحُلم، أرى نفسي وسارة على الأريكة في الشقّة في داريّا مع أبي، نتشوّق لإحراز مايكل فيلبس ميداليّته الذهبيّة التالية، وكانت الألعاب الأولمبيّة تعني الكثير بالنسبة إلينا في ذلك الوقت، هل نسيت سارة هذا كلّه؟ أنهض، وأتلفّت من حولي، يجب أنْ أستعدّ، ويجب عليَّ المغادرة للمنافسة في براونشفايغ في غضون ساعاتٍ قليلةٍ، كما أتذكّر بأنّني ذاهبةٌ إلى ريو، فتضطّرب معدتي بموجات الحماس والقلق. أصبح كلّ شيءٍ معقّداً كثيراً.

في نهاية ذاك الأسبوع أسبح جيّداً، لا أحقّق أفضل أزمِنتي، ولكنْ ما من كوراث على الأقل. تتلاشى الضغوطات؛ أنا في الفريق، وكذلك صديقي رامي، فأحاول ألّا أفكّر في سارة، وأفلِحُ في إسكات شكوكي المزعجة حَول الفريق، وبعد انتهاء المسابقة يوم الأحد، عدتُ أنا وسْفين إلى برلين في الوقت المناسب لأوّل ظهورٍ لي على الهواء مباشرةً. لقد دُعيتُ إلى الظهور في برنامج «مينش غوتشالك» «*Gottschalk Mensch*» وهو برنامجٌ حواريٌّ يستضيف النجوم مع مقدِّم البرنامج الألمانيّ توماس غوتشالك. أشعرُ بالتوتّر لدى وصولنا إلى الاستوديو، لكنْ ما ساعدني هو موافقة سارة على تقديم الدعم المعنويّ لي، وتساعدني سارة وسْفين على تهدئة أعصابي في أثناء الانتظار للذهاب إلى المنصّة. من المقرّر أن أشارك

في فقرةٍ مع رئيس البرلمان الأوروبيّ آنذاك، مارتن شولز. التقيت به وراء الكواليس وكان ودوداً للغاية، وعندما حان الوقت جلست إلى جانبه على الأريكة الموجودة على خشبة المسرح التي تحجب الأضواء الساطعة، وجمهور الاستوديو. أبتسم وأركّز على ما سأقوله، لا أحد يختار أنْ يكون لاجئاً، فنحن بشر، تماماً مثل أيّ شخصٍ آخر، ويمكننا أيضاً تحقيق أشياء عظيمة.

في وقتٍ لاحقٍ، عند عودتي إلى المنزل، تتصرّف سارة كما لو أنّ جدالنا لمْ يحدث، كنت حريصةً على عدم الحديث عن ريو في أثناء انشغالها بالتخطيط لرحلتها إلى اليونان، ستغادر في آب/ أغسطس، في الوقت نفسه الذي سأذهب فيه إلى البرازيل مع سْفين من أجل دورة الألعاب الأولمبيّة. يتصرّف أمّي وأبي كما لو أنّ مشاركتي في الألعاب الأولمبيّة هي أكثر الأشياء المعتادة في العالم.

– «رائع يا حبيبتي!». تقول أمّي عندما أخبرها: «لقد عملتِ بجدّ، وأنتِ تستحقّينها».

أبذل أقصى ما يمكنني في المسبح والمدرسة، كانا: إليز، وميتي، متحمِّسَين لأجلي عندما أخبرتهما عن الفريق، ولكنْ لا شيء يبدو واقعيّاً حتّى الّلحظة، وبعد أسبوعٍ من إعلان الفريق تطلب إليّ شركة «أولمبيك بارتنر» للبطاقات الائتمانيّة الظهور في إعلانٍ تجاريٍّ، يقول المنتجون: إنّهم يرغبون في سرْد قصّة القارب في فيلم قصيرٍ مدّته دقيقة واحدة، ويريدون إضافة لقطاتٍ تُظهرني أغوصُ وأَسبح. ينظّم مايكل وسْفين تصويراً ليومٍ واحدٍ في المسبح للأسبوع التالي، وفي يوم التصوير نلتقي أنا وسْفين بالمنتجين في غرفة الطعام في النادي. يُرينا المنتجون قصّةً مصوّرةً من عشر لقطات، تتقطّع المشاهد وتتغيّر؛ إذْ تُظهرني أسبح في المسبح،

وفي لقطاتٍ أُخرى تظهَرُ ممثّلةٌ في قاربٍ مكتظٍّ في عُرْضِ البحر. كان دوري في المسبح هو مجرَّد الغوص والسباحة، وارتداء نظّارات السباحة، ويُظهِر الجزء المُصوّر في البحر الممثلةَ، وهي تدخل المياه، بينما تكافح مجموعةٌ من الأشخاص لسحب قاربٍ على الشاطئ. ليس هناك سخافة، يبدو الأمر جيّداً بالنسبة إليّ، يُصوَّرُ في غضون ساعاتٍ قليلةٍ، وبعد ذلك أقوم بإجراء مقابلاتٍ تلفزيونيّةٍ بجانب المسبح.

بعد بضعة أسابيع سافر سْفين بمفرده إلى سويسرا لحضور اجتماعٍ للمدرّبين مع الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة لإقرار الأمور الّلوجستيّة للفريق. يعود سْفين متوَّهجاً من فرْط الحماس، ويخبرني أنّ الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة بدتْ كعائلةٍ واحدةٍ، حتّى إنّه جلس بجانب رئيس الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ، في أثناء الغداء، وتحدَّثا عن ألمانيا، وعن الّلاجئين، وعن فكرة وإلهام الفريق. أخبرَ باخ سْفين أنّه يؤيّد قرار ألمانيا بمساعدتنا، وأنّه لمْ يكن هناك خيارٌ إنسانيٌّ آخر، لقد كان الفريق طريقةَ المساعدة الأنْسب.

تلتقي خِطَطُنا الآن، سوف نسافر إلى ريو في نهاية تموز/ يوليو، وسنمكثُ أنا وسْفين مع سائر الفريق والرياضيّين الآخرين في القرية الأولمبيّة. أبتسم عندما يخبرني سْفين بهذا، وأتساءل عمّا إذا كنت سأقابل بطل طفولتي، مايكل فيلبس. بعد ذلك يعبس سْفين كعادته عندما يكون لديه شيءٌ ما ليقوله، يتردّد بضع ثوانٍ مُنتقياً كلماته.

- «لقد كنت أودُّ أن أسألكِ...». يقول سْفين أخيراً: «تسأل الجهات الراعية للفريق عمّا إذا كنتِ تريدين منهم أنْ يصطحبوا سارة إلى ريو».

- «ماذا؟». أقول: «هذا مـذهل! بالطبع أريد».

يرفع سْفين حاجبيه.

- «هل أنتِ متأكّدة؟». يقول.

أعبُس.

- «ولماذا لا أريدها معي هناك؟». أقول.

يتجاهل سْفين الأمر، فهو يُدرِك جيدّاً أنّ ذهابي إلى ريو موضوعٌ حسّاسٌ مع سارة، وأنّ لديها خططاً أُخرى لفصل الصيف، لكنّني متأكّدةٌ من أنّها تريد الذهاب، أو على الأقلّ آمل أنْ تفعل ذلك، وسيعني وجودها في ريو الكثير بالنسبة إليّ. لقد فعلنا كلّ شيءٍ معاً، وسبحنا معاً عندما كنّا أطفالاً، وتركنا المنزل معاً، وحاربنا الأمواج معاً، ومعاً وجدنا مكاناً آمناً لعائلتنا لبدْء حياةٍ جديدةٍ، والآن سنقف معاً أمام العالم كلّه، أنا في لهفةٍ لأخبر سارة بالأمر. وفي ذلك المساء عدتُ إلى المنزل لأجد سارة تمضي وقتها في غرفتنا، أبتسم وأسألها:

- «هل ترغبين في الذهاب إلى ريو؟ الجهات الراعية تعرض تغطية نفقات رحلتكِ وإقامتكِ في الفندق».

تعبسُ سارة، وتضع هاتفها أرضاً.

- «مهلاً، ماذا قلتِ؟!». تسألني سارة: «لكنّني مسافرة إلى اليونان في شهر آب/ أغسطس للتطوّع، لقد دفعت صديقتي ثمن تذكرة الطائرة مسبقاً».

- «هَيّا!». أقول.

أخبرها إنّها ريو، سيكون هناك متّسعٌ من الوقت لها للقيام بأمورها الخاصّة في اليونان بعد ذلك، وأريدها هناك معي، يمكننا أنْ نذهب معاً. أخيراً، تبتسم سارة.

- «حسناً». تقول: «سأذهب إلى ريو إذا كانت هذه رغبتكِ».

ينقضي تموز/ يوليو، وأنا في غمرة السباحة والمقابلات التلفزيونيّة،

لقد جعلني سْفين أتخلّى عن جدول طوكيو للتدريبات البهلوانيّة، نحن نركِّز الآن على تدريب السرعة في وتيرة السباق، وقد جعلني أقوم بثمانية سباقاتٍ بطول 50 متراً بأسرع ما يمكنني، مع وجود فترات راحةٍ طويلةٍ، وقد نجح الأمر، ورحتُ أتحسّن في مسألة السرعة. يمكنني الآن إتمام سباق 100م سباحة الفراشة في دقيقةٍ وثماني ثوان. ما أزال أحلم بتحقيق معجزةٍ في الألعاب، لكنّني أستعيد كلمات ستيفن في لوكسمبورغ؛ يتعلّق الأمر برُمَّته الآن بالقصّة، وبيُسرى، وبالصوت، وليس بالسباحة.

سفين هو الآخر يتأثّر بالتحوُّل الحاصل في التركيز من السباحة إلى التحدُّث إلى وسائل الإعلام. نتّفق أنا وسفين حَول حاجتي إلى مدرِّبٍ آخر بعد انتهاء منافسات ريو؛ إذْ لنْ نستطيع أنا وسْفين أنْ نواصل بالطريقة نفسها، فهو يتولّى العديد من الأدوار المختلفة في حياتي دفعةً واحدةً، وليس من السهل أنْ تكون مدرِّباً فعَّالاً حينما تكون أيضاً صديقاً مُقرَّباً، ومعلّماً، ومديراً من نوعٍ ما. نحن في حاجةٍ إلى أنْ نكون قادرين على مناقشة الأمور المهمّة، والخطط، والكلمات جميعها، والعمل الإعلاميّ، بمعزلٍ عن السباحة.

بدأ عمل سْفين معي يتداخل مع وظيفته التدريبيّة في النادي، وبعض آباء الأطفال في مجموعتنا لا يتفهَّمون هذا التداخل، ويعتقدون أنّه يهمل أطفالهم؛ لأنّه يركّز على تدريبي. يجد سْفين نفسه مضطّراً باستمرارٍ إلى شرح أنّه يقوم بالمهمّة نفسها مع الأطفال جميعهم، أنا أعلم جيّداً أنّه يتعامل معي بطريقة تعامله مع الآخرين نفسها في التدريب، ولا يساعدني في الأمور الأُخرى إلا خارج أوقات السباحة. يتحدّث سْفين إلى ريني، ويوافق على أنْ يقوم شخصٌ آخر في فريق التدريب بالنادي أنْ يتولّى تدريبي بعد ريو.

تستغرق تأشيرة سفر سارة إلى البرازيل وقتًا طويلاً، لذا نقرّر أنا وسْفين السفر قبلها، وسوف تنضمُّ إلينا هناك عندما تستطيع. في اللّيلة التي سبقت مغادرتنا، حزمتُ حقيبتي في غمرةٍ من الأفكار السعيدة، والمتحمّسة لقضاء شهرٍ كاملٍ في البرازيل الغريبة. يأتي أبي، وأمّي، وشهد إلى المطار لوداعي، كانت سِنّ شهد لا تسمح لها بفهْم ما يحدث، لكنّ الدموع ملأت عينَيْ أبي وأمي.

- «فقط تذكّري كم كنتِ تعملين بجدٍّ من أجل هذه اللّحظة». يقول أبي، وهو يعانقني.

- «نعم». تقول أمّي: «ربُّنا يكافئنا على كلّ شيءٍ مررنا به، أنتِ تستحقّينَ ذلك، فدائماً ما كنت متيقّنةً أنّكِ ستنجزينَ شيئاً كبيراً».

على متْن الطائرة، نرقد أنا وسْفين، ثمَّ نأكل، و نشاهد الأفلام، و كلانا يحاول الاسترخاء؛ لأنّنا ندرك بأنَّ هناك الكثير للقيام به بمجرّد وصولنا إلى ريو، وعلى نحوٍ ما يبدو أنّ العمل قد انتهى بالفعل، لكنّنا متحمّسون لما سيأتي بعد ذلك. في الوقت الحالي لست قلقةً بخصوص المنافسات، سنستمتع فقط، ونركّز على الجزء المهمّ. هبطنا في ريو في الصباح الباكر لنجد في المطار صوفي إدينغتون، وهو الملحق الصحافيّ للفريق، والسبّاح العالمي السابق، وإيزابيلا مازو من المفوّضيّة العليا للّاجئين، بعد ذلك ركِبنا حافلةً من المطار، وانطلقنا. يرى سْفين رئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة توماس باخ في السيّارة وراءنا، يبدو أنّه وصل معنا على الطائرة نفسها. أنظر من نافذة الحافلة إلى المنازل الورديّة المتراصَّة بإحكامٍ، وفي الأفق تنتصب مجموعةٌ من الجبال الخضراء ذات الأشكال الغريبة فوق المدينة. وصلنا إلى القرية الأولمبيّة، وهي مجموعةٌ من المباني الشاهقة بيجيّة اللّون بالقرب من بحيرةٍ كبيرةٍ خارج المدينة. سارت بنا

الحافلة نحو أحد المجمّعات السكنيّة المكوّنة من خمسة عشر دوْراً، وقد خُصِّصَ الدوْران العُلْويّان لفريق اللاجئين ورياضيي الفريق. وبينما نسير على الطريق المؤدّي إلى المدخل أسمع أحدهم ينادي اسمي، فأنظر وإذْ بصديقي القديم رامي يلوّح لي من إحدى النوافذ العليا، وكان يحمل هاتفه لالتقاط صورةٍ لي.

- «ابتسمي لأُختكِ». يصرخ رامي قائلاً من الأعلى.

أبتسمُ، وأرفعُ إشارة النصر بإصبعين، ثمّ ندخل المبنى، وننفصل أنا وسْفين ليذهب كلٌّ إلى شقّته. أتشارك مع الرياضيّات الأُخريات في الفريق، كُنّا أربع، اثنتان في كلّ غرفة نومٍ مترامية الأطراف. أشعر بالفراغ في الشقّة، لا سيّما في غياب زملائي الآخرين في الفريق. أترك حقائبي في غرفتي، وأذهب إلى الدور العُلْويّ، لأجد رامي في الشقّة التي يشاركها مع زملائنا في الفريق. يفتحُ رامي الباب، أبتسم، وأرفع يديّ استعداداً لضربة كفٍّ، إنّه لأمرٌ عجائبيٌّ أنْ نكون معاً هنا في ريو للمشاركة في الألعاب الأولمبيّة.

نلتقي سْفين مرّةً أُخرى، ونتجوّل في الخارج لاستكشاف القرية، ونسير على طول الطريق خارج المجمَّع، ونمرُّ بمركز لياقةٍ بدنيّةٍ، ومنطقة نقاهةٍ فيها أحواض استحمامٍ ساخنةٌ، وملاعبُ تنس، وملاعبُ كرة سلّة، ومسابحُ، وما قد يبتغيه الرياضيّون كلّه، وعلى طرف القرية يوجد حاجزٌ تقع خلفه منطقةٌ مختلطةٌ تضمُّ صفّاً من المتاجر، ومحالّ الوجبات السريعة. يُسمح للمذيعين والصحفيّين المعتمدين بالدخول إلى المنطقة المختلطة، لكنْ ليس أبعد من ذلك. كانت القرية بمنزلة ملاذٍ خاصٍّ بنا، أفضل شيءٍ في المجمَّع هو قاعة طعامٍ هائلةٌ على هيئة خيمةٍ، لا بدَّ من أنّ مساحتها تعادلُ مساحة ثلاثة ملاعب كرة قدم، وفي داخلها يجلس الرياضيّون من أنحاء العالم جميعها إلى الطاولات القابلة للطيّ. نمرُّ على خمسة بوفيهاتٍ

مختلفةٍ تعرضُ أنواع الأطعمة كلّها التي يمكن للمرء تخيّلها، كان كلّ بوفيه يحمل عنواناً: برازيلي، آسيويّ، دوليّ، حلال وكوشر(*). تقع عيني على البوفيه الأخير؛ حيث طاولة معكرونة وبيتزا.

وجدتها!

- «أهذا كلّه مجّاناً؟». أسأل سْفين.

- «نعم». يجيب سفين مبتسماً: «إنّها مجّانيّةٌ للأكل حتّى الشبع».

أنظر إلى طاولات الفواكه الغريبة، والألبان، والحبوب، وعلى أحد الجوانب تمتدّ سلسلةٌ من الثلّاجات الممتلئة بالمشروبات الغازيّة، ومشروبات الطاقة، والمياه، فيُسلّمني سْفين بطاقةً لفتح الثلّاجات، ويطلب إليّ أنْ أخدم نفسي. أُحدّق ذاهلةً في مجموعة الطعام التي تمتدّ إلى مسافةٍ بعيدةٍ، لنْ أتمكّن من تذوّق أصناف الطعام كلّها، ولو بقيت هنا لسنةٍ كاملة.

أعود إلى الشقّة لأجد زميلاتي في الفريق وقد وصلنَ مسبقاً، أتشارك غرفتي مع يولاندي، لاعبة جودو كونغوليّة، تعيش الآن في البرازيل، وفي الغرفة الأُخرى تقيم روز وأنجيلينا، كلاهما عدّاءتان سودانيّتان تعيشان في كينيا. قرأتُ ملخّصاتٍ قصيرةً عن حكايَتَيهِما، وانتابني شيءٌ من الهلع. الجميع وصلوا إلى المنافسات بصعوبةٍ بالغةٍ؛ نشأت يولاندي في جمهوريّة الكونغو الديمقراطيّة، ولمْ تعرف شيئاً سوى الحرب، وحين كانت طفلةً انفصلت عن أُسرتها، وتعلّمت الجودو في دارٍ للأيتام، ومَثّلت يولاندي الكونغو في المنافسات الدوليّة، لكنّ ظروف التدريب كانت صعبةً للغاية، وقبْل بضع سنواتٍ، طلبت هي وبوبول، زميلتها الأُخرى في فريق اللّاجئين الأولمبيّ، اللّجوء إلى البرازيل في أثناء التنافس في بطولة العالم للجودو؛

(*) كوشر أو كشروت، وهي كلمة عبرية تشير إلى الطعام المحلل أكله بحسب الأحكام اليهودية. (م).

أمّا روز وأنجيلينا، إلى جانب ثلاثةٍ من زملائهنّ الذكور، هُم: يش، وباولو، وجيمس، فجميعهم من جنوب السودان وقد فرُّوا من الحرب الأهليّة منذ بداية طفولتهم، ونشأوا في كاكوما، وهو مخيّمٌ ضخمٌ للّاجئين في شمال كينيا. تخبرني روز أنّ مخيّم كاكوما بأسره يشجّع الفريق، والناس هناك يتابعون المنافسات. أفكّر في أصدقائي الذين ما زالوا يعيشون في «الهايم» في برلين، وفي المدرّبين، والسبّاحين الآخرين من النادي، وأتساءل عمّا إذا كانوا سيشاهدون منافساتي، ويشجّعوننا أيضاً.

لا نتكلّم عن فريق الّلاجئين؛ إذْ لا يبدو أنّ الوقت قد حان للخوض في مناقشاتٍ عميقةٍ، كذلك كنت خجولةً جدّاً لأنْ أسأل روز عن الحياة في كاكوما، ولمْ أكن واثقةً ما إذا كانت ستشعر بالإهانة، لذا قرّرتُ أنْ ألتزم بمضوعٍ آمنٍ وهو الرياضة. مجرّد أنْ أكون هنا في الألعاب الأولمبيّة، وأعيش حلم كلّ رياضيٍّ، لهو أمرٌ مذهلٌ في حدِّ ذاته، ولكنْ في وقتٍ لاحقٍ، بعد الاستلقاء على السرير، أفكّر في زملائي في الفريق، وما مرّوا به، وأدرك كم فاتني بينما كنت منشغلةً في سرْد حكايتي. أنا الآن جزءٌ من شيءٍ أكبر من ذلك بكثير، فمع الفريق أنا أُمثّل ستّين مليون نازحٍ في أنحاء العالم جميعها، إنّها مسؤوليّةٌ كبيرةٌ، لكنّني أعرف مهمّتي؛ لديَّ رسالة لأبثّها: لا أحد يختار أنْ يكون لاجئاً، وبإمكان الّلاجئين تحقيق أشياء عظيمة أيضاً.

في صباح اليوم التالي، يلتقي سْفين مع صوفي إدينغتون، الملحق الصحافيّ في فريق الّلاجئين الأولمبيّ لمناقشة جدول أعمالي لمدّة أربعة أسابيع قادمة. حُدِّدَ موعدُ أوّل إحماءٍ لي في يوم السبت، وهو يوم افتتاح الألعاب، سوف أتدرّب كلّ يومٍ مع سْفين حتّى ذلك الحين. بالنسبة إلى الوقت المتبقّي، وضعت صوفي جدولاً زمنياً طموحاً، يبدو كأنّه ستُستغلُّ كلّ دقيقة فراغٍ من الأسبوع الذي يسبق عمليّة الإحماء لصالح المؤتمرات

الصحفيّة، والمقابلات، والاجتماعات، وإلقاء الكلمات. يشكّكُ سْفين في قدرتنا على تَدَبُّر هذه المسائل جميعها، ويقترح أنْ يطلب إلى صوفي اختصار الجدول إلى الاجتماعات الأساسيّة، لكنّني هنا لأروي قصّتي لفريق الّلاجئين الأولمبيّ، والّلجنة الأولمبيّة الدوليّة؛ لذا أقول لسفين: إنّنا يجب أنْ نفعل ذلك كلّه.

في اليوم التالي قمنا بأوّل نزهةٍ عامّةٍ كفريقٍ واحدٍ، فركبنا القطار إلى أعلى جبل كوركوفادو لرؤية تمثال المسيح المُخَلِّص، وفي قمّة الجبل ينتظرنا حشدٌ من الصحفيّين والمصوّرين الذين انقضُّوا عليّ من أجل تعليقٍ منّي.

- «نحن سعداء للغاية لوجودنا هنا». أقول لهم: «لدينا جميعاً شعورٌ قويٌّ بعدم الاستسلام أبداً، لقد فعلنا الكثير للوصول إلى هنا».

إنّها البداية فحسب، كانت الأيّام الثلاثة التالية حافلةً بمؤتمراتٍ صحفيّةٍ طويلةٍ، وفي كلّ مؤتمرٍ يصبح الموقف أكثر إحراجاً. يبدو أنّني محور القصّة، يسأل الصحفيّون زملائي في الفريق واحداً، أو اثنين من الأسئلة المهذّبة، ثمّ يلتفتون إليَّ، ويسألونني خمسين سؤالاً أُخَر، وبعد كلّ فعاليّةٍ تساعدني صوفي في إعطاء الأولويّة لأربعة، أو خمس مقابلاتٍ متتاليةٍ مع أهمّ المذيعين والصحف. أتحدّث إلى صحافيّين من أستراليا، وألمانيا، واليابان، وكوريا الجنوبيّة، ويسعون كلّهم وراء سماع القصّة نفسها؛ حكاية القارب دائماً. أقوم بواجبي، وأخبرهم بما حدث بابتسامةٍ، وأُبقي قلبي مغلقاً، بينما يمسك عقلي بزمام الأمور. يبدو الصحفيّون سعداء، ولكنْ حتّى المؤتمرات الصحفيّة، والمقابلات الإضافيّة، ليست كافيةً بالنسبة إليهم، يتبعني الصحفيّون والمصوّرون أينما ذهبت، وينقضُّون عليَّ بمجرد أن أخرج من القرية، وتظهرُ فِرقُ التصوير في المسبح بينما أتدرّب مع

رامي، ينتظرونني في الطريق من وإلى المؤتمرات الصحفيّة، وفي إحدى المناسبات يحاول صحفيٌّ برازيليٌّ أن يتبعني إلى الحَمَّام، كذلك تحصل صحفيّةٌ بريطانيّةٌ على رقم هاتفي بطريقةٍ ما، وتراسلني باستمرار، وتسألني أين أنا، وماذا أفعل، فأُري سْفين الرسائل.

- «هل تريد أن تكون صديقتي أم ماذا؟». أقول.

- «تجاهليها فحسب». يقول سْفين.

أنا في غاية الشوق للقاء لام، ومجدلينا، وستيفن الذين جاؤوا إلى ريو أيضاً، من أجل تغطية الألعاب. قد يكونون صحفيّين، لكنّهم لا يشكّلون أيَّ ضغطٍ بالنسبة إليّ، فهُم أصدقائي. سيكون لام ومجدلينا في حفل استقبال فريقنا في غضون أيّامٍ قليلةٍ، ستيفن منشغلٌ في نقلِ قصصٍ أُخرى في المدينة، لكنّنا سنراه بعد المنافسات.

مع نهاية اليوم الثالث كنت مرهقةً بالفعل؛ بسبب الأنشطة الصحفيّة جميعها، كنَّا أنا، وسْفين، ورامي نأكل في قاعة الطعام الكهفيّة في القرية، وجميعنا نمسح الحشود بحثاً عن الرياضيّين المشهورين، وقد رصدنا بالفعل رافائيل نادال، ونوفاك ديوكوفيتش، لكنّني ورامي ننتظر العثور على البطل الأكبر، بطلنا المُطلق، مايكل فيلبس. يمدُّ سْفين يده إلى حقيبته، ويُخرج نسخته المطبوعة من جدول الأعمال الذي أعدَّتهُ صوفي.

- «إذنْ، سيكون يوم الغد حافلاً بالمقابلات». يقول سْفين.

- «يا إلهي!». أقول أنا: «كم من المقابلات لدينا؟».

يُقلِّب سْفين الصفحات.

- «العديد من المقابلات». يقول سفين: «أخبرتكِ أنَّ لدينا الكثير من المقابلات».

telegram @soramnqraa

أهزّ رأسي.

- «هذا كثير!». أقول لسفين: «يجب أن تُخبِر صوفي أنني لا أستطيع إجراء تلك المقابلات كلّها».

يهزُّ سْفين برأسه قائلاً: إنّ ذلك مستحيلٌ، وأنَّ علَيَّ إبلاغها ذلك بنفسي، لكنّه سيرسلها لمقابلتي، ويجب أنْ أقول: لا، في حضورها. أتشنّج بسبب الفكرة، ولكنْ عليَّ أن أفعل ذلك. أشعر بالسوء حيال خُذلاني لصوفي، ولكنّني لا أستطيع الاستمرار بهذه الطريقة، وقضاء الأيّام مع الصحفيّين، هذا يزيد من توتُّري، وسيكون عليَّ أن أبدأ السباحة في غضون بضعة أيّام.

- «أُنظري هناك». يقول سْفين مشيراً إلى يمينه.

أنهض لأرى على نحوٍ أفضل، ألتقط أنفاسي، وأنظر على بُعد بضعِ طاولاتٍ إلى اليمين؛ حيث يجلس ريان لوشتي، وسائر فريق السباحة الأمريكي. أمسحُ الحشد الصغير من حولهم، ويقع بصري على كتفَيه الهائلتين، وعنقه المكتنز، إنّه مايكل فيليبس، بطل طفولتي! أشعر بمغصٍ في بطني، ويجتاحني الارتباك، فيبتسم رامي، ويصفِّق بيده على الطاولة.

- «دعينا نطلب التقاط صورةٍ شخصيّةٍ معه». يقول رامي.

- «كلّا!». أقول: «هو في حاجةٍ إلى التركيز؛ لأنّه في خِضَمّ المنافسة، ولو كنت مكانه فلنْ أرغب في أن يأتي الناس لالتقاط الصور معي».

يراقب رامي بحزنٍ بينما يستدير فيلبس، ويخرج من الخيمة.

في اليوم التالي، وصلت ملابس فريق اللّاجئين الأولمبيّ الرسميّة التي صمّمتها علامة آرينا التجاريّة للسباحة. كانت الملابس تتألّف من بدلةٍ رياضيّةٍ، وسترة إحماءٍ، وما كان أفضل من ذلك كلّه قبّعة سباحةٍ بيضاء تحمل اسمي بحروفٍ سوداء عريضةٍ تحت الشعار الأولمبيّ: «فريق اللّاجئين الأولمبيّ، مارديني». أصرخ بإثارةٍ وفخرٍ، إنّه مشهدٌ لا يُصَدَّق! أحد أفراد آل مارديني هنا في الألعاب الأولمبيّة.

من المقرّر أنْ يظهر الفريق في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم في افتتاح جلسة اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، وهو لقاءٌ سنويٌّ يشبه اجتماع البرلمان إلى حدٍّ ما، وقد طُلِبَ إليّ أنْ أقول بضع كلماتٍ بهذه المناسبة. كنّا ننتظرُ أنا وسْفين سيّارة أُجرةٍ خارج القرية للذهاب إلى الجلسة عندما هَرولَ نحونا صحفيٌّ كوريٌّ، وأراد فقط أنْ يسألني بضعة أسئلة، يبدو الصحفيّ لطيفاً؛ لذا أبدأ الدردشة معه.

- «كلّا يا يُسرى». يقول سْفين، ويمسك بذراعي لِجَرِّي بعيداً.

يتجهّمُ سْفين بوجهِ الصحفيّ، ويخبره أنْ يتركنا وشأننا، فيبتعد، وتصيبني الصدمة.

- «لِمَ فعلتَ ذلك؟». أسأل سْفين: «لقد بدا الصحفيُّ لطيفاً».

- «لا تتحدّثي إليهم». يقول سْفين: «يجب أنْ تقولي لهم: لا. صدّقيني، إذا رأى الآخرون أنّهم يستطيعون الوصول إليكِ، وانتزاع مقابلةٍ، فلن نتمكّن من الذهاب إلى أيّ مكانٍ من دون التعرّض للمضايقة».

ربّما يكون الأمر كلّه مجرّد ضغوطٍ، لكنْ لا يمكنني تفادي الشعور بالضيق. منذ متى يقرّر سْفين مع من أتحدّث؟ أليس هذا شأني أنا؟ تتوقّف سيّارة الأجرة، فأصعد، وأغلق الباب، وأجلس في صمتٍ حانِقةً طوال الطريق إلى الفندق الذي يقامُ فيه الحدث. نصل وننتظر وراء الكواليس حتّى يحين وقت ظهور الفريق على خشبة المسرح، وريثما هدأت انفعالاتي، أدركتُ أنَّ سْفين على حقّ، وبأنّه يجدر بي أنْ أكون حذرةً تجاه هذا الاهتمام الإعلاميّ كلّه، فما يفعله سفين كلّه هو الاعتناء بي فحسب.

بعد مقدّمةٍ قصيرةٍ أصعد الخشبة مع سائر الفريق؛ حيث يلتقينا أعضاء اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة بترحيبٍ حار. كانت عيناي ترمشان، وأنا أستعرض الحشد من حَولي، وأعود بذاكرتي إلى المؤتمر الصحفيّ في برلين، اِبقيْ

هادئةً، وركِّزي على الرسالة، فأقول لنفسي: بينما أمشي إلى المنصّة مع زميلي بِش، وهو أحد المتسابقين السودانيّين الذين يقطنون في كينيا، وكان أوّل المتحدِّثين.

- «نحن سفراء للّاجئين الآخرين». يقول بِش في الميكروفون: «لا يمكننا أن ننسى هذه الفرصة التي منحتمونا إيّاها، لسنا أناساً سيّئين، فأنْ تكون لاجئاً هو مجرّد لقب».

هذا صحيح، إنّه لقبٌ فحسب، لقبٌ يُطلق علينا بسبب ظروفٍ خارجةٍ عن إرادتنا، وعلينا الآن إصلاح الأمر، فأتبادل الأمكنة مع بِش، وأصعد المنصّة.

- «ما نزال بشراً». أقول: «لسنا مجرّد لاجئين، نحن نشبه الجميع في العالم، يمكننا أن نفعل شيئاً، وأن نحقّق إنجازاً، نحنُ لمْ نختر مغادرة أوطاننا، ولمْ نختر لقب اللّاجئ، نَعِدُكم مرّةً أُخرى بأنّنا سنفعل ما يلزم لإلهام الجميع».

أشعر بموجاتٍ من الطاقة، وأنا أبتعد عن الميكروفون، من الجيِّد أن نُلقي هذه الكلمات بصوتٍ عالٍ أمام العديد من الأشخاص الأقوياء، لنقول للعالم من نحن حقاً، لكنّ الأمر مثيرٌ، فمن الواضح أنّني لا أستطيع القيام بما في جدول الأعمال كلّه، لذا أتحدّث إلى صوفي في وقتٍ لاحقٍ من ذلك اليوم، ونتّفق على تقليص المقابلات، وتأجيل بعضها إلى ما بعد إحمائي الثاني يوم الأربعاء التالي.

الحدثُ التالي على الجدول الزمنيّ هو حفل الاستقبال، يُرحّبُ رسميّاً بالفرق الأولمبيّة جميعها في القرية في حفلٍ أقيم في المنطقة المختلطة. كان الحفل لفتةً رمزيّةً قصيرةً استمرّت لمدّة عشر دقائق فقط، بعدها تواصلت احتفالات الترحيب لعدّة أيّام. تأتي الفِرق بالترتيب الأبجديّ، ومن المقرّر

أنْ يجري احتفال الترحيب بفريقنا في المساء قبْل الفريق الروسيّ مباشرةً، وبالمصادفة البحتة سيعني ذلك أنَّ بإمكان الصحفيّين القدوم في وقتٍ واحدٍ، وتغطية قِصَّتَيْ الأسبوع الكبيرتين: فضيحة المنشطّات الروسيّة، وقصّتنا، ونتيجةً لذلك غصَّت المنطقة المختلطة بمئات المراسلين، وفرق التصوير، والمصوّرين. ننتظر على طرف المنطقة المختلطة، ونلتقط صوراً للمشهد الفوضويّ.

عندما يحين وقت حفل فريقنا، يتعيَّن علينا شقّ طريقنا وسط الصحفيّين المنتظرين الذين يتمايلون نحونا، ونحن نقترب، فنشقُّ طريقنا: أنا، وسْفين، ولام، ورامي، وبعد الحفل يزدادُ الموقف سوءاً؛ إذْ يحتشد الصحفيّون من حَولي، ويدفعون الميكروفونات والكاميرات في وجهي، بالكادِ أستطيع الحَراك، يضغطُ لام وسْفين على جانِبَيّ، ويبعدان الصحفيّين خارج الطريق بينما نشقّ طريقنا للخروج، ويرفع سْفين يده لتنبيه حارس أمنٍ قريبٍ، فيجرُّني الحارس من الزحام، ويُعيدُني إلى مبنى شقّتنا، وعلى الطريق انضمَّت إلينا باميلا فيبوند، نائبة مدير التضامن الأولمبيّ. كانت فيبوند على اتّصالٍ بسْفين منذ شهور، منذ أنْ أرسل أوّل رسالة بريدٍ إلكترونيٍّ بشأني إلى الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة. تبتسم، وتحادثنا، وتساعد على تهدئة الأمور، وإراحتي، وفي وقتٍ لاحقٍ، أتسلقُّ السرير مهزوزةً ومرهقةً بما للكلمة من معنى كلّه.

في اليوم التالي، على مائدة الفطور، يتحدّث سْفين عن حفل الافتتاح الذي سيُعقد في الّليلة التي تسبق إحمائي الأوّل، وعلينا أن نقرّر ما إذا كنّا سنذهب.

- «عادةً، إذا كان المتسابق سيخوض منافسةً صباح اليوم التالي، فلنْ يذهب إلى حفل الافتتاح». يقول سْفين مبتسماً: «ولكنْ، حسناً، الأمر مختلفٌ، أليس كذلك؟».

- «بالطبع». أقول: «يجب علينا أن نكون هناك، فقد لا تتكرّر مثل هذه الفرصة في الحياة أبداً».

- «من الذي يحمل عَلم الفريق؟». أسأل سْفين.

- «لقد تحدّثت مع مسؤولي اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة حَول هذا الموضوع». يقول سْفين. - «أخبرتهم أنّكِ لستِ العضو الوحيد في الفريق، وأنَّ على شخصٍ آخر فعل ذلك، فوقع اختيارهم على زميلتك روز».

أبتَسِم، سْفين على حقّ، وعلى أيّ حال، أعتقد أنّ سائر الفريق سيودُّون قتلي إذا حملت العَلم، لقد كنت أقوم بالأشياء المثيرة للاهتمام كلّها، مثل: الخطب، والمقابلات، وجذَبتُ ما يكفي من الاهتمام، ومن المُحِقّ أنْ يكون شخصٌ آخر في دائرة الضوء لمرّةٍ واحدة.

في يوم حفل الافتتاح، تدرَّبنا أنا ورامي في الصباح، ثمّ عدنا إلى القرية للاستعداد، وجدت في الشقة ملابس وُضِعت لنا لارتدائها: سترة كحليّة، ذات أزرارٍ ذهبيّة، وبنطالاً بيجيَ اللّون، وقميصاً أبيض، وربطة عنقٍ مرقّطة. أغيِّر ملابسي، وألتقي رامي، وسْفين، والآخرين في الخارج، لنركب الحافلة إلى ملعب ماراكانا.

نصلُ إلى ساحةٍ داخليّةٍ قريبةٍ لانتظار دورنا مع الرياضيّين الآخرين، وسيكون فريقنا هو الثاني قبْل الأخير في موكب الأمم، قبْل الفريق المضيف، البرازيل. نجلس في الساحة ونشاهد الحفل الممتع على شاشاتٍ ضخمةٍ، وفي لحظةٍ ما يغمرُ مئاتٌ من راقصي السامبا أرضيّة الملعب مشكّلين كرنفالاً، وخلْف الكواليس، في الساحة، ينهض الرياضيّون من مقاعدهم، ويرقصون في الممرّات. يبدأ العرض، وتصطفُّ الفرق بحسب الترتيب الأبجدي. في النهاية لمْ يتبقَّ سوى فريقنا، وفريق البرازيل، يستمرّ حفل الفريق المضيف بزخمٍ بينما يخرج فريقنا الصغير من الملعب برفقة

البرازيليّين، وفي الخارج، تجمهر المئات من مُشجّعي البرازيل المتَشين في طريقنا؛ حيث كانوا يرقصون ويغنّون معنا طوال الطريق إلى الملعب. توجَّهنا نحو مدخل الملعب، فرحتُ أخطو إلى الممرّ بينما كانت الحشود تهدرُ بصوتٍ يصمُّ الآذان.

22

- «فريق الّلاجئين الأولمبيّ».

يتردّد صدى الإعلان في أرجاء الملعب، ويقفز عشرات الآلاف من الناس دفعةً واحدةً، ويلوّحون بأياديهم بحماسٍ وسْط وميض الكاميرات. ألتقط أنفاسي، إنّه أكبر حشدٍ رأيته في حياتي. الممرّات المزدحمة من حولنا تصل إلى الأسطح.

تدور إحدى الكاميرات المحمولة أمامي، فأبتسم وألوّح بعَلمي الأبيض الصغير، وفي المقدّمة تلوّح روز بالعَلم الأولمبيّ فوق رأسها. أرصدُ رئيس الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ، والأمين العام للأمم المتّحدة، بان كي مون، واقفَيْن يصفّقان ويهتفان. يخفق قلبي بقوّةٍ، بينما نسير في الممرّ المركزيّ، وعلى كِلا الجانبين يرقص المضيفون الذين يرتدون ملابس النايلون تحت الأضواء الساطعة على وقع موسيقا الكرنفال الصاخبة. نذوب في حشدٍ من الرياضيّين، ومن حَولنا أبراج السقف دائريّة الشكل، وفي الأعلى مباشرةً من خلال الفتحة تتلألأ النجوم بين السُّحب المنخفضة.

أحدِّق في الحلقات الأولمبيّة على العَلم بين يدي روز، فأُغمض عينيَّ، ويتراءى لي أفق دمشق عند الغسق وقتَ رفعِ الأذان، أشمُّ رائحة المطر في

بساتين الزيتون في داريّا. تلك هي سوريا، بلدي الضائع. على أيّةِ حال ما هو العَلَم؟ فأنا أشعر في صميم قلبي بالفخر لكوني سوريَّة، وأعلم أنّني ما زلت أُمثّل شعبي، وأولئك الملايين الذين أُجبروا على الفرار، والذين خاطروا بعبورِ البحر في سبيل حياةٍ بلا قصْف.

في الخلفيّة، يرتفع هديرٌ أقوى مع دخول المنتخب البرازيليّ، فينفجرُ الملعب بالموسيقا، والغناء، والهتاف، والرقص.

– السيّدات والسادة الرياضيّون في أولمبياد ريو 2016.

يهدُرُ آلافُ المشجّعين ثانيةً، فأتابع على شاشاتٍ عملاقةٍ بينما كان الراقصون يحرّكون الصناديق ذات المرايا الطويلة في وسط الستاد، ويدورون حولها مُشكّلين الحلقات الأولمبيّة من الأعلى. تتفتّحُ النباتات الخضراء من الأعلى، وتنطلقُ القصاصات الورقيّة الملوّنة في السماء، وتنفجر الألعاب الناريّة فوق الملعب على شكل خمس حلقات، وتنطلق تيّارات اللّهب الذهبيّة في سماء اللّيل فوق رؤوسنا، ثمّ تتلاشى النيران، ويُظلم الملعب حتّى يصبح كهفاً متلألئاً ينيره ضوءٌ أزرقُ ناعمٌ، فيما تومض الكاميرات في الظلام.

يربّتُ سْفين عل كتفي.

– «سننتظر لما بعد انتهاء الخُطَب، ثمَّ نغادر». يهمسُ قائلاً.

كان أوّل من وصل إلى المنصّة هو كارلوس آرثر نوزمان، رئيس اللّجنة الأولمبيّة في ريو 2016، وبدأ يرحّب بالضيوف والرياضيّين في الألعاب.

– «أصبح الحلم الأولمبيّ حقيقةً رائعةً الآن». يقول نوزمان: «لا نتخلّى عن أحلامنا أبداً، ولا نستسلم أبداً».

يتردّد صدى الكلمات في الهواء، يا لها من حقيقةٍ رائعةٍ! تعود بي ذاكرتي إلى غرفة المعيشة في داريّا، وأنا أتعهّدُ بالوصول إلى القمّة،

فأُحدّقُ برعبٍ في القذيفة التي في المسبح، وأغطس في البحر، وتطنُّ في أُذني الدعوات القانطة، وأهوي نائمةً في سجنٍ هنغاري. أدفع نفسي أكثر من أيّ وقتٍ مضى في المسبح في برلين، هذه هي هديّتي إلى يُسرى ذات السنوات الستّ؛ الشباب، والعَزم، والمثاليّة. بدا ذلك بعيداً جدّاً آنذاك، أنا هنا الآن أعيش الّلحظة التي آلت إليها حياتي بأسْرها؛ لحظة الألعاب الأولمبيّة.

يتحدّث رئيس الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ، الآن على المنصّة.

- «نعيش في عالمٍ تتنامى فيه الأنانيّة». يقولُ باخ: «حيث يَدَّعي بعض الناس أنّهم متفوّقون على الآخرين، وها هي ردودنا الأولمبيّة تأتيهم انطلاقاً من روح التضامن الأولمبيّ، وبأقصى درجات الاحترام نرحّب بفريق الّلاجئين الأولمبيّ».

يلتهب الملعب مجدّداً بالهتافات بينما تمرّ الكاميرا أمامنا.

ألوِّحُ بالعَلم الصغير، وأبتسم.

- «أعزّائي الرياضيّين الّلاجئين». يقول رئيس الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة: «إنّكم تبعثون برسالة أملٍ للملايين من الّلاجئين حَول العالم، لقد اضطّررتم إلى الفرار من بلدانكم بسبب العنف، والجوع، أو لمجرّد أنّكم مختلفون، والآن أنتم تسْهمون مساهمةً كبيرةً في المجتمع، انطلاقاً من مواهبكم الفذّة، وروحكم الإنسانيّة».

أُذكّرُ نفسي بأنّني لست وحيدةً في هذا، فكلّ واحدٍ من زملائي في الفريق يمثّل الملايين من الأشخاص، والكثير منهم لديهم قصص أصعب، وأكثر روعةً من قصّتي، وها نحن نظهِرُ للعالم ما يمكننا تحقيقه.

يوشك خطاب رئيس الّلجنة الأولمبيّة الدوليّة، باخ، على نهايته.

يربّتُ سْفين عل كتفي ثانيةً، «لقد حان وقت ذهابنا». يقول سْفين. يجب أنْ أستيقظ باكراً في صباح اليوم التالي من أجل سباقي، نتركُ أنا وسْفين زملائي في الفريق، ونجد طريقنا للخروج من الملعب، ثمّ نصعد حافلة الخدمة إلى القرية.

أعود إلى غرفتي، وأجلس في سريري، كانت زوبعةٌ من الأفكار تعصف في ذهني، كنت أفكّر في سْفين، وما فعله من أجلي، وأفكّر في مدرّبي الفريق الآخرين، وبالتفاني والكرم الذي أظهروه لنا، والآن يجب أنْ يكون الأولمبياد فرصةً لردّ الجميل لهم. أفكّر في زملائي في الفريق الذين يقفون جميعاً بعزيمةٍ في سبيل مجتمعاتهم، ويحتملون مسؤوليّة الملايين. أتذكّر رسالة الشاب الذي يكافح من أجل النجاة في سوريا: «حياتي صعبةٌ، لكنّكِ ألهمتني للمضيّ قُدماً». هكذا كتب لي الفتى.

- «يا الله!». أقول بصوتٍ عالٍ أمام الجدار الأبيض الفارغ: «لا إله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين».

أجلس للحظةٍ في صمت الشقّة الخاوية، ثمّ أنهض، وأحزم نظّارتي، وأغطية ملابس السباحة، والمنشفة، وحذاء المسبح في حقيبتي، وأختارُ ملابسي لليوم التالي. وأخيراً، تخبو الزوبعة في رأسي بينما أستلقي للنوم.

يرنُّ المنبّه، عيناي ترُفّان، إنّه اليوم! أستحمّ وأرتدي ملابسي، وألتقي سْفين في قاعة الطعام.

- «صباح الخير، كيف تشعرين؟». يقول سفين.

أبتَسِم.

- «بخير». أقول تلقائيّاً.

أنهض وأمشي على امتداد البوفيهات، مشهد الطعام يجعل بطني

يتشنّج، آخذُ تفّاحةً، وقطعة كب كيك، وأجلس مقابل سْفين الذي يرفع حواجبه.

- «أتمنّى أنْ تأكلي أكثر من هذا». يقول.

أعبس.

- «كلّا، أرجوك». أقول: «لا أستطيع أكل المزيد».

يقف سْفين، ثمّ يتّجه نحو طاولات الطعام، ويعود بعد خمس دقائق حاملاً صندوقاً ممتلئاً بالمعكرونة.

- «ليس للفطور». أقول: «حقّاً لا أستطيع تناولها».

يضع صندوق المعكرونة أمامي.

- «سأتركه هنا». يقول سْفين: «يجب أن تأكلي بعض الكربوهيدرات».

أُشيح بنظري، أشعر كأنّ سِرْباً من الفراشات يرفرف في معدتي، فيتنحنح سْفين.

- «إذنْ، هناك أربعة آخرون في عمليّة الإحماء الخاصّة بكِ». يقول: «تذكَّري، أنتِ في مواجهة نفسكِ، لقد كنت تسبحين جيّداً في التدريب خلال الأيّام القليلة الماضية، سرعات الفراشة القصيرة المدى التي يبلغ طولها 25 متراً، والتي قطعتِها في ثلاث عشرة ثانية، هي أسرع أداءٍ لكِ رأيته في حياتي».

أشعر بوهنٍ في ساقَيّ، وآخذ نفساً عميقاً. ينظرُ سْفين إلى ساعته.

- «حسناً». يقول: «حان وقت الذهاب».

أترك المعكرونة كما هي على الطاولة، وأذهب مع سْفين إلى موقف الحافلات، نصعدُ الحافلة المكوكيّة بصمتٍ، فأُحدّقُ من النافذة في الأبراج الخرسانيّة الشاهقة وأتنفّس، ومع كلّ نَفَسٍ أشعر بهدوءٍ أكبر،

وتستقرّ معدتي، وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى موقع الألعاب المائيّة كان خوفي قد تلاشى وازداد تَصميمي. أقوم بعمليّة الإحماء مُؤرجِحةً ذراعَيَّ على حافّة المسبح، ثمّ أسبح للإحماء في المياه، تفيدني الحركة، وتهدهدني، والمياه إلى حالة من الهدوء الحذِر. أرتدي بدلة السباق، وسترة التدريب، وقبّعة السباحة، والنظّارات الواقية، وأذهب إلى غرفة الاتّصال للانتظار. أتأمّل، لا تفكير الآن، ما أحتاج إليه كلّه هو ذاكرتي العضليّة. يُذيعون اسمي؛ كان سباق السباحة الأوّل في الألعاب الأولمبيّة لعام 2016 على وشك البدء، فأدعو الله بينما أتوجّه إلى المسبح مُكرِّرةً دعائي.

– «اللهمّ لا سهلَ إلّا ما جعلتهُ سهلاً». أُتمتم في سِرّي: «وإذا شئتَ فإنّك تجعلُ الصعبَ سهلاً، أدعوك يا الله أن تجعل مهمَّتي سهلةً ويسيرة».

كان الجوّ بارداً، وقد امتلأ أقلّ من ثلث المقاعد بالمتفرّجين، وكان هناك الكثير من التصفيق، وأنا أسير نحو حواجز الانطلاق مع السبّاحين الأربعة الآخرين، فأخلع سترة التدريب الخاصّة بي بينما راح المذيع يقرأ أسماءنا.

– يسرى مارديني، من فريق اللّاجئين الأولمبيّ.

ببطءٍ، وبالتدريج، يعلو التصفيق من مقاعد المتفرّجين، وفجأةً تبلغُ أعصابي ذروتها مع ازدياد وتيرة الهتافات، أُخفضُ مستوى الصوت في رأسي، وأُكافح لإبقاء عقلي هادئاً؛ إذا فكّرت، فسوف أتوه.

يتسارع الزمن، فأخطو نحو الحاجز أمام قدمَيّ، وأمُدّ قدمي اليمنى إلى الأمام، وألُفّ أصابع قدمي حَول الحافّة الفولاذيّة، وأمسكها بكلتا يديّ. كان ذهني فارغاً، فما أُبصِره كلّه هو الماء أمامي، وما أسمعه كلّه هو إيقاع نبضات قلبي، تخبو الأصداء في المسبح لتغدو بمستوى نبضة قلب.

قفوا في أماكنكم المخصّصة.

أشدُّ جسمي وأستعيدُ توازني.

تنطلق صافرة البداية.

أغطُس في المياه المتلألئة.

الصوت

مكتبة
t.me/soramnqraa

قابلت ستيفن في ريو ذات ليلةٍ بعد مدّةٍ وجيزةٍ من سباقي الثاني الأخير؛ حيث ذهبنا: أنا، ورامي، وسْفين في جولةٍ بسيّارةٍ على طول شاطئ البحر في كوباكابانا(*) ضاحكين من مدى غرابة الأمور، بينما رحنا نُقلِّبُ صوراً من بلغراد في هاتف ستيفن.

- «هل فكّرتَ حين كنت تلتقط تلك الصور في أنَّ يسرى ستصبح مشهورةً في يومٍ من الأيّام؟». سألَ رامي.

- «كان لديّ إحساسٌ بأنّ يسرى كانت مميّزةً». قال ستيفن.

نظرتُ في هاتفي مُحرَجةً.

- «لستُ مميّزةً إلى ذاك الحدّ». قلت.

أخيراً، صدرت تأشيرة سارة التي سافرت للانضمام إلينا في ريو، كابَدنا مشاعر صعبة في مؤتمرٍ صحفيٍّ مشتركٍ، وعندما بدأت الأسئلة التي لا مفرّ منها بشأن القارب أشارت سارة إلَيّ لأجيب، انحنيت قليلاً نحوها، وهَمَسَت في أذُني قائلةً: «قبْل عامٍ تماماً كنّا في البحر». نهضتُ، وحدّقتُ

(*) كوباكابانا: «بالبرتغالية:Copacabana» قطاع إداري في الجزء الجنوبي من مدينة ريو دي جانيرو كبرى مدن البرازيل ويعتبر أحد أشهر الشواطئ في العالم، يطل على المحيط الأطلسي ويبلغ طوله 4 كيلومترات. (م).

فيها، وقد اغرورقت أعيُنُنا بالدموع. منذ عام كدنا نخسر تلك المقامرة اليائسة، واليوم أتساءل إلى أيّ شاطئٍ جرفتنا الأمواج؟ تعانقنا بينما راحت أضواء الكاميرات تومض في وجهَينا.

أخذتني سارة جانباً بعد ذلك، وأخبرتني عن خططها بشأن اليونان، لقد قرّرت العودة إلى جزيرة ليسبوس. كتب شابٌّ متطوّعٌ يدعى إريك ليخبرها أنّ قصتنا كانت مصدر إلهام للأطفال السوريّين في الجزيرة، وقد عمل إريك مع منظّمة إيرسي «ERCI»، وهي منظّمةٌ تنقذ قوارب المهاجرين في البحر، وقال إريك لسارة: إنّ بإمكانهم الاستعانة بأحد متحدّثي العربيّة للمساعدة في إرشاد القوارب، فنظرتُ إلى سارة نظرةً ملؤها الإعجاب، يا لها من شَجاعةٍ أن تفعل ذلك!

مرّت الأيّام المتبقيّة في ريو وسط دوّامةٍ من الاجتماعات، والمقابلات، والتقاط الصور. غادرت سارة إلى اليونان بعد عودتنا إلى برلين، ولمْ يكن لديّ وقتٌ للراحة أيضاً، فمغادرة البرازيل تُمثّل بداية فصلٍ آخر. صارت لي وظيفة جديدة؛ لديَّ رسالة لنشرها، وبعد بضعة أسابيع فقط سافرتُ إلى نيويورك لأخطب في قمّة قادة الجمعيّة العامّة للأمم المتّحدة بشأن الّلاجئين، لقد حظيتُ بشرفٍ كبيرٍ في تقديم الرئيس الأمريكيّ، باراك أوباما. لا يمكن إنكار أنّني كنت متوتّرةً على المنصّة، إلّا أنّ تلك كانت فرصتي الأولى لإيصال رسالتي إلى قادة العالم.

- «لقد منحتني هذه التجربة صوتاً وفرصةً لإسماع صوتي». قلتُ أمام القمّة: «أريد أن أساعد في تغيير تصوّرات الناس حَول الّلاجئين؛ لكي يعي الجميع أنَّ فرار المرء من بلاده ليس اختياراً، وأنَّ الّلاجئين بشرٌ عاديّون يمكنهم تحقيق إنجازات عظيمة إذا أتيحت لهم الفرصة».

بعد ذلك قابلت الرئيس أوباما، كنت متوتّرةً، لكنّه أراحني على الفور،

كان من المدهش مقابلة هذا الزعيم القويّ، وأنْ يعاملني كشخصٍ مميّزٍ، إنّه شخصٌ جديرٌ بأن يتحدّث إليه المرء. في اللّيلة التي تلت إلقاء كلمتي، ذهبتُ إلى إحدى مناسبات الأمم المتّحدة للاحتفال بالنهوض بحقوق المرأة في أنحاء العالم جميعها، وهناك قابلتُ للمرّة الأولى الملكة رانيا ملكة الأردن، لقد فتَنَتني هذه المرأة تماماً؛ كانت جميلةً وقويّةً، وأرادت التحدّث إليّ عن حياتي. كان حديثنا وديّاً، وقد ذكَرت لي فيما بعد أنّها رشَّحَتني لأكون ضمن قائمة مجلّة «People» التي تضمّ 25 امرأةً غيَّرن العالم، وبعدها ببضعة أشهر، في تشرين الثاني/ نوفمبر 2016، سافرتُ إلى روما لزيارة البابا فرانسيس، وقدّمت إليه جائزة بامب الإعلاميّة الألمانيّة. لقد كان لطيفاً وكريماً، وكان من المُشَرِّف مقابلة رجُلٍ عظيمٍ آخر غَيَّرَ العالم إلى الأفضل. في وقتٍ لاحقٍ من ذاك الشهر، تَسَلَمتُ أنا وسارة جوائز بامبي في حفلٍ مزدحمٍ بالنجوم، وبعد ذلك وفي كانون الثاني/ يناير 2017، خاطبتُ قادة العالم مرّةً أخرى في المنتدى الاقتصادي العالمي دافوس، وفي نيسان/ أبريل أصبحتُ سفيرةً للنوايا الحسنة للمفوّضيّة العليا لشؤون اللّاجئين. كانت رسالتي هي نفسها طوال الوقت: اللّاجئ إنسانٌ مثل أيّ إنسانٍ آخر.

في الرحلات والخطب جميعها، ما تزال حياتي تتركّز حَول السباحة، لَمْ يعد سْفين مدرّبي، لكنّه ما يزال صديقي المقرّب ومعلّمي، هو يعمل الآن معي بوظيفة مديرٍ رياضيٍّ، تتضمّن مهمّة سْفين مساعدة مديري الجديد مارك على إدارة جدول أعمالي المزدحم بجنون؛ أمَّا مدرّبي الجديد في نادي فاسافروند، فهو كوبيٌّ متفائلٌ ودؤوبٌ، يدعى أريل، وهو من مناصري التدريب على اللّياقة البدنيّة، ويدفعني بإصرارٍ لزيادة سرعتي، يقول لي مبتسماً: إنَّ التغلّب على الألم مصدره العقل.

سْفين، مارك، وآريل، هُم فريقي. يعلمون ثلاثتهم أنّني سأبذل أيّ

شيءٍ في سبيل السباحة، وهُم يعملون بجدٍّ لإبقاء حلمي الأولمبيّ حيّاً. في تموز/ يوليو الماضي، جاء سْفين وأرييل إلى بودابست؛ حيث سبحت في بطولة العالم. كنتُ خائفةً من العودة إلى هنغاريا، فقد كان من الصعب عدم الشعور بالكراهية تجاه الناس، والمكان نفسه، ومن غير المفاجئ أنّ الجميع كانوا مُرحِّبين للغاية هذه المرّة، لكنّني بقيت بعيدةً عن محطّة القطار.

بعد أسابيع قليلة من البطولة العالميّة، سافرنا أنا ومارك إلى اليابان مع المفوّضيّة العامّة لشؤون اللّاجئين؛ حيث التقيت باللّجنة الأولمبيّة اليابانية هناك، وأخبرتهم أنّني أتدرّب بعزيمةٍ استعداداً لدورة ألعاب طوكيو، وفي ذلك الخريف أيضاً وقَّعت عقد رعايةٍ مع شركة أندر آرمر «Under Armour» لتصنيع الملابس الرياضيّة. لا شيء مؤكّد، ولكنّني آمل أن أصبح أولمبيّةً للمرّة الثانية في عام 2020 أكثر من أيّ شيءٍ آخر.

سواء أصبحت أولمبيّةً أم لا، وطالما أنّني لا أستطيع العودة إلى وطني، سأظلّ أحمل علامة ذلك اللّقب إلى الأبد، ألا وهو لقب اللّاجئ، لكنّني بعد مشاركتي في ريو تعلّمت تقبُّلَ تلك الكلمة، ولمْ أعد أنظر إليها كإهانة، بلْ مجرَّد لقبٍ للناس العاديّين الذين أُجبِروا على الفرار من منازلهم، مثلي ومثل عائلتي.

أمّي، وأبي، وشهد حصلوا أيضاً على حقّ اللّجوء، جميعنا نودُّ البقاء في برلين، وقد قيل لنا: إنّ بإمكاننا البقاء في ألمانيا حتّى عام 2019، بعد ذلك، نأمل أن تُمدّدَ تصاريح إقاماتنا إذا لزم الأمر، أنا أثق في أنَّ ألمانيا ستفعل ما هو صحيح دوماً. يسعدنا أنْ نعيش في سلامٍ، ولكنْ من الصعب البدء من جديدٍ، وبناء حياةٍ من الصفر، حياتنا مختلفةٌ جدّاً هنا، وعلى كلّ واحدٍ منّا إيجاد طريقه الخاصّ.

طريق شهد كان الأسهل؛ لأنّها الأصغر سناً، إذْ تبلغ الآن من العمر عشر سنوات، وتنمو لتصبح فتاةً شابّةً ذكيّةً وقويّةً، وقد تكيّفت بسرعة مع منزلها الجديد، وهي تتكلّم الألمانيّة بطلاقةٍ مع العديد من أصدقائها في المدرسة، نحن جميعاً سعداء لأجلها بالطبع، ولكنْ في بعض الأحيان نشعر بالقلق إزاء فقدانها هويّتها السوريّة في حال بقينا في ألمانيا مدّةً طويلة.

الحياة أصعب بالنسبة إلى والِدَيَّ؛ أمّي تتعلم الألمانيّة، لكنّها وجدت صعوبةً في تكوين صداقات، يعاني الكثير من الّلاجئين في دورة الّلغة الألمانيّة التي تشارك فيها أمّي من الاكتئاب، كما أنّ الّلغة تَحول بينها وبين التواصل مع السكّان المحلّيّين. تفتقدُ عائلتها في سوريا: جدّتي، وخالاتي، وأخوالي، وأبناءهم الذين ما يزالون في دمشق، لكنّها ستكون على ما يرام؛ لأنّها مكافِحة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أبي يتعلّم الألمانيّة أيضاً، لكنّه يتقدّم ببطءٍ، وغالباً ما يشعر بالإحباط بسبب عدم قدرته على التدريب. في العام الماضي التحق ببرنامجٍ تدريبيٍّ لمدّة ستّة أشهرٍ، وحصل على شهادة إنقاذٍ ألمانيّةٍ، لكنّ لغته الألمانيّة ليست جيّدةً بما فيه الكفاية حتّى الآن للعمل. يتحدّث أحياناً عن العودة إلى سوريا، وأقول له: إنّنا في وضعٍ أفضل الآن، لقد أصبح أكثر استقراراً، وأمورنا تتحسّن شيئاً فشيئاً.

بالنسبة إليّ، فإنّ العودة إلى سوريا ليست خياراً قبْل أن تتوقّف الحرب، من الأسهل أن أبقى هنا، لقد حالفني الحظّ في العثور على أصدقاء مدهشين في ألمانيا لدعمي في حياتي الجديدة؛ أمّا الآخرون، بمن فيهم بعض الرجال الذين سافرنا معهم، فيرون الأمور بطريقةٍ مختلفةٍ؛ لقد كانوا بائسين للغاية في ألمانيا، ولذا فضّلوا العودة، ومواجهة المخاطر في

سوريا، لكنّ معظمهم ما يزال هنا، وهُم يعملون بجدٍّ لتحقيق أفضل النتائج. يقطن نبيه وخليل في برلين، ويدرسان منستوى تأهيل خرّيجي المدارس في ألمانيا «الأبيتر»؛ أمّا أحمد، وإدريس، وزاهر، وعائلاتهم، فينتشرون الآن في أنحاء ألمانيا جميعها، وقد تزوّج الكثير منهم، وأصبح لديهم أطفال.

عادت سارة إلى برلين في الخريف الماضي للدراسة، وقد انعكست السنة التي تطوّعت فيها سارة في اليونان بالنفع على كلينا؛ إذ قرّبت بيننا من جديد، لقد احتجنا كلانا إلى الوقت لتشقَّ كلٌّ منّا طريقها المختلف عن طريق الأُخرى. كذلك تلقي سارة الكثير من الخُطب، وتشارك في كثيرٍ من الأحاديث، فالحكاية حكايتها أيضاً، مثلما هي حكايتي، ولديها وجهة نظرها لتخبر بها العالم. نشعر كلانا بمسؤوليّةٍ كبيرةٍ إزاء مساعدة الآخرين، لكنّ التحدّث ليس سهلاً، فحكاية القارب تطاردنا أينما حَلَلنا.

أعاني في مواجهة تلك القصّة مثلما أعاني أيضاً في فهمِ سبب نجاتنا من البحر في حين لمْ ينجُ كثيرون غيرنا. أجد صعوبةً في تذكُّر ما جعلنا نحتمل تلك المخاطرة الرهيبة، وما الذي جعلنا نعتقد أنّ حياتنا كانت رخيصةً إلى تلك الدرجة. كان الأمر يستحقّ تلك المقامرة على نحوٍ ما، ولكنْ انطلاقاً من هنا، يصعب تخيُّل ذلك.

لمْ أسبح في البحر منذ ذلك الحين؛ لأنّني خائفةٌ في الغالب ممّا قد أراه في الماء. أتجنّب أيضاً الإسهاب في الحديث عمّا حدث، لكنّني لا أستطيع إيقاف الأمواج التي تزحف بين الحين والآخر. في كلّ مرّةٍ أسمع فيها عن غرق زورقٍ آخر مُحمَّلٍ بالبشر اليائسين، أتذكّرُنا ونحن نمسك بالحبل، وأسمع صوت المحرّك يعمل من جديد، وفي كلّ مرّةٍ أشعر بالصدمة من مدى قُربنا من الموت آنذاك، فلو أنّ المحرّك لمْ يعمل من جديد، لمْ نكن لننجو.

غالباً ما يسألني الناس ما إذا كنت الفتاة التي سحبت القارب، لكنّ الأمر لمْ يكن كذلك، يلزم أنْ تكون المرأة خارقةً لتسحب قارباً ممتلئاً بالبشر.

أعي تماماً أنّ هذه أوقاتٌ مظلمةٌ يحتاج الناسُ فيها إلى أبطال، لكنّني مجرّد فتاةٍ عاديّةٍ، وسبّاحةٍ عاشت حياةً طبيعيّةً قبل الحرب، لمْ أحلم قطّ بأن أكون بطلةً، ولكن الآن، بعد الألعاب الأولمبيّة، أصبح لديَّ صوتٌ، وعلى عاتقي مهمّة؛ أريد أنْ أُلهم الناس، وأن أُريهم من يكون اللّاجئون حقّاً.

من نحنُ إذنْ؟ نحن بشرٌ، أنا لاجئةٌ، وكذلك سارة، وأمّي، وأبي، وشهد، لا أحد يختار أنْ يكون لاجئاً. لمْ يكن لديّ خيار، اضطّررت إلى مغادرة وطني للبقاء على قيد الحياة، ولو كان ذلك يعني المخاطرة بالموت على الطريق. يجب أن أستمرّ في نشر هذه الرسالة؛ لأنَّ المزيد من البشر سيواصلون القدوم. فررت من بلدي قبل ثلاث سنوات، وبينما تقرأون كلماتي هذه يجرِّبُ شبابٌ آخرون حظوظهم بعبورٍ خطِرٍ للحدود، أو يصعدون على متْن القوارب المزدحمة بالركّاب، أو يُحبَسون ويأكلون طعاماً غير لائقٍ حتّى بالحيوانات. كانوا مثلي أطفالاً عاديّين، عاشوا حياةً طبيعيّةً إلى أنْ مزّقت الحرب عالمهم، وهُم مثلي يبحثون عن مستقبلٍ لا تتساقط فيه قذائف الموت من السماء، وعن مكانٍ للعيش بهدوءٍ بعد أيّامٍ من العاصفة.

الآن، وقد أصبحت العاصفة ورائي، أركِّز على المستقبل الذي يرفلُ بالسلام. لا أظنُّ أن سرّ السعادة هو أنْ يعيش المرء حياةً خاليةً من المتاعب، بلْ يتعلّق الأمر بالقدرة على الابتسام على الرغم من الصعوبات؛ لذا أحجُب عنّي الأصوات السلبيّة، وأستمع إلى أولئك الذين يؤمنون بي، وأحيط نفسي بفريقٍ لديه الحيويّة نفسها التي لديّ. لمْ أكن على يقينٍ قطّ

بأيّ شيءٍ بقدْر يقيني بأنَّ السباحة قَدَري، وأنَّ مصيري يكمن في المسبح. لقد جعلني التغلُّب على عقبات السنوات الماضية أكثر تصميماً، ويبدو أنّ الأمر مثلما يقول مدرّبي آرييل دائماً: الحدود تقبع في الأذهان فقط. الأمر بسيطٌ، أنا رياضيّةٌ، ولنْ أستسلم أبداً، ويوماً ما سأفوز.

لكنّ هذا ليس سهلاً بالطبع، هناك أوقات أقدِّم فيها كلّ شيء، ولا يزال غير كافٍ، لكنّني أغمض عينيَّ، وأستحضر تلك اللّحظة اليائسة في البحر عندما بدا كلّ شيءٍ ميؤوساً منه، وعندما طلب إليّ ذاك الصوت الساخر أنْ أستسلم، وأواجه الموت، أتذكّر كيف قاتلت وانتصرت، وكيف ركَلتُ، وأبقيت رأسي فوق الماء، ونجَوت، عندها يسري الدفء في جسدي، ويمدُّني بمخزونٍ خفيٍّ من القوّة لعضلاتي المتألّمة. أفتح عينَيّ، وأعلم أن لا شيء يستطيع أنْ يكسرني الآن، سوف أنهض مهما جرى، وسأواصل السباحة، وسأنجو، وأطيرُ من شرنقتي مثل فراشة.

كلمة شكر

أودُّ أنْ أُعرب عن خالص شكري لسْفين وسارة الّلذَيْن جعلا إصدار هذا الكتاب ممكناً.

في صيف عام 2017، عندما بدأ العمل على هذا الكتاب، غادرت سارة اليونان إلى برلين لمساعدتي في توثيق تجربتها في رحلتنا المشتركة، وفي وقتٍ لاحقٍ عاودت سارة زيارة العديد من الأماكن المرتبطة بذكريات مؤلمة في جزيرة ليسبوس؛ للتأكّد من عدم إغفال أيّة تفاصيل عن كيفيّة انجرافنا إلى شواطئ أوروبا. لكِ خالص شكري يا سارة، يا شقيقتي، ومَثلي الأعلى، أحبّكِ.

والشكر موصولٌ أيضاً إلى سْفين الذي منحني وطناً، ومسبحاً، ومستقبلاً. وقف سْفين إلى جانبي منذ التقينا، وأنا أعلم أنّه سيكون دائماً إلى جانبي. قضى سْفين ساعاتٍ في مراجعةٍ دقيقة لمسوّدات النصوص، وساعد في التحرير والتغيير، وحرص على أنْ تكون قصّتنا نابضة بالحياة ومتميزة ما أمكن. سارة وسْفين: أنتما الأساس لهذا المشروع، كتابنا.

كما أتوجه بخالص الشكر للآخرين جميعاً، الذين أسهموا في قصَّتي؛ الشكر الجزيل للصحفيّ ستيفن ديكريين على صداقته التي لمْ تتزعزع، وتوجيهاته النيِّرة، ولسخائه في تقديم ذكرياته لهذا الكتاب، وأنا شاكرةٌ

أيضاً لمايكل شيرب؛ لتعليقاته، وللأوقات جميعها التي تجاوز فيها مُسمّاه الوظيفيّ من أجلي، ولا يفوتني أنْ أشكر أيضاً صديقي القديم رامي أنيس؛ لمشاركته ذكرياته عن الأوقات التي تتقاطع فيها حكاياتنا.

شكراً لجوسي لوبلوند على مساعدتها التي لا تقدّر بثمن، كما أشكر أيضاً الناشرين: كارول تونكينسون «بلوبيرد»، ومارجيت كيتيرل «درومير»، وكارين وولني «سانت مارتن» على التوجيهات كلّها، والدعم في تحرير العمل.

الشكرُ موصولٌ أيضاً إلى سائر أعضاء فريقي، وإلى مدرّبي أرييل رودريغيز؛ لتحفيزه وصبره الدؤوبَيْن، وإلى مديري مارك هينكلين؛ لرؤيته، وحماسه، وتفانيه في القتال دائماً إلى جانبي.

أَودُّ أيضاً أنْ أُعرِب عن خالص شُكري للأصدقاء جميعهم، الذين قابلتهم على طول الطريق؛ لسماحهم لي بمشاركة قصّتنا مع العالم. الشكر لزاهر والآخرين؛ لإرشادنا، والحفاظ على سلامتنا، والسماح لنا بالانضمام إلى عوائلهم، ولأيهم وباسم؛ على الشجاعة وحسّ الفكاهة في أحلك المياه. أودُّ أيضاً أنْ أشكر ميتي، وإليز، وكاترين، وعائلتها، وأصدقائي جميعاً في 04 فاسافروند شبانداو «04 Wasserfreunde Spandau» على صداقتهم، وكرم ضيافتهم، ودعمهم، وأشكر أيضاً ريني، وغابي، ومايكل على مساعدتنا أنا وسارة في الاستقرار حينما فقدنا بلدنا، وعائلتنا، ومنزلنا.

شكراً جزيلاً لأولئك الذين عملوا بجدٍّ ليكون هناك فريقٌ أولمبيٌّ للّاجئين في الألعاب الأولمبيّة. شكرٌ خاصٌّ لرئيس اللّجنة الأولمبيّة الدوليّة، توماس باخ، ونائب المدير، بيري ميرو؛ على الترحيب بي وبسْفين بحرارةٍ في العائلة الأولمبيّة. شكراً أيضاً لباميلا فيبوند وساندرا لوغيمان من

منظّمة التضامن الأولمبيّ، وللمُلحق الصحفيّ لفريق الّلاجئين الأولمبيّ، صوفي إدينغتون، وشكراً لزملائي جميعهم في فريق الّلاجئين الأولمبيّ على تفانيهم المُلهِم في الرياضة، وفي قضيّتنا.

أودُّ أيضاً أنْ أشكر الجميع في مفوّضيّة الأمم المتّحدة لشؤون الّلاجئين «UNHCR»، وفي وكالة الأمم المتّحدة للّاجئين؛ على دعمهم وتشجيعهم على مدار الأعوام الماضية. شكرٌ خاصٌّ لكلير لويس، والجميع في برنامج سفير النوايا الحسنة العالميّة على منحي منبراً وفرصةً لإيصال الحقيقة بشأن الّلاجئين إلى العالم.

وأخيراً، أودُّ أنْ أشكر سائر أفراد عائلتي: أختي، وعزيزتي الغالية شهد، وبصفةٍ خاصّة أمي ميرفت، وأبي عزّت، الّلذَيْن علّماني أنّه بالعزم، والقوّة، والشجاعة، يمكنني بلوغ برِّ الأمان. تلك الأوقات كلّها التي جلستم فيها إلى جانب المسبح لمْ تذهب سُدىً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

يسرى مارديني:

رياضيّةٌ سوريّة، وُلدت في دمشق، في عام 1998. اضطّرت إلى الهروب مع أختها الكبرى سارة من سوريا؛ بسبب اضطّراب الأوضاع الأمنيّة، فبدأت رحلة اللّجوء من تركيا إلى اليونان بحراً؛ حيث تعطّل بهما القارب المطّاطيّ، فقفزت يسرى ذات السبعة عشر عاماً، وأختها، وبعض الركّاب الآخرين عن القارب؛ لتخفيف الوزن عنه، والسباحة به، إلى أنْ وصلوا إلى اليونان، لتكمل بعدها الأختان رحلتهما الخطِرة برّاً إلى ألمانيا.

مثّلتْ سوريا في بطولة الاتّحاد الدوليّ للسباحة العالميّة عام 2012، في مسابقات 200 مترٍ فرديٍّ متنوّع، و200 متر حرّة، و400 متر حرّة، وأصبحتْ في عام 2016م واحدةً من بين الرياضيّين العشرة المشاركين ضمن الفريق الأولمبيّ الأوّل للّاجئين في ريو دي جانيرو؛ حيث شاركتْ في سباق 100 متر سباحة حرّة، وسباق 100 متر فراشة.

عُيِّنَتْ بعد ذلك سفيرةً للنوايا الحسنة للمفوّضيّة السامية للأمم المتّحدة لشؤون اللّاجئين لتصبح أصغر سفيرة، واختارتها مجلّة «Poeple» واحدةً من 25 امرأةً ممّن غيّرن العالم، وجاء اسْمها بين أسماء الشبّاب الأكثر تأثيراً في عام 2016 في مجلّة «Time».

إبراهيم قعدوني:

مترجمٌ، وكاتبُ رأيٍ، ينشر في العديد من الصحف والدوريّات العربيّة،

الثقافيّة والسياسيّة، ويعمل في مجالَيْ: الترجمة الفوريّة، والتحريريّة، مع عددٍ من مراكز الأبحاث، والمنصّات الإعلاميّة.

مُجازٌ في اللّغة الإنجليزيّة من جامعة حلب، ويتابع الدراسات العُليا في نظريّة الترجمة لدى مدرسة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة بجامعة لندن.

من ترجماته:

- «الفضول»، تأليف ألبرتو مانغويل، دار الساقي 2017.

مكتبة | سُر مَن قرأ
t.me/soramnqraa

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

telegram @soramnqraa

منذ طفولتها، كان حُلم يسرى مارديني أنْ تصبح سبّاحةً محترفةً تمثّل سوريا في البطولات الرياضيّة الأولمبيّة، إلّا أنّ اشتداد وتيرة المعارك في دمشق، في عام 2015 قلّص حُلمها ليتحوّل إلى البقاء على قيد الحياة فقط.

وكحال عشرات الآلاف من السوريّين الحالمين بالعيش بسلام، انطلقت يسرى مع أختها سارة، وبعض أقاربهما، في رحلة اللّجوء المهولة إلى أوروبّا، حاملتين معهما أحلامهما بحياة آمنة، ومعاودة احتراف السباحة من جديد، لكنّ في منتصف الرحلة بين تركيا واليونان، توقّف محرّك القارب المطّاطيّ عن العمل، وبدأ القارب المُحمّل بالركّاب يغرق، وعلى الرغم من محاولاتهم العديدة للاستغاثة إلّا أنّ أحداً لمْ يستجب لهم؛ فقفزتْ يسرى ذات السبعة عشر عاماً، وأختها، وبعض الركّاب الآخرين عن القارب؛ لتخفيف الوزن عنه، والسباحة به إلى أنْ وصلوا إلى اليونان، لتكمل بعدها الأختان رحلتهما الخطيرة برّاً إلى ألمانيا.

من السباحة كي تنقذ حياتها وحياة أصدقائها، إلى السباحة حُلماً بالميداليّة الأولمبيّة، تروي يسرى قصّتها الاستثنائيّة من لاجئة هاربة من بلد مزّقته الحرب إلى أولمبيّة في دورة الألعاب الأولمبيّة الصيفيّة لعام 2016 في البرازيل.

يسرى، لا يمكننا أنْ نكون أكثر فخراً بك على شجاعتك، وقدرتك على مقاومة الصعاب، وعلى المثال الرائع الذي قدّمته للأطفال في كلّ مكان.

الرئيس الأمريكي السابق باراك أوباما

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

ISBN 978-9933-641-18-4